

اندریه جید

مِرْيَفُونِ التَّقْوَد



العنوان كاملاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



للمؤلف
في سلسلة ماريان

- قوت الأرض / ٢٤٠ صفحة ١٩٨٤
- مزييفو التقد / ٥٢٨ صفحة ١٩٨٤
- السامفونيا الراعية / ١٢٨ صفحة ١٩٨٥

حقوق لوحة العلاف الأصلية محمولة
لنشرات عريقات موسى عقد مع دار عاليمار

اندريه جيد

مُزِيقُو النَّقُود

مراجعة
هنري زغيب

ترجمة
بهيج شعبان

عوبيات

Editions Gallimard

rue Sébastien Bottin
741 Paris Cedex 07
téléphone 544 39 19
fax CALLIM 204121 F
télécopie télégraphique :
TÉLÉFEN. Paris 014
réf. anonyme au capital
8 737 300 F
2206753 B R.C. Paris

LES EDITIONS GALLIMARD

ont cédé par contrat en date du
25 Mai 1982 aux EDITIONS OUETDAT
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"
les droits exclusifs de traduction,
publication et diffusion en langue arabe
dans le monde entier de l'ouvrage

André GIDE : LES FAUX-MONNAYEURS

EDITIONS GALLIMARD

par délégation du
Président Directeur Général

A Chevalier

(*) منشورات عويدات - بيروت

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدى منشورات عويدات - بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٤

إلى روجيه مارتن دوغار
أهدى روائين الأولى دلالة على صداقتى العميقة.
أ - ج

الفصل الأول

باريس

١

قال برنار لنفسه :

- انها اللحظة التي ظننت فيها اني أسمع وقع خطى في
لرواق .

ورفع رأسه وارهف السمع . ولكن كلا ، فأباهه واخوه
البكر باقان في قصر العدل ، وامه في زيارة ، واخته في حفلة
موسيقية ؛ اما الاخ الثاني ، كالوب الصغير ، فهناك بنسيون
يتلقفه كل يوم عند خروجه من المدرسة . كان برنار بروفيتانديو
قد بقي في البيت للاستعداد للبكالوريا ، ولم يكن امامه سوى
ثلاثة اسابيع . ان العائلة تحترم عزته ، اما الشيطان فلا . ومع
ان برنار كان قد خلع سترته فإنه يكاد يختنق ، فالناشفة المفتورة
على الشارع لا يدخل منها سوى الحر . كانت جبهته تقطر
عرقاً . وسالت قطرة عرق على طول انهفه وسقطت على رسالة في
يده وفكت : « العرق يلعب لعبة الدمع . ولكن من الافضل ان
اعرق بدلاً من ان ابكي . »

نعم ، ان تاريخ « الرسالة » حاسم ، وما من وسيلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ان السيد قاضي التحقيق والسيد المحامي ابنه لن يعودا قبل الساعة السادسة . لدى الوقت الكافي . يجب ان يجد السيد القاضي على مكتبه ، عند عودته ، الرسالة الجميلة التي سأبرر فيها سبب رحيله . لكنني اشعر قبل كتابتها بحاجة كبيرة لتهوية افخاري قليلاً - وان اذهب لرؤيه عزيزي اوليفيه لأؤمن لنفسي مبيتاً - من قبيل الاحتياط على الأقل . اوليفيه ، يا صديقي ، لقد ستحت لي الفرصة لاضع مجاملك موضع الاختبار وستحت لك لتربيه ما تساوي . ان الامر الجميل في صداقتنا هو ان احداً منا لم يخدم الآخر حتى الان . والخدمة التي يكون في ادائها تسليه لا يكون المرء مزعجاً اذا طلبها . اما ما يزعج فهو ان اوليفيه لن يكون وحده . ليس هذا بالامر المهم * سأعرف كيف انتهي به جانباً . سأخيفه بهدوئي . فانا لا اشعر باني على طبيعتي اكثر ما يمكن ، الا في ما هو خارق للعادة .

كان شارع ت ... الذي عاش فيه برنار بروفيتانديو حتى هذا اليوم قريباً جداً من حديقة لوكمببور . وهناك « بقرب فوار مديسي » في ذلك المعشى المشرف عليه ، كان من عادتها ان يتلقيا بعض رفاقها كل اربعاء بين الساعة الرابعة وال>sادسة . كانوا يتحدثون عن الفن ، والفلسفة ، والرياضية ، والسياسة * والادب . كان برنار يسير بسرعة كبيرة لكنه عندما اجتاز الحاجز الحديدي للحدائق لمح اوليفيه مولينيه فخفف من سرعة سيره . كان الاجتماع هذا النهار حاشداً اكثر من المعتاد ، وما من

شك في ان ذلك يعود للطقوس الجميل . وقد انضم الى الحشد اشخاص لم يكن برنار يعرفهم . وفي اللحظة التي يكن فيها احد هؤلاء الشبان امام الآخرين يصبح كأنه يمثل دوراً ويفقد تقريراً كل ما هو طبيعي .

واحر وجه اوليفيه عندما رأى برنار يقترب ، وترك فجأة صبية كان يجادلها وابتعد . ومع ان برنار كان صديقه الحميم فقد كان يحاول بعنابة زائدة لا يظهر انه يبحث عنه » حتى انه كان يتظاهر احياناً بأنه لم يره .

وكان على برنار ان يجبيه جماعات عدّة قبل ان يصل اليه ، وبما انه يتظاهر هو ايضاً بعدم البحث عن اوليفيه ، فقد تأخر . وكان اربعة من رفقاء يحيطون بملتحٍ صغير ذي انف اععق يبدو اكبر منهم سناً ويحمل كتاباً . انه دورمر . وكان يقول ، موجهاً كلامه على الخصوص الى واحد منهم ولكن ظاهر السرور لأن الجميع يسمعونه :

- ماذا تريدين؟ لقد قرأت حتى الصفحة الثلاثين دون ان اجد اي لون ، اية كلمة تفيد . هو يتحدث عن امرأة ، لم اعلم حتى اذا كان ثوبها احمر او ازرق . وانا ، بكل بساطة ، لا ارى شيئاً حينما لا يكون هناك الوان .

ويدافع حاجته الى المبالغة ، ولأنه شعر ان كلامه لم يحمل كثيراً على محمل الجد ، أضاف ملحاً :
- لا ارى شيئاً ابداً .

- لم يعد برنار يستمع الى الخطيب . ورأى من غير الالاقن ان يبتعد بسرعة ، ولكن ارهف سمعه لآخرين يتشاركون وراءه . كان اوليفيه قد انضم اليهم بعد تركه المرأة الشابة ؛ وكان احد هؤلاء جالساً على مقعد ويقرأ صحيفة « العمل الفرنسي » . كم يبدو اوليفيه مولينيه رزيناً بين الجميع رغم انه اصغرهم سنًا . ان وجهه شبه الطفولي ونظرته ينميان عن نضج تفكيره . ووجهه يحمر بسهولة لأنه سريع التأثر . ومها اظهر من لطف حيال الجميع ، لا ادري اي تحفظ خفي ، واي خفر يقيان رفاقه بعيدين عنه . إنه يتالم من ذلك . ولولا برنار لتالم اكثر .

كان مولينيه قد أغار انتباهه لفترة وجيزة الى كل واحدة من هذه الجماعات كما يفعل برنار الان ، وذلك من قبيل المجاملة ، الا ان ما يسمعه لم يكن يشوقه .

وانحنى مولينيه فوق كتف القارئ . وسمعه برنار ، من غير ان يلتفت ، يقول :

- انك خطيء بقراءة الصحف فهذا يبعث دمك على الاحتقان .

وأجاب الآخر بصوت فظ :

- وأنت ، ما تكاد تسمع كلاماً عن موراس حتى تخضر .

ثم سأله الثالث بلهجة ساخرة :

- هل تسليك مقالات موراس ؟

وأجاب الاول :

- انها تزعجني مثل الـ ... لكنني اجد انه على حق .

ثم قال رابع لم يتعرف برئار الى صوته :

- انت ، كل ما لا يزعجك تعتقد انه ينقصه العمق .

وأجاب الاول بسرعة :

- اذا كنت تعتقد انه يكفي المرء ان يكون غبياً ليكون

مضحكاً ! ..

- تعال .

قالها برئار بصوت منخفض وهو يمسك اوليفيه فجأة من ذراعه ، وسار به بعيداً بضع خطوات .

- اجب بسرعة فأنا متجل . قلت لي مراراً إنك لا تنام في الطبقة التي ينام فيها اهلك .

- لقد أريتك باب غرفي ؛ انه يفتح رأساً على السلم .
نصف طبقة قبل ان تصل اليانا .

- وقلت لي ان اخاك ينام هناك ايضاً !

- جورج ، نعم .

- أنتها وحيدان ؟

- نعم .

- هل يعرف الصغير ان يصمت ؟

- اذا اقتضى الأمر ، لماذا ؟ ...

- اسمع . تركت البيت . او الصحيح سأتركه هذا المساء ،
ولا اعرف اين أذهب حتى الان . هل تستطيع استقبالي للليلة
واحدة ؟

فشحب اوليفيه ، وكان تأثره قوياً الى درجة انه لم يستطع
النظر الى برنار ، وقال :

- نعم . ولكن لا تأت قبل الساعة الحادية عشرة ، ان امي
تبط كل مساء لوداعنا وتقفل بابنا بالفتح .

- لكن ! ..

فابتسم اوليفيه وقال :

- معي مفتاح آخر . ستطرق الباب بهدوء لثلا توقيظ جورج
اذا كان نائماً .

- وهل يدعني الباب امر ؟

- سأبتهه . اووه ! .انا على وفاق معه . هو الذي اعطاني
المفتاح الآخر . الى اللقاء .

وتركا بعضها البعض دون مصافحة . وعندما ابتعد برنار
وهو يفكر في الرسالة التي يريد ان يكتبها والتي يجب ان يجد لها
القاضي لدى عودته ، فان اوليفيه ، الذي لا يريد ان يرى
منفرداً مع برنار وحده ، ذهب للقاء لوسيان برکاي الذي تركه
الآخرون جانباً . ان اوليفيه كان ليحبه كثيراً لولا انه كان
يفضل عليه برنار . ويقدر ما كان برنار جسراً كان لوسيان
خجولاً ، فهو يوحي انه ضعيف ، ويبدو انه غير موجود الا

بالقلب والروح . ومن النادر ان يجروء على التقدم ولكنه يصبح مجنوناً من الفرح حين يرى اوليفيه يقترب . اما انه ينظم اشعاراً فها من احد الا يشك في ذلك ؛ لكنني اعتقاد عام الاعتقاد ان اوليفيه هو الوحيد الذي يكشف له لوسيان عن مشاريعه . وصل الاثنان الى حافة الشرفة وكان لوسيان يتغول :

- ان ما اريده هو ان اروي تاريخ مكان لا تاريخ شخص -
 اليك مثلاً تاريخ مشى حديقة كهذا ، اريد ان اقص ما يجري فيه - منذ الصباح حتى المساء . يأتي اليه اولاً خادمات اطفال ، مرضعات يتشحن باوشحة ... كلا ، كلا ... اولاً اشخاص رماديون من دون جنس او سن ، لتنظيف المشى وسقي العشب وتغيير الازهار ، واخيراً لتحضير المسرح والزخارف قبل فتح الحواجز الحديدية . أتفهم ؟ .. وعند ذاك تدخل المرضعات . اطفال يصنعن عجائب من الرمل ويختصمن ، والخدمات يصفعنهم . ويلي ذلك خروج الطبقات الصغيرة ، ثم العاملات . وهناك قراء يأتون لتناول طعامهم على مقعد . وبعد ذلك شبان يبحثون عن بعضهم البعض ، وغيرهم يهربون بعضهم من بعض ، وأخرون يعتزلون الناس « انهم الحالون . ثم الجمهور في ساعة الموسيقى والخروج من المتاجر . طلاب كما هي الحال الآن . وفي المساء عشاق يتعانقون ، وأخرون يفترقون باكين ؛ واخيراً ، في نهاية النهار ، زوجان عجوزان ... وفجأة قرع طبول : والاغلاق . الناس كلهم يخرجون » وتنتهي

المسرحية . أتفهم ؟ .. شيء ما يوحى نهاية كل شيء ، الموت .
ولكن بالطبع من دون ان نتكلّم عن الموت .

فقال اولييفيه الذي كان يفكّر في برنار ولم يسمع كلمة :

- نعم ، ارى ذلك تماماً .

فقال لوسيان بحرارة :

- وهذا ليس كل شيء ، ليس هذا كل شيء . اريد في نوع من الخاتمة ان اظهر هذا المشى نفسه ليلاً ، بعد ان يذهب الجميع ، مقرضاً وهو اجل منه في النهار ؛ في الصمت العميم ، حاسة جميع الضجيجات الطبيعية : ضجة الفوار ، الريح في الاوراق ، زفرة عصفور ليلى . وكتن فكرت اولاً ان ادع الظلال تطوف فيها . ويمكن ان تكون ظلال التمايل ... لكنني اعتقد ان هذا «سيكون كثير الابتدال . فما رأيك ؟

اعترض اولييفيه متشاغلاً :

- كلا ، دون تمثيل ، دون تمثيل .

ثم صرخ بحرارة امام نظرات رفيقه المزينة :

- نعم ، يا صديقي . اذا نجحت فسيكون ذلك مذهلاً .

لا يوجد اي اثر ، في رسائل بوسان ،
لأي إلزام يلزم به اهله . وفي ما تبع ذلك لم
يسجل اي أسف لابتعاده عنهم . وقد انتقل
بارادته الى روما فقد كل رغبة بالعودة ،
حتى ليقال انه فقد كل ذكري .

بول ديجارдан (بوسان)

كان السيد بروفيتانديو متوجلاً العودة الى البيت وقد رأى ان
زميله مولينيه ، الذي رافقه طوال بولفار سان جرمان ، يسير
متباطلاً . وكان هذا النهار مليئاً بالأعمال في قصر العدل على
البريك بروفيتانديو . وقد انتابه القلق لشعوره بشيء من التقل في
الجنب الامين ؛ ان التعب عنده يضغط على الكبد الذي كان
ضعيفاً الى حد ما . وفكرة في الحمام الذي سيأخذه ؛ ما من
شيء يريحه من هموم النهار افضل من حمام جيد ؛ وتحسباً لذلك
لم يتناول فطوره هذا النهار ؛ معتبراً انه ليس من الحكمة ان
يدخل الماء ، ولو فاتراً ، الا بمعدة فارغة . وبعد ، من الممكن
الا يكون هذا سوى رأي مسبق ؛ ولكن الآراء المسبقة هي اوتاد
المدنية .

كان اوسكار مولينيه يسرع الخطى قدر استطاعته ويقوم بجهود ليحق ببروفيتانديو . لكنه كان اقصر منه بكثير واقل ثموا في الساقين ؛ وزيادة على ذلك فان القلب قليل الحشو بالشحم ، وكان يتفسس بسهولة . وبروفيتانديو الذي لا يزال ناضراً وهو في الخامسة والخمسين ، ضامر القد رشيق المشية ، كان يمكنه ، بكل لذة ، ان يسبقه ويضي الا انه كان كثير الاهتمام بالللياقات ، فزميله اكبر منه سناً ، وأكثر تقدماً في المهنة : انه مدین له بالاحترام ، وفضلأ عن ذلك عليه ان يعتاد ان يغتفر له ثروته التي أصبحت عظيمة منذ موت اهل زوجته ، بينما ليس للسيد مولينيه ما يملكه سوى راتبه كرئيس غرفة ، راتب يستحق السخرية ولا يتناسب مع المركز السامي الذي يشغله بجدارة . كان بروفيتانديو يخفي ملله ؛ وهو يلتفت الى مولينيه ويراه وهو يسح عرقه ؛ ومع ذلك فان ما قاله له مولينيه قد شاقه جداً ، ولكن نظرتها الى الأمور لم تكن واحدة ، وحيث المناقشة . وقال مولينيه :

- ضع مراقبة على البيت ، وتلق التقارير من البواب والخادمة الزائفة ، كل هذا حسن . ولكن انتبه ، فبقدر ما تتقدم في هذا التحقيق فان القضية ستفلت منك ... اريد ان اقول انه يخشى ان تُدرك الى أبعد مما تصورت في البدء .

- ليس بهذه الشواغل علاقة بالعدالة .

- هيا ! هيا يا صديقي ، اتنا نعرف ، أنت وانا ، كيف

يجب ان تكون العدالة وما هي . نحن نفعل الافضل ، وهذا مفهوم ، ولكن منها كان الذي نفعله حسناً فاننا لن نصل الا الى شيء تقريري . والقضية التي تشغلك اليوم هي دقيقة بشكل خاص : فمن خمسة عشر متهمًا ، او من الممكن ان يصبحوا كذلك غداً بكلمة منك ، تسعة قاصرين وبعض هؤلاء الأولاد كما تعلم ، هم ابناء عائلات شريفة جداً ، وهذا اعتبر ان كل مذكرة توقيف هي دليل على سوء التصرف . ان صحف الحزب مستمسك بك في القضية وستفتح الباب لكل تهديد بالتشهير ولكل الفضائح . ويمكن ان تقوم بالعمل بشكل جيد ، لكنك رغم حيطةك لن تمنع لفظ اسماء اعلام .. لا املك صفة اسدائك النصيحة ، وانت تعلم كم مرة تلقيتها منك بطيبة خاطر حيث كنت اعترف دائمًا وقدر سمو النظر ، والوضوح والاستقامة ... ولكن اليك كيف كنت اتصرف لو كنت في مكانك : كنت ابحث عن الوسيلة التي اضع بها حدًا لهذه الفضيحة الكريهة بالقبض على اربعة او خمسة من المحرضين ... نعم ، انا اعلم ان القبض عليهم صعب ، ولكن يا للشيطان ! انها مهمتنا . كنت اعمل على اقفال المسكن ، مسرح هذه المخازى ، وارتبا الامور بحيث انبئ اهل هؤلاء المجنان الصغار ، بلطفة ، وبالسر ، وبكل بساطة لامنعوا العودة الى ارتكاب الجرائم . آه ! مثلاً ، اسجن النساء . اني اوقفتك على هذا بطيبة خاطر ، وبيدو لي ان مهمتنا هنا هي

مع بعض المخلوقات من ذوات الاخلاق الفاسدة البعيدة الغور التي لا يسبر غورها . والمهم ان ننطّف المجتمع . ولكن ، مرة اخرى ايضاً ، لا تقبض على اولاد ؛ حاول ارهابهم ثم غطّ كل ذلك ببطاقة « تصرف دون بصيرة » وليقووا طويلاً مندهشين من خروجهم من الخوف لا عليهم ولا لهم . فكر في ان ثلاثة منهم لم يبلغوا الرابعة عشرة ، ومن المؤكد ان اهلهم يعتبرونهم كالملائكة نقاء وبراءة . ولكن ، للمناسبة ، يا صديقي العزيز ، لبر ، والأمر بيمنا ، هل فكرنا نحن في النساء عندما كنا في هذه السن ؟

وكان قد وقف وهو يلهث من فصاحته اكثر من المثي ، واجبر بروفيتانديو الذي ظل سائراً ان يقف هو ايضاً وتابع قائلاً

-نعم ، اذا كنا قد فكرنا فيهن ، فبصورة مثالية ، صوفية ، دينية ، اذا استطعت القول . ان ابناء اليوم هؤلاء ، كما ترى ، ليس لهم مثل أعلى ... وبالمناسبة كيف اولادك ؟ على ان يفهم ابني لم اقل كل ذلك لاجلهم فانا اعلم ان ضلالاً كهذا لا نخافه عليهم وهم تحت رقابتكم ، بفضل التربية التي انشأتمهم عليها .

وبالفعل لم يكن بروفيتانديو حتى الآن سوى ان يتدحر اولاده ؛ ولكنه لم يكن معتقداً الوهم . ان افضل تربية في العالم لا تتغلب على الغرائز القبيحة ؛ واولاده والله الحمد ليس عندهم

غرائز قبيحة » كذلك اولاد مولينيه دون شك ؛ حتى انهم يتعدون من تلقائهم عن العشرة السيئة . وبعد فهافائدة منع ما لا تستطيع منعه ؟ ان الكتب التي يمنع الولد من قراءتها يقرؤها سراً . اما هو فطريقته بسيطة جداً ، انه لا ينفعهم من قراءة الكتب السيئة ، لكنه يتصرف بشكل يجعل اولاده لا يرغبون في قراءتها . اما القضية المشار اليها فلا يزال يفكر وعلى كل حال وعد بالا يجري شيئاً دون ان يخبر مولينيه . وبكل بساطة مستمر الرقابة الصارمة . وبما ان الشر قد استمر منذ ثلاثة أشهر فيمكن ان يستمر بضعة أيام بعد او بضعة أسابيع . ومع ذلك فان العطلة المدرسية الكبرى ستتكلف بت分区 الجائعين .. الى الملتقى .

واستطاع بروفيتانديو اخيراً ان يسرع الخطى .

وما ان دخل البيت حتى اسرع الى غرفة التواليت وفتح صنابير المغطس . وكان انطوان يراقب عودة سيده وقد عمل على ان يتلقىه في الرواق .

كان هذا الخادم الامين في البيت منذ خمسة عشر عاماً ॥ وقد شاهد الاولاد يكبرون ، واستطاع ان يرى اشياء كثيرة » وارتات في كثير من الاشياء الاخرى ، لكنه كان يتظاهر بعدم رؤية شيء مما يتوجهون انهم يخفونه عنه . ويرنار لم ينقطع عن محبة انطوان ولم يشاذه قبل ان يودعه . ولعله اراد » بدافع الغضب من عائلته » ان يطلع خادماً بسيطاً على سر رحيله الذي يجهله

أهل الاقربون ! ولكن يجب القول ، دفاعا عن برنار ، ان احداً من أهله لم يكن آنذاك في البيت . وفضلاً عن ذلك فان برنار لم يكن يستطيع وداعهم من غير ان يحاولوا ابقاءه . كان يخشى الاستيضاخات .اما لانطوان فيستطيع القول ببساطة : «انا ذاهب ». لكنه حين فعل ذلك مد اليه يده بشكل احتفالي بعث الدهشة في نفس الخادم العجوز .

- الا يعود السيد برنار لتناول الغداء ؟

- ولا للنوم يا انطوان .

وبيا ان هذا يقى متربداً لا يعرف ماذا يجب ان يفهم ولا اذا كان عليه ان يسأل بعد ، فان برنار اعاد عن قصد : «انا ذاهب »، ثم أضاف : « لقد تركت رسالة على مكتب ... » ولم يستطع ان يحزم امره ويقول : « والدي » ، فقال : « ... على منضدة المكتب . وداعاً » .

كان شديد التأثر حين ضغط على يد انطوان كأنه يأخذ اجازة من ماضيه دفعة واحدة ؛ ردد كلمة الوداع بسرعة ثم ذهب قبل ان يدع الشهقة الكبيرة التي صعدت الى حلقومه تنفجر .

وشك انطوان في ما اذا لم تكون هناك مسؤولية خطيرة بأن يدفعه يذهب بهذا الشكل - ولكن كيف يستطيع امساكه ؟

اما ان يكون رحيل برنار هذا حادثاً غير متوقع وسيئاً بالنسبة الى العائلة كلها فأمر كان يشعر به انطوان ، ولكن دوره كخادم

كامل كان في الا يظهر انه استغريه . ولم يكن عليه ان يعرف ما لم يعرفه السيد بروفيتانديو . وما من شك في انه كان في وسعه ان يقول له : « أتعلم سيدتي ان السيد برنار قد ذهب ؟ » لكنه يضيع بذلك كل فائدة ولن يكون هذا ساراً . واذا كان قد انتظر سيده بكثير من فراغ الصبر فلكي يقول له بلهجة جامدة ، محترمة ، وكخبر بسيط عهد اليه برنار بايصاله ، هذه العبارة التي ظل يعدها طويلاً :

- لقد ترك السيد برنار ، قبل ان يذهب ، رسالة للسيد في المكتب .

انها عبارة بسيطة الى حد يخشى معه ان لا يتتبه اليها الشخص الآخر . وقد حاول عيناً البحث عن شيء أضخم دون ان يجد شيئاً يكون في الوقت نفسه طبيعياً . وبما ان برنار مم يسبق له ان تغيب فان السيد بروفيتانديو ، الذي كان انطوان يراقب بزاوية عينه ، لم يستطع ان يكتم قشعريرة :

- كيف ؟ قبل ان ...

ثم امتلك نفسك حالاً ، ليس عليه ان يظهر دهشته امام مرؤوس ؛ ان الشعور بعلو منزلته لا يفارقه ابداً . فاكمل بلهجة هادئة جداً ، محكمة حقيقة :

- حسناً .

وقال وهو يدخل الى غرفته :

- اين قلت ان هذه الرسالة موجودة ؟

- على مكتب السيد .

وما ان دخل بروفيتانديو الى الغرفة حتى رأى فعلاً مظروفاً موضوعاً بشكل ظاهر امام الكتبة التي ان من عادته الجلوس عليها ليكتب ؛ ولكن انطوان لم يترك نفسه يؤخذ بهذه السرعة ، فلم يكدر السيد بروفيتانديو يقرأ سطرين من الرسالة حتى سمعه يطرق الباب :

- نسيت ان اقول للسيد ان هناك شخصين يتتظران في الصالون الصغير .

- من هما ؟

- لا اعلم .

- هل هما معًا ؟

- لا يبدو ذلك .

- ماذا يريدان مني ؟

- لا ادري . يريدان رؤية السيد .

وشعر بروفيتانديو ان صبره فرغ .

- قلت قبلًا وكررت اني لا اريد ان يزعجني احد هنا - خصوصاً في هذه الساعة ؛ ولي ايامي وساعاتي المخصصة للاستقبال في قصر العدل ... فلماذا ادخلتها ؟

- قالا ان دافعها امراً عاجلاً يريدان قوله للسيد .

- هما هنا منذ وقت طويل ؟

- منذ ساعة .

مشى بروفيتانديو خطوات في الغرفة ومر باحدى يديه على جبهته . وبالآخرى كان يحمل رسالة برنار . وظل انطوان امام الباب وقوراً ثبت الجنان . واخيراً شعر بفرح حين رأى القاضي يفقد هدوءه وللمرة الاولى في حياته يضرب الارض بقدمه وينجر قائلاً :

- ليتركاني السلام ! ليتركاني السلام ! قل لها اني مشغول .
ليعودا في يوم آخر .

وما كاد انطوان يخرج حتى اسرع بروفيتانديو الى الباب :
- انطوان ! .. انطوان ! اذهب بعد ذلك واقفل صنابير
المغطس .

فمن يستطيع الان ان يفكر في اخذ حمام ! ؟ واقترب من
النافذة وأخذ يقرأ :
« سيدتي .

« فهمت على أثر اكتشاف قمت به صدقة في هذا الأصيل
ان عليّ ان اكف عن اعتبارك والدًا لي . ولي في هذا تعزية
عظيمة . فقد ظللت وقتاً طويلاً اظن اني ابن خالٍ من
العواطف الطبيعية لشعورك بقليل من الحب لك ! و كنت افضل
ان اعرف اني لست ابنك . ومن الممكن ان تعتبر اني مدين
لك بالفضل لأنك عاملتني كأحد اولادك ، الا اني كنت اشعر
دائماً بالفرق في مراعاتك لي وهم ، ثم ان كل ما فعلته ، تجعلني

معروفي التامة بك ادرك انه كان خوفاً من الصيحة ، لستر وضعية لا تشرفك كثيراً - وانه لا تستطيع ان تفعل غير ذلك . وقد فضلت الرحيل دون ان ارى امي لأنني اخاف ، وانا اودعها الوداع الأخير ، ان تثير شفقي ، ولأن من الممكن ايضاً ان تشعر امامي انها في وضعية مخجلة - وهذا كريه بالنسبة الي . اشك في قوة محبتها لي ؛ فيها اني كنت اغلب الاحيان في مدرسة داخلية فلم يكن لديها الوقت الكافي لتعزفي ١ وبما ان رؤيتها لي تذكرها دائمًا بشيء من حياتها تريد ان تمحوه ، اعتقاد اتها ستراني أرحل بكل سرور وراحة . قل لها ، اذا كان لديك الشجاعة لذلك ، اني لا احقد عليها لأنها ولدتي بندوقاً ؛ بل على العكس ، فانا افضل هذا على ان اعلم اني ولدت منك . وعفواً لهذا الكلام ، فليس من مقصدي ان اكتب اليك إهانات ولكن ما أقوله سيتريح لك ان تختبرني ، وفي هذا تعزية لك) .

« اذا كنت ترغب في أن ألزم الصمت حول الأسباب الخفية التي جعلتني أترك بيتك فإنني ارجوك لا تحاول اعادتي اليه . ان عزمي على ترككم لا رجوع عنه . ولست ادري ما كلفتك معيشتي حتى هذا اليوم ؛ لقد استطعت قبول العيش على حسابك طيلة وجودي في حالة الجهل وغنى عن القول اني افضل لا اتناول منك شيئاً في المستقبل ، فالتفكير في اني مدين لك بشيء منها يكن لا يمكن احتماله بالنسبة الي ، واعتقد ذلك لو

استمر لفضلت الموت جوعاً على الجلوس الى مائتك . ومن حسن الحظ اذكر انني سمعت ان امي كانت أكثر غنى منك حين تزوجتك ، إذن فانا حر في التفكير انني لم أعش إلا على حسابها ، وانني اشكرها وأغفياها من كل ما بقي ، وأطلب اليها ان تنساني . انك ستتجدد وسيلة لتفسير رحيل لأولئك الذين يمكن ان يدهشوا له ، واسمح لك ان تضع كل شيء على عاتقى (لكنني اعلم انك لن تتضرر الأذن مني لفعل ذلك) .

انني اوقع بالاسم المضحك الذي هو اسمك ، والذي أود لو استطيع اعادته اليك ، والذي ما زال يشيني .

« برنار بروفيتانديو »

« ملاحظة : اترك عندكم جميع اغراضي التي يمكن ان يستعملها كاللوب بشكل اكثر شرعية ، على ما آمل لك » .

بلغ السيد روفيتانديو كتبه وهو يتربع . وأراد ان يفكر ، الا ان الافكار كانت تزويع بشكل مشوش في رأسه . وفضلاً عن ذلك فقد شعر بقرصنة خفيفة في الجانب الامين ، هناك تحت الاصلاع . يعرف انه لن ينجو منها : انها نوبة كبد . هل يوجد ماء فيشي في البيت ؟ لو رجعت امراته على الاقل ! كيف سيخبرها بهر برب برنار ؟ أيمجب ان يريها الرسالة ؟ انها جائرة هذه الرسالة ، جائرة بشكل فظيع . يمجب ان يستشيط غيظاً منها . يربد ان يحسب حزنه غيظاً . تنفس بقوة وتصاعدت من كل

زفرة عبارة : «آه ! يا الهي » سريعة وضعيفة كأنها آهة . لقد امترج ألم جنبه بحزنه ، وقد اثبته وحصره في موضعه . وخيل إليه انه مصاب بالحزن في كبده ، فألقى نفسه على أريكة وأعاد قراءة رسالة برنار . وهز كتفيه بحزن . هذه الرسالة قاسية عليه بالتأكيد ، ولكنه شعر فيها بالكمد ، بالتحدي والتبرج الواقع . ان أي واحد من اولاده الآخرين ، اولاده الحقيقيين ، غير قادر على الكتابة هكذا ، حتى هو نفسه لا يقدر على ذلك ؛ هو يعرف ذلك جيداً لأن ليس فيهم من شيء لا يعرفه في نفسه كان دائمًا يظن ان عليه ان يوجه اللوم الى كل جديد ، وخشى وجامح يشعر به عند برنار ؛ ولكنه مع ذلك يعتقد ايضاً انه يشعر بوضوح انه احبه كما لم يجب الآخرين بسبب ذلك .

كان يسمع منذ لحظات في الغرفة المجاورة صوت سيسيل التي عادت من الحلقة الموسيقية وجلست الى البيانو واخذت تكرر باصرار العبارة نفسها من اغنية بمحارة . وانه لم يعد البريك بروفيتانديو يستطيع ان يمسك نفسه ، ففتح باب الصالون ، وقال بصوت نائح شبيه بالتوسل لأن المغض الكبدي بدأ يؤله كثيراً (ومع ذلك فقد كان يشعر بشيء من التجل معها) :

- يا صغيري سيسيل ؛ أتريدين التأكد من وجود ماء فيشي في البيت ؟ اذا لم يكن موجوداً فارسلني من يأتي به . ثم انك تكونين لطيفة اذا اوقفت العزف على البيانو .

- أتشعر بالملء ؟

- لا ، لا ... بل ابني بحاجة الى التفكير قليلاً حتى موعد
الغداء وموسيقاك تزعجني .

وأضاف بدافع اللطف لأن الألم يجعله رقيقاً :

- ان ما تعزف فيه جميل جداً . ما هو ؟

لكته خرج قبل ان يسمع الجواب . كذلك فان ابنته التي
تعرف انه لا يسمع شيئاً من الموسيقى وينخلط بين قطعة « تعال يا
بوبول » ونشيد تانهاوزر (ابناها هي التي تقول ذلك على الاقل) لم
يكن في نيتها ان تخيبه . ولكنها هو يعود ويفتح الباب :

- ألم ترجع والدتك ؟

- لا ، بعد .

مستحيل ، ستعود متأخرة فلا يستطيع التحدث اليها على
الغداء . ماذا يستطيع ان يستنبط ليفسر ، من قبيل الاحتياط ،
غياب بونار ؟ ومع ذلك فلا يستطيع قول الحقيقة ويكشف
للأولاد سر ضلال امهم العابر . آه ! كل شيء كان قد عُفي
عنه ، وُنسى ، وأصلح . فولادة ابنها الاخير عقدت مصالحتهما .
وفجأة ، شبح الثأر هذا الذي خرج من الماضي ، هذه الجثة
التي قذفتها الامواج ...

هيا ! ما هذا ايضاً ؟ انفتح باب مكتبه دون ضجة ، فوضع
الرسالة بسرعة في جيب سترته انداخالية . وارتفع الباب بهدوء ،

انه كالوب جاء يقول :

- بابا ، ماذا تعني هذه العبارة اللاتينية ؟ اني لا افهمها .
- قلت لك ان من الواجب الا تدخل دون ان تدق الباب . ثم اني لا اريد ان تأتي وتزعجني هكذا في كل مناسبة . لقد اعتدت معونة الغير والراحة على حساب الاخرين بدلاً من قيامك بجهود شخصي . فالبارحة كانت المسألة الهندسية ، واليوم انها ... ملن عبارتك اللاتينية هذه ؟

فمد كالوب دفتره :

- لم يقل لنا ، ولكن خذ ، انظر . ستعرف ذلك انت .
لقد املاها علينا ومن الممكن ان تكون كتبتها خطأ . اريد على الاقل ان اعرف اذا كانت صحيحة .

واخذ السيد بروفيتانديو الدفتر . لكنه يشعر بألم كبير .

دفع الولد بلطف :

- في ما بعد . ستناول الغداء . هل عاد شارل ؟
- لقد هبط الى غرفته (الغرفة هي في الطبقة الارضية حيث يستقبل المحامي زبائنه) .

- اذهب وقل له ان يأتي الىي . اذهب بسرعة .

رنة من الجرس . اخيراً جاءت السيدة بروفيتانديو ا أنها تعذر لتأخرها فقد اضطررت الى القيام بزيارات كثيرة ، وحزنت لأنها وجدت زوجها يتوجه . ماذا يمكن ان تعمل له ؟ صحيح

ان وجهه مكفهر . - لن يستطيع الأكل . ليجلسوا الى المائدة من دونه . ولكن لتأت لرؤيته مع الاولاد بعد الطعام . - برنار ؟ - صحيح । صديقه ... تعرفين ، ذلك الذي يراجع الرياضيات معه . جاء واصطحبه لتناول الطعام .

■

شعر بروفيتانديو بتحسن . كان يخاف اولاً الا يستطيع الكلام وهو متالم . ومع ذلك فيهمه ان يقدم ايضاً لاختفاء برنار . انه يعرف الان ما يجب ان يقول منها كان ذلك مؤلماً . وشعر بنفسه صليباً عزوماً . كان خوفه الوحيد من ان تقاطعه امرأته بالبكاء « بصرخة ، وان تتوعك ... »

دخلت مع الاولاد بعد ساعة ، واقربت ، فأجلسها قربه على أريكة . وقال لها بصوت خفيض ولكن بهجة آمرة : - حاوي ان تتمالكي نفسك ، ولا تقولي كلمة ، سامة ؟ وستحدث بعد ذلك نحن الاثنين .

واحتفظ باحدى يديها في يديه أثناء كلامه .

- هيا ، اجلسوا يا أبنائي . يزعجني ان أراكم واقفين امامي كأنكم تؤدون امتحاناً . عندي خبر محزن أود ان ا قوله لكم ... لقد تركنا برنار ولن نراه بعد ... حتى بعض الوقت . ويجب ان اخبركم اليوم بما اخفيته عنكم في السابق ، راغباً ان أراكم تحبون برنار كأخ لان والدtkم وأنا أحبيبناه كأنه

ولدنا . ولكنه لم يكن ولدنا . . . هناك حال له ، أخ لوالدته الحقيقة ، عهد به الينا وهو يختضر . . وقد جاء هذا المساء وأخذه .

وعقب كلامه صمت مؤلم . وسمع شخير كالوب . وانتظر كل منهم آملاً ان يستأنف الاب لكلامه ، ولكنه حرك يده .

- اذهبوا الآن يا اولادي . انا بحاجة للتحدث الى والدتكم .

وظل السيد بروفيتانديو طويلاً دون ان يتكلم بعد ذهاب الاولاد . واليد التي تركتها السيدة بروفيتانديو في يديه كانت كأنها ميتة بينما رفعت باليد الأخرى منديلها الى عينيها ، واعتمدت على المنضدة الكبيرة وانحرفت لت بكى . وسمعها بروفيتانديو تتمتم من خلال التحبيب الذي يهزها :

- اوه ! انت قاس . . . اوه ! لقد طردته . . .

وكان عازماً حتى الآن على الا يريها رسالة برනار ، لكنه امام هذا الاتهام الجائر مد بها اليها :

- خذلي ، اقرئي .

- لا استطيع .

- يجب ان تقرئي .

لم يفكر في المهم . تبعها عينيه سطراً سطراً على طول الرسالة . كان لا يكاد يمسك دموعه حين تكلم قبلًا ، اما الان

فان التأثر نفسه قد تخلى عنه ؛ تطلع الى امرأته . لماذا تفكّر ؟
 كانت لا تزال تتمم من خلال بكتائها بالصوت الناخب نفسه :
 - اوه ! لماذا قلت له ؟ .. ما كان لك ان تقول له ...
 - ولكنك ترين اني لم اقل شيئاً .. اقرئي رسالته جيداً .
 - قرأت جيداً .. ولكن كيف اكتشف ذلك ؟ .. من هو
 الذي قال له ؟ ..

ماذا ! .. هذا هو ما تفكّر فيه ! هذا هو حزناها ! لقد ظن
 ان هذه المصيبة ستجمعها » . وما هو يكتشف ، يا للأسف ، ان
 افكارها تأخذ اتجاهها متباعدة . وبينما كانت تشتكى » . وتتهم ،
 وتطلب » . حاول ان يميل بهذه النفس المخرون نحو عواطف اكثر
 تقوى ، فقال :

- هذه هي الكفارة .

ونهض ، بحاجته الغريزية للسيطرة ؛ انه يقف الآن
 متتصباً ، ناسياً ، غير مهتم بألمه الجسدي ، ووضع بوقار ،
 وحنو ، وسلطة ، يده على كتف مرغريت . هو يعرف تماماً انها
 لم تتبّع قط الا توبية ناقصة من ذلك الذي يعتبره دائياً ضعفاً
 عابراً ، هو يريد ان يقول لها الان ان هذه الكابة ، هذه
 التجربة ، يمكن ان تكون بثابة تكفير . ولكنه بحث عبثاً عن
 صيغة ترضيه ويستطيع ان يأمل ان يجعلها مسموعة . لقد
 قاومت كتف مرغريت ضغط يده الناعم . ومرغريت تعرف جيداً
 ان بعض التعاليم الأخلاقية ، غير المحتملة ، لابد ان تصدر

عنه ، وانه يستولدها من اقل حوادث الحياة ॥ انه يترجم ويفسر كل شيء حسب معتقده . لقد انحني نحوها . وهذا ما يريد ان يقوله لها :

- ها ترين يا صديقتي المسكينة انه لا يمكن ان يولد من الخطيئة اي خير ؟ ومحاولة تغطية غلطتك لا تفيد . يا للأسف ! لقد فعلت ما استطعت في سبيل هذا الولد ؛ عاملته كولدي . والله يرينا الان ان من الخطأ الزعم ...
ولكنه توقف منذ العبارة الأولى .

ما من شك في انها فهمت تلك الكلمات القليلة الملائى بالمعنى . وما من شك في ان هذه الكلمات نفذت الى قلبها لأنها عاودت النحيب بشكل أعنف من السابق . لم تكن تبكي منذ لحظات ، ثم طوت نفسها كأنها تستعد للركوع امامه ، فمال نحوها وأمسك بها . ماذا تقول من خلال دموعها ؟ لقد انحني حتى شفيتها وسمعها تقول :

- ها انت ترى جيداً ... انت ترى جيداً ... آه ! لماذا عفوت عنِي ؟ آه ! ما كان يجب ان اعود ا ..

يكاد يضطر الى ان يجزر ما تعنى بكلامها . ثم سكتت . هي ايضاً لا تستطيع الايضاح اكثر . كيف تقول له انها تشعر بأنها سجينه تلك الفضيلة التي يتطلبها منها ، وانها تختنق ، وانها لا تأسف الان على غلطتها التي تابت عنها ... انتصب بروفيتانديو وقال بلهجته وقرر صارمة :

- يا صديقتي المسكينة ، اخاف ان تكوني قد صدلت قليلاً
هذا المساء . لقد تأخرنا » ومن الافضل ان نذهب وننام .
وساعدتها على النهوض ، ثم رافقها حتى غرفتها ووضع
شفتيه على جبها ، ثم عاد الى مكتبه وارتحى على اريكة .
غريب ! نوبة كبده هدأت ؛ لكنه شعر انه محطم . ظل مسماً
جبته بيديه ، كثير الكآبة لا يستطيع ان يبكي ، فلم يسمع
الطرق على الباب ، ولكن رفع رأسه بسبب صرير الباب الذي
افتتح : انه ولده شارل .
- جئت لأنقي عليك تحية المساء .

واقترب شارل . لقد فهم كل شيء . ويريد ان يجعل والده
يدرك ذلك . ويريد ان يظهر له شفقته » وحنوه » وتفانيه . وقد
يصعب ان يصدق المرء ذلك عن حمام ، الا ان شارل شديد
الارتباك في التعبير عن افكاره . او لعله يصبح كذلك حين
تكون عواطفه صادقة . عانق اباه . والطريقة الملحة في وضع
رأسه على كتف والده واستناده اليه وابقائه وقتاً طويلاً تقنع هذا
انه فهم كل شيء . لقد فهم تماماً ، وها هو بعد ان رفع رأسه
قليلًا يسأل والده بشكل اخرق ككل ما يفعله . ولكن قلبه
معدب جداً حتى انه لم يتمالك عن السؤال :
وكالوب ؟

السؤال عبشي . فبقدر ما يختلف برنار عن سائر الاولاد فان
ملامح العائلة ظاهرة عند كالوب . وربت بروفيتانديو على كتف
شارل :

- كلا ، كلا ؛ اطمئن . برnar وحده .
حيثند قال شارل بشيء من الحكمة :
- الله يطرد الدخيل لكي ...
ولكن بروفيتانديو اوقفه ؛ ما حاجته الى ان يكلمه هكذا ؟
- اسكت .

ولم يبق للاب والابن ما يتحدثان به . فلتدركهما . الساعة
الآن الحادية عشرة . لترك السيدة بروفيتانديو في غرفتها جالسة
على كرسي صغير مستقيمة يريح قليلاً . انها لا تبكي ، لا تفكر
في شيء . هي ايضاً تريد ان تهرب ، لكنها لن تفعل ذلك .
حين كانت مع عشيقها ، والد برnar الذي ليس لنا ان نعرفه ،
كانت تقول لنفسها : اذهبي ، لقد فعلت حسناً ؛ لن تكوني الا
امرأة فاضلة . كانت تخاف من الحرية ، من الجريمة ، من
الرخاء . اما ما جرى فهي انها عادت الى بيتها تائبة في مدى
عشرة ايام . وكان اهلها على حق حين كانوا يقولون لها : انك
لا تعرفين ما تريدين ابداً . لتركها . سيسيل تنام الآن ...
وكالوب يتأمل شمعته بیأس ، فهي لن تدوم كفاية للتبيح له اتمام
كتاب المغامرات الذي يلهيه عن رحيل برnar . و كنت راغباً في
ان اعلم ما الذي رواه انطوان لصديقه الطاهية ، ولكن ليس في
الامكان استماع كل شيء . وهذه هي الساعة التي على برnar
فيها ان يلاقي اوليفييه . ولا ادرى اين تناول عشاءه هذا
المساء . ولا حتى اذا كان تناول عشاءه ام لا . لقد مر دون
عائق امام مسكن البواب ؛ وصعد الدرج خلسة ...

٣

الخير والسلام يولدان الجبناء؛ أما
الصلابة والشدة في الحياة فهي الأم.

شكسبير

أوى أوليفيه إلى سريره ليتلقى قبلة أمه التي كانت تأتي كل مساء لتعانق ولديها الآخرين في سريرهما. كان في إمكانه أن يعيد ارتداء ملابسه ليستقبل بربار، لكنه لا يزال يشک في مجئه وينخشى أن يوقظ أخاه الصغير. وكان من عادة جورج أن ينام بسرعة ويستيقظ متاخرًا. ومن الممكن ألا يفطن إلى شيء غير عادي.

وقفز أوليفيه من سريره عند سماعه نوعاً من الطرق الخفيف على الباب، ودخل قدميه بسرعة في «بابوج» وركض يفتح. لم يكن هناك من حاجة لإشعال النور، فضوء القمر يضيء الغرفة بما فيه الكفاية. وضم أوليفيه بربار بين ذراعيه.
- كم انتظرتك! لم أصدق أنك ستأتي. هل درى أهلك أنك لن تنام في البيت الليلة؟.

كان بربار يطلع أمامه في الظلام. هز كتفه:

- تعتقد أنه كان على أن استأذنهم؟

كانت رنة صوته ساخرة بشكل بارد حتى أن أوليفيه شعر بعدم حدوى سؤاله. هو لا يعرف بعد أن بربار رحل «شكل جدي»، بل كان يعتقد أنه لا ينوي المبيت خارج منزله إلا هذا المساء ولم يوضح تماماً سبب إقدامه على هذا الأمر الشاق. سأله: - متى يريد برنار العودة إلى البيت؟ - أبداً! - واتضحت الحقيقة لأوليفيه. وكان همه الكبير أن يبدو على مستوى الظروف وإلا يترك نفسه يفاجأ بشيء. ومع ذلك فإن عبارة «أن ما فعلته خطير» قد أفلتت منه.

لم يكن يسيء برنار أن يبعث قبلاً من الدهسة في نفس صديقه، فهو حساس على الخصوص بما يثير الإعجاب في هذا التعبّج؛ لكنه هز كتفه من جديد. أخذ أوليفيه يدّه، أنه رزين؛ وسأله بقلق: - ولكن... لماذا رحلت؟.

- آه! إنها قضايا عائلية يا صديقي، لا أستطيع قوله لك.

ولكي يفلل من جدية مظهره أخذ ينلهي بأن يسقط بطرف حذائه «البابوج» الذي كان أوليفيه يؤرجه بطرف قدمه لأنهما جلسا على حافة السرير.

- أين ستذهب لتعيش؟

- لا أعرف.

- ومع من؟

- سترى ذلك.

- هل معك دراهم؟

- ما يكفي لفظوري غداً.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك يجب أن أبحث. بالتأكيد سأجد شيئاً. ستري.

وساقص ذلك عليك.

أعجب أوليفيه كثيراً بصديقه. هو يعرف صفة العزم فيه، ومع ذلك فإنه لا يزال متشككاً ألن يحاول العودة إلى البيت عندما تنضب موارده وتدفعه الحاجة؟ لقد طمأنه برنار: سيحاول عمل «أي شيء» إلا أن يعود إلى أهله. وبما أنه كرر عبارة «أي شيء» في مناسبات عدة، وكل مرة بنبرة اعتنف من المرة السابقة، فإن القلق شد على قلب أوليفيه. كان يريد أن يتكلم لكنه لم يجرؤ. وأخيراً بدأ بصوت قلق وهو منحني الرأس:

- برنار.... مهما كان الأمر فليس في نيتك أن....

ولكنه توقف. ورفع صديقه عينيه، ولاحظ اضطراب أوليفيه دون أن يراه جيداً، فسأله:

- أن.... ماذا؟ لماذا تريد أن تقول؟ تكلم. أن أسرق؟

وحرك أوليفيه رأسه. كلا، ليس هذا. وانفجر فجأة بالبكاء، واحتضن برنار بشجن.

- عدنى إنك لن ...

معانقه برnar ثم أبعده عنه وهو يضحك. لقد فهم:

- أعدك بهذا. كلا لن أعمل قواداً.

ثم أضاف:

- ومع ذلك فإني اعترف بأن هذا سيكون أبسط الحلول.

ولكن أوليفيه شعر باطمئنان؛ هو يعرف جيداً أن الأخيرة لم

تلفظ إلا بدافع السخرية ...

- وامتحانك؟

- نعم، هذا ما يزعجني. مهما كان الأمر فلا أريد أن أخفق. اعتقاد أني مستعد. والمشكلة هي ألا أكون تعبأ في ذلك النهار. يجب أن انتهي من ذلك بسرعة. هناك شيء من الخطير ولكنني سأنجو منه؛ ستري.

وظل صامتاً لفترة. وسقطت الفردة الثانية من «البابوج».

برnar:

- يكاد يلفحك البرد. عد إلى نومك.

- كلا ستنام أنت.

- أنت تخرج! هيا بسرعة.

وأجبر أوليفيه على العودة إلى السرير الشاحب.

- ولكن أنت؟ أين ستنام؟

- لا يهمني أين... على الأرض. في زاوية. يجب أن

اعتداد.

- كلا، اسمع. أريد النحدث إليك بأشياء لكنني لا
أستطيع إذا لمأشعر أنك بقري تعال إلى سريري.
وبعدما لحق به برنار الذي تأخر لحظة في خلع ملابسه،
قال:

تعرف ما قلته لك في السابق... نم الأمر. لقد كنت
هناك. وفهم برنار بالتلبيع. فضم إليه صديقه الذي أتم فائلاً:
- نعم، يا صديقي. شيء مقرف. محيف. شعرت بعد
الحكاية بحاجة إلى البصق ، إلى التقيؤ، إلى أن
أمزق جلدي، أن أقتل نفسي.

- أنت تبالغ.
- أو أقتلها، هي ...
- من كانت؟ أرجو أن لا تكون قد تورطت في شيء على
الأقل؟

- كلا، إنها يعني يعرفها دورمر جيداً. وحديثها على
الخصوص هو الذي جعلني أتقزز. لم تتوقف عن الكلام، لأنها
حفاء ولا أعرف لماذا لا يجعل الصمت في لحظات كهذه. كنت
أريد أن أكم فاما، أن أختنقها.

- يا صديقي المسكين! ثق أن دورمر لا يستطيع أن يقدم
إليك سوى حفاء . هل هي جيالة على الأقل؟
- إذا كنت تعتقد أنني تطلعت إليها

- أنت أبلة.. ولذيد لتنم.. هل بالأجل فمت س... .
- إن ما يقززني هو أنني استطعت مع ذلك... كأنني
اشتهيها.
- حسناً! با صديقي. هدا مدهش.
- اسكت. إذا كان الحب هكذا فقد تزودت منه لوقت
طويل.
- يا لك من غلام صغرا!
- كنت أريد أن أراك مكانى.
- أوه! أنا، تعرف اني لا أركض وراء هذه الأمور. وقد
قلت ذلك لك: أنا انتظر المغامرة أما هكذا بكل بروء فلا
يوحى إلي بستيء. لا يمنع إني إذا... .
- إنك إذا... .
- إنها إذا... لا سيء. لتنم.
- وأدأر ظهره فجأة، وابعد قليلاً عن هذا الجسد الذي
تضايقه حرارته. ولكن أوليفيه قال بعد لحظة:
- قل... أتعتقد أن بارييس ^{Baress} سيُختب؟
- يا لطيف! إن هذا يبعث دمك على الاحتقان!
- لا يهمني... فل... أصحع قليلاً... - وضغط على
كتف برنار الذي دار نحوه. - أن لأنخي عشيقة.
- جورج؟

والصغير الذي كان يتظاهر بالنوم، ولكنه سمع كل شيء وأذنه مرهفة في الظلام، قطع تنفسه عندما سمع اسمه.

- مجنون! أنا أكلمك عن فنسان (أكبر سنًا من أوليفيه)، وفنسان انهى سنواته الأولى في الطب.

- هل حدثك هو بذلك؟

- لا. فقد علمت دون أن يشعر. وأهلي لا يعرفون من ذلك شيئاً.

- ماذا يقولون لو عرفوا؟

- لا أدرى. أمي ستصاب باليس، أما أبي فسيطلب منه أن يقطع علاقته، أو يتزوجها.

- يا لطيف! البورجوازيون الفضلاء لا يدركون أن المرأة قد يكون فاضلاً بشكل مختلف عنهم. وأنت، كيف عرفت ذلك؟.

- إليك ما جرى: منذ مدة وفنسان يخرج ليلاً بعد أن ينام أهلي، ويقوم بأقل ما يمكن من الجلبة وهو هابط، ولكني عرفت خطوته في الشارع. وفي الأسبوع الأخير، كان الليل حاراً حتى إنني لم أستطع البقاء في السرير، فوقفت أمام النافذة لأنفس بشكل أفضل. سمعت الباب في الأسفل ينفتح وينغلق، فانحنىت، وحين مر بقرب المصباح عرفت فنسان. كان قد مضى نصف الليل. وكانت المرة الأولى. أريد أن أقول: المرة الأولى التي لاحظته فيها. ولكني صرت أراقبه منذ ما عرفت - أوه! دون قصد... وفي كل ليلة تقريباً كنت اسمعه يخرج. أن

مفتاحه معه وأهلي اعدوا له غرفتنا القديمة، غرفتي أنا وجورج،
لتكون غرفة عيادة حين يصبح لديه زبائن. وتقع غرفته إلى
جانبها في شمال مدخل البيت، بينما بقية المسكن إلى اليمين. لقد
أصبح يستطيع الخروج والدخول حين يشاء دون أن يعلم أحد
بذلك. وعادة لا اسمعه وهو يعود. ولكن قبل البارحة، في
مساء الاثنين، لا أدرى ماذا أصابني؛ كنت أفكّر في مشروع
مجلة دورمن... ولم استطع النوم. فسمعت أصواتاً على السلم،
واعتقدت أنه فنسان.
وسأل برناً بداعٍ إظهار انتباذه أكثر منه بداعٍ الرغبة في
المعْرِفَة:

- كم كانت الساعة؟
- الثالثة صباحاً كما اعتقل. فنهضت ووضعت أذني على
الباب. كان فنسان يتحدث مع امرأة، أو بالأحرى كانت هي
وحدها تتكلّم.
- كيف عرفت أنه هو؟ جميع المستأجرين يرون أمام بابك.
- هذا أحياناً مزعج جداً. فكلما كان الوقت متاخراً تزداد
جلبتهم وهم صاعدون؛ أنهم ييزأون بالنائمين!... ولكن لا
يمكن أن يكون إلا هو، فقد سمعت المرأة تكرر لفظ اسمه.
كانت تقول له... أوه! يقرّزني أن أعيد قوله.
- أكمل...
- كانت تقول له: «فنسان يا حبيبي، يا غرامي. آه لا
تركتني!».

- هل كانت تخطابه بكلفة أو برفع الكلفة؟
- بكلفة. أليس هذا غريباً؟
- أكمل.
- «لا يحق لك التخلص عني الآن. ماذا تريد أن أصير؟ إلى أين تريديني أن أذهب؟ قل لي شيئاً. أوه! حدثني». - ونادته باسمه من جديد ورددت: «يا حبيبي، يا حبيبي» بصوت يزداد كآبة وانخفاضاً. ثم سمعت ضجة (العلها كانا واقفين على الدرج) ضجة كان شيئاً يسقط. وأعتقد أنها ارتمت راكعة.
- وهو، ألم يجب بشيء؟
- اضطر إلى صعود الدرجات الأخيرة؛ وسمعت إغلاق باب الشقة. وبعد ذلك ظلت قرية جداً، مدة طويلة، أمام بابي تقريباً. وسمعتها تبكي.
- كان من واجبك أن تفتح لها.
- لم أجرب. سيفضب فنسان إذا علم أنني عرفت قضاياه. ثم إنني خفت أن تتضايق لفجاجتها وهي تبكي. لا أعرف ماذا كنت أستطيع أن أقول لها.
كان برنار قد استدار نحو أوليفيه.
- لو كنت مكانك لفتحت.
- أوه! يا لطيفاً تجزئ على كل شيء... وتفعل كل ما يحلو لك.
- اتلومني على ذلك؟

- كلا بل أبغضك.

- أعرفت من تكون هذه المرأة؟

- كيف تريدين أن أعرف؟.. طابت لي ليلتك.

- قل... أوثق أنت من أن جورج لم يسمعنا؟
همس برinar في أذن أوليفييه وظلا لحظة يتهدان.

وأجاب أوليفييه بصوته الطبيعي:

- لا، أنه نائم. ثم أنه لا يفهم. تعرف ماذا سأله أبي ذات يوم؟ لماذا ذلك... .

ولم يستطع جورج هذه المرة أن يتمالك، فنهض نصف
نهضة على سريره وقطع كلام أخيه صارخًا:

- أيها الأحق، لم تر أنني فعلت ذلك عمداً؟ نعم. لقد
سمعت ما قلتمناه الآنا أواه لا داعي للدهشة، أما عن فنسان
فإنني أعرف ذلك منذ وقت طويل. فقط يا صغيري، احرصا
الآن على التكلم بصوت منخفض لأنني سأنام، أو اسكتنا.

واستدار أوليفييه صوب الحائط، أما برinar الذي لم ينم فقد
أخذ يتأمل الغرفة. لقد جعلها ضوء القمر تبدو أكبر مما هي.
وبالفعل فيما كاد يعرفها. أن أوليفييه لا يبقى فيها أثناء النهار؛
والمرات القليلة التي استقبل فيها برinar كان يستقبله في الشقة
العليا. ضوء القمر يلامس الآن قائمة السرير الذي ينام عليه
جورج أخيراً بعدما سمع تقريراً كل ما قاله أخوه! أن عنده ما

يحلم به. وفوق سرير جورج تظهر مكتبة صغيرة ذات رفين حيث الكتب المدرسية. ورأى برnar كتاباً كبيراً الحجم على منضدة بالقرب من سرير أوليفيه، فمد يده وتناوله ليرى عنوانه: - توكييفيل *Tocqueville*، ولكن الكتاب سقط عندما أراد وضعه على الطاولة وأيقظت ضججته أوليفيه.

- أتقراً لتوكييفيل؟

- دوباك هو الذي أعارني إياه.

- هل يعجبك؟

- هو مضجر نوعاً. ولكن هناك أشياء جبلة.

- اسمع، ماذا ستفعل غداً؟

نهار غد هو الخميس، والتلامذة أحبار. ربما برnar يفكر في لقاء صديقه. أن في نيته ألا يعود إلى المدرسة؛ هو ينوي الاستغناء عن الدروس الأخيرة وبعد امتحانه بمفرده. وقال أوليفيه:

- غداً، سأذهب في السادسة عشرة والنصف إلى محطة سان لازار، موعد بجي» قطار ديب *Dieppe*، للاقاء خالي أدوار العائد من إنكلترا. وفي الثالثة بعد الظهر سألاقي دورمر في اللوفر. وبقية الوقت يجب أن أشتغل.

- خالك أدوار؟

- نعم، أنه نصف أخ لأمي. وهو غائب منذ ستة أشهر، ولا أكاد أعرفه؛ لكنني أحبه كثيراً. أنه لا يعرف بذهابي لمقابلاته

وأخشى ألا أتعرف إليه. لا يشه سائر العائلة أبداً؛ أنه شخص ممتاز.

- ماذا يعمل؟

- يكتب. قرأت كل كتبه تقريباً؛ ولكن مضى وقت طويل دون أن ينشر شيئاً.

- روايات؟

- نعم، نوع من الروايات.

- لماذا لم تحدثني عنها؟

- لأنك ستريد أن تقرأها؛ وإذا لم تحبها...

- وبعد اكمل.

- وبعد سأزعل. هذا كل ما في الأمر!

- ما الذي جعلك تقول أنه ممتاز؟

- لا أعرف كثيراً... قلت لك لا أعرفه تقريباً. وهذا شيء من الشعور الداخلي.... أشعر أنه يتم بأمور لا تهم أهلي، وأن في الإمكان أن أحدهما عن كل شيء. فذات يوم، كان ذلك قبل رحيله بقليل، تناول فطوره عندنا؛ وفي أثناء حديثه مع أبي شعرت أنه ينظر إلى ذاته. وهذا بدأ يضايقني | وتهيأت للخروج من الغرفة - إنها غرفة الطعام التي تتأخر فيها بعد تناول القهوة؛ لكنه بدأ يسأل أبي عني، الأمر الذي زاد في مضايقني | ونهض أبي فجأة ليبحث عن أشعار كنت نظمتها، وكانت أبله لأنني أريته إياها.

ـ أشعار منك؟

ـ نعم؛ أنت تعرف؛ أنها تلك القطعة الشعرية التي رأيت أنها تشبه «الشرف». كنت أعلم أنها لا تساوي شيئاً، أو لا تساوي شيئاً كبيراً، وكانت ساخطاً لأن والدي أخرجها. وبينما كان والدي يبحث عن هذه القصيدة ظللنا لحظة نحن الاثنين وحيدين في الغرفة، الحال أدوار وأنا، وشعرت بالخجل يجتاحني وبوجهي يحمر لم أجده شيئاً أقوله له، فتطلعت إلى موضع آخر - وهو أيضاً فعل ذلك، وبدأ يلف سيكاره. ثم وقف وأخذ يتطلع من النافذة ويصفر صفيرًا خفيفاً ليزيل خجي لي دون شك وأنه من المؤكد أنه لاحظ هذا الخجل. وقال لي فجأة: «أنا مرتبك أكثر منك». لكنني اعتقد أنه قال ذلك بدافع اللطف. وعاد أبي أخيراً، وتناول أشعاري للحال أدوار الذي أخذ يقرأها. كنت مهتماً بالأعصاب حتى ظنت أنه لو امتدحني لشتمته. وما من شك في أن والدي كان يتضرر المدح؛ وبما أن خالي لم يقل شيئاً فقد سأله: «ما رأيك؟» لكن خالي قال ضاحكاً: «يزعجنى أن أتكلم عنه أمامك». حينئذ خرج والدي وهو يضحك أيضاً. وحين أصبحنا وحيدين مرة أخرى قال لي أنه رأى أشعاري سيئة جداً؛ ولكن سمعي هذا منه سري؛ وزاد من سروري أيضاً أنه نفس بأصعبه بيدين، البيتين الوحيدتين اللذين أعجباني في القصيدة، وتطلع إلى مبتسماً وقال: «هذان جيدان». أليس كذلك؟ ولذلك تعرف بأية هجة قال لي ذلك؟.. لقد عانقته.

ثم قال لي أن خطأي الوحيد هو أنني انطلق من فكرة، وأنني لا أترك الكلمات تغدوني. لم أفهمه تماماً في بادئ الأمر؛ ولكن يخيل إلي أنني أرى الآن ما عناه - وأنه على حق. وسأشرح لك ذلك مرة أخرى.

- أدرك الآن لماذا تحرض على ملاقانه.

- أوه! ما رويته لك ليس مهمًا. ولا أدرى لماذا رويته لك. لقد تحاورنا في الكثير من الأشياء الأخرى.

- قلت في الخادبة عشرة والنصف؟ كيف عرفت أنه سيأتي في هذا الفطار؟

- لأنه كتب إلى أمي على بطاقة بريدية؛ ثم أنني تحققت ذلك من الدليل.

- هل ستتناول فطورك معه؟

- أوه! كلا، يجب أن أعود إلى هنا عند الظهر. سيكون لي فقط الوقت الكافي لصافحته؛ ولكن هذا يكفي... آه! قل أيضاً قبل أن أنام: متى أراك؟...

- ليس قبل بضعة أيام... وليس قبل أن أنهي من القضية.

- ولكن ألا تستطيع مساعدتك؟

- مساعدتي؟ لا. لن يكون ذلك حسب الأصول... سيبدو لي أنني أغش. نم بسلام.

٤

كان أبي بليداً ولكن أمي ذكية، كانت من اتباع مذهب التصوف. أنها امرأة صغيرة دمثة غالباً ما تقول لي: يا ولدي، ستكون من المالكين ولكن هذا لم يكن يسبب لها أي غم.

فونتنيل

لا، لم يكن فنسان مولينيه يذهب إلى عشيقته كل مساء. ولتنبئه، رغم أنه يمشي بسرعة. هبط فنسان من رأس شارع نوتردام ديشان حيث يسكن، حتى شارع سان بلاسيد الذي هو امتداد له؛ ثم شارع باك حيث يقطن بعض البورجوازيين المتأخرین في السهر لا يزالون يتجلبون. وقف في شارع بابيلون أمام باب كبير افتتح له. وها هو عند الكونت دو باسافان. ولو لم يكن معتاداً المجيء إلى هنا في أغلب الأحيان لما كان دخل هكذا بجرأة إلى هذا القصر الفخم. والخدم الذي فتح له الباب يعرف جيداً ما يختفي من الخجل تحت رباطة الجاوش المختلفة هذه. ولا يتكلف فنسان أن يتناوله قبعته بل يلفيها من بعيد على مقعد، مع أنه لم يمض عليه وقت طويل وهو

يأتي إلى هنا. وروير دو باسافان الذي يدعى صداقته هو صديق لكثير من الناس. ولا أعرف كيف تعارفاً. كان ذلك في المدرسة دون شك مع أن روير دو باسافان أكبر سنًا من فنسان بشكل ظاهر؛ وقد غابا عن بعضها البعض بضع سنوات، ثم التقى من جديد في إحدى الأمسيات ومنذ وقت قريب حين كان أوليفيه يرافق أخيه إلى المسرح على غير عادة؛ وفي فترة الإستراحة قدم لها باسافان بعض المرطبات؛ وقد عرف في ذلك المساء أن فنسان أنهى دراسته في مدرسته الخارجية وكان حائراً لا يعرف إذا كان سيعود إليها كتلميذ داخلي. الحقيقة أن العلوم الطبيعية تجذبه أكثر من الطب، ولكن ضرورة كسب معيشته... باختصار رضي فنسان مختاراً العرض المأجور الذي عرضه عليه روير دو باسافان بعد قليل من الوقت ليأتي كل مساء ويعتني بوالده العجوز الذي كان مزعزاً بشكل جدي على أثر عملية خطيرة: كان الأمر يعلق بتجديد ضمادات، واستبارات دقيقة، وغرز ابر، وأخيراً ما لا أمرى من أشياء تتطلب أيدي خبيرة. ولكن فضلاً عن ذلك، فقد كان للكونت دو باسافان أسباب خفية للتقارب من فنسان؛ وكان لهذا أسباب أخرى تجعله يقبل العرض. أما السبب الخفي لروير فستحاول كشفه في ما بعد، بينما سبب فنسان هو: الحاجة الملحة إلى المال. فحين يكون القلب في مكانه، وتكون هناك تربية سليمة ترسخ فيك الشعور بالمسؤولية مبكراً، فإنك لن تجعل امرأة

تتجب منك طفلا دون أن تشعر أنك ملتزم حيالها، وعلى الخصوص إذا كانت هذه المرأة قد تركت زوجها لتلحق بك. كان فنسان قد عاش حياة فاضلة حتى ذلك الوقت، وكانت مغامراته مع لورا تبدو له، وفقاً لساعات النهار، فظيعة أو طبيعية جداً. ويكتفي في أغلب الأحيان أن نجمع كمية من الأعمال البسيطة والطبيعية جداً، بعد أن تأخذ كلًا منها على حدة، لتحصل على مجموع فظيع. كان يحدث نفسه بذلك وهو يمشي، وهذا لم يتسله من الورطة. من المؤكد أنه لم يفكر قط فيأخذ هذه المرأة على عاتقه نهائياً، أن يتزوجها بعد الطلاق أو أن يعيش معها دون أن يتزوجها. لقد كان مضطراً للاعتراف بأنه لا يشعر نحوها بكثير من الحب؛ لكنه يعرف أنها في باريس دون مورد، وأنه سبب لها الشقاء: هو مدین لها، على الأقل، بذلك الغوت الوفي الذي لا يكاد يشعر به ليتحقق منه - اليوم أقل من الأمس، وأقل من أيامه الأخيرة هذه، لأنه كان في الأسبوع الأخير لا يزال يملك الخمسة آلاف فرنك التي اقتضتها أمه بصبر وجهد تسهل له البدء بمحازلة أعماله. هذه الآلاف الخمسة من الفرنكـات كانت تكفي لنفقات توليد عشيقته واجرة مكثها في المستشفى وللعنايات الأولى التي يخنожها الطفل. فمن أي شيطان إذاً سمع النصيحة! - المبلغ الذي كان يفكر في إعطائه هذه المرأة، هذا المبلغ الذي كان موقوفاً عليها، مكرساً لها، والذي كان يجد نفسه مذنبًا باقطاع أي شيء منه، أي

شيطان سول له دات مساء أنه لا يكفي؟.. كلا، لبس روبير
دو بأسافان. فروبير لم يقل له شيئاً من ذلك: ولكن من المؤكد
أنه افتخر عليه ذلك المساء أن بصطحبه إلى قاعة للمقامرة. وقد
فبل فنسان الاقتراح.

والخدعة في تلك المقامرة هي أن ما يجري فيها يجري بين
أشخاص راقين، بين أصدقاء. وروبير فدم صديقه فنسان إلى
هؤلاء وأولئك. وأخذ فنسان فجأة فلم يستطع أن يلعب لعباً
كبيراً ذلك المساء. لم يكن معه شيء تقريباً وقد رفض مالاً
عرض الفيكونت أن يقرضه إياه. ولكن ما أنه ربع، فقد أسف
لأنه لم يجازف أكثر من ذلك ووعد بالعودة في اليوم التالي. فقال
له روبير:

- الجميع هنا يعرفونك الآن؛ وليس من الضروري أن
أرافك.

جرى هذا عند بيير دو بروفيل الذي يدعى في الغالب باسم
بدرور. ومنذ هذا المساء الأول وضع روبير دو بأسافان سيارته
تحت تصرف صديقه الجديد. وكان فنسان يحضر نحو الساعة
الحادية عشرة ويتحدث ربع ساعة مع روبير مدخناً سيكارا، ثم
يصعد إلى الطبقة الأولى ويفنى بقرب الكونت كثيراً أو قليلاً من
الوقت حسب مزاج الأخير، وحسب صبره وتطلباته؛ ثم تحمله
السيارة إلى شارع سان. فلورانتان عند بدرور، وبعد ساعة تقله
من هناك وتسير به لا إلى بيته تماماً، فقد كان يخاف لفت
النظر، إنما إلى أقرب مفرق طرق.

وفي الليلة ما قبل الأخيرة كانت لورا دوفيه تجلس على درجات السلم الموصل إلى شقة آل مولينيه، وقد انتظرت فنسان حتى الساعة الثالثة لأنه لم يعد إلا حينذاك. ولم يكن فنسان قد ذهب عند بدره تلك الليلة، لأنه لا يملك ما يخسره هناك. فمنذ يومين لم يبق معه مليم واحد من الخمسة آلاف فرنك. وكان قد أنبأ لورا بذلك؛ كتب إليها أنه لا يستطيع عمل شيء من أجلها؛ وأنه ينصحها بالعودة إلى زوجها أو إلى أبيها، وأن تعرف بكل شيء. لكن الاعتراف بدا مستحيلاً على لورا حتى أنها لا تستطيع أن تفك فيه بدم بارد. وتبنيخات عشيقها لم تثر فيها غير السخط، وهذا السخط لم يكن يتركها إلا ليسلّمها إلى اليأس. كانت هذه حالتها النفسية عندما لقيها فنسان. أنها تريد الاحتفاظ به، وقد نزع نفسه من بين ذراعيها. بالتأكيد كان عليه أن يتصلب لأنه ذو قلب حساس؛ لكنه شهوان أكثر منه محباً، وقد جعل من القساوة وجباً بكل سهولة. لم يجب بشيء على توسّلاتها، على شكوكها، وبما أن أوليفيه الذي كان يسمعها قد روى ذلك لبرنار، فإنها، بعدما أغلق فنسان بابه دونها، ظلت منهارة على الدرجات تبكي في الظلام.

مر أكثر من أربعين ساعة على تلك الليلة. وفي السهرة لم يذهب فنسان إلى روبير دو باسافان الذي بدا أن والده استعاد صحته؛ لكن برقة دعته هذا المساء. روبير يريد أن يراه. وحين دخل فنسان إلى تلك الغرفة التي يستعملها روبير غرفة عمل

ومكاناً للتدخين، ويبقى فيها أغلب الأحسان، والتي اعتنى بتأثيثها على هواه، مد روبيز يده إليه بإهمال، ومن فوق كتفه، دون أن ينهض. كان روبيز يكتب. وهو جالس أمام مكتب مغطى بالكتب. وأمامه النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة على مصراعيها لضوء الفجر. وتكلم دون أن يلتفت:

- أتعرف ما أكتب؟... ولكنك لن تقول لأحد... أليس كذلك؟ أنت تدعني... منشور لافتتاح مجلة دورمس. ومن الطبيعي ألا أوقعه... خصوصاً إني أثق في نفسي فيه... ثم، بما أنهم سيعرفون في النهاية إني أموّل هذه المجلة فإنني أفضل ألا يعرف بسرعة أنني أعاون في تحريرها. هكذا: أكتم الأمراً ألم تقل لي أن أخاك الصغير يكتب؟ ما اسمه؟

- أوليفيه.

- أوليفيه، نعم، لقد نسيت... لا تبق واقفاً هكذا. إليك هذا المقعد. ألا تشعر بالبرد؟ أتريد أن أغلق النافذة؟.. أنه ينظم أشعاراً أليس كذلك؟ يجب أن تحملها إلى.. ومن الطبيعي ألا أعد بأخذها. ولكن منها يكن فإنه ليدهشني أن تكون سيئة. أنه يبدو ذكياً، أخوه. ثم هو يوحى أنه على بيته. أريد التحدث إليه. قل له أن يأتي لمقابلتي. أليس كذلك؟ اعتمد عليك. أتريد سيكاراة؟

ومد يده بعلبة السكاير.

- بطانية خاطر.

- والآن إسمع يا فنسان؛ يجب أن أكلمك جدياً. لقد تصرفت كطفل ذلك المساء... وأنا أيضاً. لا أقول أنني أخطأت باصطحابك إلى بدره؛ لكنني أشعر بأنني مسؤولة نوعاً عن المال الذي خسرته ولا أدرى إذا كان هذا هو ما يسمونه توبيخ الضمير. ولكنه بدأ يعكر النوم والضم عني، بشرف! ثم إنني أفكر في تلك المرأة المسكينة التي حدثني عنها... ولكن هذا أمر آخر، فلنبعده عنه؛ أنه مقدس. وما أريد أن أقوله لك هو أنني أرغب، إنني أريد، نعم، بالتأكيد، أن أضع تحت تصرفك مبلغاً يساوي المبلغ الذي خسرته. أنه خمسة آلاف فرنك أليس كذلك؟ ستقاوم من جديد. ومرة أخرى أيضاً اعتبر إني أنا الذي جعلك تخسر هذا المبلغ، وإن مددين لك، فلا تشكوني. ستعينيه إلى إذا ربحت، وإلا، فلا يهم!... ستصبح خالصين. عد إلى مقمرة بدره هذا المساء كان لم يكن شيء. وستوصلك السيارة ثم تعود إلى هنا لتنقلني إلى منزل الليدي غريفث حيث أرجو أن تأتي لتجدني. سأعتمد عليك، أليس كذلك؟ ستعود السيارة لتنقلك من عند بدره.

وفتح درجاً اخرج منه خمس ورقات مالية أعطاها لفنسان:

- اذهب بسرعة . . .

- ولكن والدك . . .

- آه! نسیت آن آقوقل لک: لقد مات منذ...

ثم اخرج ساعته وهنف:

- فات الوقت... مضى نصف الليل. . اذهب سرعة.
لقد مات منذ أربع ساعات

قال ذلك دون أية عجلة، بل على العكس، بنوع من
البراحي.

- لا تبقى لـ...

فقطاطعه روبي:

- للسهر عليه؟ كلا. أن أخي الصغير يتکفل بذلك. هو
فوق مع خادمته العجوز التي كانت تتفاهم مع المرحوم أفضل
مني

وبما أن فنسان لم بحرك فقد نابع:

- اسمع با صدقي العزيز. لا أريد أن أبدو لك وقحاً
لكنني ارتعب من العواطف الجاهزة. لقد حملت لوالدي في فليبي
جهاً بنوياً لا قياس له، إلا أن هذا الحب كان حائراً قليلاً في
الأيام الأولى وقد توصلت إلى أن أضيق به. والعجوز لم يعد علي
في الحياة بسوى الضجر، والمعاكسات، والمضايقة. وإذا كان قد
بقي في قلبه شيء من الحنو فمن المؤكد أنه لم يكن بشرع به
نحوه. واندفعاتي نحوه، في الوقت الذي كنت لا أعرف فيه
الاعتدال، لم تعد علي بسوى الردود الجافة، وإن ذلك قد لقيني
درساً. وقد رأيت بنفسك وأنت تعتنى به . . . هل شكرك مرة

واحدة؟ هل حصلت منه على أقل نظرة امتنان؟ على ابتسامة هاربة؟ كان يعتقد أن كل شيء مدين له. أوه! لقد كان من طراز الرجال الذين يقال عن واحدتهم أنه «ذو طبع» اعتقاد أنه عذب أمي كثيراً، ومع ذلك كان يحبها، إذا كان قد أحبحقيقة. واعتقد أنه سبب الألم لكل من حوله، لأهل بيته، ل克لابه، لخيوله، لعشيقته؛ أما أصدقاؤه فلا، لأنه لم يكن له صديق. موته جعل كل فرد يتنفس الصعداء. وأرى أنه كان رجلاً ذا قيمة كبيرة «في اختصاصه» كما يقال، إلا أنني لم استطع اكتشاف هذا الاختصاص. كان ذكياً جداً وهذا أكيد. وكنت أحفظ له في أعماقي بشيء من الإعجاب، ولا أزال. ولكن، أما التلويح بالمنديل... أما أن أبيكي... فلا، لست طفلاً لأفعل ذلك. هيا! اذهب بسرعة وعد بعد ساعة لأخذني من عند ليليان - ماذا؟ أى زعجك ألا تكون مرتدياً السموكن؟ ما أغارك لماذا؟ سنكون وحدينا. وأعدك بأن أبقى مرتدياً السترة القصيرة. مفهوم. أشعـل سيـكارـة قبل خروـجـكـ. وأرسـلـ إـلـيـ السيـارـةـ بـسـرـعـةـ؛ـ سـتـعـودـ لـتـنـقـلـكـ.

ورأى فنسان يخرج، فهز كتفيه ثم ذهب إلى غرفته ليرتدي ملابسه التي كانت تنتظره مبعثرة على أريكة.

في غرفة في الطبقة الأولى ينام الكونت العجوز على سرير الموت. وضعوا صليباً على صدره إلا أنهم نسوا ضم يديه. أن لحية طويلة لبضعة أيام تلطف زاوية ذقنه. والغضون العرضية

التي تحيط الجبهة، تحت شعره الأشهب المرتفع كالفرشاة، تبدو أقل عمقاً، وكأنها مسترخية. والعين داخلة تحت أقواس الحاجب حيث يتفسخ دغل من الوبر. لقد تأملته طويلاً لأننا لن نراه بعد الآن. وهناك مقعد على رأس السرير كانت تجلس عليه الخادمة العجوز سيرافين لكتها نهضت، واقتربت من منضدة عليها مصباح زيتى من الطراز القديم يضيء الغرفة بشكل غير كاف: القنديل بحاجة إلى رفع فتيله. وهناك سديل (أباجور) يسلط النور على كتاب يقرأ فيه غونتران الصغير.

- أنت تعب يا سيد غونتران ومن الأفضل أن تذهب وتنام.
فرفع غونتران نظراً كثير الرقة إلى سيرافين. شعره الأشقر الذي أبعده عن جبهته يسترسل على صدغيه. هو في الخامسة عشرة، ووجهه شبه النسائي لا يعبر إلا عن الحنون والحب.
وقال:

- طيب! وأنت؟ أنت التي يجب أن تنمو يا مسكينتي فين.
فقد ظللت الليل واقفة كل الوقت تقريباً.

- أوه! أنا! أنا معتادة السهر. ثم إنني ثمت في النهار، بينما
انت...

- لا. دعيوني. لا أشعر بتعب. ويفيدني أن أظل هنا أتأمل وأقرأ. لقد عرفت والذي قليلاً؛ وأعتقد أنني سأنساه بسرعة إذا لم انظر إليه جيداً الآن. سأشهر قربه حتى الفجر... كم مضى عليك في بينما يا فين؟

- أنا هنا منذ السنة التي سبقت ولادتك، وأنت الآن في السادسة عشرة.

- أتذكرين والدتي جيداً؟

- إذا كنت أذكر أمك؟.. كما لو سألتني إذا كنت أذكر اسمي. بالتأكيد أذكر أمك.

- وأنا أيضاً أذكرها قليلاً، ولكن ليس تماماً... لم يكن عمري إلا خمس سنوات لما ماتت... قولي... هل كان والدي يكلمها كثيراً؟

- هذا يتوقف على الأيام... والدك لم يكن كثير الكلام ولم يكن يجب أن يوجه إليه الكلام أولاً. ولكن منها كان الأمر فقد كان يتكلم أكثر قليلاً من الأيام الأخيرة. - ثم، من الأفضل إلا نحرك الذكريات ولترك للرب مهمة الحكم على كل ذلك.

- أعتقدين حقيقة أن الله سيهتم بكل هذا يا عزيزتي فين؟

- إذاً لم يكن الله فمن تريده أن يكون؟

- ووضع غونتران شفتيه على يد سيرافين المحمرة.

- أتعرفين ما يجب أن تفعلي؟ اذهبي ونامي. أعدك بأنني سأواظبك عند طلوع النهار. حيثش اذهب أنا للنوم بدوري. أرجوك.

وحالاً تركته سيرافين وحيداً ركع السرير وغمس جبهته في

الشرافف، لكنه لم يستطع أن يبكي؛ وما من انفعال أهاج قلبه، وطلت عيناه جافتين لا تقبلان الدموع. حينئذ نهض، وتطلع إلى ذلك الوجه الفاقد الحس. كان يريد في هذه اللحظة الاحتفالية أن يشعر بما لا أدرى من السمو ومن الخارج، وأن يصغي إلى اتصالات من العالم الآخر، وأن يقذف بتفكيره إلى مناطق أثيرية فوق الحس. ولكن تفكيره ظل معلقاً بسطح الأرض. تطلع إلى يدي الميت الخاليتين من الدم، وتساءل كم من الوقت تستمر الأظافر في النمو. وقد صدم لرؤيا اليدين منفصلتين، وأراد أن يقربها من بعضها البعض ويوحدهما، ويجعلهما يسكنان بالصلب. إنها فكرة جيدة. فكر أن سيرافين ستدهش حين تعود يدي الميت متهدتين. وتلهي مقدماً بدهشتها، ثم عاد حالاً واحتقر نفسه لهذا التلهي. ومهما يكن، فقد انحني على السرير، وأمسك بذراع الميت الأكثر بعده عنه، الذراع متصلة بترفض الانصياع. وأراد غونتران أن يطويها قسراً لكنه حرك بذلك الجسد كله. أمسك باليد الأخرى؛ لقد بدت هذه أكثر ليونة، واستطاع غونتران أن يوصل اليد إلى المكان المناسب، وأخذ الصليب وحاول أن يضعه ويبثته بين الإبهام والأصابع والأخرى؛ ولكن ملامسة هذا اللحم البارد جعلته يخور. وظن أنه سيصاب بأذى. وشعر بدافع لمناداة سيرافين. ترك كل شيء. - الصليب معوج على الشرشف المدعوك، واليد التي سقطت دون حركة في مكانها الأول. وفي هذا

الصمت المأني الكبير سمع فجأة زحمة فظيعة ملأته رعباً كما لو
أن أحداً غيره... والتفت. ولكن لا. أنه وحيد. لقد خرجمت
هذه الصخرة الرنانة منه، من أعماقه هو الذي لم يعرف من قبل
الشتمة ثم عاد إلى الجلوس وانغمس في القراءة.

٥

كانا روحًا وجسداً لا يدخل بينها حدة العقرب أبداً.
سانت بوف

بعدما استوت ليليان لمست بأطراف أصابعها شعر روير
الكستنائي.

- لقد بدأت تخلع يا صديقي. انتبه. انك لم تبلغ الثلاثين
بعد. والصلع لا يلائمك. انت تأخذ الحياة بكثير من الجد.

فرفع روير وجهه نحوها وتطلع إليها وهو يبتسم:
- ليس بقريبك. أؤكد لك.

- هل قلت مولينيه أن يأتيلينا؟

- نعم، لأنك طلبت مني ذلك.

- و... هل أقرضته مالاً؟

- خمسة آلاف فرنك . قلت لك ذلك - ليذهب ويخسرها من جديد عند بدره .
- لماذا ت يريد ان تخسرها ؟
- هذا واضح . فقد رأيته في المساء الأول . انه يلعب كل شيء بالقلوب .
- لا يزال امامه وقت لیتعلم . . . اتراهن على انه سيربح هذا المساء ؟
- اذا شئت .
- اوه ! ارجوك لا تقبل ذلك كعقاب . فأنا أحب ان يفعل المرء ما يفعله عن طيبة خاطر .
- لاتغضبي . موافق . على ان يعيد المبلغ اليك اذا ربح ، اما اذا خسر فستدفعينه لي . ايلاثمك هذا ؟
- وضغطت على زر الجرس .
- هات لنا توكي⁽¹⁾ مع ثلاثة كؤوس . - اذا عاد بالخمسة آلاف فرنك فقط فستُترك له ، اليك كذلك ؟ اذا لم يربح او يخسر . . .
- هذا لا يحصل ابداً . واهتمامك به عجيب .

(1) توكي : خمر اصفر ذهي يستخرج في المحر . (المترجم)

- وعجب ألا تجده شائقاً .
- تجده شائقاً لأنك مغزمه به .
- صحيح يا عزيزي ! يمكن قول ذلك لك . ولكن ليس بسبب هذا اجده شائقاً . بالعكس : عندما يمسك احدهم برأسى فإن ذلك « في العادة » ، يتذكرني باردة . ظهر خادم يحمل الخمر والكتؤس على طبق . وسكب الخادم الخمر ، وقرعا الكأسين .
- ستشرب أولاً لأجل الرهان ، ثم تشرب مع الرابح .
وقال روبير :
 - انني اجده مضجراً ، فنسان « لك » هذا ؟
 - اوه ! فنسان « سي » ! كان غيرك الذي أتى به ا ثم اني انصحك بآلا تكرر في كل مكان انه يضجرك . سيفهم الجميع بسرعة لماذا عاشرته .
- وتحول روبير قليلاً ووضع شفتيه على قدم ليليان العارية ، فأسرعت هذه وساحت قدمها وخباتها تحت مروحتها . فقال :
 - أجب ان أحجل ؟
 - لا ضرورة لذلك معي . انك لا تستطيع ، وأفرغت كأسها ، وقالت :
 - أتريد ان اقول لك يا عزيزي ؟ انك تحمل جميع صفات الأديب : فأنت مغرور ، خبيث ، طماع ، متلون ، اناي ...
 - لقد غمرتني .

- نعم ، كل هذا جذاب . لكنك لن تكون ابداً روائياً صالحًا .
- لأنني ...
- لأنك لا تعرف الإصغاء .
- يخيلي إليّ انني اصغي إليك جيداً .
- هو الذي ليس اديباً يصغي إليّ افضل منك . ولكن حين تكون معاً فأننا التي تصغي .
- انه لا يكاد يعرف ان يتكلم .
- هذا لأنك تخطب كل الوقت ،انا اعرفك ... فانت لا تتركه يقول كلمتين .
- اعرف سلفاً كل ما يمكن ان يقوله .
- اتظن ذلك ؟ ... هل تعرف جيداً قصته مع تلك المرأة ؟
- اوه ! قضيابا القلب . انها اكثرا الامور بعثنا على الضجر !
- واحبه كثيراً عندما يتكلم عن التاريخ الطبيعي .
- التاريخ الطبيعي ، انه ايضاً اكثرا ازعاجاً من قضيابا القلب ... إذاً فقد ألقى عليك درساً ؟
- لو استطع ان اعيد عليك ما قاله لي ... انه مؤثر يا عزيزي قص على كثيراً من الأشياء عن حيوانات البحر . اتعلم انهم يبنون اليوم في اميركا مراكب زجاجية على الجانبين ليروا كل ما يحيط بهم وما في اعماق الأوقیانوس ؟ .. يبدو ان هذا

مدهش . . . وفي الامكان رؤية المرجان الحي . و . . . و . . .
ماذا تسمى هذا؟ . . . - لؤلؤ، أسفنج، أشنة algues، أرصفة سمك . ويقول فنسان ان هناك نوعاً من السمك يموت
اذا صار الماء اكثراً او أقل ملوحة ، وان هناك اسماكاً اخرى على
العكس تحتمل درجات الملوحة المختلفة ، وتبقى على حافة
المجاري ، هناك حيث يصبح الماء اقل ملوحة ، لكي تأكل
الاسماك الأولى حين تضعف . . . اؤكد لك ان هذا مدهش
 جداً . وحين يتكلم عن ذلك يصبح غير عادي ، ولا تكاد
تعرفه . . لكنك لا تعرف كيف تدعه يتكلم . . . والمثل على
ذلك عندما يروي حكايته مع لورا دوفيه . . . نعم ، هذا هو
اسم تلك المرأة . . . اتعرف كيف عرفها؟ .

- اقال لك ذلك؟

- لي يُقال كل شيء . وأنت تعرف ذلك أهيا الرجل
المخيف! . . . وداعبت وجهه بريش مروحتها المطبقة . هل يمر في
بالك أنه جاء لرؤيتي كل يوم منذ ذلك المساء الذي أتيت به
إلي؟ .

- كل يوم لا، حقيقة، لم يمر في بيته

- في اليوم الرابع لم يستطع أن يمسك شيئاً، حتى كل
شيء ولكن في كل يوم من الأيام التي قلت كان يضيف بعض
الإيضاحات .

- ولم تضجرني أنت تستحقين الإعجاب

- قلت لك أني أحبه.

وامسكت ذراعه بعنجهة.

- وهو . أحبب ملك المرأة؟.

فضحكت ليليان:

- كان يحبها. أوه!... لقد اضطررنا الأمر أولاً أن أظهر اهتمامي بها بكثير من الحرارة، حتى أني اضطررت إلى البكاء معه ، مع اني كنت غيوراً بشكل خيف . أما الآن فلا شيء . اليك كيف بدأ الأمر: كان الاثنان في بو، في مستشفى ، في مصح ، حيث أرسلنا على افتراض أنها مصابان بالسل ، أما الحقيقة فهي أن أيّاً منها لم يكن مصاباً. لكنها كان يعتقدان أن مرضهما خطير . ولم يكونا بعرفان بعضهما البعض بعد . وقد رأيا بعضهما بعضاً للمرة الأولى حين كانوا متعددين ، أحدهما إلى جانب الآخر ، على شرفة حديقة ، وكل منها على مقعد طويل فرب آخرين من المرضى الذين ظلوا متعددين طوال النهار في الهواء الطلق للمعالجة . وبما أنها كانا يحسبان الموت قريباً ، فقد تصورا أن كل ما يفعلانه لا يترتب عليه أي نتيجة . كان يردد لها كل لحظة أنها لن يعيشها أكثر من شهر؛ وكان ذلك في الربع . وهي وحيدة هناك . وزوجها أستاذ صغير للغة الفرنسية في إنكلترا تركته لتأتي إلى بو . وهي متزوجة منذ ثلاثة أشهر . وقد اضطر إلى انفاق كل ما يملكه لإرسالها إلى هناك . وكان يكتب إليها كل يوم . أنها صبية من عائلة شريفة ، نشأت نشأة عالية ، وهي كثيرة

التحفظ، كثيرة الحجل... ولكن هناك... لا أعرف الكثير عما استطاع فنسان أن يقوله لها. فقد اعترفت له في اليوم الثالث بأنها لم تعرف ما هي اللذة مع أنها كانت سافر مع زوجها و تستسلم له.

- وهو، ماذا قال لها حينئذ؟..

- أخذ يدها المتلدية إلى جانب المفعد الطويل و ضغطها طويلاً على شفتيه.

- وأنت، ماذا قلت حين روى ذلك؟

لــ أنا!.. خيف... تصور أن ضحكة مجونة انتابني ولم استطع امتلاك نفسي، لم أستطع أن أتوقف... لبس ما فاله لي هو الذي دفعني إلى الضحك. بل هي هيئة الاهتمام الواله القى اعتقادت أن من واجبي أن أخذها لأجعله يستمر. كنت أخاف أن أبدو أني أتلهمي. ثم، في الحقيقة: كان حملاً جداً وحزيناً جداً. كان شديد التأثر وهو يحدثنى! لم يخبر أحداً ببنيء من هذا، ومن الطبيعي أن أهله لا يعرفون عن ذلك شيئاً.

- إن الذي يجب أن يكتب الروايات هو أنت.

ــ بالتأكيد، يا عزيزى لو عرفت فقط بأية لغة!.. ولكن بين الروسية والإإنكليزية والفرنسية لن أستطيع أن أحزم أمري. وأخيراً، جاء في الليلة التالية ليجد صديقه الجديدة في غرفته وهناك كشف لها كل ما لم يستطع زوجها أن يعلمها إياه، وأعتقد أنه علمها جيداً. ولكن لما كانوا مفتتين أنها لن يعيش إلا قليلاً

فمن الطبيعي ألا تخدا أي حيطة، ومن الطبيعي، وفدى
ساعدها الحب، أن تبدأ حالتها الصحيحة بالتحسن بعد فلليل من
الوقت. وحين أدركت أنها حامل كان كلامها موهاً بالأحر. وكان
ذلك في الشهر الأخير وبدأ الحر يسند. وبو في الصيف لا يمكن
الإقامة فيها، فعادا معاً إلى باريس. وكان زوجها يعتقد أنها عند
أهلها الذين يديرون مدرسة داخلة بالقرب من لوكمسمور؛
لكنها لم تخرب على رؤوبنهم. أما أهلها فبظنون أنها لا نزال في
بو؛ ولكن لن يطول الأمر حتى يظهر كل شيء. كان فرسان قد
أقسم في بادئ الأمر على أنه لن يبركها. وعرض عليها أن
يدعها معاً إلى أي مكان، إلى أميركا، إلى أوقانيا. لكنها بحاجة
إلى المال. وعند ذلك تماماً التقى بك وبدأ بقامر.

- لم يحدني بشيء من كل هذا.

- لا تفل له أنى حدثنك!

وتوقفت وأرهفت سمعها:

- أظن أنه هو... فاللي أنه حسب أنها ستجنّ أثناء
الرحلة بين بو وباريـس. فقد أدركت أنها حامل، وكانت جالسة
أمامه في عربة القطار، وكانا وحيدين. لم تحدثه بشيء منذ
الصباح؛ وكان مضطراً إلى الاهتمام بكل شيء يتعلق بالرحيل؛
وقد تركته بفعل ويدت أنها لا تعي شيئاً. أخذ بديها إلا أنها
كانت تنظر أمامها، شاردة اللب، كأنها لا تراه، وشفناها
مختلجان. فانحنى عليها وكانت نقول: «عشيق! عشيق! لي

عشيق!» كانت تردد ذلك بلهجة واحدة، وكانت الكلمة نفسها تتكرر كأنها لا تعرف غيرها... أؤكد لك باعزizi أنني لم أعد أشعر بأية رغبة في الضحك حين قص علي هذه القصة. لم أسمع في حياتي شيئاً مؤثراً أكثر من ذلك. لكنني أدركت أيضاً أنه كان يتفلت من كل ذلك بقدر ما كان ينكلم حتى ليتمكن القول أن عاطفته تذهب مع كلامه، وأن تأثيري بدأ ينوب عن تأثيره.

- لا أدرى كيف ستقولين ذلك بالروسية أو الإنكليزية، أما بالفرنسية فأشهد أنه ممتاز.

- تذكرأ. أعرف هذا. وعلى أثر ذلك حدثني عن التاريخ الطبيعي، وقد حاولت أن أدخل في روعه أن من الشناعة أن يضحي بهنته في سبيل حبه.

- وبشكل آخر، أشرت عليه أن يضحي حبه وعرضت عليه أن تخلي محل هذا الحب.

فلم تجحب ليليان شيئاً. وقال روبيرو وهو ينهض:

- هذه المرة، أظن. أنه هو... أسرعني، كلمة أخرى أيضاً قبل أن يدخل لقد مات والدي منذ قليل.

فضاحت ببساطة:

- آه!

- لا يوحى إليك شيئاً أن تصبحي الكونتيس دو باسافان؟

فانقلبت ليليان إلى الوراء وهي تقهره.

- ولكن يا عزيزي . . . ما أتذكرة» جيداً على ما أظن، هو أنني نسيت زوجاً في إنكلترا. ماذا؟ ألم أقل لك ذلك قبلأ؟
- يمكن أن لا.
- هناك لورد غريفث موجود في مكان ما. واسسم الكونت دو باسافان الذي لم يؤمن قط بصحه لقب صديقه. وأضافت هذه:
- قل، أتخيلت عرض ذلك علي لتغطي جانتك؟ كلا يا عزيزي، كلام لنيني كما نحن، صديقين، أليس كذلك؟ ومدت يدها اليه فقبلها.
- هتف فنسان وهو يدخل.
- بالطبع! كنت واثقاً من ذلك. لقد ارتدى ملابسه، الخائن.
- فقال روبير:
- نعم، وعدته أن أبقى بالسنه القصيرة لثلا أخجله. عفواً يا عزيزي، لكتني تذكرت فجأة أنني في حالة حداد.
- بقي فنسان شامخ الرأس، وكل ما فيه يوحى النصر والسرور. وقفزت ليلييان عند وصوله، وتأملت وجهه لحظة ثم اندفعت بسرور نحو روبير وأوسعت ظهره لكيما وهي تنفس وترقص وتصرخ ان ليلييان تزعجي قليلاً عندما تتشيطن كالأولاد).
- خسر رهانه! خسر رهانه!

فستان:

- أي رهان؟

- لقد راهن أنك ستخسر من جديد. هيا! قل: كم
ربحت؟

- حلت على شجاعة خارقة للعادة، فضيلة التوقف عند
خمسين ألفاً، فترك اللعب عند هذا الحد.
وأفلتت من ليليان زبعة سرور وصرخت:
- برافو! برافو!

ثم قفزت إلى عنق فنسان الذي أحس على طول جسده
بليونة هذا الجسد المشتعل المعطر بعطر الصندل الغريب. وقبلته
ليليان في جبهته، وخدديه، وشفتيه. وتخلص منها وهو يترنح.
وأخرج من جيده رزمة من المال قدم منها خمس أوراق لروير
وقال:

- أمسك، خذ دينك.

- أنت الآن مدين بها للبيدي ليليان.

واعطاها روير الأوراق فألقتها على أريكة. كانت نلهث،
وسارت إلى الشرفة لتنفس. أنه الوقت القليل النور حيث يتنهى
الليل ويقوم الشيطان بإجراء حساباته. لم يكن يسمع في الخارج
أي ضجة. وكان فنسان قد جلس على الأريكة، فالفتت ليليان
نحوه، للمرة الأولى، وخاطبته بصميم المخاطب المفرد:

- والآن، ماذا ستفعل؟

فأخذ رأسه بين يديه وقال بنوع من السحيب:

- لا أدرى

فاقتربت منه ليليان ووضعت يدها على جبهة التي رفعها؛
كانت عيناه جافتين متأججتين. وقالت:

- بانتظار ذلك سنقرع الكؤوس نحن الثلاثة.

وملأت الأقداح الثلاثة بالنوكبي.

وبعدما شربوا قالت:

- والآن إذهبنا. لقد تأخر الوقت ولم أعد أستطيع الاحمال.
ورافتتها إلى غرفة في جانب المدخل. كان روبيير يمشي في المقدمة
فوضعت في بد فنسان شيئاً معدنناً صغيراً وهمست:

. اخرج معه، وعد بعد ربع ساعة.

وكان في تلك الغرفة خادم ينام فهزته من ذراعه.

- أنر هذين السبدين حتى أسفل.

كانت السلم مظلمة. وإنارتة بالكهرباء من أبسط الأمور
دون شك، إلا أن ليليان تحرص دائمًا على أن يرى خادمها
خروج ضيوفها.

أشعل الخادم شموع مصباح كبير وأمسك به عالياً أمامه وهو
يتقدم روبيير وفنسان على الدرج وكانت سارة روبيير تنتظر أمام
الباب الذي أطبغه الخادم وراءهما.

وقال فنسان حين فتح الآخر باب السيارة وأشار عليه أن
يصعد:

- أظن أني سأعود إلى البيت على قدمي أنا بحاجة للسير
قليلًا لايجاد توازني.

- حقيقة لا تزيد أن أصبحك؟
وأنمسك روبير فجأة بيد فنسان اليسرى المطبقة.
- افتح يدك! هيا! أرقني ما فيها.

كانت في فنسان تلك السداقة التي تجعله يشعر بالخوف من
غيرة روبير، فاحمر وجهه وهو يفتح أصابعه. وسقط مفتاح صغير
على الرصيف فتناوله روبير، ونظر إليه ضاحكاً وأعاده إلى فنسان
وقال:

- طبعاً!

وهز كتفيه. ثم دخل السيارة وانحنى إلى الوراء نحو فنسان
الذي ظل مرتبكاً:

- اليوم هو الخميس أ قل لأخيك أني انتظره في الرابعة من
هذا المساء.

وأطبق باب السيارة بسرعة دون أن يترك لفنسان الوقت
لللجاجة.

وذهبـت السيارة. ومشى فنسان بضع خطوات على
الرصيف، واجتاز السين ووصل إلى ذلك الجزء من التوينلري
الواقـع خارج الحاجـز الحديـدية. واقترب من حوض صغير وبلل

منديله بالماء وأمره على جههه وصدغهه. ثم عاد منمهلاً نحو مسكن ليليان. فلتركه حين رأه الشيطان المتهي يدخل المصالح الصغير في القفل دون ضجة.

هذه هي الساعة التي ستنام فيها لورا، عنصريه بالأمس، في غرفة كثيبة من فندق، بعدها بكت وأعولت طويلاً. وعلى حافه الباخرة التي أعادت أدوار إلى فرنسا كان هذا، عند أول صوء للفجر، بعيد قراءة الرساله التي تلفاها من لورا. إنها رساله شاكية تدعوه فيها لنجدتها. وكان شاطئه مسفط رأسه الجميل قد بدا أمام عينيه، لكنه كان في حاجة إلى عين ممرسه لتراه من خلال الضباب. وفي السماء لم تكن أية سحابة حيث بدأت تبتسم نظره الله. وكانت جفون الأفق المحمر قد ارتفعت. كم سيكون الطقس حاراً في باريس! لا يزال لديه متسع من الوقت للقاء برناـر. وهذا هو يستيقظ في سرير أوليفيه

كلنا بناديق :

وذلك الرجل الجزيل الاحترام الذي
دعوته أبي لم أدر أين كان لما طبعت^(١)
شكسبير

رأى برnar حلمًا آخر، لا يذكر بماذا حلم، ولا بمحاول أن يتذكر الحلم إنما يريد أن ينساه. عاد إلى عالم الواقع ليشعر بجسد أوليفيه يثقل عليه. كان صديقه قد اقترب منه أثناء نومهما، أو أثناء نوم برnar على الأقل، وفضلاً عن ذلك فإن ضيق السرير لا يسمح بكتير من المسافة بينهما؛ وهو الآن ينام على جنبه. حيث يشعر برnar بنفسه الحار بدغدغ عنقه. لم يكن برnar يرتدي سوى قميص نهاري قصير؛ وكانت ذراع أوليفيه على عرمس جسله تضيق على لحمه دونوعي . وارتاد برnar لحظة في ما إذا كان صديقه ينام حقيقة. مخلص بهدوء دون أن يوقد أوليفيه، ونهض، وارتدى ملابسه، وعاد ليتمدد على

(١) بالإنكليزية في الأصل .

السرير. لا يزال الوقت مبكراً للذهاب. الساعة هي الرابعة، والليل ما كاد يشحب ساعة أخرى للراحة، والاندفاع لبدء النهار ببسالة. ولكن لا مجال للنوم بعد وتأمل برناز الزجاج المرقق والجدران التهباء في الغرفة الصغيرة، والسرير الحديدي الذي يتململ جورج عليه وهو يحلم. وقال لنفسه:

- بعد لحظة سأمضي نحو مصيري. ما أجمل كلمة «المغامرة» ما يجب أن يحدث. كل المدهش الذي تتظري. لا أدرى إذا كان هناك آخرون مثل، ولكن منذ ما استيقظت أحبت أن أحضر أولئك الذين ينامون. أوليفييه، يا صديقي، سأذهب دون أن أودعك. هيا! قف، يا برناز الشجاع: حان الوقت.

فرك وجهه بزاوية منشفة مبللة؛ وارتدى قبنه، وانتعل حذاءه، وفتح الباب دون صجة. إلى الخارج!

آه! كم يبدو مفداً لكل كائن ذلك الهواء الذي لم يتنشهه أحد بعد!.. سار برناز على عاداته حاجز اللوكسمبور الحديدي؛ وهبط إلى شارع بونابرت، وبلغ الأرصفة، واجاز السين. فكر في قاعدة حياته الجديدة التي وجد صبغتها منذ قليل: «إذا لم تفعل أنت ذلك فمن ب فعله؟ وإذا لم تفعله حالاً فمني بكون ذلك؟» وفكّر: «أشياء عظيمة بحسب عملها». خيل إليه أنه بسبر نحوها. «أشياء عظيمة» هكذا ردّ وهو بسير. لو كان على الأقل يعرف ما هي! في انتظار ذلك عرف أنه حائط: هذا هو

بقرب سوق الحضر. معه في جيده أربعين عشر سنيناً، ولا فلس زيادة. دخل إلى بار؛أخذ كعكة وقهوة بالخليل على الزنك . الثمن: عشرة سنتيمات. يبقى معه أربعة ؛ وبشيء من الغطرسة ترك اثنين منها على الطاولة، وناول الإنين الباقيين لأحد الحفاظ الذي كان ينشغل عليه التفاصيات. إحسان؟ نحن؟ لا يهم هو يشعر الآن إنه سعيد كملك. ليس معه شيء: كل شيء له! وقال في نفسه: «أني انتظر كل شيء من العناية الإلهية لكن ليتها ترضي أن تصفع أمامي عند الظهور شيئاً من اللحم المشوي، لكنني تفاهمت جيداً معها». (لأنه لم يتناول طعامه مساء البارحة). كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طوبل. عاد برئار إلى الرصيف. شعر أنه خفيف؛ إذا ركض خجل إليه أنه يطير. كانت أفكاره تقفز بلذة في دماغه. وفكرة:

«إن الصعب في الحياة هو أن تأخذ الشيء نفسه مأخذًا جدياً مدة طويلة. وهكذا، فحب والدي لهذا الذي أدعوه والدي - هذا الحب، آمنت به خمسة عشر عاماً؛ وأمنت به البارحة أيضاً. أما هي فلا يمكن أن تكون أخذت حبه على محمل الجد كل ذلك الوقت. أود لو أعرف أن كثاحنمرها أو لا أزال احترمها لأنها جعلت من ولدها بندوفاً. تم إني، في أعمقى، لا أحرص على معرفة ذلك كما أدعى. أن العواطف نحو الذرية تكون جزءاً من الأمور التي نفصل عدم محاوله إظهارها للنور. أما في ما يتعلق بالروج المخدوع فالامر بسيط

جداً: لفدي أعضته منذ أيام من ذكره محب أن أعرف اليوم بأنني لمأشعر نحوه بقدر كبير - وهذا كل ما آسف له هنا. أما القول أنني لو لم أغتصب الدرج، لكنت استطعت الاعتقاد طوال حياتي أن كنت أغدرني عواطف غير طبيعية حيال أبي! .. ما لها تعزبة في المعرفة! ومع ذلك لم أغتصب الدرج تماماً، لم أفك حري في فتحه ... ثم، هناك ظروف تخفيفية: أولاً كنت ضحراً بشكل مخيف ذلك النهار. تم ذلك الفضول، ذلك «الفضول المسؤول» كما قال فنيلون، هو ما أؤكّد إني ورته حقيقة عن والدى الحقيقي، إذ لا أثر له في عائلة بروفيناندو لم أفق رجلاً أقل فضولاً من السيد زوج أمي؛ هذا اذا لم يكن الفضول هو الأولاد الذين جعلها تلدهم. يجب ان اعيد التفكير فيهم بعد العشاء . ليس الأمر واحداً بين رفع الصفيحة الرخامية عن منضدة ومشاهدة الدرج يتتابع ، وبين اغتصاب الدرج . أنا لست سارقاً بواسطة الكسر والخلع. وقد يحدث لأي انسان ان يرفع رخامة عن منضدة. لابد أن يكون تبزيه^(١) في مثل سفي حين رفع الصفيحة. أما ما يمنع فعل ذلك بالمنضدة عادة فهو الساعة . لم أكن لأفكر في رفع صفيحة رخامة المنضدة لو لم أكن أريد

(١) تبزيه : سطل يوناني وشخصية نصفيها تاريخي والنصف الآخر اسطوري يعزى اليه قتل المينتور أكل اللحوم البشرية . وقد حكم عليه في الجحيم أن يظل جالساً إلى الأبد لأنَّه أهان بلوتو^{*} المترجم .

إصلاح الساعة... أما ما لا يحدث لأي كان فهو أن يجد تحتها سلاحاً، أو رسائل غرام مجرمة! آه! المهم هو إنني علمت منها كل شيء. ليس في إمكان الجميع أن يتكلوا على وساطة الأشباح، مثلما فعل هاملت! هاملت! عجيبكم مختلف وجهات النظر، بين أن يكون المرء ثمرة جريمة أو ثمرة سرعة. سأعود إلى ذلك بعد العشاء... هل كان شيئاً بالنسبة إلي أن أقرأ هذه الرسائل؟ لو كان هذا شيئاً... كلا، لشعرت بنوبخ الضمير. لو لم أقرأ هذه الرسائل لاضطررت أن استمر عائشاً في الجهل، والكذب، والخضوع. لنروح عن أنفسنا قليلاً. لنبعداً... «برنار! برنار! هذا الشباب الأخضر...» كما يقول بوسو: اجلس هناك على ذلك المقعد يا برنار. ما أحمل هذا الصباح! هنالك أيام تبدو الشمس أنها تداعب الأرض حقيقة. لو استطعت أن افترق عن نفسي لنظمت أشعاراً، بالتأكيد».

ومدد على المقعد، وافترق عن نفسه إلى حد أنه نام.

السمس المرتفعه الآتية من النافذة المفتوحة جاءت تداعب
قدم فنسان العارية، على السرير العريض حيث كان يام قرب
ليليان. ونهضت هذه، وهي غير عالمه أنه استيقظ، وتطلعت إليه
ودهشت لوجوده مغتماً.

ربما كانت اللidi غريفث تحب فنسان، لكنها تحب فيه
النجاح. كان فنسان كبيراً، جيلاً، رشيقاً، لكنه لم يكن يعرف
أن يقف، ولا أن يجلس، ولا أن يهض. كان وجهه معبراً،
لكنه لا يحسن ترتيب شعره. وكانت تعجب على الخصوص
بجرأة تفكيره؛ من المؤكد أنه كان متعلماً، لكنه يبدو لها غير
متتفق. وانحنت بغريرة العشيقة والأم فوق هذا الولد الكبير
الذي أصبحت تهم بنكوبينه. أنها ستجعل منه صنعاً، ثم تماها
علمته كيف يعتني بأظافره، وأن يفرق شعره على جانب ويحذفه
إلى الوراء. وبدت جبهته نصف المقططة بالشعر أكثر شحوباً
وأكثر ارتفاعاً. وأخيراً أبدلت تلك العقد الصغيرة الجاهزة
المتواضعة التي يلف عنقه بها باربطة عنق ملائمة. من المؤكد أن
الليدي غريفث تحب فنسان؛ لكنها لا تحبه صموتاً، أو «عابساً»

كما كانت تقول.

أجالت أصبعها بلطف على جبهة فنسان، كأنها تحبو غضباً
ذا طيين يحفر خطين عموديين ابتداء من الحاجبين ويبعد كأنه
نذير ألم. وفجئت وهي تنحني نحوه:
ـ إذا كنت مستحمل لي هنا الحسرات والآلام وتوبخ الضمير
فمن الأفضل ألا تعود.

أغمض فنسان عينيه كأنه أمام ضوء ساطع، لأن تهلل
نظرات ليليان بهر.

ـ هنا كما في المسجد، تخلع النعال عند الدخول لثلا تحمل
الوحل من الخارج. أتظن أنني لا أعرف في من تفكّر؟
وبيا أن فنسان أراد أن يضع يده أمام فمها فإنها انتفضت

بتبرد:

ـ كلا، دعني أكلمك جدياً. فكرت كثيراً في ما قلته لي
ذلك اليوم. والظن السائد أن النساء لا تحسن التفكير، ولكن
سترى أن هذا يتوقف عليهن... وما قلته لي عن نتاج
التهجين... وأنه لا يمكن الحصول على شيء ممتاز بواسطة
المزج، بل بواسطة الانتقاء... أتراني حفظت درسك جيداً؟
هذا الصباح أظن أنك تعذلي مسخناً، شيئاً مضحكاً، ولن
تستطيع فطامه أبداً: شيء ناتج عن لقاح إحدى كاهنات
باخوس بالروح القدس! أليس صحيحاً؟ أنت متقرّز لأنك
تركت لورا: أنا أقرأ ذلك في غضن جبها.

إليها فقل حالاً واتركني؛ سأكون قد أخطأت في شأنك،
وسأتركك تذهب دون أسف. أما إذا عزمت على البقاء معى
فتخلى عن هيئتك المألوفة هذه. أنت تذكرني ببعض الإنكلز:
فكلاهما أفرط تفكيرهم استعمال الحرابة بزدادون نعلمًا بالأخلاق،
إلى درجة إن أشد المترمدين بينهم هم بعض مفكريهم الأحرار.
وأنت تحسبي دون قلب. لكنك محظيء. فأنا أدرك جيداً أنك
تشعر بشفقة على لورا. ولكن ماذا تفعل هنا إدآ؟

وبيما أن فنسان أدار لها ظهره قالت:

- اسمع؛ ستذهب إلى الحمام وحاول أن تتراث حسراتك
تحت الرشاش. سافر الجرس في طلب القهوة. سامع؟ وحين
تعود سأتسرح لك شيئاً ييدو أنك لا تفهمه جيداً.
ونهض، وقفزت على أثره:

- لا ترتدي ملابسك حالاً ففي الخزانة إلى مبين مدفأة الحمام
تجد برايس ما يرتديه الشرقيون، وبيجامات... وستختار.
وعاد فنسان بعد عشرين دقيقة، متزملأ بجلابية حربية
ذات لون أخضر فستقي. وهتفت ليليان متثشية:
- أوه! انتظر! انتظر لأصلاح من شأنك.

وآخرجت من صندوق شرقي شالين عريضين بلون
البازنجان وزنرت فنسان بالشال الأكثر دكتة وعممته بالأخر.
- إن أفكاري هي دائئماً بلون ملابسي (كانت مرتدية ببيجاما
أرجوانية مزينة بالفضة). وأذكر ذات يوم، حين كنت صغيرة في

سان فرنسيسكو، أنهم أرادوا إلياسي السواد بحججه أن اختأ لوالدتي قد ماتت، خالة عجوز لم أرها قطه فبكيت طول المبار، كنت حزينة، وتخيلت نفسي أشعر بكثير من الغم وأسفة جداً على حالتي... ولبس ذلك إلا بسبب السواد. إذا كان الرجال اليوم أرزن من النساء فلأنهم يرتدون ملابس أكثر سواداً. وأراهن أن أفكارك في الماضي لم تكن هي أفكارك نفسها اليوم. اجلس على جانب السرير؛ وبعد أن تشرب قدحاً من الفودكا وفنجانين من الشاي وتأكل شطيرة أو اثنتين ساقص عليك حكاية. وستخبرني متى أستطيع أن أبدأ...

جلست على بساط السرير بين ساقي فنسان متجمعة كأنها نصب مصرى، وذقنا على ركبته. وبعدما شربت وأكلت، بدأت:

- كنت على ظهر البالخرة «لابورغونيا» كما تعلم، في اليوم الذي غرق فيه. وكنت في السابعة عشرة. وهذا يدللك على سني اليوم. كنت سباحة ماهرة؛ ولأبرهن لك على أن قلبي ليس جافاً فسأقول لك أنه إذا كانت يومها فكري الأولى هي أن أنقذ نفسي فإن فكري الثانية هي أن أنقذ أحداً ما، حتى إنني لست متأكدة إذا لم تكن هذه هي فكري الأولى. والحقيقة أعتقد أن ما فكرت في شيءٍ فقط. ولكن ما من شيءٍ يثير التفازز في نفسي أكثر من أولئك الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم في مثل هذه اللحظات، نعم: النساء اللواتي يصرخن. كان هناك أول زورق

إنقاذ مليء ، بصورة رئيسية ، بالسماء والأطفال . كان بعض هذه النسوة يطلقن عوياً يضيع الرأس . أما الزورق فكانت قيادته ضعيفة تائهة إلى حد أنه ، بدلاً من أن يستوي على سطح البحر ، شك أنفه في الماء وأفرغ من فيه من الناس قبل أن يمتلئ بالماء . جرى كل ذلك على ضوء المشاعل والفوانيس والتوارات Projecteurs . لن تستطيع التصور كم كان هذا مخزناً ! كانت الأمواج قوية جداً . وكل ما لم يكن في محيط النور كان يختفي في الناحية الأخرى من تلة الماء ، في الظلام . لم أعرف مطلقاً شيئاً أشد توتراً ، وأنشل تفكيري ، حتى أنني لم أدرك تماماً ما يمكن أن يحدث ، بل أدرك فقط أنني لاحظت ، في الزورق ، طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها ، وهي التي عزمت على إنقاذهما حالما رأيت انقلاب المركب . كانت أولًا مع أمها ؛ ولكن هذه لا تجيد السباحة ؛ ثم أنها كانت منضبطة من تدورتها كما يحدث في مثل هذه الحالات . أما أنا فاضطررت أن أخلع ملابسي بشكل آلي ، وقد نوديت لأخذ مكانى في الزورق التالي ، وكان علي أن أصعد إليه ؛ ثم إني قفزت إلى البحر من هذا الزورق نفسه دون شك ؛ وأذكر أنني سبحت طويلاً مع الطفلة المتعلقة بعنقي . كانت وجده تشد على عنقي بفوة جعلني لا أكاد أستطيع التنفس . ومن حسن الحظ أنهم استطاعوا رؤيتنا من الزورق ليتظرونا أو ليجذفوا نحونا . لكنني لم أرو لك هذه الحكاية لأجل ذلك . فالذكرى التي بقىت حية أكثر من غيرها ، تلك التي لا

يمكن أي شيء أن يمحوها من دماغي ولا من قلبي : هي أنا كنا في ذلك الزورق نحو أربعين شخصاً متقدسين بعدما التقط بعض السابعين اليائسين كما التقطت أنا . كان الماء يصل إلى سطح الحافة تقريرياً . و كنت في المؤخرة أحمل الطفلة التي أنقذتها وقد ضمتها إلى لأبعث فيها الدفء ولأمنعها من رؤية ما لا أستطيع أنا إلا أن أراه : كان هناك اثنان من البحار ، الأول مسلح بفأس والآخر بسكين مطبخ ، أتعرف ما كانوا يفعلان ؟ كانوا يقطعن أصابع وأكف بعض السابعين الذين تمسكوا بالحبال وحاولوا الصعود إلى زورقنا . وقد التفت إلى أحد هذين البحارين (كان الآخر زنجياً) وأستانه تصطrik من البرد والرعب والمفلع ، وقال : «لو صعد إلى الزورق شخص آخر هلكنا جميعاً . فالزورق ملاآن ». وأضاف أن كل حالات الغرق تشهد مثل هذا الذي يعمله ، ولكن من الطبيعي ألا يتكلم أحد في ما بعد عن ذلك .

اعتقد أنه أغغمى علي حينئذ؛ وعلى كل حال لم أعد أذكر شيئاً ، كما يصاب المرء بالصمم بعد ضجة قوية . وحين عدت إلى نفسي على ظهر الباحرة X التي التقطتنا أدركت أنني لم أكن أنا نفسي فقط ولن أستطيع أن أكون تلك الفتاة العاطفية التي كنتموها في السابق ! أدركت أنني تركت جزئاً مني يعيش مع البورغونيا ، وأنني من الآن فصاعداً سأقطع الأصابع والأكمام لامتنع كومة من العواطف الرقيقة من الصعود ومن إغراف قلبي » .

ونظرت إلى فنسان بزاويه عينها وعطفت جسدها إلى الوراء .
- إنها عادة يجب التمرس بها

وبيما أن شعرها غير المثبت قد نشوش ترتيبه واسترسل على
كتفيها ، فقد نهضت واقتربت من المرأة واهتمت بنرتبيه وهي
تقول :

- حين تركت أميركا بعد ذلك بقليل خيل إلى أنني كنت
الجزء الذهبية وأني ذهبت في سبيل البحث عن فاتح . استطعت
أحياناً أن أخدع ، واستطعت ارتكاب هفوات . . . ويمكن أنني
ارتكبت اليوم واحدة بالتحدث إليك كما أفعل . ولكن أنت ، لا
تخيل أنك امتلكتني لمجرد استسلامي إليك . وليدخل في روعك
هذا : إنني أكره الرجال العاديين ولا أستطيع أن أحب إلا
المتنصر . فإذا أردتني فليكن ذلك لكي أساعدك على النغلب أما
إذا أردتني لأشفق عليك ، وأعزبك ، وأدللك . فمن الأفضل أن
أقول لك حالاً . كلا ، كلا ما صدبيقي فنسان ، لست أنا التي
تلزمك ، أنها لورا .

قالت ذلك دون أن تلتفت ، وهي مسممة في تصعبف
شعرها المنمرد ، ولكن فنسان النفي نظرانها في المرأة وقال وهو
ينهض تاركاً ملابسه الشرقية ليرتدي ملابسه المدنية :

- اسمح لي ألا أجيك إلا في هذا المساء . يجب الآن أن
أعود بسرعة قبل أن يخرج أخي أوليفيه . عندي شيء مهم أريد
أن أقوله له .

قال ذلك بطريقة اعتذار لكي يمر رحيمه ولكن حين اقترب من ليlian، التفتت هذه مبتسمة، جميلة، فجعلته يتrepid، وقال:

- إلا إذا تركت له الكلمة يجدوها عند عودته لتناول الطعام.

- هل ستكلمه كثيراً؟

- لا كلا. أنها دعوة لهذا المساء كلفت نقلها إليه.

- من روبي. . أوه! عرفت... . قالت ذلك بالإنكليزية

وهي تبسم بشكل غريب - يجب أن نتحدث عن هذا أيضاً..
أذهب بسرعة ولكن عد في الساعة السادسة لأن سيارته ستأتي
في السابعة لتقلنا إلى مطعم الغابة حيث نتناول العشاء .

كان فنسان سارحاً في تأملاته وهو يمشي؛ شعر أن نوعاً من
اليأس يمكن أن يولد من شبع الرغبات، مصحوباً بالسرور وكأنه
يختبر خلفه.

٨

يجب الاختيار بين عشق النساء او
معرفتهن ، ولا يوجد امر وسط .

شانفور

في قطار باريس السريع جلس ادوار يقرأ كتاب باسافان « الحاجز الثابت » - الذي ظهر حديثاً واشتراه من محطة « ديب ». ما من شك في ان هذا الكتاب يتطلبه في باريس ، ولكن ادوار لم يستطع الصبر على معرفته . كانوا يتحدثون عنه في كل مكان . اما هو فما من كتاب من كتبه كان له شرف الظهور في مكتبات المحطات . لقد قالوا له اي الخطوات يجب القيام بها لكي تعرض كتابه . لكنه لم يهتم بذلك . وكرر لنفسه انه قليلاً ما يهتم بان تكون كتابه معروضة في مكتبات المحطات ، وهو بحاجة لنكرار ذلك نفسه لدى روئيته كتاب باسافان معروضاً . كل ما يفعله باسافان يقلقه ، كذلك كل ما جرى حول باسافان : المقالات مثلًا ، حيث رفع الى الأوج نعم ، كأنه عمل معتمد : كل واحدة من الصحف الثلاث التي اشتراها ،

حال هبوطه من السفينة ، تتحوي على مدح «ال الحاجز الثابت ». وهناك صحيفة رابعة تحتوي على رسالة لباسافان ، فيها احتجاج على مقال يتضمن مدحًا أقل من الآخريات كان قد ظهر في هذه الصحيفة نفسها ، ويدافع بأسافان في رسالته هذه عن كتابه ويشرحه . هذه الرسالة أثارت ادوار اكثـر من المقالات . فباسافان يزعم انه ينير الرأي العام . أي انه يجنبه بمهارة . ما من كتاب لادوار اثار مقالات كهذه ، كذلك فان ادوار لم يفعل شيئاً في سبيل اجتناب عطف النقاد . ولا يهمه ان يهاجمه هؤلاء . ولكنه عندما قرأ المقالات حول كتاب منافسه اصبح في حاجة لذكر القول ان هذا لا يهمه كثيراً .

ليس ذلك لأنـه يكره بأسافان . فقد التقاه احياناً ووجده جذاباً . بـدـالـه بـاسـافـانـ جـديـراًـ بـالمـحبـةـ . ولكنـ كـتبـ بـاسـافـانـ لاـ تعـجبـهـ ، بـدـاـ لـهـ بـاسـافـانـ صـانـعاًـ اـكـثـرـ مـنـهـ فـنـانـاًـ . كـفـىـ تـفـكـيراًـ فـيـهـ

اخـرـجـ اـدـوارـ مـنـ جـيـبـ سـترـتهـ رسـالـةـ لـورـاـ ، تـلـكـ الرـسـالـةـ الـقـيـ اـعـادـ قـرـاءـتـهاـ عـلـىـ ظـهـرـ الـباـخـرـةـ ، وـاعـادـ قـرـاءـتـهاـ ايـضاـ :

« يا صديقي

كـانـتـ المـرـةـ الـأـخـيـرـةـ الـقـيـ رـأـيـتـكـ فـيـهاـ ، كـمـاـ تـذـكـرـ ، فـيـ سـانـتـ جـيمـسـ بـارـكـ ، فـيـ الثـانـيـ مـنـ نـيـسانـ ، عـشـيـةـ رـحـيـلـيـ إـلـىـ الـجـنـوبـ . لـقـدـ جـعـلـتـيـ اـعـدـكـ بـالـكـتابـةـ إـلـيـكـ إـذـاـ وـجـدـتـ نـفـسـيـ فـيـ مـأـزـقـ . وـقـدـ وـفـيـتـ بـوـعـدـيـ إـلـىـ مـنـ ، غـيـرـكـ ، اـتـوـجـهـ بـنـدـائـيـ ؟ـ اـنـ

اوئك الذين كان يودي الاستناد اليهم هم الذين يجب ان اخفي
شقائي عنهم . يا صديقي ، ابني في شفاء عظيم ، ومن الممكن
ان اقص عليك ذات يوم ما كانت عليه حياتي منذ تركت
فلينكس . لقد رافقني حتى بو ، ثم عاد وحده الى كامبريدج
حيث استدعته دروسه . اما هناك ، فقد أصبحت وحيدة ،
متروكة لنفسى ، للناهاة ، للربيع ... هل اجرؤ على
الاعتراف لك بما لا استطيع ان اقوله لفلينكس؟ ... لقد حان
الوقت الذي كان علي ان اذهب اليه فيه ، ولكن يا للأسف ،
لست جديرة ببرؤيته . والرسائل التي كتبتها اليه منذ مدة كانت
كاذبة ، اما الرسائل التي تلقيتها منه فلا تتحدث الا عن سروره
لمعرفته ان صحتي تحسنت . لماذا لم ابق مريضه ! ... لماذا لم
امت هناك ! .. يا صديقي ، اني مضطرة للتعرض للانتظار ،
فانا حبلى ، والطفل الذي انتظره ليس منه . لقد تركت فلينكس
منذ اكثر من ثلاثة اشهر . ومهما كان الأمر فلن استطيع ان
اخدعيه هو على الأقل . لا أجرؤ على الرجوع اليه . لا استطيع
لا اريد . انه كثير الطيبة ، وسيغفر لي دون شك ، وانا لا
استحق . لا اريد ان يغفر لي . لا أجرؤ على العودة الى اهلي
الذين لا يزالون يعتقدون انى في سو واي ، اذا علم ، اذا
فهم ، سيلعنني . سيطردني كيف اجابه فضيلته ، وخوفه من
الشر ، والكذب ، وكل ما هو دنس؟ ... واحف اياضاً ان
اسبب الغم لأمي واحتى . اما ذاك الذي ... لكنني لا اريد
اتهامه ، فحين وعدني بالمساعدة كان في حالة تمكنه من ذلك .

لكنه اخذ يقامر ويا للأسف ، لكي يصبح اقدر على مساعدتي .
خسر المبلغ الذي يجب ان يخصص للفقائي ، لولادتي . خسر كل شيء . فكرت اولاً ان اذهب معه الى اي مكان ، واعيش معه بعض الوقت على الأقل ، لأنني لا اريد ان اضيقيه ، ولا ان اكون عبئاً عليه ، كنت سأجده في النهاية ما اكسب به عيشي .
لكنني لا استطيع في الوقت الحاضر . ارى جيداً انه يتعدب لتركي وانه لا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، ومرة ثانية فإنني لا اتهمه . لكنه على كل حال قد تركني .انا هنا دون مال .
اعيش بالدين في فندق صغير . ولكن هذا لا يمكن ان يدوم .
لا اعرف ما سيحل بي . اووه ان طرقاً للدينة كتلك لا يمكن ان تقود الا الى الهاوية . اكتب اليك الى ذلك العنوان في لندن الذي اعطيته اياه ولكن هل تصل هذه الرسالة ؟ انا التي طلما قلت ان تكون ااما ! ... ليس لي من عمل سوى البكاء طول النهار . زودني بنصيحتك ، اذا امكنك ذلك ، ، ، والا
سفاه ! كنت كثيرة الشجاعة في اوقات اخرى ، اما الآن فلست نا وحدي التي تموت . إذا لم تأت ، إذا كتبت الي عباره : « لا تستطيع شيئاً » فلن اوجه اليك اي لوم . ويوداعي لك سأحاول الا آسف كثيراً على الحياة . لكنني اعتقد انك لم تدرك تماماً ايضاً ان صداقتك لي ستبقى افضل ما عرفت - ولم تدرك تماماً ان ما ادعوه صداقتني لك تحمل في قلبي اسماً آخر .

لورا فلیکس دوفییه

« ملاحظة : قبل ان القى هذه الرسالة في البريد سألقى عليها نظرة اخيرة . سوف انتظره في منزله هذا المساء . اذا تلقيت هذه الرسالة يكون حقيقة ان ... داعاً ، وداعاً ، فانا لا اعرف ما اكتب »

تلقى ادوار هذه الرسالة صبيحة يوم رحيله . اي انه صمم على الذهاب حالما تلقاها . على كل حال لم يكن في نيته ان يجدد اقامته كثيراً في انكلترا . لا اقصد التلميح الى انه لم يكن جديراً بالعودة الى باريس لينجد لورا ، بل اقول انه كان سعيداً بالعودة . كان مفطوماً عن الملاذات بشكل شحيف في تلك الايام الاخيرة في انكلترا ، اما في باريس ، فان اول عمل سيقوم به هو الذهاب الى مكان موبوء ، وبما انه لا يريد ان يحمل الى ذلك المكان اوراقاً شخصية فقد تناول حقيقته من شبكة عربة القطار وفتحها ليضع فيها رسالة لورا .

مكان هذه الرسالة ليس بين ستة وخميس ، فقد تناول من تحت الملابس دفتراً ومجلاً بورف مقوى ملوءاً الى نصفه بالكتابة ، وببحث فيه ، منذ اول الدفتر . عن اوراق كتبت في السنة الماضية حيث اعاد قراءتها ، وستتخذ رسالة لورا مكانتها بين هذه الأوراق .

يوميات ادوار

« ١٨ تشرين الأول - لا يبدو ان لورا تعرف قوتها . اما انا الذي انفذ الى سر قلبي فاعرف تماماً اني لم اكتب حتى هذا اليوم سطراً واحداً لم توجه هي الى بصورة غير مباشرة . حين تكون بجانبي اشعر انها لا تزال طفلة ، اما كل مهارتي في الخطابة فلست مديناً بها الا لرغباتي الدائمة في تعليمها ، وإقناعها ، واجتذابها . ولا أرى شيئاً او اسمع شيئاً الا افكراً : « ماذا ستقول عن ذلك ؟ » لقد تركت تأثيري ولم اعد اعرف سوى تأثيرها حتى ليبدو لي ان شخصيتي تضيع في نطاقات مبهمة لو لم تكن هنا لتجددني بدقة ، فانا لا استجمع قواي ولا احدد نفسي الا حوالها . فبأي وهم استطعت الاعتقاد حتى اليوم اني كيفتها على مثالى ؟ ان الامر على العكس » فأنا الذي ينطوي على مثالها ، ولم الاحظ ذلك . او بالاحرى فان كياننا ، على العكس ، قد تشوّه بواسطة تهجين غريب للتأثيرات الغرامية . ان كلاً من الكائنين المתחاين تكيف وفقاً لطلبات الآخر بصورة لا ارادية ، لا شعورية ، وعمل على ان يشبه ذلك المعبد الذي تأمله في قلب الآخر ... من يحب حقيقة يقلع عن الصدق .

« وهكذا كان تفكيرها يرافق تفكيري في كل مكان . اعجبت بذوقها ، برغبتها الحارة في المعرفة ، بثقافتها . ولم اكن اعلم ان اهتمامها الشديد بكل ما تزاني مولعاً به لم يكن الا بداع حبها لي ، لأنها لم تكن تعرف ان تكتشف شيئاً . وقد ادركت اليوم ان كلاً من اعجاباتها لم يكن بالنسبة اليها سوى سرير راحة يتمدد عليه تفكيرها بجانب تفكيري ، وما من شيء في ذلك يلبي التطلب العميق لطبيعتها . انها ستقول : « انا لا اتزين ولا اتجمل الا لأجلك » وما من شك في اني كنت اريد ان يكون ذلك لأجلها وان تلبي بعمل ذلك حاجة شخصية خاصة . ولكن من كل هذا الذي كانت تضيفه الى نفسها في سبيلي لن يبقى شيء ، حتى ولا حسرة ، حتى ولا شعور بالنقص . يأتي يوم يعود فيه الكائن الحفيقي الى الظهور ، ويتعري الزمن ببطء من جميع ملابسه المستعارة ، واذا كان الآخر قد شغف بهذه الزينة فإنه لن يضم الى قلبه سوى حلبة مهجورة » سوى ذكرى سوى حداد وياس .

آه ! بكم من الفضائل ، بكم من الكلمات زيتها !

« كم هي مغيبة قضية الصدق هذه ! حين اتكلم عنه لا افكر الا في صدقها هي . واذا عدت الى نفسي فلا اعود ادرك ما تعني هذه الكلمة . انا لست إلا ما اعتقاد اني هو . وهذا يتغير دون انقطاع بحسب ان كياني في الصالح ما كان سبتيعرف علي كياني في المساء لو لم اكن انا هنا لا ضبط الامور . ما من

شيء يمكن ان يصبح اكثراً اختلافاً عنى سوى نفسي . اما ذلك الذي يشكل الجزء الاساسي لكياني فلا يجد الا في العزلة حيث ابلغ نوعاً من الاستمرار الباطني ، ولكن يبدو لي حينئذ ان حياتي تشيخ رويداً رويداً وتضعف . وانني لن ابقى . ان قلبي لا يتحقق الا بداعف التعاطف ، ولا اعيش الا بالغبر ، بالوكالة ، بالزواج ، ولا اشعر انني أحيا بشكل اكثراً حدة الا حين انتقد من نفسي لأصبح اي انسان آخر .

« ان قوة اللامركزية اللاأنانية هذه انها بخرت في حس الملكية - ثم حس المسؤولية . ان كائناً كهذا ليس من يمكن الزواج منه . كيف افهم لورا ذلك ؟

٢٦ « تشنرين الأول - ما من شيء موجود بالنسبة إلى إلا شعرياً (واعيد إلى هذه الكلمة معناها الكامل) - ابتداء مفي . يخلي إلى أحياناً أنني غير موجود حقيقة ، ولكنني أتخيل أنني كائن ، بكل بساطة . واصعب شيء اتوصل إلى الاعتقاد به هو حقيقي الخاصة . أنني اهرب من نفسي دون انقطاع ولا ادرك تماماً ، حين أرى نفسي اعمل ، ان هذا الذي رأيته يعمل هو نفسه الذي يرى ، ويهدهش ، ويشك في انه يستطيع ان يكون مثلاً ومشاهداً في وقت واحد .

« لقد اضاع التحليل النفسي بالنسبة إلى كل فائدة يوم علمت ان الانسان يعاني ما يتخيّل انه يعانيه . ومن هنا جاء التفكير في انه يتخيّل انه يعاني ما يعانيه . . . وأرى ذلك

تماما في حبي : فبين محبي للورا وتخيلي اني احبها - بين تخيلي اني احبها اقل ومحبتها اقل ، اي إله يرى الفرق ؟ ... ان الواقع لا يتميز عن الخيالي على صعيد العواطف . واذا كان يكفي ان يتخييل المرء انه يحب ليحب فيكتفي على هذا الاساس ان يفكر المرء انه يتخييل انه يجب عندما يجب لكي يجب بشكل اقل « وايضاً لكي ينفصل قليلاً عن يحبه - او لكي يفصل عنه بعض البلورات . ولكن الا يلزمها قبل ان يجب بشكل اقل ليدعى ذلك ؟

بتحليل كهذا سيسحاول x في كتابي ان ينفصل عن z - وسيحاول على الاخر ان يفصلها عنه .

« ٢٨ تشرين الأول - يجري الكلام دون انقطاع عن التبلور الفجائي للحب . اما عدم التبلور البطيء ، الذي لم اسمع اطلاقاً من يتكلم عنه ، فهو ظاهرة نفسية يزداد اهتمامي بها . واعتقد ان من الممكن ملاحظتها ، بعد وقت يطول او يقصر ، في جميع زيجات الحب . ولن يكون في ذلك ما يخشى منه على لورا ، وعلى الخصوص (هنئاً لها) اذا تزوجت فليكس دوفيفيه كما يشير عليها العقل » وعائلتها ، وأنا . دوفيفيه استاذ فاضل جداً ، مليء بالمزايا الحسنة وكثير الجدارة في مهمته (بلغني ان تلامذته يقدرونها جداً) - وستكتشف لورا فيه ، حسب العادة ، فضائل اكثر مما تتوجهه مقدماً ، وحين تتحدث عنه اجد ايضاً انها ، في المديح ، تبقى اجدر في هذه الناحية . ان قيمة

دوفيه افضل مما تظن .

« يا له من موضوع جميل لرواية في مدي خمسة عشر عاماً ، عشرين عاماً من الحياة الزوجية ، عدم النبلور النقمي المتداول للزوجين ! والعاشق منها احب واراد ان يكون محبوياً لا يستطيع الاستسلام لما هو كائن حقيقة ، وفضلاً عن ذلك فانه لا يرى الآخر - ولكنه يرى عوضاً عنه معبوداً يزيشه ، ويؤلهه ويخلقه .

« اذا فقد حذرت لورا ، من نفسها ومن نفسي . حاولت ان ادخل في روعها ان جبنا لن يؤمن السعادة الدائمة لأي واحد منها . أمل ان اراها مقتنة نوعاً ما » .

هز ادوار كتفيه ، واطبق المذكرات على الرسالة ووضع الكل في حقيقته . ووضع فيها ايضاً حافظة نقوده بعدما اخذ منها ورقة بمئة فرنك ستكتفيه حتى الى ان يعود لاستعادة حقيقته التي عزم ان يقيها في المستودع لدى وصوله . والمزعج هو ان حقيقته هذه لا تقبل بالفتح ، او على الأقل فهو لا يملك المفتاح ليقفلها . انه يضيع دائمًا مفاتيح حقائبها . ومستخدمو المستودع مشغولون كثيراً طوال النهار ولن يكونوا وحدهم . سيسترجع هذه الحقيقة زهاء الساعة الرابعة ، وينقلها الى منزله ، ثم يذهب للتخفيف عن لورا واغاثتها ، سيرحاول ان يأخذها لتناول الطعام .

ادوار يغفو ، وافكاره تتخذ مجرى آخر بشكل لا شعوري . تسأله هل كان سيعجز ، من مجرد قراءة رسالة لورا ، ان شعرها اسود ؟ وقال لنفسه ان الروائيين ، بوصفهم الدقيق جداً

لا شخصهم ». نزعجون المخيلة اكتر مما بخدمونها ، وان عليهم ان ينركوا كل قارئ يخبل كلاً من هذه الأنساخ كما مخلو له . فكر في الروابه الي بعدها ، والي يجب الا تشبه في شيء ما كتبه حتى الآن . لبس وانفأ ان « مزيفو التقود » هو عنوان جديد وقد اخطأ في الاعلان عنه . والاتسارة الى « قيد الاعداد » لاجتذاب القراء هي عادة حقاء . ان هذا لا يجذب احداً ومع ذلك فهو يربطك . ليس واتقاً ابصاً من ان الموضوع سيكون جميلاً . كان يفكر فيه دون انقطاع ومنذ زمن طويل ، ولكنه لم يكتب منه سطراً واحداً بعد . وبعكس ذلك ، كتب ملاحظاته وانعكاساته على دفتر صغير .

اخرج هذا الدفتر من حقيقته ، وانخرج قليلاً من جيبيه . وكتب : « تعريه الرواية من جمجم العاصر التي لا تتتمى الى الرواية بنوع خاص . وكما ان النصوير الشمسي قد اعتنق فن الرسم من هم بعض التدقيمات فان الفونوغراف سينظف الرواية غداً ، دون شك ، من حوارانها المفولة . تلك الحوارات التي جعل منها الكاتب الواقع مجداً في اغلب الاحيان . ان الحوادث المخارجية ، والنكسات ، والمفاجآت العنيفة تسمى الى السينما ، ويستحسن ان تتركها الرواية لها . حتى وصف الاشخاص لا يبدو لي انه يتتمى الى هذا النوع ، نعم ، حقبة ، لا يبدو لي ان الرواية النقية (في الفن كما في كل شيء ، النقاء هو الذي يهمني) يجب ان مهم بذلك ، كذلك الدراما . ويجب الا يقال

ابداً ان كاتب الدراما لا يصف اشخاصه لأن المترجع مدعو لرؤيتها احياء على المسرح ، فكم من مرة تضيقنا من الممثل على المسرح ، وتألمنا لتمثيله بشكل قبيح دور ذلك الذي كان تخيله حسناً بدونه .. ان الروائي . عادة ، لا يثق كفاية بخياله القارئ .

آية محطة مرت بسرعة؟ آنير *asnières* . اعاد الدفتر الى الحقيقة . ولكن من المؤكد ان ذكرى باسافان تعذبه . اخرج الدفتر . وكتب فيه ايضاً : « بالنسبة الى باسافان ، الأثر الفني ليس غاية بقدر ما هو وسيلة . القناعات الفنية التي يتظاهر بها لا تبدو قوية الا لأنها غير عميقة . لا يليها مزاج سري متطلب . اثنا هي تستجيب لطلب العصر ، وكلمة سرها هي : الانتهازية » .

« الحاجز الثابت » . ان ما سيبدو بعد قليل انه الاقدم هو الذي بدا في بادئ الأمر انه الاحدث . كل مجاملة ، كل تصريح هو وعد بشيخوخة . ولكن باسافان بهذا يرضي الفتىان . وقليلا ما يهمه المستقبل . وهو يتوجه الى جيل اليوم (وهذا افضل من التوجه الى جيل الامس) - و بما انه لا يتوجه الا الى هذا الجيل ، فان ما يكتبه يخشى ان يذهب مع هذا الجيل . هو يعرف ذلك ولا يفلت نفسه بأجل البقاء . ومن هنا جاء دفاعه العنيف عن نفسه ليس فقط عندما يهاجم ، بل يحتاج حتى على كل حصر للانتقادات . ولو كان يشعر ان عمله باق لتركه يدافع عن نفسه ولا حاول ان يبرره دون انقطاع . ماذا اقول ؟ كان

ليهنيء نفسه بأنهم لا يهمونه ولا ينصفونه وسيكون في ذلك أكثر من لغز لنقاد الغد».

وتطلعل الى ساعته . الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين . يجب ان يكون قد وصل . يود ان يعرف اذا كان اوليفيه يتظره لدى خروجه من القطار . انه لا بتوقع ذلك . هل اوليفيه عرف بالبطاقة التي اعلن فيها لأهل اوليفيه عن عودته حيث كتب متظاهراً بأنه يفعل ذلك عرضاً ، تاريخ وصوله ومكانه كما ينصب المرء فخاً للحظة ؟

وقف القطار . بسرعة ، حال ! كلا ، فحقيقة ليست كثيرة التقل ، والمستودع غير بعيد ... على افتراض انه هنا فهو سيتعرفان الى بعضهما البعض بين الجمهر ؟ قليلا ما شاهدا بعضهما بعضاً . شرط الا تكون تغير كثيراً ! آه ! ايتها الساء العادلة أيكون هو ؟

ما كنا نأسف لشيء مما اسفنا له في ما بعد ، لو ان ادوار واولييفيه عبرا عن فرحتها بالالتالي تعبيراً أوضح ... ولكن عجزاً غريباً عن كل منها عن تقدير حظوة الواحد في قلب الغير ونفسه كان مشتركاً بينها وقد شل حركتها معاً ، بنوع ان كلاً منها ظن انه هو المتأثر وحده ، وانصرف الى سروره الخاص وكأنه مضطرب لشعوره بحدة هذا السرور فلم يكن له من هم سوى ألا يدع ، فرحة يظهر كثيراً .

وهذا ما جعل اولييفيه عوض ان يساهم في سرور ادوار بأن يحدثه عن سرعته في المجيء لمقاتله ، يتحدث عن جولة كان يقوم بها بالقرب من هنا ، كانه يعتذر عن مجئه . ونفسه المفرطة في التشكيك كانت حادة في التصوير ان ادوار يمكن ان يجد حضوره مزعجاً . وما كاد يكذب حتى اخر وجهه . ولاحظ ادوار هذا الاحرار ، وبما انه كان قد امسك ذراع اولييفيه مسكة حبية ، فقد ظن بداعي التشكيك ايضاً ان هذا ما جعله يحمر .

قال :

- حاولت الظن انك لن تكون هنا ، ولكن كنت في

اعماقي واثقاً انك ستأق ..

واستطاع ان يظن ان اوليفيه رأى شيئاً من الزهو في هذه العبارة . وحين سمعه يجيب بوجه طلق : - « كان على ان اقوم بجولة في لذا الحي » ترك ذراع اوليفيه وحمدت حماسته . كان يريد ان يسأل اوليفيه اذا كان قد ادرك ان تلك البطاقة المرسلة الى اهله قد كتبت حصصياً له ، وما إن هم بسؤاله حتى خانته الشجاعة . وكان اوليفيه يخشى ان يسبب الضجر لإدوار وان يجعله يسيء الظن به اذا تكلم عن نفسه ، فآخر الصمت . وتطلع الى ادوار ودهش لشيء من الارتجاف في شفته ، ثم خفض نظره على الاخير اما ادوار فكان يتمى هذه النظرة ويختلف ان يراه اوليفيه هرماً . كان يلف بعصبية قطعة ورق بين اصابعه . انها البيان الذي اعطي له في المستودع ، ولكنه لم يلق بالا اليه .

« لو كان هذا بيان المستودع لما القاه هكذا »

قال اوليفيه ذلك لنفسه حين رأى يدخل البيان ثم يلقيه متلهياً . ولم يلتفت الا لحظة سريعة رأى فيها الريح تحمل قطعة الورق بعيداً وراءها على الرصيف . ولو تطلع مدة اطول لاستطاع ان يرى شاباً يلتقطها ، هو برناز الذي تبعهما منذ خروجهما من المحطة . . . ومع ذلك فقد اغتنم اوليفيه لأنه لم يجد شيئاً بقوله لإدوار . واصبح الصمت بينهما غير محتمل .

وكان يكرر لنفسه :

« عند وصولنا الى امام كوندورسيه سأقول له : « والآن ،
يجب ان اعود الى البيت ، الى اللقاء » .

وحين وصوله امام المدرسة تابع سيره حتى زاوية شارع
البروفانس . ولكن ادوار الذي كان هذا الصمت يثقل عليه
ايسماً لم يستطع القبول بأن يفترقا هكذا ، فقد رفيقه الى مقهى .
قد يساعدهما شراب البورتون في الانتصار على ضيقهما .

وقرعا الكأسين . وقال ادوار رافعاً رأسه :

- كأس نجاحك . متى يكون الامتحان ؟

- بعد عشرة ايام .

- هل بالامكان معرفة ذلك ؟ يكفي ان اكون متعركاً في
ذلك النهار .

لم يغيروه على الايجابة بـ « نعم » خوفاً من إظهار كثير من
الثقة . واما ما كان يضايقه ايضاً فيها الرغبة والخوف معاً من ان
يكلم ادوار بصيغة رفع الكلفة (tu) ، كان يقتصر على اعطاء
كل من عباراته دوراً مباشر تمحذف منه على الأقل صيغة جمع
المخاطب (vous) ، بنوع انه يتترع بذلك من ادوار فرصة
تلمس صيغة رفع الكلفة التي يتمناها ، والتي حصل عليها ،
ويذكر ذلك جيداً ، قبل رحيله ببضعة ايام .

- هل اشتغلت جيداً ؟

- لا بأس . ولكن ليس بقدر ما استطع .

قال ادوار بحكمة :

- الشغيلة الصالخون يشعرون دائمًا ان في وسعهم ان يعملوا اكثراً مما عملوا .

- قال ذلك رغبًا عنه ، وما لبث ان وجد عباراته سخيفة .

وقال :

- اتنظم الاشعار دائمًا ؟

- من وقت إلى آخر ... انا بحاجة ماسة الى النصائح .

ورفع عينيه الى ادوار ، كان ي يريد ان يقول : « نصائح حكم » ، « نصائحك ». كانت نظرته تقول ذلك ، لعدم وجود الصوت . حتى ظن ادوار انه قال بدافع الاهتمام او بدافع اللطف . ولكن لماذا اجاب ، وبكثير من الحدة :

- اوه ! النصائح ، يجب ان يعرف المرء كيف يسديها لنفسه ، او يتلمسها عند الرفاق ! ... اما نصائح الاكبر سنًا فلا تساوي شيئاً .

وفكر اوليفييه : لم اطلبها منه فلماذا يحتاج ؟

كان كل منها مرغبًا على الا يخرج منه سوى ما هو جاف ، ما هو قسري ، وكل منها وقد شعر بضيق الآخر ظن انه هو المصدر والسبب . لا يمكن ان يخرج من محادثات كهذه شيء صالح اذا لم يأت ما ينجدها . ولم يأت شيء .

كان اوليفييه قد نهض متعملاً هذا الصباح . وسبب الغم الذي اعتبره عند استيقاظه هو انه لم يجد بمنار بجانبه ، ولأن هذا غادره دون وداع . وهذا الغم الذي تغلب عليه السرور

بلفاء برناه ملدة وجيبة عاد وارتفع في نفسه كموجة دكتاء غرفت فيها كل أفكاره . كان يريد التحدث عن برناه ، وان يقصن على ادوار كل شيء و لا ادرى ، ويجعله يهتم بصديقه .

ولكن اقل ابتسامة من ادوار كانت تخرجه . وكاد التعبير يخون العواطف المحمومة الصاخبة التي تهيجه ، ولم يخش ان يبدو مفرطاً . وصمت ، وشعر بقسماته تقسو ، وكان يريد ان يلقي بنفسه بين ذراعي ادوار ويبكي . ولم يفهم ادوار هذا الصمت « تعبير هذا الوجه المقطب ، كان يجب حبا يجعله يضيع كل لياقة . ولو جرؤ على النظر الى أوليفيه لترى ان يضممه بين ذراعيه ويدله كطفل ، وحين التقى بنظراته العبوس فكر :

- هكذا اذن ! انا اضجره ... اتعبه . اكدره . يا للصغير المسكين ! لا يتضرر الا كلمة مني ليذهب .

وهذه الكلمة قالها ادوار ، بغير مقاومة ، شفقة على الآخر :

- الان ، يجب ان تتركني . اهلك يتظرونك لتناول الطعام ، انا متأكد من ذلك .

وأوليفيه ، الذي كان يفكر تفكير ادوار ، لم يفهم بدوره موقفه فنهض بعجلة . ومد يده . كان يريد على الأقل ان يقول لادوار : - متى اراك ؟ متى اراك ؟ متى نرى بعضنا بعضاً ؟ وكان ادوار يتظاهر بهذه العبارة . فلم يحضره شيء سوى : - وداعاً - مبتذلة .

كانت الشمس قد ابهرت برinar . فنهض عن معدنه ساعراً
بصداع شديد . أما بسالته التي كانت معه في الصباح فقد
فارقته . شعر انه وحيد بشكل فاحش ، وقلبه مفعم بما لا ادرى
من ملوحة رفض ان يدعوها كآبة ، ولكنها ملأت عينيه دموعاً .
ما العمل ؟ ... اين يذهب ؟ .. سار نحو محطة سان لازار في
الساعة التي يعرف اوليفيه يذهب فيها هناك وقد حرى ذلك
دون مقصد واضح ، ودون اية رغبة سوى لقاء صديقه . لقد
وبح نفسه على رحيله الفجائي في الصباح ، فربما حزن اوليفيه
لذلك . اليـس هو الكائن الذي يفضلـه برinar على الأرض ، ..
حين رأه متابعاً ذراع ادوار فـان عاطفة غريبة جعلـته بنـعـها
متخفـياً لـقد ازداد شعورـه بشـكل مؤـلم ، وـمع ذلك فـقد اراد
ادخـال نفسه بـنـعـها . ان ادوار بـيدـو له جـذـابـاً ، وهو اكـبر من
اوليفـيه بـقلـيل ، وـمشـيـته تـبـدو اـقـل فـتوـة . لـقد عـزم عـلى الافـترـاب
من ادوار ، وـانتـظر لـإـقـامـه انـبرـكه اـولـيفـيه . ولـكن بـأـى عـذر
يـقتـرب مـنـه ؟

تلك اللحظـة رـأـى قـطـعة الـورـق الصـغـيرـة المـدـعـوكـة تـفـلت مـن

يد ادوار اللاهية . وحين التقاطها ورأى انها بيان مستودع . . .
يا الله هذا هو العذر الذي يبحث عنه ! رأى الصديقين يدخلان
المقهى فظل حائراً لحظة ، ثم عاد الى محاورة نفسه فقال :

- لن يجد اي شحيم طبيعي امراً اكثراً الحالاً من اعادة
هذه الورقة اليه .

« كم تظهر لي فوائد هذا العالم

متعبة ، عقيمة ، غير مفيدة » (١)

هذا ما سمعت هملت يقوله . بونار . اية فكرة
تداعبك ؟ لقد نبشت درجأا بالامس ، ففي اي طريق تترط ؟
انتبه يا بني . . . انتبه الى ان مستخدم المستودع الذي تعاطى
معه ادوار ذهب للغداء عند الظهر واستبدل باخر ثم لم تقطع
وعداً لصديقك بأن تقدم على كل شيء ؟

ومع ذلك فقد فكر ان ثم الكثير من العجلة قد يفسد كل
شيء ، كان يفاجأ ساعة وصوله ، اذ من الممكن ان يجد
المستخدم هذه العجلة موضع شبهة . ويرجوعه الى سجل
المستودع يكن ان يرى انه ليس من الطبيعي ان يوضع متاع في
المستودع قبل الظهور ببعض دقائق ثم يسحب منه بعد ذلك
بقليل . وانه ، لو ان احد المارة ، احد الثقلاء ، رأاه وهو
يلتقط الورقة . . . اخذ بونار على نفسه ان يعاود النزول حتى
الكونكورد دون ان يسرع ، اي مدة الوقت الذي يحتاجه رجل

آخر لتناول الطعام . كثيراً ما يحدث هذا ، أليس كذلك ؟ ان يضع المرء حقيقته في المستودع مدة تناوله الطعام ثم يعود لأخذها على الاثر . لم يعد يشعر بالصداع . وعندما مر امام شرفة المطعم تناول دون تكلف عوداً ينقب به اسنانه (كانت هذه العيadan بشكل حزم على الموائد) سيفضمها امام مكتب المستودع ليتظاهر بالشبع . وسر لأن له مظهره البشوش « واناقة الثياب ، وميزة هيئته ، وصراحة ابتسامته ونظرته » وما لا اعلمه في المشية اخيراً ، حيث يوحى انه ، وقد تغنى في النعمة ، من اولئك الذين لا يحتاجون شيئاً وعندهم كل شيء . ولكن هذا يبلی عند النوم على المقاعد

احسن بخوف مفاجئه حين طلب منه المستخدم عشرة سنتيمات حراسة . لم يكن معه فلس . ما العمل ؟ كانت الحقيقة هناك على المتكأ ، ان اقل تعbir عن الخوف او القلق يوقط الانبهاء . كذلك فقدان الدرام . ولكن الشيطان لن يسمح بهلاكه ، فدس تحت اصابع برنار الفلقة ، التي اخذت تنقب من جيب الى جيب في صورة من البحث اليائس ، قطعة صغيرة من فئة العشرة فلوس منسبة ، منذ وقت غير معروف ، هناك في جيب صدرته . ناوها برنار للمستخدم دون ان يظهر شيئاً من اضطرابه . واستولى على الحقيقة ثم وضع في جيبيه الفلوس التي ردت اليه بحركة بسيطة ، فاضلة . اوف ! الطقس حار . اين يذهب ؟ لقد خارت ساقاه تحته وبدت له الحقيقة

ثقيلة . ماذا يفعل بها ؟ فكر فجأة انه لا يملك مفتاحها . كلا ، كلا ، لمن يغتصب القفل هو ليس سارقاً . يا للشيطان ! لو كان يعرف ما في داخلها على الأقل . انها ثقيلة في ذراعه . لقد سبع عرقاً . توقف لحظة . وضع حمله على الرصيف . وما من شك في انه ينوي اعادة هذه الحقيقة ، لكنه يريد ان يرى ما فيها اولاً . ضغط القفل كيفما اتفق . اوه ! اعجبوبة ! فتح المصراعان وجعلاه يستشرف من خلاها تلك اللؤلؤة : محفظة يستشرف منها اوراقاً مالية . استولى ببرناز على اللؤلؤة واعاد اغلاق المحارة على الاثر .

اصبح معه الآن شيء . بسرعة ! .. فندق ! يعرف فندقاً قريباً جداً في شارع امستردام . يكاد يموت جوعاً . ولكن قبل الجلوس الى المائدة يريد ان بعض الحقيقة في مأمن . هناك غلام يحملها وتبعد على السلم ثلاث طبقات رواق . . . باب افقله على كنزه بالمناج وهبط .

جلس برنار الى المائدة امام شريحة لحم «بيفتاك» ولم يجرؤ على سحب المحفظة من جيبه (هل يعرف المرء من يراقبه ؟) ولكن يده كانت تجسها بحجة في اعمق هذه الجيب الداخلية . وقال لنفسه :

- إفهام ادوار ابني لست سارقاً ، هذه هي العقدة . اي نوع من الناس هو ادوار؟ ... ربعا زودتنا الحقيقة ببعض المعلومات . هو جذاب ، وهذا شيء معلوم . ولكن كثيرون من الجذابين لا

يستيفون الدعاية . سيكون مسروراً برأي حقبيه تالية اذا ظن انها مسروقة . سيكون ساكراً لي بإعادتها اليه ، والا فهو فظ . سأعرف كيف اجعله يهتم بي . لتناول الحلوي سرعة ولتصعد لتفحص الموقف الحساب ، ولترك اكرامية مهمة للندل .

بعد هنیهات كان في الغرفه من جديد

-والآن، ايتها الحفيفه ها نحن وجدنا ! مدل كامل من الثياب . انها اكبر من قياسى بقليل . القماش ملائم ويدل على ذوق رفيع . ملابس داخلية ، ادوات زينه . لست متأكداً من اني ساعيده كل هذا . ولكن ما يتبع اني لست سارقاً هو ان هذه الاوراق الموجودة هنا ستسننوى على اهتمامي اكتر من اي شيء آخر . لنفرا اولاً هذا .

انه الدفتر الذي ضم اليه ادوار رسالة لورا المؤثرة ، وقد عرفنا قبلأ صفحاته الأولى . وهذا ما يلا تلك الصفحات :

يوميات ادوار

«اول تشرين الثاني - مضى خمسة عشر يوماً . انطلقت في عدم تسجيل هذا حالاً . وليس ذلك بسبب عدم توفر الوقت بل لأن قلبي كان لا يزال مليئاً بلورا - او بعبارة اصح ، لم أشاً ان يلهمو تفكيري عنها ، ثم اني لا ارضى ان اسجل هنا شيئاً عرضياً ، طارئاً ، ولم يهد لي ايضاً ان ما سوف ارويه يمكن ان يكون له تابع ، ومضاعفات كما يقال ، اني على الأقل ارفض القبول به ، وهذا لأبرهن لنفسي ، بشكل ما ، اني تحاشيت الحديث عنه في مذكراتي ، ولكنني اشعر تماماً ، وانا استطيع الدفاع عن نفسي ، ان صورة اوليفييه تمجدب اليوم افكاري كالمغناطيس وتحول بعراها ، واني لا استطيع ان اوضح افكاري جيداً ولا ان افهم نفسي تماماً دون ان احسب له حساباً .

«عدت في المساء من عند بيران حيث ذهبت اراقب عملية الطباعة لـإعادة نشر كتابي القديم . وبما ان الطقس كان جميلاً فقد تلكت على طول الارصفة منتظرأ ساعة الفطور .

« وقبل ان اصل الى امام فانيه *vanier* بقليل وقفت امام « بسطة » كتب تباع « اوکازيون ». لم تثر الكتب اهتمامي بقدر ما اثاره تلميذ صغير في الثالثة عشرة تقريباً كان ينبعش الرفوف امام عين وديعة لراقب مجلس على مقعد من القش في باب الدكان. تظاهرت بتأمل « البسطة » ولكنني كنت اراقب الصغير ايضاً من زاوية عيني . كان يرتدي معطفاً باليأ حنى الخيوط وأكمامه قصيرة جداً تظهر اكمام السترة من تحتها . وقد ظلت الجيب الجانبي الكبير مفتوحة مع انها تشعر بأنها فارغة ، في الزاوية ارتكب القماش . فكترت ان هذا المعطف قد استعمله قبلأ بضعة اشقاء وان من عادته واسقاته ان يضعوا كثيراً من الاشياء في جيوبهم . وفكترت ايضاً ان والدته مهملة جداً او انها مشغولة لأنها لم تصلح ذلك . ولكن الصغير كان قد دار قليلاً في هذه اللحظة فرأيت الجيب الاخر مرقعة دون اتقان » بخيط ثخين متين اسود . وحيثند تناهت الى سمعي توبيخات الامومة : « لا تضع في جيوبك كتابين معأ ، ستبلي معطفك . لا تزال جييك عزقة . اندرتك ابني لن اقوم بالترقيق في المرة القادمة . انظر ماذا تشبه هيتك . » وكلها امور قالتها لي ايضاً امي المسكينة ولم احسب لها حساباً . المعطف المفتوح يتبع رؤية السترة . وقد لفت نظري نوع من الوسام الصغير في طرف شريط ، او على الاصح وردة صغيرة صفراء كان يضعها في العروة . ابني اسجل كل ذلك بداع الانضباط وعلى وجه الدقة لأن تسجيله يضجرني .

« مرت لحظة دعي فيها المراقب الى داخل الدكان » ولم يمكث الا سوي فترة قصيرة ثم عاد ليجلس على مقعده ، ولكن هذه الفترة كانت كافية لتتيح للولد ان يضع في جيب معطفه الكتاب الذي كان في يده ، ثم اخذ ببنش الرفوف بعد ذلك كأن لم يحدث شيء . ومع هذا كان قلقاً ، رفع رأسه ، ولاحظ نظري فادرك اني رأيته او على الأقل قال لنفسه ان في امكانى ان اراه ، لم يكن مناكداً من ذلك ، ولكنه اضاع في الشك كل اطمئنان ، فاحمر وجهه ويداً ينهمك في اعمال صغيرة حمولاً ان يبدو غير مرتبك ، لكنه كان يسجل قلقاً عظيماً . لم افارقه بنظري ، فانخرج من جيبي الكتاب المسرور ثم اعاده اليها . وابتعد ببعض خطوات وسحب من داخل سترته محفظة حقيقة صغيرة مهترئة حيث تظاهر بالبحث عن مال يعرف تماماً انه غير موجود فيها ، كشر كشرا ذات معنى ، كشرا مسرحية موجهة الي دون شك كأنها تريد ان تقول : « ليس معك شيء » باضافه ذلك الفرق الضئيل : « عجيب ، كنت اعتقاد ان معك شيئاً » ، كل هذا بشيء من الافرات ، بشيء من التضخيم ، كممثلي يخشى الا يصفع اليه . واخيراً ، اكاد اقول تحت ضغط نظري « اقترب ثانية من « البسطة » - وانخرج الكتاب ، من جيبي ووضعه فجأة في المكان الذي كان يشغلة . جرى هذا بشكل طبيعي حتى ان المراقب لم يلحظ شيئاً . ورفع الولد رأسه من جديد آملاً هذه المرة ان يكون خالصاً لا عليه ولا له . ولكن لا ، فنظري كان هناك دائماً ، كعين قاين ، الا ان عيني كانت

تبتسم . كنت اريد ان اكلمه ، انتظرت الى ان يترك واجهة الدكان فاقرب منه ، لكنه لم يتحرك وبعي وافقاً امام الكتب ، وادركت انه لن يتحرك ما دمت انظر اليه هكذا . حينئذ ابتعدت بضع خطوات ، كما يفعلون في «الزوايا الاربع» لدعوة الطربدة الوهمية الى تغيير مجسمها ، كأنني اكتفيت من النظر . فذهب من ناحيته ، لكنه ما كاد يتبع حتى لحقت له ، وسألته فجأة ، واضعاً في نبرة صوق وعلى وجهي كل ما استطعت من أنس .

- ما هو هذا الكتاب ؟

فطلع جيداً في وجهي ، وشعرت بزوال حذره . قد لا يكون جميلاً ، ولكن انه نظرة جميلة له ! ... رأيت فيها كل العواطف تتحرك كالاعشاب في اعمق الساقية .

- انه دليل انكليزي . ولكنه غال وانا لست غنياً

- كم ؟

- فرنكان وخمسون سنتينا .

- هذا لا يمنع انك لو لم ترني انظر البك لذهبتك والكتاب في جيبيك .

ات الصغير بحركة انتفاض ، وقال مقاوِماً بلهجـة فـظـة جداً .

- هل ... ترك تحسبـي ... لـصـا؟

قال ذلك باقـنـاع مـحاـوـلاً ان يجعلـني اـشـكـ بما رأـيـته . وـشـعـرـتـ

انني سأفقد الغنية اذا المحنت فاخبرجت ثلاث قطع من
جيبي :

- هيا ، اذهب واشتري الكتاب ! .. انا بانتظارك .

وخرج بعد دقيقتين من الدكان وهو يتصفح الكتاب مطبع
انظاره . اخذته من يده . انه دليل « جوان » القديم لعام ٧١ .
وقلت وانا اعيده اليه .

- ماذا تريدين ان تفعل بهذا ؟ انه قديم جداً ولا يمكن
استعماله . فاعتراض ان نعم » ولكن الأدلة الاقرب عهداً ثمنها
اغلى - اما ما « سيفعله » فان خرائط هذا الدليل يمكنه الاستفادة
منها . ولكي لا تخسر اقواله تكهنهما لا احاول ان انقلها هنا فهي
لن تكون ذات وقع بعد تعريتها من لهجة الضواحي الساحرة
التي وضعها فيها والتي كنت اجد فيها سلوى بقدر ما اجدها
متأنقة .

« ويجب اختصار هذه الحادثة كثيراً . يجب الا يأتي الوضوح
من تفصيل الحكاية بل من خطين او ثلاثة تكون في الموضع
الملاائم تماماً في مخيلة القارئ . ثم اني اعتقاد ان هناك فائدة في
ان اجعل الولد يروي كل ذلك ، ان وجهة نظره اكثر
تعبيرأ عن الحال من وجهة نظرني والصغير متضائق ومفتتن معاً
من انتباхи له . ولكن ثقل نظري يجرف اتجاهه . ان الشخصية
الغضة غير الواقعية بعد تداعف عن نفسها وتختفي وراء موقف . وما
من شيء أصعب من مراقبة كائنات في حالة التكوين ، ويجب
الآن النظر اليها الا مواربة ، جانبياً .

« وصرح الصغير فجأة » « إن افضل ما يحبه » هو « الجغرافيا ». وارتبت في ان تكون غريزة التشرد مخفية وراء هذا الحب . فسألته :
- اتريد الذهب بعيداً ؟
- بالتأكيد ! ...

قال ذلك هازاً كتفيه قليلاً .
وقيل الي انه ليس سعيداً مع اهله . سأله اذا كان يعيش معهم - نعم - اذا لم يكن مسروراً معهم ؟ - فاعتراض بفتور وبدا قلقاً نوعاً لانه تكشف كثيراً ، فاضاف :
- لماذا تسألني ؟
فقلت على الأثر :
- لا شيء .

ثم لست بطرف اصبعي شريط عروته الاصفر وسألته :
- ما هذا ؟
- انه شريط ، وتراه جيداً .

كانت أسئلتي ترتعجه ، دار نحوي فجأة بشكل عدائي ،
وقال بلهجة ساخرة وقحة لم اعقد قط انه قادر عليها وقد اثارتني تماماً :

- قل .. ا يحدث لك غالباً ان تنظر بفضول الى التلامذة ؟
وبينما كنت اقتم باضطراب نوعاً من الجواب فتح محفظته المدرسية التي يحملها تحت ابطه ليضع فيها ما اشتراه . كانت

فيها كتب مدرسية ودفاتر مغلفة بورق ازرق على نسق واحد اخذت واحداً منها . انه دفتر درس التاريخ كان الصغير قد كتب في اعلاه اسمه بحروف كبيرة . وففز قلبي عندما عرفت فيه اسم ابن اختي .

« جورج مولينييه »

(وففز قلب برئار ابصا عندما قرأ هذه السطور ، وقد بدأت هذه القصة كلها تثير اهتمامه بشكل عظيم)

« سيكون من الصعب الاقناع في « مزيفو النقود » ان الذي يلعب شخصي هنا لم يستطع ان يعرف ابناء اخه مع بقائه على علاقات طيبة معها . اني اشعر دائمًا بأكبر الم تنمويه الحقبة . حتى تغيير صبغة الشعر بيدو لي غشاً يجعل الحقيقي في نظري اقل مشابهة للحقيقة . كل شيء ينماسك وأشعر بعلاقتك دقيقه جداً بين جميع الاحداث التي تقدمها الحياة لي ، وبيدو لي دائمًا انه لا يمكن تغيير شيء فيها دون تغيير المجموع كله . ومع ذلك فلا استطيع ان اروي ان ام هذا الولد ليست سوى نصف اخت اهلي ، ولدت من زواج ابي الأول ، وانني لم ارها طوال حياة اهلي ، وان قضيابا ارث قطعت علاقاتنا .. كل ذلك محظوظ ولا ارى شيئاً آخر استطيع ابتداعه لأنجو عدم التبصر . كنت اعرف ان لأنختي هذه ثلاثة ابناء لا اعرف منهم سوى الاكبر ، الطالب في الطب ، وهذا ايضاً رأيته لاماً لأنه ، وقد اصيب بالسل ،

اضطر الى قطع دراسته والاستفءاء في الجنوب . ولم يكن الاثنان الآخران هناك حين دهنت لرؤمه بولين اما هذا الموحد امامي فمن المؤكد انه الاخر لم اظهر سرتا من دهسي ، ولكن حين تركت جورج الصغر فصاعداً . بعدما علمت انه عاند لا اول الطعام في البيت ، ففرت الى ساره اخره لاستئنه الى سارع نوتردام ديشان . فكرت انبني اذا وصلت في هذه الساعه فان بولين ستبقني لتناول الطعام ، وهذا امر لا سببعد حصوله ويمكن ان استعمل كتابي ، الذي حللت نسخة منه من عبد بيران واستطيع تقديمها اليها ، كعذر لهذه الزياره التي هي في غير وقتها .

« هذه اول مره اتناول طعاماً عند بولين . وكانت خطتنا لحدري من صوري . انا اشك في كونه قانونياً مرموفاً ولكنه يعرف الا بكلم عن مهمته اكتر مما اتكلم عن مهمتي عندما تكون معاً ، بنوع اثنا تتفاهم جبدأ .

« ومن الطبيعي الا انبس بكلمة عند وصولي هذا الصباح عن اللقاء الذي حدث لي

- آمل ان يباح لي بذلك معرفة ابناء اختي .

- وقلت لبولين حين رجتني ان ابقى لتناول الطعام : فانت تعرفي ان هنالك اثنين لا اعرفهما بعد .

قالت لي :

- لن بأقى اوليفيه الا بعد قليل لأن عنده مراجعة ،

سنجلس الى المائدة من دونه . ولكنني سمعت جورج يعود
وسأدعوه .

« واسرعت الى باب الغرفة المجاورة :
- جورج تعال سلم على خالك .

« اقترب الصغير ومد الي يده ، فقبلته . . . انا معجب بقوة
المداجاة عند الاولاد ، لم يظهر عليه انه فوجي » . حتى بدا وكأنه
لم يتعرف إلى قط وبساطة ، احمر وجهه كثيراً ، ولكن امه قد
تفكر ان هذا عائد الى التجل . فكررت ان من الممكن ان يكون
متضايقاً للقاء « التحري » الذي لقيه منذ هنีهة ، لأنه تركنا
فجأة وعاد الى الغرفة المجاورة » هي غرفة الطعام التي فهمت
انها تستعمل غرفة درس للأولاد بين وجبات الطعام . وعاد بعد
قليل حين دخل والده الى الصالون ، واغتنم فرصة قيامهم الى
غرفة الطعام ليقترب مني ويمسك بيدي دون ان يراه اهله .
ظننتها اولاً عالمة صدقة ، فاعجبتني ولكن لا : ففتح يدي التي
اطبقتها على يده ووضع فيها قطعة صغيرة من الورق اؤكد انه
كتبها ، ثم طوى اصابعي فوقها ضاغطاً على الكل بقوة . وغنى
عن القول اني هيأت نفسي للعب ، فخبات الورقة الصغيرة في
جيبي حيث لم استطع اخراجها الا بعد الطعام . وهذا ما قرأته
فيها :

« اذا حكست لاهلي قصة الكتاب فسألقول (شطب :
سأكرهك) انك قدمت علي عروضاً .

وتحت هذا :

« اني اخرج من المدرسة كل يوم في الساعة العاشرة »

« قطعت البارحة بزيارة × ترکني حديثه في حالة فلق .

« فكرت كثيراً بما قال لي × انه لا يعرف شيئاً عن حياتي ولكن عرضت عليه مخطط « مزيفو النقود » طوبلاً. نصيحته نافعة دائمًا لي ، لأن وجهة نظره تختلف عن وجهة نظري . هو يخشي الا اجنب الى الافتعال والا اترك الموضوع الحقيقى الى ظل هذا الموضوع في دماغي . وما يقلقني هو ان الحياة (حياتي) تنفصل هنا عن مؤلفي ، ومؤلفي يبتعد عن حياتي . ولكن لم استطع ان اقول هذا له . حتى الان كانت اذواقي وعواطفي ، واختباراتي الشخصية تغذي كل كتاباتي كما يجب وكانت اشعر بقلبي يتحقق في عباراتي المبنية افضل بناء . منذ الان انقطع الرباط بين ما افكر فيه وما اشعر به واتساع ان لم يكن الضجر الذي احس عن ترك قلبي اليوم يتكلم هو الذي يلقي كتاباتي في التجريد والاصطناعي . وحين افكر في هذا يظهر لي فجأة مغزى اسطورة ابولون ودافنه Daphné وافكر : سعيد من يستطيع ان يمسك بقبضة واحدة الغار ومحظ غرامه .

« رويت لقائي مع جورج مطولاً حتى اضطررت الى التوقف في اللحظة التي دخل فيها أوليفيه المشهد . لم ابدأ هذه الحكاية الا لأتكلم عنه ولم اعرف ان اتكلم الا عن جورج . ولكنني ، في فترة الحديث عن أوليفيه ، ادرك ان الرغبة في إرجاء هذه

الفترة هي سبب بطيء . ومنذ ان رأينه في ذلك النهار الأول ،
ومنذ ان جلس الى مائدة العائلة ، ومنذ نظرتي الأولى ، او على
الاصل منذ نظرته الأولى ، شعرت ان هذه النظرة استولى على
وان حياتي لم تعد في نصري .

« ألمت بولين ان اكثر من المجبٍ لرؤيتها . ورجتني ان
اهنم بأولادها وجعلتني افهم ان والدهم لا يعرفهم معرفة حسنة .
كلما حدتها اشعر انها جذابة ، ولم افهم كيف استطعت ان افني
طويلاً من غير ان اتردد عليها . لقد نشأ الاولاد على الدين
الكاثوليكي ، ولكنها تتذكر تربيتها الاولى البروتستانتية . ومع
انها تركت بيت والدنا المشترك يوم دخلت والدي اليه فقد
اكتشفت كثيراً من الخطوط المتشابهة بيني وبينها . وقد وضعت
اولادها في مدرسه داخلية عند والد لورا حيث سكنت انا نفسي
مدة طويلة . ومدرسة ازاييس تعزز بان ليس لها صبغة مذهبية
خاصة (كان فيها حتى اترالك في ايامى) . وأيضاً فان ازاييس
العجز ، الصديق القديم لأبي ، الذي اسسها ولا بزال
يدبرها ، كان قبلًا قسيساً .

تلقت بولين اخباراً سارة من المصح حيث انتهت فنسان
إلى الشفاء .

قالت لي انها حدثته عني في رسائلها وتريد ان اعرفه بشكل
افضل ، لأنني لم اره الا ماماً . هي تبني على ولدتها البكر آمالاً

كبيرة ، والعائلة بذل وسعها لتيح له الاستقرار - اريد ان اقول : ان يكون له مسكن مستقل لاستقبال الزبائن . وفي انتظار ذلك وجدت وسلا لحفظ له قسمًا من الشقة الصغيرة التي يشغلونها ، بان بقطن اوليفيه وجورج تحت سقهم في عرفة منفردة فارغة . والسؤال الكبير هو اذا كان فسان سبضطر الى عدم دخول مدرسة داخلية لسبب صحي .

« الحقيقة ان فسان لم يُ اهتمامي . واذا كنت تحدثت عنه كثيراً مع امه فقد كان ذلك بداعى مجامعتها ، ولكنني نستطيع بعد ذلك ان نهتم بأوليفيه مدة اطول .اما جورج ، فقد ظهر عدم رضاه عني ، وهو لا يكاد يجيبني حين اكلمه ، وحين القاء بلفي على نظرة متشككة لا يمكن تفسيرها . يبدو انه يريد الا اذهب لانتظاره عند باب مدرسته .

لا أرى اوليفيه كثيراً . وعندما اذهب الى والدته لا اجرؤ على لقائه في الغرفة التي اعرف انه يستغل فيها ، واذا لقيته صدفة اصاب بكثير من الارنباك والااضطراب بحيث لا أجده ما اقوله له . وقد جعلني هذا تائساً بحيث صرت افضل الذهاب لرؤيه والدته في الساعة التي اعلم انه غير موجود في البيت » .

١٢

يوميات ادوار

(تابع)

« ٢ تشرين الثاني - حديث طويل مع دوفيه الذي خرج
معي من بيت اهل لورا ورافقني حتى الاوديون خلال
اللوكسمبور . انه يعد اطروحة دكتوراه عن وردزورث ، ولكنني
شعرت » من الكلمات القليلة التي قالها لي عنه ، ان اكثر ما
يتنازع به شعر وردزورث من خصائص قد فاته التنبه اليها . كان
من الافضل لو اختار تيسون . اشعر بما لا ادرى من النقص
عند دوفيه . من الفموض ، من السذاجة . هو يأخذ جميع
الأشياء والكائنات كأنها ما تظاهرة به » ويمكن ان يكون هذا
متانياً من انه يتظاهر دائمًا بما هو . وقد قال لي :

« - اعرف انك افضل صديق للورا . وما من شك في انه
كان علي ان اغار منك قليلا . لا استطيع . بل على العكس ،
فكل ما قالته لي عنك جعلني في آن واحد افهمها بشكل
افضل » واتمنى ان اكون صديقاً لك . لقد سألتها ذات يوم اذا

١٢٤

كنت لا تحقد على بسبب زواجي منها ، فاجابتني ان الامر على العكس لأنك اشرت عليها بهذا الزواج (اعتقد انه قال لي ذلك بلهجة سطحية) اريد ان اشكرك . والا تجد ذلك سخيفاً فاما اقوم به بكل صدق . هكذا اضاف ، محاولا ان يبتسم . ولكن بصوت مرتفع وبدموع في عينيه .

« لم اعرف ما اقول له لأنني شعر اني اقل تأثراً مما يجب ان اكون وغير قادر على استدرار الدمع بشكل متبدل . واضطررت ان ابدو له جافاً بعض الشيء ، لكنه اقلقني . الا انني ضغطت بكل ما استطعت من حرارة على اليد التي مدها الي . هذه المشاهد التي يقدم المرء فيها من قلبه اكثر مما يتطلب منه هي دائمًا مؤلمة . وما من شك في انه فكر باعتصاب عاطفي . ولو كان اكثر فطنة لشعر انه قد سرق . ولكنني رأيته آنذاك معترضاً بفضل بادرته اذ ظن انه لمس انعكاس ذلك في قلبي . وبما انني لم اقل شيئاً ، ويمكن انه احس بالقلق من سكوتى ، فقد اضاف بعد قليل :

- اني اعتمد على الغربة التي ستضعها فيها حياتها في كمبريدج لمنع المقارنات من ناحيتها ، والتي ستكون لغير صالحني .

« ماذا يريد ان يقول بذلك ؟ حاولت الا افهم . ربما يتوقع اعتراضاً ، ولكن هذا يزيد من التصاق ببعضنا البعض . انه من اولئك الناس الذين لا يستطيع الخجل عندهم احتمال الصمت

ويطئون ان من الواجب ملأه بالمبالغات انه من اولئك الدين يفولون لك بعد ذلك : « كنت دائماً صريحاً معك » . ايه . . . ليس المهم ان يكون الواحد صريحاً بقدر ما المهم ان يسمح لسواء مان يكن معه صريحاً . وكان عليه ان يحسب حساباً لكون صراحته منعت صراحتي .

« ولكنني اذا لم استطع ان اصبح صديقه فاعتقد على الأقل انه سيكون زوجاً ممتازاً للورا . وما اعييه عليه هنا هي ، في الحقيقة ، صفاتة الحسنة وتتكلمنا عن كمبريدج بعد ذلك حيث وعدت بالذهاب لرؤيتها .

« اية حاجة حفاء دفعت لورا الى ان تحدثهعني ؟

« ميل طبيعي للتفائلي عند المرأة يسنحق الاعجاب . والرجل الذي تحبه ليس هو في اغلب الاحيان في نظرها سوى نوع من المشجب تعلق جبها عليه . بأية سهولة صادفة تجيري لورا عملبة الاستبدال ! انا افهم ان تنزوج دوفيفيه ، و كنت احد الاولين الذين اشاروا عليها به . ولكن كان من حفي ان آمل منها شيئاً من الحزن . موعد الزفاف بعد ثلاثة ايام .

« بعض المقالات عن كتابي . ان الصفات التي اعترف لي بها هي من تلك التي اكره . . . هل كنت على حق في تركهم يعيدون طبع هذه الاشياء الفدئية ؟ انها لا تتعلق بشيء مما احبه اليوم . ولكنني لم ار ذلك فيها الا الآن . ولم ييد لي ابني تغيرت ، ومع ابني وعيت ذاتي الان فقط ، فحتى هذا الوقت لم اكن

اعرف من كنت . اتراني في حاجة الى ان يقوم آخر مكان بدور الكاشف ؟ ان هذا الكتاب قد تبلور وفقاً للوراء ، وهذا لا اريد ان اتعرف فيه الى نفسي

« هذه الفطنه المصوّعه من النعاطف ، والقى ستح لنا ان نسبق الفصول ، هل كان ممنوعة علينا ؟ اي مشاكل ستعلن غداً او لئك الذين سيأتون ؟ لهم اريد ان اكتب . تجهيز غذاء للرغبات الحارة في المعرفة والتي لا نزال غير واصحة ارضاء تطلبات لم تتضح معالمها بعد بنوع ان ذلك الذي ليس هو اليوم الا طفلاً يدهش غداً لالتقائه بي على طريقه »
لكم احب ان اشعر بكثير من الفضول عند اوليفيه ،
وبنفور ملول من الماضي ...

« يبدو لي احيانا ان الشعر هو الشيء الوحيد الذي يبرر اهتمامه - واحس ، وانا اعبد قراءة الشعراء من حلاله ، كم هم قلائل بين شعرائنا او لئك الذين يتركون انفسهم يساخرون بعاطفة الفن اكثر من القلب والروح . والغرب هو انه حين ارافق اوسكار مولينبيه اشعاراً لاوليفيه اشرت على هذا ان يحاول الاستسلام لفادة الكلمات لا ان يخضعها . والآن ، يبدو لي انه هو الذي ، بنوع من الفعل المضاء ، يعلمى ذلك .

« كم يبدو لي اليوم ان كل ما كنته سافرا كان سخيفاً ومضجراً ، ومضحكاً بشكل محزن !

« ٥ تشرين الثاني - جرى الاحتفال في الكنيسة الصغيرة في شارع «مدام» حيث لم اعد الى هناك منذ وقت طويل . عائلة فيدال - أزاييس كاملة : جد لورا ، وامها وابوها ، اختها واخوها الصغير ، عدد كبير من الاعمام والاخوال والعمات والحالات وابناء الاعمام والاخوال . عائلة دوفيفيئ ممثلة بثلاث عمات في ملابس الحداد حيث جعلهن المذهب الكاثوليكي راهبات ، يعشن معًا كما قيل لي ، ويعيش معهن دوفيفيئ ايضاً منذ موت اهلها . وعلى المنصة تلامذة البنسيون . هناك اصدقاء آخرون للعائلة اتوا ملء القاعة التي بقيت في صدرها ، رأيت اختي مع اوليفيه في مكان غير بعيد عنى ، اما جورج فلا بد ان يكون على المنصة مع رفاق من سنه . ولا بيروز العجوز على الأرغن ، ووجهه الشائع اجمل وانبل من قبل ، الا ان عينه فقدت ذلك البريق الرائع الذي كانت حرارته تصل إلى ايات دروسه في البيانو . تلاقت نظراتنا وشعرت ان في الابتسامة التي ارسلها الي كثيراً من الكآبة التي جعلتني اعد نفسى بلقائه عند الخروج . هناك اناس انتقلوا وصار المكان بجانب بولين فارغاً . وكان اوليفيه يشير الي وقد ابعد والدته لأتمكن من اخلوس بجانبه ، ثم اخذ يدي وابقاها طوبلا في يده . هذه هي المرة الأولى التي يتصرف فيها معي بدانة . وقد ترك عينيه مطبقتين اثناء خطبة القسис اللامتناهية ، مما اتاح لي ان اتأمله طويلاً . انه يشبه ذلك الراعي النائم المحفور بالنقش البارز في متحف نابولي ، والذي اضع صورته على مكتبي . كنت اظنه نائماً لو لا

ارتعاش اصابعه ، وكانت يده ترتجف كعصفور في يدي .

« ظن القسيس ان من واجبه اعادة رسم تاريخ العائلة كلها ، ابتداء من تاريخ الجد ازايس الذي كان رفيق دراسة له في ستراسبور قبل الحرب . ثم رفيق تلمذة في كلية اللاهوت . ظنتن انه لن يستطيع ان يختم عبارة معقدة حيث حاول ان يشرح ان صديقه عندما قام بإدارة مدرسة داخلية وانصرف الى تربية الاطفال لم يترك الابرشية . ثم كان للجبيل الآخر دوره . وتكلم ايضاً عن عائلة دوفيفيه التي بدا انه لا يعرف عنها كبير امر . لقد اخفى سمو العواطف الضعف الخطابي وسمع امتناع عدد من الحاضرين . كنت اربد معرفة ما يفكر فيه اولييفيه ، وقد فكرت انه ، وقد نشأ كاثوليكياً ، فلا بد ان يكون المذهب البروتستانتي جديداً عليه وانها المرة الأولى يحيى فيها الى هذا المعبد . ان الخاصة الفريدة لتفكيك الشخصية التي تتبع لي ان احس بتأثير الغير كأنه مثيري اجبرتني على اعتناق احساسات اولييفيه ، تلك الاحساسات الى التحبل انه يجب ان يحس بها ، ومع انه ابقى عينيه مطبقتين ، او بالاحرى بسبب هذا نفسه ، خيل الي ابني ارى عنه ، وللمرة الاولى ، تلك الجدران العارية ، والضوء الكامد الشاحب الذي يغمر المستمعين ، والانفصال القاسي للمنبر على الجدار الابيض في صدر القاعة ، واستقامته الخطوط ، وصلابة الاعمدة التي تمسك المنصة ، وروح تلك الهندسة المعمارية ذات الزوايا واللون الزائل

حيث بدت لي للمرة الأولى بشاعتها الجاهمة ، والتشدد والافراط في الشح . لا شك اني كنت معتاداً بذلك منذ الطفولة ، وهذا ما يفسر عدم شعوري من قبل كل ما اراه الآن ... وعاد بي التفكير فجأة الى يقطني الدينية وغلوائي الأولى في العبادة ، إلى لورا وإلى مدرسة الأحد حيث كنا نلتقي كعريفين نحن الاثنين ، مليئين بالحمية ولا نعرف ان نميز ، وسط تلك الحماسة التي كانت تحرق فينا كل ما هودنس ، بين ما يخص الآخر وما يخص الله . ثم بدأت اغتم لأن اوليفيه لم يعرف ذلك الفقر الشهوانى الأول الذي يلقي بالنفس ، بشكل خطير ، بعيداً فوق المظاهر ، وكذلك لأن ليس له ذكريات شبيهة بذكرياتي ، ولكن شعوري بأنه غريب عن كل هذا ساعدني على الهرب من هذه الافكار . لقد اختطفت بمحبة بتلك اليد التي تركها دائمًا في يدي ، والتي سحبها تلك اللحظة . فتح عينيه لينظر إلى وبابتسامة كيسه صبيانية لطفت من تجهم جبهته همس وهو منحن نحوه - بينما كان القيس يذكر بواجبات جميع المسيحيين ، ويغدق على الزوجين الجديدين النصائح وال تعاليم الدينية :

« - لا يهمني : انا كاثوليكي .

كل ما فيه يهدبني ويظل عامضاً .

« على باب السكرستيا وجدت لا بيروز العجوز . قال لي شيء من الكآبة ، ولكن بلهجة لا يدخل فيها اي لوم :
« اظن انك نسيتني قبلاً .

« لا اعرف ، لأنني عذری ، اي شواغل اعتذر بها لبقائي طويلاً دون ان اراه . وعدته بزيارة بعد الظهر » وحاولت ان اصحبه الى بيت آل ازاييس حيث كنت مدعواً لتناول الشاي الذي سيقدمونه بعد الاحتفال ، ولكنه قال لي ان مزاجه متذكر ، ويخشى ان يلتقي بكثير من الناس ويضطر الى التحدث معهم ، الأمر الذي لا يقدر عليه .

« بولين اصطبخت جورج وتركني مع اوليفيه . وقالت لي وهي تضحك :

« - اعهد به اليك .

« وهذا ما بدا انه ازعج اوليفيه الذي مال بوجهه » وقادني الى الشارع .

« - لم اكن اعلم انك تعرف آل ازاييس جيداً .

« فادهشتة كثيراً عندما قلت له اي كنت عندهم في البنسيون طوال ستين .

« - كيف استطعت تفضيل هذا على اي ترتيب آخر لحياة مستقلة ؟

« - وجدت فيه شيئاً من رغد العيش .

« هكذا احبيته بشيء من الغموض ولم استطع ان اقول له ان لورا في ذلك الوقت كانت تشغل تفكيري » وانني اذا كنت رضيت بارداً الانظمة فلسrorوي باحتمال هذه الانظمة بقريها .

« - الم تختنق في جو هذه « العلبة » ؟

« ولما لم اجرب بشيء ، قال :
الخلاصة ، لا اعرف كيف احتملتها انا نفسي ولا كيف
حدث حتى صرت فيها ... ولكنني نصف داخلي فقط . وهذا
كثير .

« كنت مضطراً الى ان اشرح له الصدقة التي تربط جده
بمدير هذه العلبة حيث املت ذكرها اختياراً لها في ما بعد .

وأضاف :

- على كل حال لا املك ان اقارن ما من شئ في ان جميع
هذه المدففات تتساوى ، واظن ايضاً ، وفقاً لما قيل لي ، ان
معظم المدففات الاخرى فاسدة ولا يمنع اني سأكون مسروراً
بغروجي من هنا. وما كنت لادخل لو لم اكن بحاجة لاستعادة
الوقت الذي كنت فيه مريضاً . وانا من زمان لا اعود الى هنا
الا بداع صداقتى لأرمان .

« علمت حينئذ ان اخ لورا الصغير هذا كان رفيقاً له في
المدرسة . وقلت لاوليفيه اني لا اكاد اعرفه .

« - ومع ذلك فهو الأذكي والاكثر جاذبية في العائلة .

« - اي انه هو الذي يعجبك اكثراً من الجميع .

« - كلا ، كلا ، اوكلد لك انه مثير للاهتمام وستذهب اذا
شئت لتحدث معه قليلاً في غرفته . آمل ان يجرؤ على الكلام
اماكلك .

« كنا قد وصلنا امام البنسيون .

« كان آل فيدال - أزاييس قد استعاضوا عن وليمة العرس التقليدية بشاي بسط اقل كلفة وكانت غرفه الحديث ومكتب القسيس فيدال مفتوحنين لجمهور المدعوين ، الا بعض الاصدقاء الخلص وحدهم دخلوا الى الصالون الصغر الخاص بالقسيسة ، ولكي يمنعوا اجتياحه على المدعوين فقد اغلقوا الباب بين غرفة الحديث وهذا الصالون ، الأمر الذي جعل ارمان يحب أولئك الذين بسؤالونه من ابن يستطيعون المرور الى مكان

امه : .

« - من المدخنة .

« كان هناك جهور . والحر خانق . وفي ناحبة بعض «اعضاء الهيئة التعليمية» ، زملاء دوفيه ، مجتمع بروتستانتي فقط . رائحة تزمنت خاصة جداً . بخار الانفاس قوي كثيراً ، ويمكن ان يكون اكثراً إحداثاً للاختناق ايضاً في الاجتماعات الكاثوليكية او اليهودية عندما يرفعون الكلفة بينهم . ولكن يوجد على الاغلب تقدير للذات بين الكاثوليك وعدم تقدير بين اليهود ، بينما البروتستان لا يبدون لي جديرين بذلك الا نادراً . اذا كان لليهود انف طويل فان انف البروتستان مسدود ، وهذا لا ريب فيه . وانا نفسي لم افطن قط لصفة هذا الجو الخاصة على مدى انغماسي فيه .

« ولا اعرف ما فيه من جبلي لا يفسر ومن مثير للشهوة الجنسية ، ومن عباء

« في صدر القاعة منضدة مقامة كمقصف وراسيل اخت لورا الكبرى ، وساره اخها النانية يعاونها بعض صديقاتها من الفتيات المرشحات للزواج » يقدمن الشاي .

« منذ ما رأيتني اخذتني الى مكتب والدها حيث ينعقد اجتماع ، والنجأنا الى فرجة نافدة ، واستطعنا التحدث دون ان يسمعنا احد على حافة إطار النافدة كتبنا ، في ما مضى اسمينا . وقالت لي :

ـ تعال وانظر ان اسمينا لا بزال هنا . اعتقد ان احداً لم يلاحظها . كم كانت سنك يومذاك ؟

ـ وكنا قد كتبنا تاريخنا فوق الاسمن ، فأحررت الحساب :

ـ ثمانية وعشرون عاماً .

ـ وانا سته عشر لقد مر على ذلك عشر سنين .

ـ لم تكن اللحظة مناسبة لنحربيك هذه الذكريات . فسعيت لأحول حديثنا ، بينما هي اعادتني اليه باللحاح قلق . وفجأة ، كأنها خافت ان بعاؤدها الحنين ، سالتني اذا كنت لا ازال اذكر ستروفيلو ،

ـ كان ستروفيلو تلميذا حراً يزعج اهل لورا كثيراً في ذلك الوقت كان يدعى انه بتابع درساً ، ولكن حين سُئل : اي درس ؟ او اي امتحان يعد ، فاده يحب بهمال .

ـ انا نوع ،

« كانوا يتظاهرون ، في الاوفات الأولى ، تحمل وفاحتة على
حمل الزاح لبفلوا من حدتها وكان هو يشارکهم بضحكه
كبيرة ، ولكن هذه الصحكة اصبحت بعد ذلك اکثر سخرية ،
وتعليقانه اکثر عدوانية . ولم افهم كتف ولماذا بنساھل الفسیس
مع تلميذ كهذا اللهم إلا اذا كان ذلك لأسباب مالة . كان بمحظ
لستروفيلو نوعاً من المودة ممزوجة بالشفقة . وربما كان هناك امل
غامض يداعبه بالتوصل الى افناعه ، اريد ان اقول : الى
هدايته . ولم افهم ابضاً لماذا يستمر ستروفيلو بالسكن في
البنسيون ما دام يستطيع الذهاب خارجاً ، اذا يبدو انه لس
باقياً مثل لسب عاطفي . ولكن من الممكن ان يكون بقاوه اللذة
التي يشعر بها في تلك المباريات مع القسیس المسکین الذي لا
يمسن الدفاع عن نفسه ويترك له دائئراً الدور الجميل».

« - اتذكر ذلك اليوم الذي سأله فمه اي اذا كان ييفي
سترته تحت ثوبه عندما يفوم بالوعظ؟...».

« - بالتأكيد ! فقد سأله ذلك بكثير من الرقة حتى ان اباك لم
يلحظ الخبث في هذا السؤال . كان ذلك على المائدة ، اذكر كل
ذلك جيداً ..»

« - واي الذي اجابه سلامه نبه ان الثوب ليس سمبكاً ،
وانه يخشى ان يصاب بالبرد دون سترته».

« - والمظهر الحزين الذي اخذته ستروفيلو حينذاك ! وكيف
ضغطنا عليه حتى قال اخيراً ان « لس لهذا اهمية كبيرة » ، ولكن

حين يقوم والدك بحركات كبيرة تظهر اكمام السنرة من تحت الثوب ، وهذا تأثير سيء على بعض المؤمنين .

« - وعلى اثر ذلك القى ابو المسكين عطة وذراعاه ملتصقتان بجسده » وقد اخفق كل مفعول لفصاحتنه ».

« - وفي الأحد التالي دخل مزكوماً لأنه خلع السنرة .

اوه ! .. والمناقشة حول شجرة النين العقيمة في الانجيل والاشجار التي لا تحمل اثماراً ... « انا لست شجرة مثمرة الظل ، هذا ما احمله يا سيدى القيسىس : انا اغطيك بالظل » .

« - وهذا ايضاً قيل على المائدة ..

« - طبعاً فكنا لا نراه الا في اوقات الأكل ..»

« - وقيل هذا بنبرة شرسة . عندئذ طرده جدي . انذكر كيف انتصب فجأة ، هو الذي من عادته ان يبقى انه في صحته ، ومد ذراعه : « اخرج ! ». »

« - لقد بدا ضحيناً ، خيفاً ، كان غاضباً ، واعتقد حقيقة

ان ستروفيلو شعر بالخوف . القى مشفته على الطاولة واختفى . ذهب دون ان يدفع لنا ، ومنذ ذلك الوقت لم نعد نراه ».

« - انا بشوق لمعرفة ما حل به ».

« - وتابعت لورا بشيء من الكآبة :

- يا جدي المسكين ! .. كم بدا لي جيلاً ذلك اليوم .
كان يحبك كثيراً وانت تعلم . عليك ان تصعد لرؤيه في مكتبه
ولو قليلاً . متأكدة انه سيفرح بك كثيراً».

« نسخت كل هذا على الاتر ، ساعراً كم من الصعب ايجاد اتفان لنبرة حوار . ولكن منذ هذه اللحظة بدأت اصفي الى لورا وانا اكتر ت ساعلاً ، فقد شاهدت بعيداً عي أوليفيهي الذي غاب عن عيني منذ ما قادني لورا الى مكتب والدها . كانت عيناه تلمعان وقسماته ذات حبوبة شكل غير عادي . عرفت في ما بعد ان ساره سقطه بداعي السلالية ستة اكواب من الشامبانينا كأساً وراء كأس . كان أرمان معه ، والاثنان يلحقان من خلال الجمهور بسارة وفتاة انكليزية في سنها . وهي تلميذة داخلية عند آل ازايس منذ اكثرب من سنة . واخيراً نركت ساره ورفيقتها القاعة . ورأيت الغلامين من الباب المفتوح بندفعان للحاق بهما في السلم . خرجت بدوري مليباً اوامر لورا ، ولكنها اتت بحركة نحوبي :

« - اسمع يا ادوار ، اريد ان اقول لك ايضاً - وفجأة اصبح صوتها كثير الرصانة - من الممكن ان يمر وقت طويل قبل ان نرى بعضنا بعضاً . اريد ان تعيد علي ... اريد ان اعرف اذا كان في امكانى الاعتماد عليك اعتمادى على صديق».

لم اشعر قط بالرغبة في تقبيلها بهذه اللحظة . لكنني اكتفيت بتقبيل يدها بحنون واندفاع وانا اقتمن :

« منها حدث » .

« ولكي اخفي عنها الدموع التي تصاعدت الى عيني هربت بسرعة لأبحث عن اوليفيهي».

« كان يرصد خروحي وهو حالس على احدى درجات السلم بجانب ارمان . كان شعوراً بعض الشيء نهض وشدني من ذراعي وقال لي :

« تعال . سندخ سيكارة في غرفة سارة . انها تنتظرنا .

« بعد لحظه يجب اولاً ان اذهب لرؤيه ازاييس . ولكنني لن استطيع معرفة الغرفة .

« فهتف ارمان :

« انت تعرفها جيداً . هي غرفة لورا القديمة . انها اجمل غرف البيت وفيها تناول التلمذة الداخلية ، وبما ان هذه لا تدفع المبلغ الكاف فقد افتسمت الغرفة مع ساره . وضعوا لها فيها سريرين مراعاة للمظاهر ولكن هذا كان بلا جدوى

« فقال اوليفيه ضاحكاً وهو يدفعه :

« لا تصنع اليه فهو خمور .

فقال ارمان :

« انصبح بالذهب . ستائي اليك كذلك ؟ انها ينتظرك .

« فوعدت بأن اوافقها .

« منذ ان اصبح شعر ازاييس العجوز الطبقتين الأولى والثانية كالفرشاة لم يعد يشبه « وينمان » في شيء . لقد تحلى لعائله صهره عن الطبقتين الأولى والثانية من البنابة . ومن نافذة

مكتبه (أكاجو ، نسيج حريري ، محمل) يشرف على الساحة من عل ويرأب رواح التلامدة ومحيئهم «- انظر كف بعنجهوني .

« قال لي ذلك وهو بربني على الطاولة باقة صخمة من زهر الكريزنتيم تركتها احدى امهات النلامدة ، وهي صدفة فديبة للعائلة . كان جو الغرفة منجها حتى لبدو ان الزهور قد ساعدت على ذبوها .

« - تركت الناس لفترة . فأنا هرم وجلة الحديث تعنى . ولكن هذه الزهور ترافقني في وحدت أنها تتحدث على طرقتها وتعرف ان تحدث عن مجد الرب اكثر من الناس (او اي شيء من هذا الطحين) .

« لا يعرف هذا الرجل الفاضل كم يمكن ان يزعج النلامدة باحاديث من هذا النوع ، فكلامه هذا ، في نظره صادف لا يمكن ان يستثير السخرية . والتفوس الساذجة ، كمس أزييس ، هي فعلاً اصعب ما استطيع فهمه . واذا كان المرء افل سذاجة فإنه يلجن امامها الى نوع من الكوميديا وهذا عبر لائق ، ولكن ما العمل ؟ لا يمكن المناوشة ، والتصحيح ، فانت مجبى على القبول . ان أزييس يفرص حوله المداجاه على من لا يشاركه ما يؤمن به . وفي الاوقات الأولى التي عانسر فيها العائلة كت اسخط لرؤيه احفاده بكذبوب عليه واضطررت ان اعيد نفسي الى الصواب .

« القسيس بروسبير فيدال مستغول جداً ، والستة فيدال - بلهاء فليلاً وغارقة في احلام سحرية ديهية تفقد فيها كل حس بالواقع . والجد هو الذي اخذ على عاته نرية الصغار وتعليمهم . ويوم كنت اسكن عندهم كت احضر مرة في الشهر شرحاً عاصفاً ينتهي بدموع مؤثرة :

- من الان فصاعداً ستتصارح بكل شيء . لقد دخلنا في عصر جديد من الصراحة والصدق (باستعمال كلمات كثيرة ليقول الشيء نفسه - وهي عادة قديمة بقيت معه من يوم كان قسيساً) . لن نحتفظ بسرائر ، بتلك الافكار الكريهة التي في كواليس الظن . ستتناول النظر وجهاً لوجه والعيون في العيون ، ليس كذلك ؟ ... متفقون .

» وبعد هذا غاص في البلاهة وغاص اولاده في الكذب .

« كانت هذه الاحداث توجه على المخصوص الى اخ للورا اصغر منها بسن و قد اقض مضجعه ماء الحباد و بـ بـ الحب . (كان يمارس التجارة في المستعمرات ولم اعد اراه) و دات مساء اعاد العجوز هذه العبارة من جديد فذهبت لرؤيته في مكتبه ، و حاولت افهمه ان هذا الصدق الذي يتطلبه من حفيده يصبح مستحيلاً بسبب تشددـه . و قد خنق ازاييس حينذاك و صرخ بلهجة لا تقبل جواباً :

« - ليس عليه الا ان يتنزع عن فعل ما ينجل بالاعتراف

. به .

« ومع هذا فهو رجل ممتاز ، بل افضل من ذلك : غوزج للفضيلة وما بسمونه قلب من ذهب ، ولكن هذه الاحكام صبيانية . واعتباره الكبير لي جاء من كونه لا يعرف لي عشبة . ولم يخف عن امله في ان اتزوج لورا ، ويشك في ان دوفيه سيكون الزوج الموفق لها وكرر على مراراً : « ان اختيارها اثار دهشتني » . ثم اضاف : « اظن انه علام فاضل ... يشبهك بذلك ... »

« وعلى هذا اجبت :

« - بالتأكيد :

« تفقد النفس الحس ، والذوق ، وال الحاجة ، وحب الواقع بقدر انغماسها في التقوى . وقد لاحظت ذلك ايضاً عند فيدال على قلة ما استطعت ان اتحدث عنه . ان تألف ايامنهم يعميهم عن العالم المحيط بهم ، وعن انفسهم. اما انا الذي اكثر ما يهمه هو ان يرى بوضوح فقد بقيت ذاهلاً امام كثافة الكذب ، حيث يمكن المتدين ان يلبث بارتياح .

« اردت ان احمل ازايس على التحدث عن اوليفيه ولكنه شديد الاهتمام بجورج الصغير . وقد بدأ بقوله :

« لا تدعه يرى انك عارف بما سأقوله لك . فالقضية تتعلق بشرفه . تصور ان ابن اختك الصغير وبعضاً من رفاقه الفوا نوعاً من الجمعية الصغيرة ، تحالفًا من التنافس المتبادل ، لا يقبلون فيها الا اولئك الذين يرونهم جديرين بها والذين قدموا

البراهين على الفضيلة ، انها نوع من جوقة الشرف الصبيانية .
 الا تجد هذا بديعاً ؟ كل منهم يحمل في عروته شريطاً
 صغيراً - صحيح انه لا يكاد يظهر ، لكنني مع ذلك لاحظته
 اتى بالولد الى مكتبي وحين استوضحته عن هذا الشعار
 اضطرب اولاً . كان العزيز الصغير بانتظار توبيخاً تم روى لي
 تأليف هذا النادي الصغير بكثير من الاحمرار وكثير من
 الاضطراب . وهذه اشياء ، كما ترى ، على المرء الاحتفاظ
 بالابتسامة حيالها : اذ يخشى ان تدخل الغم على العواطف
 الكثيرة الرقة ... سأله ماذا لا يقوم ورفاقه بهذا العمل على
 المكشوف ، في ضوء النهار ؟ وفهمته اية قوة رائعة من الدعاوة ،
 والتبشير يستطيعون الحصول عليها ، واي دور جميل يمكنهم
 القيام به ولكن الغموض يجب في هذه السن ... وقلت له
 بدوري ، لأعيد الثقة الى نفسه ، اني انخرطت في ايامي ، اي
 عندما كنت في مثل سنه ، في جمعية من هذا النوع كان
 اعضاؤها يحملون الاسم الجميل « فرسان الواجب » ، وكان
 كل منا يتلقى من رئيس العصبة دفتراً صغيراً يسجل فيه ضعفه
 وذنبه بصدق تام . فابتسم ، ورأيت جيداً ان قصة الدفاتر هذه
 اوحت اليه فكرة . لم الح ولكتني لن ادهش اذا ما ادخل نسق
 هذه الدفاتر بين اقرانه . انت ترى ان من الواجب ان نعرف
 كيف تصرف مع هؤلاء الاولاد ، ويكون ذلك في ان نريحهم اولاً
 اننا نفهمهم . وعدته الا أنس بكلمة من هذا لاهله ، وأخذت

عليه عهداً ان يقول ذلك لأمه لأن هذا يجعلها سعيدة . ولكن ييدو انه ورفاقه ارتبطوا بكلمة سرف الا يقولوا شيئاً . كنت اخرق في الحاجي . لكتنا صلينا معاً للرب ، قبل ان يتركنا . ليبارك هذه العصبة .

« في البداية لم انعرف الى غرفة لورا . فقد جدد فرشها . وكان الجو متغيراً تماماً . وسارة ايضاً بدت لي غير معروفة . ومع ذلك كنت اعتقد اني اعرفها . كانت تبدو شديدة الثقةمعي . وكانت في كل وقت بالنسبة اليها ذلك الذي يقال له كل شيء . ولكنني ظللت اشهرأ طويلاً لم اعد فيها الى بيت آل فيدال . ثوبها يغطي ذراعيها وعنقها ، وقد بدت كبيرة جريئة . كانت جالسة على احد السريرين بجانب اوليفيه ، مقابلة له ، وكان منمداً دون كلفة ويبدو نائماً . كان خموراً بالتأكيد . وبالتأكيد تملت لرؤيته على هذه الحال ، لكنه بدا لي اجمل من السابق . وكان الاربعة خمورين قليلاً او كثيراً . والانكليزية الصغيرة كانت تنفجر ضاحكة ، بضحكه حادة آلت اذني ، لأني حدث تافه يقوله ارمان . وكان هذا يقول اي شيء ، وهو مهتاج ، مفتون بهذه الضحكة ويتنافس معها في البلاهة والقحة ، متظاهراً بأنه يريد اشعال سيكارته بحمرة خدي اخته وخدي اوليفيه المشتعلين ، او انه احرق اصابعه عندما اقترب بحركة متنهكة ، وحاول ان يجمع جبهتيها . كان اوليفيه وسارة يمارسان هذا اللعب الذي كان مؤلماً لي الى النهاية . ولكنني تقدمت

« كان اوليقيه لا يزال منظاهر بالنوم حين سألي أرمان فجأة عن رأي في دوقيه . حلست على كتبة مخضصة ، لاهياً ، مهتاجاً ومتضايقاً في آن واحد من سكرهم وتبسطهم ، ومع ذلك كنت مفتتناً لطلبهم مي المعجى مع انه يبدو بوضوح ان مكانه ليس معهم .

■ هؤلاء الأوانس الحاضرات هنا ...

واستمر في كلامه لأنني لم اجد ما اجيب به ، واكتفت بان ابتسم ملاطفة . وفي تلك اللحظة ارادت الانكليزية منعه من الكلام ولاحقته لتضع يدها على فمه ، فانتفض صارخاً :

« ... هؤلاء الأوانس يغتنون لفكرة ان لورا ستتم معه .

« فتركته الانكليزية وقالت بثورة مصطنعة :

« اوه ! يجب الا تصدق ما يقول . انه كذوب

« وقال ارمان وهو اكثر هدوءاً .

« حاولت افهمها ان من غير الممكن العثور على افضل بيئة تبلغ عشرين الف فرنك ، وهي كمسبحة حقيقة يجب ان تحسب حساباً لصفات الروح كما يقول والدنا القسيس . نعم يا اولادي . ماذا يجل بالسكان اذا لزم ان تقضي بالعزوبة على كل اولئك الذين ليسوا بأدونيس او اوليقيه ، ولنقل هذا لنعود الى عصر اقرب عهداً .

■ فتمت ساره :

« - يا للأبله ! .. لا تصفع اليه . لا يعرف ما يقول .

« - اقول الحقيقة .

« لم اسمع ارمان قبلًا يتكلّم بهذا الشكل ، كنت اظن ، ولا ازال اظن ايضاً ، انه ذو طبيعة رقيقة حساسة ، وقد بدلت فظاظته لي متکلفة ، تعود في قسم منها الى السكر ، وايضاً الى الحاجة لتسليمة الانكليزية . وهذه ، وهى جميلة بشكل لا بنكر ، يجب ان تكون حمقاء لتسرب مجنون كهذا . أي نوع من الفائدة يمكن اوليفيه ان يجده هنا ؟ وفـ نوبـت الا اخـفيـ عنـهـ اـشـمـئـازـيـ حـالـماـ اـخـلـوـ بـهـ .

« قال ارمان وهو يلتفت فجأة نحوـيـ :

« - ولكن انت ، انت الذي لا يحسب حساباً للملـالـ ، ولديك منه ما يكفي ليدفع لك عواطف نبيلـةـ ، اترضـىـ ان تقول لنا لماذا لم تتزوج لورا ؟ مع اـنـكـ تحـبـهاـ كماـ يـبـدوـ وهيـ ، بمعرفـةـ الجميعـ ، تذـبـلـ شـوـقـاـ اليـكـ ؟

« اوليفـيهـ الذي ظـلـ مـتأـخـراـ بالـنـومـ حتـىـ الآـنـ فـتـحـ عـيـنـيـهـ ، وتـلاقـتـ نـظـارـنـاـ وـبـالـتـأـكـيدـ اذاـ كـنـتـ لمـ اـهـرـ خـجـلاـ فـلـأـنـ لـيـسـ هـنـاكـ واحدـ منـ الآـخـرـينـ كانـ فيـ حـالـةـ غـمـكـهـ مـنـ مـرـاقـبـيـ .

« - اـرـمـانـ ، اـنـتـ لـاـ تـحـتـمـلـ .

« هذاـ ماـ قـالـتـهـ سـارـهـ كـاـنـهـاـ تـرـيدـ اـرـضـائـيـ لـأـنـيـ لمـ اـسـطـعـ الـاجـابـةـ بـشـيـءـ . ثـمـ تـمـدـدـتـ بـكـلـ طـولـهـ عـلـىـ السـرـيرـ الذـيـ كـانـتـ

جالسة عليه بادئ الامر ، قبالة اوليفيه بنوع ان رأسها تلامسا . قفز ارمان حالاً واستولى على ستار كبير مطوي بجانب السرير على الحائط ونشره كبحار بشكل يستر الاثنين ، ثم انحنى نحوي مداعباً وقال بصوت مرتفع :

« - ليتك لا تعرف ان شقيقتي كانت بغياً .

« وكان هذا كثيراً . فنهضت ، وقلبت ستار الذي انتصب وراءه اوليفيه وسارة واقفين . كان شعرها مشعثاً ، ونهض اوليفيه وذهب الى مكان الزينة ووضع ماء على وجهه .

« وقالت سارة وهي تأخذني من ذراعي .

« - تعال من هنا » اريد ان اربك شيئاً .

« وفتحت باب الغرفة وقادتني الى الشرفة :

« - فكرت ان هذا يثير اهتمام روائي . انه دفتر صغير وجدته صدفة ، مذكرات خاصة لأبي . لا افهم كيف تركه في غير محله ليقرأه من يشاء . اخذته لثلا يراه ارمان . لا تحدثه عنه . انه ليس طويلاً . تستطيع قراءته في عشر دقائق ثم تعينه الى قبل ذهابك .

« فقلت وانا احدق بها :

« - ولكن هذا عمل طائش فظيع يا سارة !
فهزت كتفيها .

« اوه ! اذا كنت تعتقد ذلك فسيخيب ظنك حالاً . ولن

قضى لحظة حتى تراه شائقاً ... وايضاً اليك . سأريك .
واخرجت من صدرها مفكرة صغيرة جداً ، قديمة من
اربع سنوات ، وقلبت اوراقها لحظة ثم قدمتها الى مفتوحة ،
وهي تشير الى مقطع :
« - اقرأ بسرعة .

« رأيت اولا ، تحت تاريخ وبين هلالين ، هذه العبارة من الانجيل : « من يخلص في الامور الصغيرة » يخلص ابضاً في الكبيرة » ثم « لماذا ارجيء دائمًا الى الغد هذا العزم الذي عقدت النية عليه من اني لن ادخن ابداً؟ ... ما دام هذا لن يكون الا لكي لا اسبب الحزن لميلاني (اسم القسيسة) يا اهلي ، اعطي لأهز نير هذه العودية المخزية ». (اعتقد اني انقل الجمل بامانة .) - وتبع ذلك علامات الصراع والتضرعات ، والصلوات ، والجهود ، وكانت كلها على غير طائل دون شك ، لأنها ترددت يوماً بعد يوم . وقلبت صفحة اخرى ، وفجأة كان الأمر يتعلق بشيء آخر .

« وقالت ساره وقد مطت شفتيها بشكل تهكمي بعدما انهيت القراءة :
« - مؤثر جداً ، اليك كذلك ؟

« فلم املك من القول وانا اليوم نفسي لتحدثني اليها .
« - هذا عجيب اكثر مما تظنين . تصوري اني سألت

والدك من مدة لا تبلغ العشرة ايام اذا كان جرب الا يدخن . وقد وجدت اني انا نفسى ، استرسلت في التدخين و ... باختصار ، اتعرفين ماذا اجابنى ؟ ... قال لي اولاً انه يعتقد انهم يبالغون كثيراً بالتأثير الضار للتبغ ، وانه من ناحيته لم يشعر بأى اثر له على نفسه ولا الححت قال اخيراً : «نعم ، لقد عزمت مرتين او ثلاث ان انقطع عن التدخين لفترة . وهل نجحت ؟ - ما دمت قد عزمت . » هذا عظيم ! ربما لم يتذكر ذلك .

« هكذا اضفت لأنى لم اشاً ان اظهر امام ساره كل ما ارتبت به هنا من مراءاة .
وقالت ساره :

« ربما ايضاً ... «التدخين» وضع هنا لغرض آخر .
« هل ساره حقيقة هي التي تتكلم هكذا ؟ ذهلت ، وتقطعت اليها وما اكاد اجرؤ على فهمها . وفي تلك اللحظة خرج اوليفيه من الغرفة ، وكان قد سرح شعره ، واعاد النظام الى ثيابه وبدا اهداً . وقال دون كلفة امام ساره :

« نذهب لقد فات الوقت .

« وهبطنا . وحين اصبحنا في الشارع قال لي :

« - اخشى ان تكون اخطأت قد تظن انى اهوى ساره .
ولكن لا ... اوه ! وانا لا اكرهها ايضاً لكتنى لا احبها .

« امسكت بذراعه وضغطت دون ان اقول شيئاً وتابع : « - ويجب ايضاً الا تحكم على ارمان بسبب ما قاله لك اليوم . هذا نوع من الدور يقوم نمثيله ... رغم ا عنه . والحقيقة انه مختلف جداً عن هذا ... لا استطيع الايضاح . عنده نوع من الحاجة لاتلاف افضل ما ينمسك به لم يصبح هكذا من زمان . اعتقاد انه نايس جداً وهو يسخر ليختفي بؤسه . هو شديد الكبراء واهله لا يفهمونه يريدون ان يصبر قسيساً .

« تسجيل فكرة لفصل من كتاب « مزيفو التقدود » :

« العائلة ... تلك الخلية الاجتماعية »

بول بورجيه (باسيم)

عنوان الفصل : نظام الخلية

« ما من سجن (فكري) الا تستطيع الروح القوية النجاة منه ، وما من شيء يدفع الى التمرد يكون خطراً بشكل نهائي - علماً بأن التمرد يمكن ان يضلل الطبع (انه يجعل الطبع ينطوي على نفسه ، وينقلب ، او يشحنه بالتوتر وينصح له بالحيلة المنافية) والولد الذي لا يخضع للتأثير العائلي يلجاً ،

للخلاص منه ، الى استفاد باكورة نشاطه . ولكن التربية التي تعักس الولد نقويه في الوقت الذي تضيقه واتسع الضحايا هي ضحايا التملق . اية قوة في الطبع نلزمك لتكره من يدحك ؟ وكم رأيت من اهل (والأم على الخصوص) يسرون حين يرون في اولادهم الاشمئزازات الأكثر بلاهة ، والميول الأكثر جوراً ، وعدم الفهم ، والخوف الجنوني ويشعجونهم على ذلك ... على المائدة : « اترك هذا ، ترى جيداً انه دهنني . إنزع الجلد . هذا غير مشوي جداً ... » وفي الخارج عند المساء : « اوه ! خفافش ! تغط بسرعة ، سيلاني الى شعرك . » الخ . والختافس عندهم بعض ، والجراد يقرص ، ودود الأرض يسبب البثور « في قطار الزنار ^(١) الذي عاد بي من اوتوبيـ auـ teuil قبل البارحة سمعت اماً شابة تهمس في اذن طفلة في العاشرة » كانت تتجهها :

« - انت وانا ، انا وانت ، اما الآخرون فلا يهموننا . »

« اوه ! اعرف تماماً ان هؤلاء من ابناء الشعب ولكن الشعب ايضاً يستحق استئثارنا (كان الزوج في زاوية من عربة القطار يقرأ الصحيفة ، مطمئناً ، مستسلماً ، ويمكن الا يكون مخدوعاً .) . »

« ايكن تخيل سم اكثـ فـ ؟ »

(١) خط حديدي يحيط بباريس (يزورها) . المترجم

« المسنقبل للبناديق » . - اي معنى في هذه الكلمة : « اس طبيري !

« للبندوقد وحده الحق بالطبيعي !

« الأنانية العائلية ... ما تقاد أقل شناعه من الأنانية الفردية .

« ٦ تشرين الثاني - لم اسطع انتداع شيء . لكنني امام الواقع كالمصور امام نموذجه ، حيث بقول له : اعطيوني تلك الحركة ، اخذ ذاك التعبير الذي يجلاني . لو عرفت نوابض النماذج التي يجهزني المجتمع بها لجعلنها تتحرك ساعة اريد ، او على الأقل » استطيع ان اطرح على ترددها مسائل تحملها على طريقتها بنوع ان رد الفعل عندها يعلماني . وانا كروائي نعذبني الحاجة الى التدخل والتأثير على مصيرها . ولو كنت اكثر تخيلًا لاخترعت الدسائس ، ولأثرتها ، وراقبت الممثلين وعملت بما يملونه علي .

« ٧ تشرين الثاني - ليس هناك شيء صحيح في كل ما كتبه البارحة . ويبقى هذا : الحقيقة تثير اهتمامي كمادة بلاستيكية . وعندى من الطموح الى ما يمكن ان يكون . ا اكثر من طموحي الى ما كان . واعكف بشكل مدوخ على امكانات كل كائن وبابكي كل ما اهزله غطاء العادات » .

اضطر برinar الى ان يقطع قراءته لحظة . وغام نظره . كان كأنه نسي ان بتنفس طوال الوقت الذي فرأ فيه ، من فرط ما

كان انتباهه ناشطاً . فتح النافذة وملأ رئبه قبل غطسه جديدة في الأوراق .

صداقته لأوليفيه كانت من اكثر الامور قوة انه افضل صديق له ولا يحب احداً مثله على وجه الأرض ، اذ هو لا يستطيع ان يحب اهله . كان قلبه منعلقاً به بشكل زائد ، لكنها لا يفهمان الصدقة بشكل واحد . وبقدر تقدم برنار في قراءته تزداد دهشته ويزداد اعجابه ولكن بشكل مؤلم قليلاً ، بالتنوع الذي بدا هذا الصديق انه قادر عليه « وهذا الصديق الذي كان يعتقد انه يعرفه جيداً . لم يفل له اوليفيه شيئاً عن كل ما ترويه هذه المذكرات . اما ارمان وساره فلا يكاد يشعر بوجودهما . وكم يختلف اوليفيه وهو معهم عنه وهو معه اهل تعرف برنار الى صديقه في غرفة ساره تلك » وعلى ذلك السرير ؟ وامتزج اضطراب مقلق مع الفضول العظيم الذي جعله يسرع في قراءته : انه اشمئاز او حزن مصحوب بغضب . قليل من هذا الحزن الغاضب الذي شعر به قبل لحظة عندما رأى اوليفيه متأنقاً ذراع ادوار : حزن غاضب لأنه لم يكن مكانه . وهذا الحزن يمكن ان يقود بعيداً ويجعله يقوم بكثير من الحماقات ، ككل الآحزان الغاضبة .

لتجاوز ذلك . ليس كل ما قلته اعلاه الا لوضع شيء من الهواء بين صفحات هذه « اليوميات » والآن ، وقد تنفس برنار جيداً ، فلتعذر اليه . ها هو يعود الى الاستغراق في قراءته .

١٣

فوائد العجائز قليلة .

فوفنارغ

يوميات ادوار

(تابع)

« ٨ تشرين الثاني - الروحان العجوزان لا يبروز انتقالا ، مرًا اخرى من مسكنتها . وشقتها الجديدة التي لا اعرفها بعد تقع بين الطبقتين السفل والأولى ما بين فوبور سان هونوريه بولفار هوسمان . فرعت الحرس جاء لا يبروز وفتح لي . كان يرتدي قميصاً ويعتمر نوعاً من الطاقيه البيضاء المائلة الى الصفرة فهمت اخبراً انها جورب قديم (للسيدة لا يبرور دون شك) » كان طرفه يهتز كشراة قلنسوة على خده . وكان يمسك محراكا للنار معوجاً . وما من شك في اني فاجأته وهو يقوم باصلاح

١٥٢

المدخنة ، وبما انه بدا لي متضايقاً نوعاً ، قلت له :
« - اتريد ان اعود في ما بعد ؟

« - كلا ، كلا ... ادخل الى هنا . - ودفعني الى غرفة ضيقة مستطيلة نفتح نافذتها على الشارع على علو المصباح تماماً .

« - كنت انتظر تلميذة في هذه الساعة (كانت الساعة السادسة) ، لكنها ابرقت الى انا لن تأتي انا سعيد برؤيتها .
ووضع مراكه على طاولة وقال كأنه يعتذر عن هيئته :

« - تركت السيدة الطيبة لاپيروز المدفأة تنطفىء ، وهي لا
تأتي الا في الصباح ، وقد اضطررت لافراغها ..

« اتريد ان اعاونك على إشعالها ؟

« - كلا ، كلا .. هذا موسخ .. ولكن اسمح لي ان
اذهب وارتدني سترة .

« خرج وهو يخب بخطى قصيرة ثم عاد حالاً وهو مغطى
بسترة رقيقة من الألباغة alpaga ، ذات ازرار مقطعة ، وأكمام
مشققة كثيرة الاهتمام حتى لا تحرث على اعطائهما شحادة
وجلسنا .

« - رأيتني متغيراً ، أليس كذلك ؟

« اردت ان اعرض ولكنني لم اجد ما اقوله وشعرت بكثير
من الغم للأمائر التعبة على هذا الوجه الذي عرفه جيداً .
وتتابع :

« - نعم ، سخت كثيراً في الأيام الأخيرة ، بدأت افقد ذاكرتي قليلاً . وحين اعزف قطعة اضطر ان اعود الى الدفتر ...

« - كم من الشبان يكتفون بما لا يزال نافياً معك

« فاضاف وهو يهز رأسه :

« - اوه ! ليست الذاكره وحدها التي ضعفت . اليك مثلاً :
يغيل الى حبن امشي انبي اسير بسرعة ، ولكن الناس كلهم
يسبقونني الآن في الشارع
« فقلت له :

« - لأنهم يمشون اليوم بشكل اسرع .

« - آه ! أليس كذلك ؟ مثل الدروس التي اعطيها :
فالتلמידات يحدن ان تدرسيسي يؤخرهن ، ويرددن ان سرن اسرع
مني ، فيتركتني ان الناس كلهم مستعجلون اليوم

« وأضاف بصوت منخفض ما اكاد اسمعه :

« - لم ببى لي منهن ولا واحدة تقريباً .

« وشعرت عنده بشame جعلني لا أجرو على سؤاله .

وابتع :

« - مدام لا بيروز لا ترید ان تفهم هذا . تقول لي انى لا
اتصرف معهن كما يجب ، وانني لا افعل شيئاً للاحتفاظ بهن ولا
للحصول على تلميدات جدبدات .

« وسألت بتلبلك :

« - تلك التلميذة التي تنتظرها . . .

« اوه ! هذه . انها واحدة منهن اعدها للمعهد الموسيقي (الكونserفاتوار) ، وهي تأتي كل يوم لستغله هنا .

« هذا يعني انها لا تدفع لك .

« لقد ويخني مدام لا بيروز على ذلك بما فيه الكفاية ! هي تفهم ان هذه الدروس هي كل ما لا يزال يشوقنى نعم ، الدروس التي اشعر بلذة حقيقية في اعطائهما . فكرت كثيراً منذ زمن . اليك . . . هناك ما اريد ان اسألك عنه : لماذا لا تنكلم الكتب عن العجائز الا نادراً ؟ اظن ان السبب هو ان العجائز ما عادوا قادرين على الكتابة بأنفسهم ، وعندما يكون المرء شاباً فهو لا يحفل بهم . هرم ، هذا لا يهم احداً . . . ومع ذلك فهناك أشياء عجيبة جداً يمكن قولهما عنهم . خذ مثلاً : هناك بعض من الأعمال في حبات الماضية بدأت اليوم افهمها . نعم ، بدأت افهم فقط ان ليس بهذه الأعمال تلك الفسیرات التي كنت اعتندها قبلما قمت بهذه الأعمال . . . والآن فقط ادركت انني كنت مخدوعاً طوال حياتي . مدام لا بيروز خدعني ، ابني خدعني ، الجميع خدعوني » والرب خدعوني . . . »

« كان المساء قد خيم . لم اكن لأميز قسمات استاذي القديم » ولكن ضوء المصباح المجاور انبجس فجأة فاراني خذه الساطع بالدموع . وقلقت باديء الامر لبفعة غريبة على

صدقه ، كالتجويف ، كالنفف ، لكن البعضه اسلبت اثر فامه بحركة خفيفة وادركت انها لم تكن سوى طل لزهيره من زحاف الدرابزين . وضعف بيدي على دراعه المعروفة فأرتعش وقتله :

« سنصاب بالبرد . الا تري ان نعبد اشعال النار؟ هيا؟ »

« كلا ... يجب ان اعذن »

« ماذَا ! اتارس الروافه؟ »

« نوعاً ... لفند اعطيك الله حنجره سريعة العطب »
ومع ذلك رفضت ان الف رقبتي بالشال . دائمًا كافحت ضد
نفسى .

« يظل هذا حسنا ما دمت تحرز النصر ، ولكن اذا خار
الجسم ... »

« فاخذ بيدي ، وقال بلهمجه رزينه كأنه يفضي الى بسر . »

« عندئذ سيكون هذا هو الانتصار الحفيفي »

« وافتلت يده بيدي وتتابع : »

« كنت اخشى ان ترحل قبل ان تأي لرؤيتي . »

« فسألته : »

« اذهب الى اين؟ »

« لا اعرف معظم الأحبان نكون مسافرا . هناك شيء
اريد قوله لك ... أحس انني سأرحل انا ايضاً عن قرب . »

« - مَاذَا ! اتَعْنِزُمُ السِّيَاحَةَ ؟

« قلت ذلك بعدم حنق متظاهراً بعدم فهمه رغم رزانة صوته الغامضة الاحتفالية . فهز رأسه .

« - تعرَفَ تَامًا مَا اعْنِي ... نَعَمْ ، اعْلَمْ ، اعْلَمْ انَ الْوَقْتَ آتَهَا قرِيبً . لَقَدْ بَدَأْتَ ارْبِعَ مَا اكْلَفَ وَهَذَا مَا لَا اسْتَطِعُ احْتِمَالَهُ . هُنَاكَ نَقْطَةٌ آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا اخْتَطَاهَا .

« كَانَ يَتَكَلَّمُ بِلَهْجَةِ مَفْخَمَةٍ فَلِيلًا اقْلَفْتُنِي :

« - امْجَدْ هَذَا سَيِّئًا انتَ ايْضًا؟ لَمْ اسْتَطِعْ انْ افْهَمَ مَلَادًا يَحْرُمُ الدِّينَ عَلَيْنَا ذَلِكَ . فَكَرِتَ كَثِيرًا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْأُخِيرَةِ . حِينَ كُنْتُ شَابًا عَشْتَ حَيَاةً مَتَّقْشَفَةً جَدًّا ، وَكُنْتُ اهْنَئُ نَفْسِي عَلَى قُوَّةِ ارْادَتِي فِي كُلِّ مَرَةٍ ادْفَعَ عَنِي إِغْرَاءً . لَمْ افْهَمْ مَلَادًا اصْبَحَتْ عَبْدًا لِكَبْرِيَائِي اكْثَرَ فَأَكْثَرَ حِينَ اعْتَقَدْتُ انِّي نَحْرَرْتُ . انَ كَلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَنْتِصَارَاتِ عَلَى النَّفْسِ كَانَ دُورَةً مَفْتَاحَ ادْرَتِهِ فِي بَابِ سُجْنِي . وَهَذَا مَا ارْدَتَ انْ اقُولَهُ لَكَ مِنْذَ لَحْظَةِ حِينَ قَلْتَ لَكَ انَ اللَّهُ خَدَعَنِي . لَقَدْ جَعَلَنِي احْسَبَ كَبْرِيَائِي فَضِيلَةً . انَ اللَّهُ سَخَرَ مِنِّي . انَهُ يَلْهُو . اعْتَقَدَ انَهُ يَلْعَبُ مَعَنَا كَهْرَمَعَ فَأَرَةً . فَهُوَ يَرْسُلُ إِلَيْنَا إِغْوَاءَتِ يَعْرِفُ انَّا لَنْ نَسْتَطِعُ مَقاومَتِهَا . وَحِينَ نَقاومُ يَثْأَرُ مَنَا اكْثَرَ مِنَ السَّابِقِ . مَلَادًا يَحْقِدُ عَلَيْنَا؟ ... وَمَلَادًا ... وَلَكَنِّي اضْجَرْكَ بِاسْتِئْلَةِ شِيشْخُونْخَتِي هَذِهِ .

« اخْذَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدِيهِ ، عَلَى طَرِيقَةِ وَلَدِ يَحْرُدَ ، وَظَلَّ صَامِتًاً لِمَدَةِ طَوِيلَةٍ حَتَّى حَسْبَتَهُ نَسِيَ وَجُودِي . وَبِقِيَّتِ جَامِدًا امَامَهُ

خائفاً من ان اعكر عليه تأملاته . ورغم الضجة المبعثة من الشارع المجاور فان هدوء هذه الغرفة الصغيرة بدا لي غير عادي . ورغم صوء المصباح الذي ينيرنا بشكل عريب من اسفل الى اعلى ، على طريقة اضواء المسرح ، فان ذيول الظل على حابي النافدة بدت انها انصرت ، والظلمات حولنا تجمدت كا يتجمد الماء الماء في البرد القارس ، لقد تجمدت حتى في قلبي . اردت اخبراً ان انقض فلقي ، فتنفست بملء فمي ، مفكراً في الرحيل ، مستعداً للإستئذان بالذهاب حيث اطلب ذلك بأدب ، فقلت لأقطع هذا السحر :
« - هل السيدة لاينروز في صحة جيدة ؟

« - فبذا العجوز كأنه استيقظ وردد اولاً : - السيدة لاينروز بشكل اسنفهامي ، حتى ليقال ان هذه المقاطع قد فقدت عنده كل معنى . ثم مال نحوي فجأة :
« - السيدة لاينروز تمتاز ازمة مرعبة ... لقد جعلتني اتألم كثيراً .

« - فسألته :

« - أزمة ماذا ؟

« - فقال هازاً كفيه كأنه بنطلق من نفسه :

« - اوه ! لا شيء . اصبحت مجنونه تماماً . لا تعرف اطلاقاً ما تفعل .

« كنت ارتتاب منذ وقت طويل بالخلاف العميق الحاصل بين هذين الزوجين العجوزين ، ولكنني يئست من الحصول على مزيد من الايضاحات وقلت مشفقاً .

ـ يا صديقي المسكين منذ متى ؟ ..

ـ ففكر هنئية كأنه لم يفهم سؤالي تماماً :

ـ أوه ! منذ امد بعيد .. منذ أن عرفتها .

ـ ولكنك استدرك على الأثر :

ـ كلا ؛ حقيقة الأمر ان الحال بدأت تسوء مع تربية ولدي فقط .

ـ فأتيت بحركة استغراب لأنني كنت أظن ان الزوجين لا يبروز ليس لها أولاد . ورفع جبهته التي كان قد وضعها في يديه ، وقال بلهجة أكثر هدوءاً :

ـ ألم احدثك عن ولدي ؟ .. اسمع ، أريد الافضاء لك بكل شيء . يجب ان تعرف اليوم كل شيء ، وما سأرويه لك لا استطيع قوله لأحد .. نعم ، كان ذلك مع تربية ولدي ! وكما ترى ، كان ذلك منذ وقت طويل . كانت ايام زواجنا الأولى شائقة . كنت كثير الطهارة حين تزوجت مدام لا يبروز . أحببتها ببراءة .. نعم ، هذه هي الكلمة . لم اكن ارضي ان اعرف لها اي عيب . ولكن افكارنا لم تكن متماثلة حول تربية الأولاد . كلما اردت توضيح ولدي كانت مدام لا يبروز تنضم اليه صدي ، كانت تريد ان تغضي عن كل ما يقوم به . نواطاً على . وعلمه الكذب . . . وقد اخذ عشيقة ولما يتجاوز

العشرين من سنّه وكانت هذه تلميذة لي ، روسية شابة . موسيفية بارعة كنت كتير التعلق بها . كانت مدام لايريور على علم بهذه العلاقة ولكن كان كل شيء مخفى عنى كما هي الحال دائمًا . ومن الطبيعي الا الالاحظ ان هذه التلميذة كانت حاملأ . لا شيء ، اقول لك ، لم ارتب بشيء . وذات يوم فيل لي ان تلميذتي مريضة ، وانها ستظل تتخلّف لبعض الوقت عن المجيء . وحين قلت اني سأذهب لرؤيتها قيل لي ا أنها ندلّت عنوانها ، وانها سافرت ... لم اعلم الا بعد مضي وقت طويـل انها ذهبت الى بولونيا لتفصـع طفلها وكان ولدي قد لحقـ بها ... وعاشا معاً سنوات ، ولكنه مات قبل ان يزوجها .

«... هي ، هل رأيتها ثانية؟

كان كمن يصدّم حاجزاً بجهته :

« لم استطع الصفع عنها لأنها خدعتني . ظلت مدام لايريوز تراسلها . وحين علمت ا أنها في حالة بؤس ارسلت اليها مالاً بسبب الصغير . ولكن مدام لايريوز لا تعرف عن هذا شيئاً . وتلك الأخرى نفسها ، لم تعرف اني انا مرسل ذلك المال .

« وحفيدك؟

« مرت ابتسامة عربية على وجهه ونهض :

« - انتظر لحظة . سأريك صورته .

« ومن جديد ، خرج راكضاً بخطى قصيرة ، ورأسه الى الامام وحين عاد كانت اصابعه ترتعش وهو يبحث عن الصورة في حافظة ورق كبيرة . ومال نحوي وهو يمد بها الي وقال بصوت منخفض :

« - اخذتها من مدام لا بيروز دون ان ترتاب بذلك . هي تظن انها اضاعتها .

» وسألته :

« - كم عمره ؟

» - ثلاث عشر سنة . يبدو اكبر ، اليس كذلك ؟ انه نحيل جداً .

« وعادت عيناه الى الاملاء بالدموع ، ومد يده نحو الصورة كأنه يرغب في استعادتها بسرعة . انحنىت نحو المصباح الضئيل ، فبداء لي ان الولد يشبهه ، تعرفت الى الجبهة العريضة المقببة ، والعيينين الحالتين للابيروز العجوز . واعتقدت انني ادخل السرور الى قلبه اذا قلت له ذلك . فقال معترضًا :

« - كلا ، كلا . انه يشبه اخي ، اخي الذي فقدته .

« كان الولد يرتدي « بلوزة » روسية ذات تخاريم .

« - اين يعيش ؟

« فهتف لا بيروز بنوع من اليأس :

« - كيف تريدي ان اعرف ؟ قلت لك انهم اخفوا عنی كل شيء .

« واستعاد الصورة ، وبعدما نظر اليها قليلاً وضعها في حافظة اوراقه ودس هذه في جيده .

« لم تكن والدته ترى سوى مدام لا بيروز حين تأتي الى باريس ، وكانت هذه تجبيني اذا سألتها : « ليس عليك إلا ان تسألاها » تقول هذا ، ولكنها تتذكر في اعماقها ادا رأيت ام الولد . كانت مدام لا بيروز دائمـة الغيرة . وكل ما يتعلـق بي تريـد ان تخطفـه لقد اجرـى بوريـس الصغـير دراستـه في بولونـيا في مدرـسة في فـرـصـوـفـيا كـمـا اـظـنـ ، ولكـنهـ فيـ الغـالـبـ يـسـافـرـ معـ والـدـتـهـ .

- ثم في فورة هيجان : قل ! هل تظن من الممكن ان نحب ولـدـاـ لـمـ نـرهـ ؟ حـسـنـاـ ! انـ هـذـاـ الصـغـيرـ هوـ الـيـوـمـ اـعـزـ سـيـءـ عـلـيـ فيـ الدـنـيـاـ ... هـوـ لـاـ يـعـرـفـ عـنـ ذـلـكـ شـيـئـاـ !

« وقطع عبارـةـ نـحـيـبـ شـدـيدـ ، فـانتـزـعـ نـفـسـهـ مـنـ مـقـعـدـهـ وـارـقـيـ ، سـقـطـ تـقـرـيـباـ ، بـيـنـ ذـرـاعـيـ . كانـ عـلـيـ انـ اـعـمـلـ مـاـ لـاـ اـدـرـيـ لـأـحـمـلـ العـزـاءـ إـلـىـ شـقـائـصـ ، وـلـكـنـ مـاـذـاـ اـسـتـطـعـ ؟ نـهـضـتـ لـأـنـ شـعـرـتـ بـجـسـلـهـ الـهـرـيلـ يـنـزـلـنـ عـلـيـ وـحـسـبـنـهـ سـبـقـطـ عـلـيـ رـكـبـيـهـ . فـسـنـدـتـهـ ، وـضـمـمـنـهـ ، وـهـدـهـدـنـهـ كـطـفـلـ . كانـ قـدـ مـلـكـ نـفـسـهـ . وكانتـ مـادـامـ لاـ بـيرـوزـ فيـ الغـرـفـةـ الـمـجاـوـرـةـ .

« اـنـهـ آـتـيـهـ ... لـنـ تـبـقـيـ لـنـزـاهـاـ ، الـبـسـ كـذـلـكـ ؟ وـمـعـ هـذـاـ فـقـدـ اـصـبـحـتـ صـيـاءـ تـمـاماـ ... وـلـاـ كـانـ قـدـ رـافـقـنـيـ إـلـىـ الـفـسـحةـ

بين الغرف قال : - لا تطل غيابك (كان هناك نوع من التوسل في صوته) . وداعاً . وداعاً .

« ٩ تشرين الثاني . - يبدو لي ان الادب كاد ، حتى الان يسهو عن نوع من الفاجع . فالرواية تهتم بمعاكسات القدر ، بالحظ الحسن والسيء ، بالعلاقات الاجتماعية » بتصارع الشهوات ، بالطبع ، ولكنها لا تهتم ابدا بجوهر الكائن نفسه .

« مع ان نقل المأساة الى الصعيد الاخلاقي كان من مسعى المسيحية . ولكن ليس هناك روايات مسيحية بالمعنى الدقيق للكلمة . هناك اولئك الذين يهدفون الى الغايات التربوية . . ولكن هذا لا علاقة له بما اريد قوله . والفاجع الاخلاقي - الذي يجعل ، مثلاً ، من كلام الانجيل شيئاً رهيباً : « اذا فسد الملح فبماذا يملح ؟ ان هذا الفاجع هو الذي يهمي .

١٠ « تشرين الثاني . - اوليفيه يحتاز امتحاناته . وبولين يريد ان يتقدم بعدها الى دار المعلمين . ان مستقبله المهني مرسوم منذ الآن لو كان دون اهل ، دون سند ، بل جعلت منه امين سري . ولكنه لا يهتم بي ، ولا يهتم حتى بالفائدة التي احملها اليه ، وسوف ازعجه اذا حمله على ملاحظتها . ولكي لا ازعجه اتظاهر امامه بنوع من اللامبالاة ، بتجرد تهكمي . لا اجرؤ على تأمله على مهل الا حين لا يراني . اتبעה احياناً في الشارع دون ان يعلم . البارحة مشيت وراءه ، فعاد فجأة على عقبيه ولم يتسع لي الوقت كي اختبئ فسألته :

« - اين ذاهب سرعة؟

« - اوه ! لا مكان . لا ابدو متعجلاً الا حين لا يكون لي ما اعمله .

« خطونا بضع خطوات معاً ولكن دون ان يجد شيئاً نقوله . ومن المؤكد انه ضاح من هذا اللقاء .

١٢١ تشرين الثاني . - له اهله ، وانه تكر ، ورفاق ...
ردت ذلك طول النهار . ليس بي ما اعمله هنا . سأعرف كيف اعرض عليه كل ما ينقصه ، ولكن لا ينقصه شيء . ليس في حاجة الى شيء : اذا كان لطفه بسحرني فما من شيء في هذا اللطف يعطيه مجالاً لسوء الفهم ... آه ! ... عباره خرقاء كتبتها رغماً عنى وفيها ينفعن نلون فلى ... سأبحر غداً الى لندن ، عزمت فجأة على الرجل . حان الوقت .

« الرحيل لأنك تميل اكثر من اللزوم الى البقاء ! ... نوع من الحب للمستصعب ، والتفور من التساهل (أقصد حيال النفس) ويمكن ان يكون هذا ناشئاً عن تربية المترتبة الأولى التي اقاسي كثيراً من الألم للخلاص منها .

« اشتريت البارحة » من محل سميث ، دفتراً انكليزياً كله ، سيكون تابعاً لهذا ، ولا اريد ان اكتب شيئاً فيه . دفتر جديد ...

« آه ! لو استطعت الا ارحل ! »

١٤

تحدث احياناً حوادث في الحياة ، يجب ان تكون على شيء من الجنون لتخالص منها .

لاروشفوكو

انى برنار قراءته برسالة لورا المدرجة في يوميات ادوار ، وشعر بغشاوة . لم يكن في وسعه ان يعرف ان هذه التي تنفتح شقائعا هنا ليست سوى تلك العشيقية الخزبنة التي حدثه اوليفييه عنها مساء البارحة ، عشيقية فنسان مولينيه المحجورة . وبدا فجأة لبرنار انه الوحيد الذي يعرف وجهي العقدة بفضل الاعتراف المزدوج الصادر عن صديقه وعن مذكريات ادوار . وهي فائدة لن يحتفظ بها طويلاً ، عليه ان يعمل بسرعة وبفطنة وحذر . واختار وجهته حالا : حضر اهتمامه بلورا ، دون ان ينسى شيئاً مما قرأه قبلأ . وقال لنفسه وهو يندفع خارج الغرفة :

« هذا الصباح ، بدا لي ان ما يجب عمله غير اكيد ، اما

الآن فقد زال كل شك . والحنمي مؤكداً كما قال أحدهم : انفاذ لور بما لم يكن من واجبي الاستثناء على الحقيقة ، ولكنني وقد اخذتها ، فمن المؤكد اني اغترفت منها شعوراً سديداً بالواجب . والمهم هو مفاجأه لورا قبل ان براها ادوار « وان اذهب اليها ، واقدم نفسي بطريقة لا تدعها تظن اني يمكن ان اكون لصاً . اما البفية فتسرير من بلقائهما . معنـى الآـن في حافظـة نـقـودـي . ما اخـفـفـ به النـعـاسـةـ بـعـظـمـةـ كـأـكـرمـ وـارـافـ ايـ إـدـوارـ كانـ . والـشـيءـ الـوحـيدـ الذـيـ يـبـعـثـ فـيـ الـارـتكـابـ هوـ لأنـ لـورـاـ المـولـودـ باـسـمـ فيـدـالـ vedelـ لاـ بدـ منـ انـ نـكـونـ حـسـاسـهـ رـغـمـ انـهاـ جـبـلـ رـغـمـاـ عـنـ القـوـاـينـ . اـنـيـ اـخـيـلـهـاـ مـنـ اوـلـثـكـ النـسـوةـ اللـوـاـقـ يـعـصـيـنـ ، وـيـصـقـنـ اـحـتـقـارـهـنـ فـيـ الـوـجـهـ ، وـيـزـفـنـ فـطـعاـ صـغـيـرـةـ تلكـ الـأـورـاقـ المـالـيـةـ الـيـهـنـ تـقـدـمـ اليـهـنـ بـلـطـفـ ، وـلـكـنـ فـيـ غـلـافـ غـيرـ لـاثـقـ . كـيـفـ اـقـدـمـ اليـهـ هـذـهـ التـفـودـ ؟ كـيـفـ اـفـدـمـ نـفـسـيـ ؟ هذهـ هـيـ العـقـدـةـ ايـ دـغـلـ بـرـاهـ المـرـءـ حـينـ يـخـرـجـ مـنـ الشـرـعـيـ ومنـ الطـرـقـ . المـبـعدـةـ ! لـاـ اـزـالـ صـغـيـرـاـ عـلـىـ الدـخـولـ فـيـ فـصـهـ خـطـبـرـةـ كـهـذـهـ . وـلـكـنـ هـذـاـ مـاـ سـوـفـ يـسـاعـدـنـيـ . لـنـخـتـلـ اـعـتـرـافـاـ بـدـلـ عـلـىـ سـلـامـةـ نـيـهـ ، حـكـاـيـةـ تـجـعـلـنـيـ اـشـكـوـ وـتـجـعـلـهـنـ يـهـمـ بـيـ . وـالـزـعـجـ انـ هـذـهـ الـحـكـاـيـةـ يـجـبـ اـسـتـعـمـالـهـاـ اـيـضـاـ مـعـ اـدـوارـ ، الشـيءـ بـفـسـهـ ، وـلـنـ اـنـاقـضـ نـفـسـيـ . سـنـجـدـ ، بـالـتـأـكـيدـ وـلـنـعـمـدـ عـلـىـ اـبـحـاءـ اللـحـظـةـ »

كان قد بلغ في شارع بون ، العنوان الذي اعطته لورا .

الفندق هو من الفنادق الأكثر تواضعاً ، ولكنه نظيف وذو مظهر لائق . صعد ثلاث طبقات مستعيناً بارشادات الباب وقف امام الباب رقم ١٦ ممهياً نفسه للدخول ، وطرف الباب خيل اليه ان صوتاً ناعماً كصوت راهبة ، بتم عن خوف ، يقول :

- ادخل

كانت لورا ترتدي ثياباً بسيطة ، كلها سوداء ، حتى ليقال انها في حالة حداد كانت تتظر شيئاً من الاستطراب شيئاً ما او احداً يأتي لانتشالها من الورطة طوال الايام القليلة على وجودها في باريس . ما من شك في انها سلكت طريقاً خطأناً ، كانت تشعر انها ضاله لقدر اعانت ، لسوء الحظ ، ان تعتمد على الاحداث اكثر من اعتمادها على نفسها . لم تكن دون فضيلة ، ولكنها كانت تشعر انها دون قوة ، مهملاً . عند دخول برinar . رفعت يداً نحو وجهها كما بفعل من يمسك صرخة ، او من بقي عينيه من ضوء باهر كانت واقفة ، ورجعت خطوة الى الوراء ، ووجدت نفسها قريباً من النافذة ، فامسكت الستار بيدها الأخرى .

انتظر برinar ان تسنجوبيه ولكنها صمتت منتظرة ان يتكلم . نظر اليها ، حاول عيناً ان يتسم . كان قلبه يخفق . وقال اخيراً :

« - عفواً يا سيدني لازعاحك هكذا بمجيئي . ان إدوار x الذي اعرف انك تعرفينه ، قد وصل هذا الصباح الى باريس .

وعندي شيء مهم اريد ايصاله اليه ، فكرت ان في امكانك اعطائي عنوانه ، ... و .. عفواً لمجيئي للسؤال عن ذلك هكذا دون كلفة .

لو كان برنار اكبر مما هو لارتاعت لورا دون شك ، ولكنه لا يزال ولداً : بعينيه الصرجنيين ، وجبهته الواضحة ، وحركته الخافتة ، وصونه المرتبك ، مما جعلها امامه تتخلى عن الحروف الى الفضول ، الى الاهتمام . الى ذلك العاطف الذى لا يقاوم والذى يوشه كائن سادج جميل جداً . استعاد صوت برنار شيئاً من اطمئنانه وهو يتكلم . وقالت لورا :

- لكنني لا اعرف عنوانه . اذا كان في باريس فسيأتي لرؤيتي دون تأخير كما آمل . قل لي من انت ، وسأخرره .

رأى بريار انها لحظه المجازفة بكل شيء . ومر امام عينيه طيف جنون . وحدى في وجهه لورا :

- من انا؟ صديق اوليفيه مولينيه ... - وزردد ، وهو لا يزال مرتاناً ، ولكن حتى رأى وجهها يشحب لذكر هذا الاسم ، تجرأ وقال : - اوليفيه ، شفق فنسان ، عشيقك ، الذى تخلى عنك بعجن

واضطر الى التوقف . وترنحت لورا . كانت بداها الملفاتان الى الوراء تبحثان باضطراب عن متکاً . ولكن اكثراً ما زاد من اضطراب برنار هي تلك الزفرة التي صعدتها ، نوع من الانين لا يكاد يكون انسانياً ، بشبه ما نصعده طريدة حرية (وفجأة

احس الصياد بالعار حين شعر انه جلاد) ، صرخة غريبة ، مختلفة جداً عن كل ما سمعه برnar ، فجعلته يرتعش . ادرك فجأة ان الامر يتعلق هنا بحالة حفيمية ، بألم حقيقى ، لم يبد له كل ما شعر به حتى الآن سوى تصنع وسوى هو . اهتاج التأثير في نفسه ، تأثير جديد لم يستطع السيطرة عليه ، صعد الى حلقومه ... ايها ! ماذا ! ... ما هو يتوجب ! هل هذا ممكن ؟ ... هو ، برnar ! .. واندفع ليسندها ، وركع امامها وقتم من خلال نحيبه :

- آه ! عفوا؟ عفوا . لقد جرحتك ... كنت اعلم انك دون مورد ، و... اردت مساعدتك .

لكن لورا ، لاهثة ، شعرت بخور قواها . بحثت بعينيها عن مكان تجلس فيه وبرnar الذي ظلت عيناه عالقتين بها . ادرك نظرتها فقفز نحو كتنة صغيرة بجانب السرير ! وبحركة سريعة جاء بها الى قربها حيث تركت نفسها ترتدي عليها .

هنا تدخل حادث غريب ، اتردد في روابته ، ولكنه هو الذي وطد العلاقات بين برnar ولورا ، وانتسلهما من الورطة بغتة . لن احاول ان ارفع من شأن هذا المشهد اصطناعياً .

نظراً لأجرة البنسيون التي تدفعها لورا (الأجرة التي يطلبها صاحب الفندق منها) ، لا يمكن ان تتوقع ان يكون اثاث الغرفة أنيقاً ، ولكن من حقنا ان نتوقع متناته . ومع ذلك فان الكتبة

الصغرى التي دفعها برنار نحو لورا كانت تعرج قليلاً . اي انها تميل كثيراً الى ان تطوى احدى راحلتها ، كما يفعل العصفور تحت جنابه . وما هو طبيعى للعصفور هو ، للكتبة ، غير مناسب مؤذٍ لذلك كانت الكتبة تخفي هذه العاهة جهد استطاعتها تحت تحمل كثيف . كانت لورا تعرف كتبتها وتعرف انه لا محظى تحريكها الا بحبيطة بالغه ، ولكنها لم تفكر فيها ، وهى في اضطرابها ، ولم تذكر الا انها شعرت بها تنقلب نفسها . فأطلقت صرخة خافتة تخالف تماماً عن الزفرة الطويلة التي اطلقناها منذ قريب ، وانزلقت على حانبها ، حيث وجدت نفسها بعد لحظة جالسة على الطنفسة بين ذراعي برنار الذي بادر اليها بسرعة . لقد اضطر وهو مضطرب ، مع شيء من السرور الى ان يضع ركبته على الأرض . كان وجه لورا فريباً من وجده فرأها حمر خجلاً ، وبذلت جهداً لتنهض وساعدها :

- ألم تصابي بسوء ؟

- لا . شكراً . والفضل لك . هذه الكتبة مضحكه . لقد اصلاحت مره من قبل ... اظن انها ستفقد لو وضع الرجل مستقيمة .

فقال برنار :

- سأصلحها . والآن .. اتریدين تجربتها ؟ - تم تابع : - او اسمحي ... يجب ان اجريها اولاً على سبيل الحبيطة . ترين انها تستفسم جيداً الآن . استطع محريك الساقين

(وهذا ما فعله وهو بضحك) . تم نهض : - عودي الى الجلوس . اذا سمحت لي بالبقاء لحظة فسأخذ كرسياً واجلس بقربك وامنفك من السقوط . لا تخافي . بودي ان افعل شيئاً آخر من أجلك .

كان في حديبه كثير من اللهيب ، وفي تصرفاته كثير من التحفظ ، وفي حركاته كثير من الكياسة حتى ان لورا لم تستطع منع نفسها من الاستسلام .

- لم تقل لي اسمك .

- برنار .

- نعم ، ولكن اسم عائلتك .

- ليس لي عائلة .

- اسم اهلك .

- ليس لي اهل . يعني انا كما سيصبح هذا المولود الذي تنتظرينه : بندوق .

تركت الانسامة قسمات لورا فجأة ، ساخطة لهذا الالحاد في التدخل في حخصوصات جباتها واغصاب سرها .

- ولكن كيف عرفت ؟ من قال لك ؟ لا حنى لك في ان تعلم ...

كان برنار قد سار بعيداً ، وكان يتكلم بصوت مرتفع جريراً :

- اعرف ما يعرفه صديقك اوليفيه وما يعرفه صديقك ادوار
لكن كلا منها لا يعرف حتى الان سوى نصف سرك وعلى
الأرجح فانا الوحيد ، معك ، الذى يعرفه بكامله ..
ثم اضاف بزبد من الرقة .

- وهكذا ترين ان الواجب بفضبي بان اصبح صديفك
فقمت لورا بكتابه :

- ما اقل كتمان الرجال للسر ! ولكن .. اذا كنت لم تر
ادوار فهذا يعني انه لم يستطع ان يجدك .. هل كتب اليك
اذا ؟ هل هو الذي ارسلك ؟

كان برنار يناقض نفسه . وكان يتكلم بسرعة ، خاضعاً
للمذلة التحدلق قليلاً . فحرك رأسه سليباً وكان وجه لورا يزداد
تحبها . وفي هذه اللحظة سمع طرق على الباب وسواء أرادا
ام لا فان التأثر المشترك يخلق رباطاً بين كائين . شعر برنار انه
سقط في الفخ ، وغضبت لورا لأن تفاجأ برفقة احد .
فتطلعا بعضهما الى البعض كما ينطلع شريكان بالذنب .
وطرق الباب من جديد ، فقال الاثنان معاً :
- ادخل .

منذ لحظات وادوار يسترق السمع وراء الباب ، مندهشاً
لسماعه اصواتاً في غرفة لورا . وقد جعلته عبارات برنار الأخيرة
يفهم كل شيء . انها واضحة تمام الوضوح ، كما هو واضح
كذلك ان هذا الذي بتكلم هو سارق حقيقته . وضع خطته

حالا فادوار هو احد الكائنات التي تختدر خصائصها في مجرى الامور العادية ، وتستيقظ فجأة وتنحفز في الامور الطارئة . فنح الباب ولكنه ظل على العتبة ، آتيا بحركة كمن يريد ارجاء التدفق الى ما بعد :

- عفوا يا صديقتي العزيزة . لم يك اولاً بعض كلمات اود فوها للسيد ، اذا شاء ان يأتي لحظة الى الرواق .

واصبحت الابتسامة اكثرا تهكمًا عندما انضم برnar اليه .

- كنت اعرف انني ساجدك هنا .
وادرك برnar انه احترق . لم يبق عليه الا ان يكون جسورا ، وهذا ما كان ، شاعرآ انه يلعب بكل ما معه .
- قبل كل شيء ، واذا لم تكن قد قمت بذلك (لأنني اريد الاعتقاد انك اتيت لأجل هذا) ستهبط الى المكتب وتدفع حساب مدام دوفيفيه من المال الذي وجدته في حقيقي والذي لا بد ان يكون معك . لا تعدد الى هنا قبل عشر دقائق . فيل كل هذا بكثير من الرصانة ، ولكن بشارة لم يكن فيها شيء من التهديد بالعقاب . وعند ذلك استعاد برnar رباطة جأشه .

- اتيت فعلا لهذا السبب . لم تكن خطئنا . بدأت اشعر انني لم اكن خطئا ايضاً .
- ماذا تعنى ؟

- اعني انك ذالك ... كت آمله .

كان ادوار محاول عينا ان يتخذ هيئه صارمه . انه بنسل
كثيراً . وارسل نوعاً من السجه الساخرة :
ـشكراً لك . يبقى ان تتحقق العكس اعتقاد ، بما
انك هنا ، انك قرأت اورافي .

وابتسنم برنار الدي احتمل نطرة ادوار دون ان برف له
جفن ، ابتسنم بجسارة ، ونسليه ، ووفاحة ، وانحى مجيأً :

ـ لا ترتب بذلك . انا هنا في خدمتك .

ثم اندفع على الدرج كالإلف^(١) else

حين عاد ادوار الى العرفة كانت لورا تنتصب . افترب
وضعت جبجتها على كتفه . كان اظهار التأثر يعذبه . لم يكن
يستطيع احتماله . لقد فاجأ نفسه وهو يربت برفق على ظهرها
كما يفعلون مع طفل مصاب بالسعال . وقال :
- يا لورق المسكينة ، هيا ... كون عاقلة .

- اوه ! ... دعفی ابکی قلیلا . هدا بپیدنی .

- ولكن الأمر يتعلق بـمعرفة ما مستفعلين في الوقت الحاضر .

- وماذا تريد ان افعل؟ اين نريدني ان اذهب؟ مع من

ترييد ان اتكلم؟

أهلك

(١) إلف : هو في الأساطير الس堪دينافية عبارة عن إله هوائي يرمز إلى الماء والبحار والأرض . الخ . المترجم .

- ولكنك تعرفهم ... سيدفعهم هذا الى اليأس . لفدي
فعلوا كل شيء في سبيل سعادتي .

- دوفيبيه؟

- لا أجرؤ ابداً على مواجهته . هو كثير الطيبة . لا تظن
اني لا احبه . لو كنت تعلم ... اوه ! قل انك لا تحقرنـي
كثيراً .

- بالعكس يا صغيرتي لورا ، بالعكس . كيف تستطـيعـنـ
الظن ؟ ثم عاد يربـيتـ على ظهرـهاـ .

- صحيح . لا اشعر بعارـىـ قربـكـ .

- كـمـ مضـىـ عـلـيـكـ هـنـاـ ؟

- لا اعلم عـشـتـ فقطـ بـانتـظـارـكـ . قـبـلاـ لمـ استـطـعـ شـيـئـاـ .
والآن يـدـوـلـيـ اـنـيـ لاـ اـسـتـطـعـ الـبقاءـ هـنـاـ ولوـ يـوـمـاـ .

وضاعفت نحـيـبـهاـ ، وهـيـ تـصـرـخـ تـفـرـيـباـ وـلـكـنـ بصـوتـ
مختنقـ :

- خـذـنـيـ منـ هـنـاـ ، خـذـنـيـ منـ هـنـاـ .

وازداد قـلـقـ اـدـوارـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ .

- اسمـعـيـ ياـ لـورـاـ ... هـدـثـيـ منـ روـعـكـ ... الـ
الـآـخـرـ ... اـنـيـ لاـ اـعـرـفـ حـتـىـ اـسـمـهـ .

فـتـمـتـ لـورـاـ :

- برـنـارـ .

- سيـصـعـدـ برـنـارـ بـعـدـ لـخـطـةـ . هـيـاـ . انهـضـيـ يـجـبـ الاـ يـرـاكـ

هكذا تشجعى . سنبندع شيئاً . اعدك بذلك . هيا جملى
دمعك . البكاء لا يجدى . تطلعي في المرأة . لقد احتضن دمك .
ضعى قليلا من الماء على وجهك . لا استطيع التفكير في شيء
حين اراك نبکن هذا هو ! انى اسمعه .
وذهب الى الباب وفتحه ليدخل برنا ، بينما لورا تدير
ظهرها للمشهد مهتمة امام منضدة زيتها باعادة الهدوء الى
قسمانها .

- والآن ايهما السيد ، هل استطيع سؤالك مني يتاح لي ان
استعيد اشبائى ؟
قال هذا وهو ينظر الى وجه برنا ، وعلى شفتيه دائماً تلك
الطيبة التهكمية المبسمة .

- عندما يخلو لك يا سيدى ، ولكن يجب ان اعترف لك
انك اقل حاجة مني الى تلك الاشياء التي تنقصك . . . هذا ما
سوف تفهمه - وانا واثق - لو انك فقط تعرف حكابتى . اعلم ،
اني منذ هذا الصباح دون مأوى ، دون بيت ، دون عائلة ،
وكنت مستعداً لالقاء نفسي في الماء لو لم التق بك . لقد تبعتك
طويلاً هذا الصباح حين كنت تتحدث مع اوليفيه ، صديقى .
حدثني عنك كثيراً ! وكنت اريد الدنو منك . بحثت عن
وسيلة ، عن واسطة ! وفدت باركت الحظ حين التعبت بيان
المستودع اوه لا تخسي سارقاً . واذا كنت قد اخذت حقبيتك
فقد كان ذلك لأدخل في علاقات معك .

القى برنار كل هذا بنفس واحد تقريراً . كان لهيب غير عادى يلهب خطابه وقسماته ، حتى لتخاله هلياً من الطيبة . ويدا من ابتسامة ادوار انه وجده شائعاً وقال :

- والآن ؟

فادرك برنار انه ربع جولة .

- والآن ، الست حاجة الى سكرتير؟ لا استطيع الظن انني سافشل في هكذا وظيفة وانا اتقدم لها بكل هذا الفرح . وانفجر ادوار ضاحكاً هذه المرة . كانت لورا تنظر الى الاثنين لاهية .

- سترى ذلك وسنفكر فيه . تعال غداً في الساعة نفسها لرؤيتي ، هنا ، اذا سمحت مدام دوفيه بذلك لأنني اريد تسوية كثير من الامور معها ايضاً . انت تنزل في فندق كما افترضنا اوه ! لن اهنم بمعنون المكان . قليلاً ما يهمني الى الغد .

ومد له يده . فقال برنار :

- قبل ان اتركك يا سيدى اسمع لي بتذكيرك ان استاذ بيانو عجوزاً مسكنيناً بسكن في ضاحية سان هونوريه ، واسمه ، كما اعتقد ، لا بيرروز ، سيسر سروراً عظيماً اذا ذهبت لرؤيه .

- بداية لا بأس بها . انك تفهم وظائفك العتبدة كما

يجب .

- إذا ... هل سترضى حصبة ؟

- ستكلم عن هذا غداً . وداعاً .

بعدما تأخر ادوار لحظات بجانب لورا ذهب الى بيت مولينيه . كان يأمل ان يرى اوليفيه تانية ، اذ يريد التحدث معه عن برنار . لم يجد سوى بولبن رغم انه اطال زيارته ما امكنته التطويل .

واوليفيه ، في نهاية اليوم نفسه ، استجاب للدعوة الملحقة التي حملها اليها اخوه . فذهب الى مؤلف « الحاجز الثابت » ، الى الكونت دو باسافان .

١٥

قال روبي دو باسافان حين رأى اوليفيه داخلاً :

- كنت اخشى الا يكون اخوك قد ابلغك الرسالة .

- هل تأخرت ؟

قال اوليفيه ذلك وهو بنقدم بخجل وعلى اطراف اصابعه تقريباً . وقد ابقى قبعته بيده ، فأخذها روبي :

- ضع هذا . اقعد على هواك . اليك هذه الكنبة ، انها مريحة . ليس هناك من تأثير اذا حكمت على ذلك من خلال

المنبه ، ولكن رغبتي في رؤينك كانت متقدمة عليه ...
اتدخن ؟
شكراً .

قال اوليفييه وهو يبعد علبة السكاائر التي قدمها اليه الكونت دو باسافان . لقد رفض بداعف الخجل ، مع انه كان شديد الرغبة في تذوق هذه السكاير الدقيقة ، العبرية الرائحة ، الروسية دون شك . والتي رآها مصففة في العلبة .

- نعم ، انا سعيد لاستطاعتك المجيء . كنت اخشى ان تكون منهمكا بالاستعداد لامتحانك . مني تقدم هذا الامتحان ؟
- الامتحان الخطبي بعد عشرة ايام . ولكني لم اعد اشتغل كثيراً . اعتقاد اني مسنعد واحاف ان اتقدم اليه تعباً .

- وترفض ان تشتغل بشيء آخر منذ الان ؟

- كلا .. اذا لم يكن يتطلب كثيراً .

- اريد ان اخبرك لماذا طلبت المجيء . اولاً ، للسرور بروئيتك . ثانية ، فقد عقدنا محادثة خفيفة في ذلك المساء في دار المسرح اثناء الاستراحة وما فلتة لي شاقني جداً . لا تذكر ذلك دون شك ؟

- بلى ، بلى .

قال اوليفييه الذي كان يحسب انه لم يقل في تلك السهرة سوى بلاهات .

- ولكن اليوم ، عندي شيء معين اريد قوله لك ... اظن

انك تعرف يهودياً باسم دورمر . اليـس هو اـحد رفـافـك ؟

- فـارـقـهـ منـذـ لـحظـهـ .

- آـهـ ! أـتعـاـشـهـ ؟

- نـعـمـ ، كـانـ عـلـيـنـاـ انـ نـلـتـقـيـ فيـ اللـوـفـرـ للـتـحـدـثـ عـنـ مجلـهـ سـيـكـونـ مدـيرـاـ لهاـ

فـانـطـلـقـ روـبـيرـ بـضـحـكـهـ عـالـيـةـ مـصـطـنـعـهـ .

- هـهـ ! هـهـ ! هـهـ ! المـديـرـ .. انهـ يـسـيرـ بـفـوـةـ ! يـسـيرـ بـسـرـعـةـ !

أـصـحـيـحـ انهـ قالـ ذـلـكـ ؟

- مـنـذـ زـمـنـ طـوـيلـ وـهـوـ يـحـدـثـيـ عـنـهاـ .

- نـعـمـ ، فـكـرـتـ فـيـهاـ مـنـذـ وـقـتـ طـوـيلـ . وـذـاتـ يـوـمـ ، طـلـبـتـ الـيـهـ بـصـورـةـ عـرـضـيـةـ اـذـاـ كـانـ يـرـضـىـ اـنـ يـقـرـأـ الـمـخـطـوـطـاتـ معـيـ ،
هـذـاـ مـاـ سـمـاهـ عـلـىـ الـأـثـرـ : رـئـيـسـ تـحـرـيرـ ، تـرـكـتـهـ يـفـولـ ، وـعـلـىـ
الـأـثـرـ . . . هـذـاـ حـسـنـ مـنـهـ ، الاـ تـجـدـهـ كـذـلـكـ ؟ ايـ نـمـوذـجـ هـوـ اـ
انـهـ بـحـاجـهـ إـلـىـ شـيـءـ مـنـ التـوـبـيـخـ . . . أـصـحـيـحـ انـكـ لاـ تـدـخـنـ ؟
فـفـالـ اوـلـيـفـيـيـهـ ، وـقـدـ قـبـلـ هـذـهـ المـرـةـ :

- بـلـ . شـكـراـ .

- اـسـمـحـ لـيـ اـقـولـ لـكـ يـاـ اوـلـيـفـيـيـهـ . . . اـتـرـيدـ حـقـاـ انـ
ادـعـوكـ اوـلـيـفـيـيـهـ ؟ مـعـ ذـلـكـ لـاـ اـسـنـطـيـعـ مـعـاـمـلـتـكـ «ـكـسـيدـ» فـأـنـتـ
لـاـ تـزـالـ اـصـغـرـ سـنـاـ مـنـ ذـلـكـ ، وـلـاـ انـ اـدـعـوكـ مـوـلـيـنـيـهـ لـأـنـيـ وـثـيقـ
الـاـرـبـاطـ بـأـخـيـكـ فـنسـانـ . حـسـنـاـ يـاـ اوـلـيـفـيـيـهـ ، دـعـنـيـ اـقـلـ لـكـ اـنـيـ
اـثـقـ إـلـىـ مـاـ لـاـ نـهـاـيـهـ بـذـوقـكـ اـكـثـرـ مـنـ ثـقـيـ بـدـوـقـ «ـالـسـيـدـ» دـورـمـرـ.

اترضى ان تأخذ على عاتقك هذه الادارة الأدبية؟ تحت قليل من رقابتي ، وهذا طبيعي ، في الأيام الأولى على الأقل . ولكنني افضل الا يكتب اسمي على الغلاف . سأشرح لك في ما بعد سبب ذلك ... ممكن ان نتناول كأس البورتو اليه كذلك ؟ عندي منه صنف ممتاز .
وتناول من على مقصف صغير في متناول يده زجاجة وكأسين وملأهما .

- إيه . ما رأيك ؟

- ممتاز ، فعلا .

فاعترض روبير ضاحكاً .

- أنا لا اكلمك عن البورتو ، بل عما قلته لك الآن .
تظاهر اولييفيه بأنه لم يفهم . كان يخشى ان يقبل بسرعة ،
وان يظهر الكثير من سروره فاحر قليلاً وتنتم باضطراب :
- ان امتحان لا ...

فقطعه روبير :

- قلت لي الآن انه لا يشغلك كثيراً . ومع ذلك فالمجلة لن تصدر حالاً . واني لأتسائل اذا لم يكن من الأفضل ارجاء ظهورها الى ما بعد العودة . ولكن منها كانت الطريقة « فيهمي ان اعرف افكارك . بحسب تهيئة بضعة اعداد قبل تشرين الأول . وسيكون ضرورياً ان نرى بعضنا البعض كثيراً في هذا

الصيف لتحدث عنها مادا سوي ان تفعل اثناء هذه العطلة الكبرى؟

- اوه ! لا اعلم كيراً . اكيد ان اهلي سيدذهبون الى النورماندي شأنهم في كل صيف

- وهل يجب ان نرافعهم ؟ اترضى ان تنفصل قليلا عنهم ؟
- امي لن ترضى .

- سأتناول الطعام هذا المساء مع اخيك ، اتسمع لي بالتحدث اليه عن ذلك ؟

- اوه ! فنسان ، نفسه ، لن بذهب معنا . - تم حسب ان هذه العبارة لا تتلاءم مع السؤال ، فأضاف : - ثم ، ان هذا لن يفيد شيئاً .

- واذا وجدت اسباباً وجيهة تعطى للماما ؟

لم يجب اوليفييه بشيء . كان يجب امه بحثو ، واللهجة الساخرة التي استعملها روبير في كلامه عنها لم ترضه . وادرك روبير انه سار بشيء من السرعة . فقال بنوع من الاهاء :

- اذن ، فقد قدرت شرافي البورتو . اتربد كأساً اخرى منه ؟
- كلا ، كلا ، شكرأ . . . ولكمه ممتاز .

- نعم . دهشت من نضج احكامك وسلامتها في ذلك المساء . اليس في نشك ممارسة التفدع ؟

- لا .

- اشعار؟ اعرف انك تنظم اشعاراً
فاخر اوليفيه من جديد .

- نعم ، لقد خانك اخوك . وما من شك في انك تعرف
شبانا آخرين على استعداد للمساعدة .. يجب ان تكون هذه
المجلة ندوة اجتماع للشببية هذا هو سبب وجودها . اريد ان
تساعدني في تحري نوع من المنشورات تشير دون كثرب من
الايضاح الى الميول الجديدة . ستحدث عنها . يجب اختيار اثنين
او ثلاثة من النعوت ، لا لزوم للافراط في استعمال كلمات
جديدة ، بل كلمات فديه استعملت كثيراً وتحمل معنى جديداً
وستفرض . فعندنا بعد فلوبير : « عديدة ومؤقة » وبعد
ليكونت دوليل : « كهنوتي ونهائي » . ما رأيك في
« حيوى » ... « لا واع وحيوي » ... كلا؟ « ابتدائي متين
وحيوي؟ » .

فجرو اوليفيه على ان يقول وهو يبتسم دون ان يبدي كثيراً
من الاستحسان :

- اعتقاد من الممكن ايجاد افضل .
- هيا . كأساً اخرى من البورتو .
- غير ملائنة ... ارجوك .
- ان الضعف الكبير للمدرسة الرمزية هو انها لم تأت الا
بما يتعلق بعلم الجمال ، وقد اتنا جميع المدارس الكبرى ، في

إنشاء جديد ، بعلم اخلاق حديد ، ودفتر شروط جديد ، ولوائح جديدة ، وطريقه جديدة في النظر ، وفي فهم الحب ، وفي السلوك في الحياة اما الرمزي فهو لم يكن يتصرف في الحياة . لم يحاول فهمها . هو ننكرها ، ويدير لها ظهره . وهذه حماقة ألا تجدها كذلك ؟ انهم اناس دون شهبة ، ودون نهم ايضاً ، لبس مثلنا نحن الآخرين ... أليس كذلك ؟

كان اوليفيه قد اهى كأسه الثانية من البورتو وسبكارته الثانية . فأطبق عينيه نصف إطلاقة ونام نصف نومه في كتبته المريحة . ودون ان يقول شيئاً كان يظهر استحسانه بحركات خفيفة من رأسه وفي تلك اللحظة سمع الحرس يدق وعلى الأثر دخل حادم وقدم لروبير بطاقة . اخذها روبيرو والقى نظرة علىها ووضعها قربه على مكتبه .

- حسناً ! قل له ان يتضرر لحظة - خرج الخادم . - اسمع ، يا صغيري اوليفيه لقد احبيتك كثيراً واظر اننا نستطيع التفاهم جيداً . ولكنها هو احدهم بتحتم على ان استقبله ويحرص على ان اكون بمفردي .

ونهض اوليفيه .

- سأخرجك من المدبعة ، اذا سمحت ... آه ! سيسرك ان تحصل على كتابي الجديد ؟ عندي منه نسخة مطبوعة على ورق فخم

- لم انتظر ان اتلقاءه منك لأقرأه .

قال اوليفيه ذلك . وهو لا يحب كتاب باسافان كثيراً ، وحاول ان ينخلص منه دون تملق مع حرصه على ان يظل عبواً . وفوجيء باسافان بلهجة العارة ، فرق خفيف بينها وبين الاحتقار . وتابع بسرعة :

- اوه ! لا تحاول ان تحدثني عنه . لو قلت لي انك تحبه لاضطررت ان اضع موضع الشك ذوقك او صدقك . كلا ، اعرف اكثر من اي انسان ما ينقص هذا الكتاب . كتبته بكثير من السرعة . وحقيقة القول اني كنت افكر في كتاب التالبي في الوقت الذي كتبته فيه . آه ! ذاك مثلاً ... انا متعلق به كثيراً . سترى ، سترى ... انا حزين ، ولكن يجب ان تتركني حتى في الوقت الحاضر ... الا اذا .. ولكن لا ، لا ، انت لا نعرف بعضنا كثيراً بعد ، ومن المؤكد ان اهلك ينتظرونك على الطعام . هيا ، الى اللقاء . الى الملتقي القريب سأكتب اسمك على الكتاب ... اسمع

ونهض ، واقترب من مكتبه ، وبينما كان منحنياً ليكتب تقدم اوليفيه خطوة الى الامام ، وتطلع من زاوية عينه الى البطاقة التي حملها الخادم :

فكتور ستروفيلو

هذا الاسم لم يأته بجديد .

وناول باسافان اوليفيه نسخة من « الحاجز الثابت » . وبينما

كان اوليفيه بتهيا لفراء عبارة الاهداء ، قال له باسافان وهو يضع له الكتاب تحت ابطه :
- سترى هدا في ما بعد .

ولم يع اوليفيه الا في الشارع هذه الكتابة المحاططة المستخرجة من الكتاب الذي تزينه ، والتي كتبها الكونت دو باسافان على نسف اهداء

« ارجوك يا اورلندو ، بعض الخطوات ابضاً .

لست متأكداً بعد من جرأت على فهمك فهماً كاملاً » .

وأضاف نحنها :

« الى اوليفيه مولنبيه

صدقة العين

الكونت روبيه دو باسافان » .

كتابة مبهمة جعلت اوليفيه مفكراً . ولكنها على كل حال حر في تفسيرها كما يتلاء .

عاد اوليفيه الى منزله بينما كان ادوار قد تركه . وقد مل الانتظار .

١٦

كانت تقاقة فنسان الايجابية تمنعه من الاعتقاد بما فوق الطبيعة ، مما رجع كثيراً كفة الشيطان في الميزان ولم يكن الشيطان يتصدى لفنسان مواجهة ، اثنا يراوده . موارنة وخفية . وتتألف احدى مهاراته من خداعنا بان نحسب انكساراتنا مستصرة . والذى اعد فنسان ليعتبر تصرفه حيال لورا نصراً لارادته على غرائزه العاطفية ، هو انه اضطر ، وهو طيب بطبيعته ، ان يضبط نفسه ، ويتصلب ، ليبدو قاسياً حيالها .

ولدى تفحص طبع فنسان في هذه المكيدة . مبزت فيه درجات مختلفه اريد الاشارة اليها في سبيل افاده القارئ : :

١ - حقبة الباعث الطيب . التزاهة . حاجة ضميره لإصلاح غلطة ارتكبت . وفي هذه الفضية بالذات : الازام الاخلاقي في ان يكرس للورا النبلغ الذي اقتضيه اهله ببذل الجهد لمساعدته في اولى نعمات مهنه . اليس في ذلك تصحية ؟ اليس هذا الباعث لائقاً ، أرجيأ ، إحسانياً ؟

٢ - حقبة القلق . تردد الضمير . الشك في ان هذه الفنية

المكرسة ستكون كافية . الس هذا اسعداداً للحسن عدماً
موه الشيطان امام عنبه إمكان إحباهما ٩ .

٣ - تبات النفس وقوتها . الحاجة لأن يشعر ، بعد خسارة
تلك القيمة ، انه « فوق الشدة » و « قوة النفس » هذه هي
التي اتاحت له ان يعرف للورا بخسارته في العمار ، واتاحت
لها ، بالمناسبة نفسها ، ان يقطع علاقته بها .

٤ - العدول عن الباعث الطيب ، المعتبر خدعاً ، في ضوء
علم الأخلاق الجديد حيث وجد فنسان نفسه مضطراً الى
الاختلاق ليضفي على سلوكه صفة الشرعية ، وذلك لأنه بفي
كائنأً أخلاقياً ، ولن يكون للشيطان حجة عليه الا بنوافر اسباب
له يجعله يستصوب عمله . نظرية الملازمة والكلية في اللحظة
، الفرح المجاني ، الآني وغير المعلل .

٥ - نشوء الرابع . احنقار الاختيار .. التفوف .

انطلاقاً من هنا يربع الشيطان الجولة .

وانطلاقاً من هنا فان الكائن الذي يعتبر نفسه اكتر حرية
ليس الا اداة في خدمته ولن يكون للشيطان انقطاع ما دام
فنسان اسلم اخاه الى ذلك الشرير الذى هو باسفافان

ومع ذلك فليس فنسان رديئاً . وكل هذا ، مهما كان ،
جعله غير راض ، ومتعرّك المزاج . ولنضيف ايضاً بعض
كلمات :

تسمى «العرية» كما اعتقد ، كل ثنية مختلفة الالوان للمايا
 (1) maya ، حيث تشعر ب نفسها امامها أنها غريبة ، والتي تحترمها
 نقاط الارتكاز . وفضيله كهذه تقاوم احياناً ، والشيطان يخرجها
 من محيطها قبل ان يهاجمها . ما من شك في أنها لو لم يكونوا
 تحت سماوات جديدة ، بعيدين عن اهلها ، وعن تذكريات
 ماضيهما ، وعما ييفيهما منطفين مع نفسها ، لما اسسلمت لورا
 لفسان ولا حاول إغواءها وما من شك في ان هذا العمل
 الغرامي هناك بدا لها انه لن يدخل في خط الحساب .. بقي
 الكثير مما يجب قوله ، ولكن ما جاء اعلاه يكفي تماماً لأن يوضح
 لنا فنسان .

بجانب ليليان ايضاً كان يشعر انه غير محبته . وقد قال لها
 ذلك المساء نفسه :

- لا تضحكني مني يا ليليان . اعلم انك لن تفهميني .
 ومع ذلك فأنا بحاجة للتتحدث اليك كأنك تفهميني . لأنه
 يستحيل علي من الآن فصاعداً ان اخرجك من نفكري .

كان نصف نائم على فدمي ليليان المتمددة على اريكة
 منخفضة . وقد وضع رأسه بهيام على ركبتي عشيقته التي كانت
 تداعبه بهيام ابضاً .

(1) المايا : هند اميركا الوسطى . الترجم .

- ان ما حعلني مهموماً هذا الصباح نعم ربما هو الخوف استطعى ان تطلي رصيحة لحظة؟ استطعين ، لفهمي ، ان تنسى لحظه ، ليس ما تعتقديه ، لأنك لا تعتقدين بشيء ، بل ، بشكل واضح ، ان تنسى انك لا تعتقدين بشيء؟ وانا ايضاً لم اكن اعتقد بشيء ، وانت تعرفين ذلك ، كنت اعتقد اني لم اعتقد بشيء اطلاقاً. بشيء ، الا بانفسنا ، الا بك ، إلا بي ، الا بما استطع ان اكون معك ، الا بما يمكن ان اصير بفضلك

ففاطعه ليليان :

- سياق روبير في الساعة السابعة . وليس ذلك لأدفعك الى الاسراع . ولكن اذا لم تقدم بسرعة اكثر فسيقطعننا تماماً في اللحظة التي تبدأ فيها ان تكون شائفاً . لأنني افترض انك تفضل الا تستمر امامه . انه لعجب اعتقداك ان من واجبك ان تتحذذل يوم الكبار من الاحتياطات . هيئتك كهيئة اعمى يتلمس اولاً بعصاه كل مكان يريد ان يضع قدمه فيه . ومع ذلك فانت ترى اني احتفظ بجديتي لماذا لا ثق بي ؟

فالفنان :

- منذ ان عرفتك وانا واثق بك ثقة غير عاديه . اني استطيع عمل الكثير ، واسعمر بذلك ، وترى انني انجح . ولكن ، بالتأكيد ، هذا ما يخيفني ... كلا ، اصمتى ... فكرت طوال النهار بما روينه لي صباح غرف « البورعونبا » والايدي التي

قطعت ، ايدي اولئك الذين ارادوا الصعود الى الرورق ييدو لي
ان شيئاً ما يريد الصعود الى زورقي - لقد استعملت صورتك
لتفهمي - شيئاً ما اريد منعه من الصعود اليه ..
- وتريد ان اساعدك على اغرائه ايهما الجبان العجوز ! ...
فأكمل دون ان ينظر اليها :

- شيئاً قال هذا الصوت ؟ ... انت لا تخبرؤ على إعادته .
هذا لا يدهشني . ييدو لي ان هناك في الداخل شيئاً من التعليم
المسيحي اليه كذلك ؟ .

- ولكن يا ليليان ، إفهمي : الوسيلة الوحيدة لأنفذ نفسي
من هذه الافكار هي ان اقوها لك . واذا ضحكت منها
فسأحتفظ بها لنفسي ، وستسمعني .

- تكلم .

قالت ذلك بلهجة استسلام . ثم ، بما انه ظل صامتاً ،
وقد خبأ وجهه في تنورة ليليان بشكل صبياني ، قالت هذه :

- هيا ! .. ماذا تنتظر ؟

وامسكته من شعره وأجبرته على رفع رأسه .

- ولكن ، ييدو انه يأخذ الأمر مأخذناً جدياً ، وهو كثير
السحوب . اسمع يا صغيري ، اذا اردت ان تقلد الطفل فان
هذا لا يوافقني مطلقاً . يجب ان تخبروه على ارادة ما تريده ثم ،
انت تعلم اني لا احب المخاتلين . حين تريدين ان تصعد الى
الزورق ذلك الذي لا هم له الا الصعود اليه ، وذلك على سبيل

المداراة ، فأنت تغش . أنا اريد ان العب معك ، ولكن لعباً صريحاً ، وقد اندرتك ، وما ذلك الا لأجعلك تنجح اعتقاد ان في وسرك ان تكون رجلاً ذا اهمية » ملحوظاً « احس فيك بذكاء كبير وقوة كبيرة . اريد ان اساعدك . هناك كثير من النساء يفسدن من يتعلقن بهم ، وانا اريد ان اكون بعكس ذلك . حدثني قبلاً عن رغبتك في ترك الطب لأعمال في العلوم الطبيعية ، وأسفت لعدم وجود المال الكافي لذلك ... اولاً ربحت في القمار خمسين الف فرنك ، وهذا ليس بالقليل . ولكن عدلي بأنك لن تعود الى اللعب . وسأضع تحت تصرفك كل ما يلزم من المال ، بشرط ان تكون لك القوة على هز كتفيك استخفافاً اذا سمعتهم يقولون ان امرأة تصرف عليك .

كان فنسان قد نهض ، واقترب من النافذة . وتابعت :
ليليان :

- اولاً ، ولإنتهاء الأمر مع لورا ، ارى ان بالامكان ان ترسل لها الخمسة آلاف فرنك التي وعدتها بها . وما دام المال معك الآن فلماذا لا تفني بكلامك ؟ هل ذلك بداع حاجتك للشعور انك اكثر ذنباً حيالها ؟ هذا لا يرضي في شيء . اني ارتعد من قلة التهذيب . انت لا تعرف ان تقطع الايدي بدقة . حين يتم ذلك سنذهب لتمضية الصيف في اي مكان يكون انسبي لك في اعمالك . لقد حدثتني عن روسكوف . اما انا فأفضل موناكو لأنني على معرفة بالأمير الذي يستطيع اخذنا في

رحلة بحرية و تشغيلك في معهده .

وصمت فنسان . كان يسأله ان يقول لليليان « ولم يرو لها ذلك الا في ما بعد ، انه قبل مجئه لزيارتها من على الفندق الذي انتظرته فيه لورا بياس » ، ولما كان كل همه ان يشعر انه خالص لا عليه ولا له ، فقد وضع في غلاف تلك الأوراق المالية التي كانت لورا قد بثت من الحصول عليها . واعطى الغلاف احد الغلمان ، ثم انتظر في الدهليز مطمئنا الى ان الغلام سيسسلم لورا الغلاف يداً بيده . وبعد لحظات قليلة عاد العلام حاملا الغلاف وقد كتبت لورا عليه بالعرض : « فات الأوان » .
قرعت ليlian الجرس وطلبت معطفها . وحين خرجت الخادمة :

آه ! اردت ان اقول لك قبل وصوله : اذا عرض عليك روبيير ان يوظف لك مبلغ الخمسين الف فرنك ، فاحذر انه غني جداً ولكنه دائم الحاجة الى المال . اظن اني سمعت بوق سيارته . لقد جاء قبل الوقت بنصف ساعة ، ولكن هذا افضل ... فنجيئه لن يحرمنا شيئاً ، وما كنا نقوله لم يكن بالأمر المهم
وقال روبيير وهو داخل :

- جئت قبل الوقت لأنني فكرت انه سيكون من بواعث التسلية ان نذهب لتناول الطعام في فرساي . أيا لائمك هذا ؟

فقالت الليدي غريفث :
- كلا . الاخواض تقتلني . من الافضل ان نذهب الى

رامبوبيه ، لدينا الوقت الكافي . سنأكل هناك افل ما يجب ولكننا ستحدث بصورة افضل . اريد ان يروي فنسان لك حكماته عن الاسماك . هو يعرف منها ما يدهش . لا ادرى ادا كان ما يقوله صحيحاً ولكنه يبعث على التسلية اكثر من اجمل روابط العالم .

فقال فنسان :

- من الممكن الا يكون هذا رأي روائي .

كان روير دو باسافان يمسك صحيفة مسائية :
- اتعلمان ان برينيار قد عين رئيس غرفة في العدلية ؟ هذه هي اللحظة المناسبة لدفعهم الى منح ابيك وساما .
قال ذلك ملتفتا نحو فنسان . وهز هذا كتفيه . وتابع
باسافان :

- يا عزيزي فنسان ، اسمح لي بالقول انك نكدره نشرأ بعدم طلبك منه هذه الخدمة الصغيرة - ليصبح سعيدا برفقك طلبك .

فأجاب فنسان بسرعة :

- لو بدأت بطلبها منه لنفسك .

فارخى روير شفنيه بتكلف :

- كلا ، فأنا ابعد من ان افطر بفامي حتى لو دار الامر
يتعلق بوسام !
ثم دار نحو ليليان وقال :

- اتعلمين ان الذين يبلغون سن الأربعين دون ان يصابوا بالجلدري او ينحو اوسمة هم نادرون في ايامنا؟ فابتسمت ليليان هازة كتفيها . وقالت :
- من أجل تركيب الكلمة جميلة ، يرضى بان يكبر سنه !
قل : هل هذه عبارة من كتابك القادم ؟ ستكون طازجة
اهبطا على كل حال ، سأخذ معطفى وألحق بكم .
- وعلى الدرج سأل فنسان روبير :
- كنت اعتقد انك لا تزيد رؤيتك ابداً .
- من ؟ برينيار ؟
- كنت تجده كثير الحمق .
فأجاب بأسافان متهماً ، وقد وقف على درجة تاركاً فنسان مرفوع الرجل ، لأنه رأى الليدي غريفث آتية ، وتمى ان تسمعه :
- يا صديقي العزيز . اعلم انه ما من احد من اصدقائي إلا اعطاني تأكيدات على بلاهته ، بعد معاشرة طويلة قليلاً .
وأشهد ان برينيار قد قاوم التجربة وقتاً اطول اكثراً بكثير من الآخرين .
- فقال فنسان :
- مني انا مثلاً ؟
- وهذا لم يعني من ان امثل افضل صديق لك ، وترى ذلك جيداً .

فقالت ليليان التي اضمنت اليها :

- هذا ما يسمونه في باريس ذكاء . انتبه يا روبير : ليس هناك شيء بديل اسرع من الذكاء .

- اطمئني يا عزيزتي : الكلمات لا تذبل الا حين تطبع وانحدروا مكانهم في السيارة التي سارت بهم . ولما كان حديثهم قد ظل على هذا المستوى فنقله هنا لافائدة منه . جلسوا حول طاولة على شرفة فندق « أمام حدائق ملأها الليل المابط ظلاماً . وثقلت الاحاديث بفضل المساء شيئاً فشيئاً . واخيراً لم يبق من يتكلم سوى فنسان الذي دفعه ليليان وروبير الى ذلك .

١٧

لو قل اهتمامي بالناس لازداد بالحيوانات .

هذا ما قاله روبير . وأجابه فنسان :

- لعلك تظن الناس مختلفون كثيراً عن الحيوانات . ما من اكتشاف كبير في علم الدواجن الا كان له دويه في معرفة الانسان . كل هذا منصل بعضه ببعض ومتصل بعضه ببعض . واظن ان روائياً يعتز بكونه عالماً نفسانياً ويدير عينيه عن منظر الطبيعة ويظل جاهلاً قوانينها ، هو خطير وسيكتشف عاجلاً ام

آجلاً انه كان خطئاً . في مذكرات غونكور التي اعطيتني ايها لأقرأها » وقعت على قصة زيارة لأروقة التاريخ الطبيعي في « حديقة النبات » حيث يرثي الكاتبان لقلة المخلية في الطبيعة ، أو عند الرب . ان الحمق وعدم الفهم يظهران في روحهما الصغيرة من خلال هذا التجذيف المسكين . ان الأمر على العكس . يا له من تنوع هناك ! يبدو ان الطبيعة جربت « دورياً ، جميع الاساليب لتكون حية ، ولتحترك » متنفعة بجميع ما تبيحه المادة ، وبقوانيتها . يا له من درس في التخييل التدريجي عن بعض المجازفات غير الصائبة ولا اللبقة ، وال المتعلقة بعلم المطمرات . . . يا له من توفير انساح المؤونة لبعض الاشكال . . . ان التأمل في هذه يفسر لي اهمال تلك . حتى علم النبات يمكن ان يعلمنا . حين افحص غصناً صغيراًلاحظ انه يؤوي في كل منبت لأوراقه ، برعماً جديراً ان يشت بدوره في السنة التالية . وحين الاحظ ان اثنين من البراعم على الاكثر نمواً ، وينموهما يقضيان على الآخرين بالمزال ، لا انمالك من افكـر ان ما يحدث هنا يحدث للانسان . ان البراعم التي تنمو بـأـطـبـيـعـيـاً هي ذاتـاـ البراعـمـ النـهـائـيـةـ يعني : هي التي تكون اكـثـرـ بـعـدـاـ عنـ الجـذـعـ العـائـلـيـ . والتـقـلـيمـ وـحدـهـ ، اوـ التـقوـسـ^(١)

(١) التقوس arcure : هو ان تخفي فرعاً من شجرة مثمرة لتقلل من كمية السع فيه ، فتحول الى الفروع الأخرى . المترجم .

بارحاع النسغ الى الوراء « يضطره الى بعث الحياة في البذور المحاورة للجذع ، والتي ظلت نائمة وبهدا تشر الانواع الاكثر مرداً والتي لو تركت على هواها لما انتجت سوى اوراق . آه ! اي مدرسة صالحه هي هذه الروضة ! ... هذه الحديقة ! وأي مرب صالح يمكن في الغالب ان تستبطه من البستاني ! يمكن في الغالب ان نتعلم اموراً كثيرة من المعرفة القليلة للاحظة حوش دواجن ، دودة ارض ، حوض يحفظ فيه سمك او نبات ، مأوى ارانب ، زربية ، اكثر من التعلم من الكتب - وصدقني اذا قلت : او من مجتمع بشري ايضاً حيث سقط الجميع قليلاً او كثيراً ، في بؤرة السفسطة .

تم تحدث فسان عن انتقاء الافضل ، فعرض الطريقة العاديه لاصحاب هذه الاصناف في سبيل الحصول على النصف الأجمل ، واختبارهم للنماذج الاصيله ، وعن تلك السزعة الاختيارية لبستانى حريء يمر بالله ، بداعف الروتين وقد تقول بداعف النحدى - ان يختار ، على العكس ، الافراد الاضعف وعرض ايضاً طرق الإزهار التي لا منيل لها والتي حصل عليها . وروبير الذى لم يكن يسمع في مادىء الأمر الا بأذن واحد ، كمن لا يتطرق سوى الضجر ، لم يحاول مقاطعته . وانبهاه بعث النشوة في ليليان ، كأنه تحية لعشيقها وقالت له :

- ليتك نحدثنا بما حدثني عنه قبله عن الاسماك وتكلماتها وفقاً لدرجات ملوحة البحر اليك هكذا تقول ؟

وابع فنسان :

باستثناء بعض المناطق ، تظل درجة الملوحة ثابتة تقريباً ، وجموع الحيوانات البحرية لا تحتمل عادة سوى تنوعات خفيفة جداً من الكثافة ولكن المناطق التي تحدثت عنها هي مع ذلك ليست خالية من السكان ، ان المناطق الخاضعة لتبخرات مهمة تخفف كمية المياه بالنسبة الى الملح ، او هي ، على العكس ، تلك التي تأتيها حصة ثابتة من الماء العذب تخفف الملح وتتفقد ملوحة البحر ان صع القول - انها المجاورة لمصب الانهار الكبيرة او لتيارات ضخمة . كذلك الذي يدعى « خليج ستريم » فالحيوانات المسمة stenohalins تسقم فيها وتوشك على الالحاق ، فيما انها غير قادرة ايضاً ان تدافع عن نفسها ضد الحيوانات المسمة euryhalins ، حيث تصبح فريسة لها بشكل لا يمكن منعه ، فان الـ euryhalins تفضل العيش على حدود التيارات الكبرى حيث تتغير كثافة الماء . وحيث تختضر الـ stenohalins . لقد ادركتم طبعاً ان الـ steno هي التي لا تحتمل سوى الدرجة نفسها من الملوحة ، بينما الـ eury ... هي التي تعيش في المياه الأقل ملوحة .

هكذا قاطعة روبير الذي يرد الى نفسه كل فكرة ، ولا يتم لأي نظرية سوى بما يستطيع استعماله منها .

وأضاف فنسان برصانة :

- معظم هذه الحيوانات معترضة .

و هتفت الليدي ليليان متحمسة :

- لم أقل لك ان هذا يساوي كل الروايات !

اما فنسان » وكأنه تبدل ، فقد ظل غير شاعر بالنجاح. كان رصيناً بشكل غير عادي ، وتابع بلهجة اكثراً انخفاضاً كأنه يتحدث الى نفسه :

- وأدهش اكتشاف في هذه الأزمنة الأخيرة - او الذي عرف عنه اكثراً من غيره على الأقل - هو اكتشاف الاجهزة المولدة للضوء عند حيوانات الاعماق .

فقطاعته ليليان التي تركت سيكارتها تنطفئ وقدح البوظة التي قدمت اليها تذوب .

- اوه ! حدثنا عن هذا .

- تعلمون دون شك ان ضوء النهار لا يتغلغل بعيداً في البحر فاعماقه مظلمة .. مهاؤ سحيفة ظل الاعتقاد لوقت طويلاً انها غير مأهولة ، ثم ان عمليات جرف الرمال التي حاولوه جلبـت من هذا الجحيم كمية من الحيوانات العجيبة . وقد اعتقد ان هذه الحيوانات عمياً . وما حاجتها لخاصة النظر في الظلام ؟ .. بالتأكيد لم يكن لها عيون ، ولم تكن تستطيع ، لم تكن بحاجة للحصول عليها . ومع ذلك فقد فحصـت وتأكدـت العلماء بهذهـة ان بعض منها عيـوناً ، واتـها كلـها تقرـباً لها عـيون فضـلاً عن الـلاقـطـات الـهـوـائـية antennes ذات الحـسـاسـيـه المـاهـيـه ومـضـى العـلـمـاء في الشـكـ واصـابـنـهم الـدـهـشـه : لماـذا العـيـون ما

دامت لا ترى شيئاً؟ . عيون حساسة ، ولكن ماذا تحس؟ حسبيها وها هم قد اكتشفوا أخيراً ان كلاً من هذه الحيوانات التي حسبيها مظلمة في نادى الامر ، تخرج ، وتلقي امامها ، وحولها ، ضوءها . كل منها يضيء ، ويستطيع ، ويشع . وحين يُؤق بها ليلاً من اعمق الهاوية تلقى على سطح الباخرة ، ويصبح الليل باهراً . نار متحركة ، مهتزة ، ذات الوان عده . منائر دائرة ، ذبذبة كواكب ، واحجار كريمة . وقد قال لنا اولئك الذين رأوها انه لا يوجد شيء بعادتها في رونقها .

وسكت فنسان . وظلوا وقتاً طويلاً دون كلام . وقالت

ليليان : فجأة :

- لنعد الى الدلت شعرت بالبرد .

جلست اللدي ليليان بجانب السائق ، مخفية قليلاً خلف ستار البلواري وفي صدر السيارة المكتوفة استمر الرجال يتحدثان في ما يسمها . كان روبير قد لزم الصمت طوال وقت الطعام ، مصغياً الى فنسان وهو يتكلم ؛ وقد جاء دوره الآن :

- أسماك مثلنا يا صديقي فنسان تختضر في المياه الهدئة .
قال مرفقاً كلامه بصربيه فجائية على كتف صديقه . كان يسمح لنفسه بشيء من الدالة مع فنسان ولكنه لا يتحمل مثلها ॥ ومع ذلك فإن فسان لم يكن توافقاً الى هذا .

- اتدرى اني اجدك مذوحاً ! أي محاضر يمكن ان تكون !
لعمري يجب ان تترك الطب . وحقيقة فإني لا اراك واصفاً

المسهّلات وجاعلاً من رفاقك مرضى منبر لعلم البيولوجيا المقارن ، أو لا أدرى ماذا من هذا النوع ، هذا ما يلزمك .

وقال فنسان :

- فكرت في ذلك قبلًا .

- على ليlian ان تحصل لك على هذا ، وذلك بأد تجعل صديقها أمير موناكو يهتم بابحاتك ، وهو من هذا الرأي كما أعتقد يجب ان احدثها عن ذلك .

- لقد حدثني قبلًا عن ذلك .

- ما العمل إذاً لاسداء خدمة اليك ؟ خصوصاً إني كنت ناويًا ان اطلب منك خدمة .

قال ذلك متظاهراً بالكدر .

- سيكون دورك لتصبح مدينًا لي . انت تظني صعيده الذكرة .

- ماذا ؟ ألا تزال تفكّر بالخمسة آلاف فرنك ؟ ولكن اعدتها اليّ يا عزيزي لست مدينًا لي بشيء بقليل من الصدقة ، تقريباً . أضاف ذلك بلهجة سبة رقيقة ويدله موضوعة على ذراع فنسان . ان صداقتك هي التي اتوها اليها .

وقال فنسان :

- أنا مصفعٌ .

ولكن باسافان صاح على الأثر ، ناسباً الى فنسان فراغ

صبره هو :

- كم انت متجل ! للدبا وقت من ها الى باريس كما افترض .

كان باسافار حاذقاً على الخصوص في ان محمل الغير يلبس اهواه الخاصة ، وكل ما يفصل اد يذكره ؛ ثم نظاهر بترك موضوعه ، كصائد سمك « الترويت » الذين يلقوون الطعم بعيداً جداً لثلا بنفروا فريستهم ، تم يأتون به من عبر ان تشعر الأسماك .

- للمناسبة ، اشكرك لارسال اخنك الى كنت اخشى ان تنسى .

وقام فنان بحركة « وتابع روير :

- هل رأيته بعدها ؟ لم يتسع لك الوقت ، البس كذلك ؟ غريب انك لم تسألني بعد عن اخبار هذه المقابلة انك في اعماقك غير مبالٍ بذلك . لا تهنم ابداً بانحصارك . وكل ما يفكرون فيه أوليفييه ، وما يشعر به ، وما هم وما يربد اد يكون « كل هذا لا تلقي له بالاً »

- هل هذه توبيخات ؟

- نعم بالتأكيد . انا لا افهم ، ولا أقبل هذا الجمود . حين كنت مريضاً في بو ، كان هذا مقبولاً منك ؛ كان عليك الا تفكك الا بنفسك ، وكانت الأنانية جزءاً من علاجك . اما الان ... ماذا ؟ .. ان بجانبك تلك الطبيعة الصغيرة

المرتعشة ، هذا الذكاء المستيقظ ، المليء بالوعود ، والذي لا يتضرر سوى نصيحة ، سوى سند
ونسي في هذه اللحظة انه هو ايضاً له اخ .

ومع ذلك فنسان لم يكن احق . وقد اندره الافراط في التوبيخ ان هذا الافراط لم يكن صادقاً جداً ، وان الحق هنا لم يأت إلا ليجلب شيئاً آخر . فضمنت ، متطرأً مجئه . ولكن روبير توقف حالاً ، فقد فاجأ على ضوء السيكاره التي كان فنسان يدخنها طيبة غريبة على شفة هذا الاخير حسبها تهكمًا .
وهو يخشى التهمم أكثر من أي شيء في العالم . فهل هذا هو الذي جعله يبدل هجته ؟ أو بالأحرى إني أتساءل اذا كان الحدس قد عتفه لنوع من الذنب المشترك بين فنسان وبينه .
فتابع ، متظاهراً بشكل طبيعي كامل ، وبهيئة تقول : « ما من حاجة للمداعجة معك » :

- حسناً ! . . . لقد اجريت حديثاً مع اوليفيه من ألطاف ما يكون . لقد اعجبني هذا الغلام تماماً .

وحاول باسافان ان يلتقط نظرة فنسان (لم يكن الليل شديد الظلام) ؛ ولكن هذا كان يتطلع أمامه .

- وهذه ، يا عزيزي مولينيه ، هي الخدمة الصغيرة التي أردت طلبها منك .

ولكنه شعر هنا أيضاً بال الحاجة ليترك فسحة ، أو بالأحرى : ليترك دوره لفترة ، على طريقة مثل واثق من الاحتفاظ

بجمهوره ، راغب في ان يثبت لنفسه ويثبت للجمهور انه محتفظ به . انحنى إذا الى الامام نحو ليليان « وبصوت مرتفع جداً كأنه يريد اخراج صفة المسارة مما قاله وعما سيقوله :

- يا صديقتي العزيزة ، أوانقة انت تماماً من انك لا تأخذين برأداً ؟

ثم قال ، دون ان يتطرق الجواب ، وهو متزوج ، في صدر السيارة بجانب فنسان ، وبصوت منخفض من جديد :

- هؤلاً : أريد اصطحاب أخيك هذا الصيف . نعم ، أقولها لك بكل بساطة . وما فائدة التلميح بيننا ؟ لم أتشرف بأن أكون معروفاً من أهلك الذين لا يتزرون أوليفيه يذهب معه « وهذا طبيعي ، ان لم تتدخل فعلاً . ما من شك في انك ستحدد وسيلة لتهبّتهم لصالحي . انت تعرفهم جيداً ، كما افترض ، وتعرف كيف تخاطبهم . أتريد أن تقوم بذلك من اجلـ ؟

وانتظر لحظة ، ثم تابع حين لاحظ صمت فنسان :

- أسمع يا فنسان . . . سأترك باريس حالاً الى مكان لا اعرفه بعد . وأنا بحاجة ماسة لاصطحاب سكرتير . . . تعرف اني أؤسس مجلة . وقد تحدثت عنها مع أوليفيه وبدا لي انه يتحلى بجميع الصفات المطلوبة . . . لكنني لا أريد ان استخدم احداً لوجهة نظري الأنانية فقط . قلت ان صفاتـه كلها مدتـ لي اـنـها وجدـتـ عملـهاـ هـنـاـ . عـرـضـتـ عـلـيـهـ وـظـيـفـةـ رـئـيـسـ تـحرـيرـ . . . رـئـيـسـ تـحرـيرـ مجلـةـ ،ـ فـيـ سـنـهـ !ـ إـعـتـرـفـ بـأـنـ هـذـاـ لـيـسـ عـادـيـاـ .

فقال فنسان مديرأً عينيه نحوه ومتطلعاً اليه بنظرة تائنة :
- غير عادي الى حد اى احشى ان ينفيق أهلي قليلاً .
- نعم ، يجب ان تكون على حق . من الأفضل الا
نحدثهم عن هذا ، نستطيع ببساطة ان تبرز لهم الفائدة الي
سيجنوها شبقلك من رحلة سأجعله يقوم بها ، أليس كذلك ؟
ويجب ان يدرك أهلك ان من كان في سنّه يحتاج لرؤبة
البلدان . ستسوّي الأمر معهم ، أليس كذلك ؟
واستعاد انفاسه ، وأشعل سبکارة جديدة ثم تابع دون تغيير
في اللهجة :

- وما دمت ت يريد ان تكون لطيفاً فابني سأحاول عمل شيء
في سبيلك . اعتقاد إن في وسعي ان اجعلك تغنم من بعض
الفوائد التي تقدم إلى في عمل غير مألف ... ان لي صديقاً
في الأعمال المصرافية بمحفظ بفرص كهذه لبعض المميزين .
ولكنني ارجو ان يبقى الأمر بيتنا ؛ لا تقل كلمة لليليان ... ومهما
يكن فأننا لا أتصرف إلا بعدد من المخصص عصور جدا ؛ ولا
استطيع الاكتتاب لها ولذلك معاً ... مبلغ الخمسين ألف فرنك
الذى كان معك مساء السارحة ...
- تصرفت به .

قذف فنسان هذه العبارة بنشاف لأنه تذكر نجدير ليليان .
ونتابع روبير على الأثر بنشاف :

- لا بأس ، لا بأس ... لن ألح - ثم بهيئه «لن أعرف

كيف أهقد عليك » ، قال : لو امكنت الرجوع عن رأيك ...
اسرع بكلمة ... لأنه إذا مرت الساعة الخامسة غداً فسيفوتك
الوقت .

اصبح فنسان اكثراً اعجباً بالكونت دو باسافان منذ ان
اصبح لا يحمله على محمل الجد .

١٨

يوميات ادوار

«الساعة الثانية - فقدت حقيتي . لا بأس . لا يهمني
شيء من محتوياتها سوى مذكراتي . لكنها تهمني اكثراً من
اللازم . في الحقيقة هذه القصة تسلياني . ولكنني أود لو استرجع
أوراقي ، من سيقرؤونها؟ يمكن أنني ابالغ في أهميتها منذ ما
فقدتها . لقد توقفت هذه المذكرات عند رحيلي الى انكلترا . في
انكلترا سجلت كل شيء على دفتر آخر ؛ اتركته في الوقت
الحاضر لأنني عائد الى فرنسا . والدفتر الجديد الذي اكتب عليه
هذا لن يترك جيبي . انه المرأة التي اتنزه وهي معى - ما من
شيء جرى معى يتلخص في نظري وجوداً واقعياً ما دمت لم أره

٢٠٨

معكوساً في هذه الأوراق . كم كانت المحادثة مع اوليفييه شاقة ! وكم وعدت نفسي بالاستماع بها . . . يمكن انها تركته قليل الرضا مثلي . قليل الرضا عن نفسه يعني . أنا نفسي لم أعرف ان اتكلم « مع الأسف » ولا ان أحمله على الكلام . آه ما أصعب ، أقل كلمة ، حين تأتي بالرضا الكامل لكل كائن ! ومنذ ان يتدخل القلب في ذلك يخدر الدماغ ويشن حركته « الساعة السابعة . - وجدت حقيقتي ، أو على الأقل » وُجد من أخذها . انه افضل صديق لأوليفييه ، الأمر الذي ينسج بيننا شبكة يتوقف على انا ان اشد خيوطها . والخطر ، هو اني اتسلى بكل حادث ، ما يجعلني لا أعود أرى الهدف الواجب بلوغه .

« رأيت لورا من جديد . رغبي في الخدمة تفتاظ ما أن تختلط فيها بعض الصعوبة ، وما أن يتوجب على التمرد ضد الاصطلاحى » والمبتذل ، والاعتراضي .

« زيارة لا بيروز العجوز . مدام لا بيروز هي التي جاءت وفتحت لي الباب . لم أرها منذ أكثر من ستين ؛ ومع ذلك عرفتني (لا اعتقاد انها تستقبل زواراً كثرين) . بالنتيجة ، لم تتغير إلا قليلاً . ولكن (هل ذلك لأنني مهياً ضدها ؟) قسماتها بدت لي اقسى ونظرها أشرس ، وابتسامتها اکتر زيفاً من السابق .

« - أخشى ألا يكون السير لا بيروز في حالة تمكنه من استقبالك .

« هكذا قالت حالاً ، راغبة بشكل ظاهر في ان تختكري ، ؟
ثم انها استخدمت صممها لتجيب دون ان تكون قد سألتها :
ـ « كلا ، كلا . لم تزعجني . أدخل .

ـ وأدخلتني الى الغرفة التي اعتاد لا يبروز ان يعطي دروسه
فيها ، والتي تتطل نافذتها على الساحة ، وحين اصبحت في
الغرفة ، قالت :

ـ انا سعيدة بشكل خاص لاستطاعتي التحدث اليك ،
ونحن وحدنا ، لحظة . حالة السيد لا يبروز ، الذي اعرف
صداقتك القديمة المخلصة له ، تقلقني كثيراً . وأنت الذي
يصفي اليك ، الا تستطيع اقناعه بالاعتناء بنفسه ؟ أما أنا ،
فكل ما أقوله له هو عنده سيان .

ـ ودخلت هنا في معتابات لا نهاية لها : العجوز يرفض
الاعتناء بنفسه لسبب وحيد هو حاجته الى تعذيبها . انه يعمل
على ما لا يجب ان يعمله . ولا يعمل شيئاً مما يجب . يخرج في
ذلك وقت دون ان يرضى مطلقاً بوضع شال . يرفض ان يأكل
في أوقات الطعام : « السيد ليس جائعاً » ، ولا تعرف ماذا
تستبط لتحرير شهيته . ولكنه في الليل « ينبعض » ويجعل
أسفل المطبخ اعلاه ليطبع لنفسه ما لا ادري .

ـ أكيد السيدة العجوز لم تختلف شيئاً ، وادركت من خلال
حكايتها أن تأويل الحركات البريئة هو وحده يمنحها معنى مهيناً .
أي ظل مسيح القاه الواقع على جدار هذا الدماغ الضيق !

ولكن العجوز من ناحيته ، ألا يسيء تأويل جميع اعتناءات العجوزة التي حسبت نفسها شهيدة ، أما هو فجعل من نفسه جلاداً ! إنني أقلع عن مقاصاتها ، عن فهمها ؛ أو بالأحرى ؛ كما يحصل دائمًا : كلما ازداد فهمي لها يزداد حكمي عليها اعتدالاً . ان هنا كائنين مرتبطين بعضهما ببعض مدى الحياة . وهما يتذبذبان بشكل مقيت . وغالباً ما لاحظت عند الأزواج هيجاناً غير محتمل يتولد عند الواحد من أصغر تنوء في طبع الآخر ، لأن « الحياة المشتركة » تحك دائمًا هذا التنوء في المكان نفسه . وعندما يكون الحك متبدلاً لا تعود الحياة الزوجية سوى جحيم .

« تحت شعرها المستعار ذي العصائب السود والذي يرسم القساوة على قسمات وجهها الشاحب ، مع قفازيها الطويلين الاسودين حيث تخرج منها أصابع صغيرة كالمخالب ، كانت مدام لا يروز وهيئه مسخ . وقد استمرت تقول :

« - انه يوبحني لتجسسي عليه . هو دائمًا في حاجة الى النوم الكبير ، لكنه يتظاهر في الليل بأنه ينام ، وحين يعتقد انورث ، ينهض ، ليبحث في الأوراق القديمة ويعشرها ؛ واحيا يتأخر حتى الصباح وهو يعيد قراءة رسائل قديمة لأنبيه الميت وي بكى . انه يريد ان احتمل كل هذا دون ان أقول شيئاً ! ...

« ثم شكت من ان العجوز أرادت دخالها الى مأوى . الأم الذي سيكون أشد إيلاماً لها ، هكذا أضافت » وانه عاجز تمام

عن العيش لوحده والاستغناء عن عيالها . وكان هذا قد قيل
بلهجة مشفقة توحى الرياء .

« وبينما كانت تتبع شكوكها فتح وراءها باب الصالون
بهدوء ، ودخل لا بروز دون ان تسمعه . ولا سمع عباراتها
الاخيرة نظر الي مبتسماً بتهكم ، ورفع يداً الى جبهته مشيراً الى
انها مجونة . ثم ، بفراغ صبر ، وبشراشة لا اعهد له جديراً بها ،
والتي بدت انها تثبت اتهامات الزوجة (ولكنها تعزى ايضاً الى
 حاجته لرفع صوته لتسمعه) ،

قال :

« - هيا ، يا مدام . عليك ان تدركني انك اتعبت السيد
بخطاباتك . لم يجيء ليراك انت . اتركنا .

« فأحتجت حينئذ ان الكتبة التي ظلت جالسة عليها هي لها
وانها لن تتركها .

« فأجاب لا بروز ضاحكاً .

« - في هذه الحالة نحن نخرج . إذا سمحت .

« ثم التفت الي وقال بلهجة ملطفة :

« - تعال . لتركها .

« فألقيت تحية قلقة وتبعته الى الغرفة المجاورة ، تلك التي
استقبلني فيها في المرة الأخيرة . وقال لي :

« - أنا سعيد لاستطاعتك الاص兵اء اليها . ان الأمر هكذا
طول النهار .

«ذهب يغفل النافذة».

«- مع ضوضاء الشارع لا نستطيع سماع بعضنا بعضًا .
أني أمضى وقتى في إغلاق النوافذ بينما تمضي مدام لايروز وقتها
في فتحها . هي تزعم أنها تختنق . أنها تبالغ دائمًا ، وترفض أن
نحسب حساباً لكون الحر في الخارج أكثر منه في الداخل . ومع
هذا فعندي هناك ميزان حرارة صغيراً ولكن حين أريها أية
تقول لي إن الأرقام لا تبرهن عن شيء . ت يريد أن تكون على
حق حين تعرف أنها على خطأ . وأكبر عمل لها هو معاكستي .

«وبدا لي وهو يتكلم انه هو نفسه غير متزن تماماً ؛ وتتابع
بحمية متزايدة :

«- كل الأخطاء التي ترتكبها في الحياة تتهمني أنا بأني سببها
. احكامها كلها خاطئة . وهكذا . انتبه ؛ سأجعلك تفهم :
انت تعلم ان الصور تصل من الخارج الى دماغنا مقلوبة ، حيث
يقومها الجهاز العصبي . ومدام لايروز ، نفسها ، ليس عندها
جهاز مقوم ، كل شيء عندها بظل مقلوباً . احكم انت كم ان
هذا متعب .

«كان يشعر بتعزية في الإيصالح . وحرست على عدم
مقاطعته ، فتابع :

«- مدام لايروز تكثر دائمًا من الأكل . لكنها تزعم أنني أنا
الذي يكثر الأكل . ولو رأيتني منذ لحظة ومعي قطعة شوكولا
(هذا هو غذائي الرئيسي) لتمتنع «دائماً يقضم !» أنها

ترافقني . . . وتهمني بالنهوض ليلاً لأكل خفية ، لأنها فاجأتني ذات مرة وأنا أعد فنجاناً من الشوكولا في المطبخ . . . ماذا تريدين؟ رؤيتها على المائدة وهي ترتعي على الصحون تذهب كل شهية . ثم اتزعم انتي اختلق المصاعب بسبب حاجتي الى تعذيبها .

«توقف لحظة ، ثم قال بنوع من الابدفاف الغنائي :

« - أنا معجب بالتوبيخات التي توجهها إليّ ! وهكذا فحين تشكوا من عرق الأنسر أرثى لها . حينئذ توقفني وتهز كتفها : « لا تظاهر ببرقة القلب » . وكل ما أفعله وأقوله فلكي أجعلها تتألم .

« كنا جالسين ؛ ولكنه نهض ، ثم عاد الى الجلوس حالاً ، وهو فريسة لقلق مرضي .

« - أتصور انه يوجد أثاث لها وآخر لي في كل من هاتين الغرفتين ؟ وقد رأيتها منذ لحظة بكتبتها . أنها تقول للمرأة التي تخدمتنا هناً حيناً تقوم هذه بأعمال البيت : « كلا ، هذا للسيد ، لا تلمسيه » . وحين وضعت ذات يوم سهواً دفتراً للموسيقى مجلداً على طاولة لها رمته على الأرض وتكسرت زواياه . . . أوه ! هذا لا يمكن ان يستمر طويلاً . . . ولكن اسمع .

وأنسلك بذراعي وقال خافضاً صوته :

« - لقد اتخذت احتياطاتي . وهي تهددي باستمرار « اذا

استمرت » « بأن تذهب وتبث عن مأوى في أحد الملاجئ . اني ادخرت مبلغاً من المال يجب ان يكفي لدفع اجرة ايواهها في سانت بيرين » يفال انه افضل مكان والدروس الفليلة التي لا ازال اعطيها لا نحمل الي شيئاً تقريباً . وستنفد مواردي في وقت قريب ، وسأرى نفسي مضطراً الى الاقتطاع من هذا المبلغ ؛ ولا اريد . إذاً ، صممت على أمر . . . وسيكون هذا بعد مدة تتجاوز ثلاثة اشهر بقليل . نعم ؛ لقد دونت التاريخ لو تدري اية تعزية اشعر بها حين افكر ان كل ساعة من الان فصاعداً تقربني منه .

« كان قد اتيحني . . . » وازداد احناؤه اضا

ـ وضعت جانباً صكـاً بخل تدفعه الدولة . انه ليس بالشيء الكثير ، ولكن لا استطيع ان افعل اكثر من ذلك . ومدام لا يروز لا تعرف عنه شيئاً . انه في مكتبي تحت غلاف باسمك ، مع التعليمات الازمة . أستطيع الاعتماد عليك لتساعدني ؟ اني لا افقه شيئاً من هذه الاعمال . ولكن هناك كاتب عدل حدثته عنه وقال لي ان الدخل يمكن ان يدفع مباشرة لخفيدي ، حتى يبلغ سن الرشد ، حيثذاك يمتلك الصك . وقد اعتقدت انه ليس بالكثير ان اطلب من صداقتكم السهر على تنفيذ ذلك . انا شديد الخدر من الكتاب العدول ا و اذا اردت ان تبعث الاطمئنان في نفسي فسترضى بأن تحمل معك حالاً هذا الغلاف . . . نعم ، ايس كذلك ؟ سأبحث لك عنه .

ـ « وخرج وهو يركض بخطى قصيرة على عادته وعاد مع
غلاف كبير في يده .

ـ « ستعذرني لأنني ختمته ؛ هذا لأجل الشكليات . خذه .

ـ « والقيت نظري عليه وقرأت تحت اسمي بحروف
خطوطة :

ـ « ليفتح بعد وفتي » .

ـ « لقد كتبت عنوانه هنا . لا اعرف مكانه . ها هو :
ـ ساس - فيه Saas - Fee اتعرفها ؟ انها في سويسرا . فتشت
على الخريطة ولكنني لم استطع ايجادها . فقلت :

ـ « ضعه في جييك بسرعة لأعلم انه في مأمن . شكرأ ...
آه انتظرتك طويلاً .

ـ « كنت غالباً ما اشعر في لحظة احتفالية كهذه ان كل تأثر
انسانی يمكن ان يفسح في المجال لرهبة شبه غامضة ، لنوع من
الحماسة يشعر كياني بواسطتها انه تمجد ، او بشكل اوضح :
تحرر من رياطات الانانية ، كأنه تخلى عن ملكية نفسه وعن
شخصيته . ومن لا يشعر بذلك لا يستطيع فهمي . ولكنني
شعرت ان لا يبروز يفهم ذلك . كل اعتراض من ناحيتي لا
طائل تحته ، ويدو لي غير صائب . وقد اكتفيت بأن أشد بقوة
على اليد التي تركها في يدي . لمعت عيناه ببريق غريب . وفي
اليد الأخرى ، تلك التي كان يمسك بها الغلاف قبلًا ، احتفظ
بورقة أخرى :

ـ اهـا قـرية صـغيرة بالـقرب من سـرفـان Cervin
ـ هل هي بـعيدة كـثيـراً؟

ـ لـيسـت بـعيـدة بـحيـث لا استـطـيع الـذهـاب إلـيـها .

ـ ماـذا ! ستـقـوم بـذـلـك ؟ أـوه ! كـم اـنت طـيـب ! اـما اـنا فـإـنـي هـرم جـداً . تمـاـني لا استـطـيع ، بـسـبـب الأمـ .. معـ ذـلـك يـدـوـلـي اـنـي .. وـتـرـدـدـ باـحـثـاـ عنـ الـكـلـمـة ، وـتـابـعـ : كـنـتـ اـذـهـبـ إـلـى هـنـاكـ بـسـهـولـة ، لـو اـسـتـطـعـتـ فـفـطـ أـنـ أـرـاهـ .

ـ يا صـدـيقـي المسـكـينـ .. سـأـعـمـلـ كـلـ ما يـمـكـنـ عـمـلـهـ لـأـتـيـ بهـ إـلـيـكـ . سـتـرـى بـورـيسـ الصـغـيرـ .. اـعـدـكـ بـذـلـكـ .

ـ شـكـرـاً .. شـكـرـاً .

ـ وـضـمـنـي بـتـشـنـجـ بـيـنـ ذـرـاعـيـهـ .

ـ وـلـكـنـ عـدـنـي بـأـلـا تـفـكـرـ فـي ..

ـ اوـهـ .. هـذـا شـيءـ آخـرـ .

ـ قالـ ذـلـكـ وـهـو يـقـاطـعـيـ فـجـاءـ . ثـمـ عـلـى الأـثـرـ ، وـكـانـ يـرـيدـ مـنـيـ مـنـ الـاحـلـاحـ ، مـحـواـ اـنـتـبـاهـيـ ، قـالـ :

ـ تـصـورـ انـ اـمـ اـحـدى تـلـمـيـذـاتـ الـقـدـامـى اـرـادـتـ ذاتـ يومـ اـصـطـحـابـ اـلـى المـسـرـحـ ! مـذـ شـهـرـ تـقرـيبـاً . فـقـدـ كانـ هـنـاكـ حـفـلـةـ صـبـاحـيـةـ عـلـى المـسـرـحـ الفـرنـسـيـ . لمـ أـضـعـ قـدـمـيـ فـيـ قـاعـةـ تـمـثـيلـ مـنـذـ عـشـرـينـ سـنةـ . كـانـواـ يـمـثـلـونـ «ـهـرـنـانـيـ» ، لـفـكـتـورـ هـيـغـوـ . تـعـرـفـ ؟ يـدـوـلـيـ اـنـهاـ مـثـلـتـ حـيـداً . وـالـنـاسـ كـلـهـمـ دـهـشـواـ . اـمـاـ اـنـاـ فـقـدـ تـأـلـمـتـ بـشـكـلـ يـفـوقـ الـوـصـفـ . وـلـوـ لـمـ يـمـسـكـنـيـ التـهـذـيـبـ لـاـ استـطـعـتـ

البقاء . . . كنا في لوح . وكان أصدقائي يحاولون تهدئتي .
كدت اهاجم الجمهور . أوه ! كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ .
« ولما لم افهم ما يعني سأله :

« هل وجدت الممثلين بغيبتين ؟

« - بالتأكيد . ولكن كيف تبلغ الجرأة الى عرض قياحات
كهذه على المسرح ؟ وكان الجمهور يصفق ! وهناك أولاد في
القاعة ! أولاد جاء بهم أهلهم الى هناك مع انهم يعرفون
المسرحية . . . هذا قبيح جداً . وهذا على مسرح تتنحه الدولة
مساعدات مالية !

« ان سخط هذا الرجل الممتاز بعث السلوى في نفسي
الآن . وكدت أضحك . واعتبرت بأنه لا يمكن وجود فن
دراميكي دون تصوير للشهوات . واعتبر بدوره ان تصوير
الشهوات كان في مثال يبعث على التكدير . واستمر الجدل حول
هذا بعض الوقت ؛ وبما انني قارنت حينذاك هذا العنصر المؤثر
بثورة الآلات النحاسية في اوركسترا ، فلت :

« - مثلاً ، كدخول الأبواق التي تعجب به في سمفونيا
بيتهوفن . . .

« - ولكنني لا اعجب به ، دخول الأبواق هذا . . . لماذا
تريدني ان اعجب بما يくだري ؟
« هكذا صرخ بحدة غير عادية .

وارتجف بكل جسده . وقد فوجئت بلهجة الغضب والعداء في صوته » وبدت أنها أدهشته أيضاً لأنه تابع بنبرة اهداً :

« - هل لاحظت ان كل جهد الموسيقى الحدية ينحصر في جعل بعض « الاكورات » التي كنا نعتبرها غير منسجمة » عتملة ولطيفة أيضاً ؟

« فأجبت سرعة :

« - بالتأكيد . كل شيء يعود أخيراً ويتحول إلى التناسق .

« فأجاب هازأ كتفيه :

« - إلى التناسق ! ابني لا أرى هنا سوى اعتياد الشر » الخطيئة . فالاحساس يضعف ، والطهارة تكمد ، وردود الفعل تصبح أقل حيوية ؛ يتساهلون ، ويرضون ...

« - ان من يسمعك لا يعود يجرؤ على فطام الأولاد

« ولكنه استمر دون ان يسمعني :

« - لو كان في الامكان استعادة شدد الشباب ! إذاً لكان سخطنا سيكون أكثر ما يكون على الحالة التي وصلنا إليها .

« فات الوقت لنلتقي بأنفسنا في نقاش لاهوتى ؛ وفديت حاولت ان اعيده الى صعيده :

« - مع ذلك فانت لا تزعم انك تحصر الموسيقى في التعبير عن الطمأنينة . في هذه الحالة فإن « اكوراً » واحداً يكفي .

«اكور» كامل مستمر .

«فأخذ يدي وكان في حالة ذهول » ونظرته ضائعة في
عبادة » وردد مراراً :

«اكور» كامل مستمر ؛ نعم . ان الأمر كذلك . «اكور»
كامل مستمر .

«وأضاف بكآبة :

«- ولكن عالمنا كله فريسة للتنافر .

«استأذنت منه . ورافقني الى الباب وعانقني » وتم ايضاً :

«- آه ! كم سنتظرك من أجل «الاكور» ! .

القسم الثاني

ساس - فيه
SAAS - FEE

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من برق إلى أوليفييه

«الاثنين»

ـ صديقي العزيز

لأقل لك أولاً أنني أجلت البكالوريا. لا بد أن تكون قد أدركت ذلك عندما لم ترني في امتحانها. سأقدم الامتحان في تشرين الأول. وقد ستحت لي فرصة فريدة للذهاب في رحلة، فاغتنمتها، ولم أندم. على المرء أن يعقد العزم حالاً؛ لم أترك لنفسي وقتاً للتفكير، حتى ولا لأودعك. وبهذه المناسبة كُلفت التعبير لك عن كل أسف رفيقي في الرحلة لأنه سافر دون أن يراك. فهل تعرف من أصطحبني؟ تخزره الآن. . أنه أدوار خالك الشهير الذي التقته مساء اليوم الذي وصل فيه إلى باريس، في ظروف غير عادلة ومؤثرة سأسردها لك في ما بعد. ولكن كل شيء غير عادي في هذه المغامرة، وحين أعيد التفكير فيها يدور رأسي. واليوم أيضاً أتردد في الظن أن هذا حقيقي، وأن الذي يكتب إليك هذه الرسالة هو أنا، أنا الموجود في

سويسرا مع أدوار و. . - هيأ يجب أن أخبرك كل شيء. ولكن مرق رسالتي واحتفظ بكل هذه لنفسك .

«تصور أن تلك المرأة المسكينة التي تركها أخيوك فنسان، تلك التي سمعتها تتنهب، ذات ليلة، بالقرب من بابك (والتي كنت كثير البلاهة لأنك لم تفتح لها، واسمح لي أن أقول لك ذلك) كانت صديقة كبيرة لأدوار وهي ابنة فيدال، وأخت صديقك أرمان. لا يجب أن أقصن عليك كل ذلك، لأن الأمر يتعلق بشرف امرأة. ولكنني سأشق إذا لم أقصه على أحد.. مرة أخرى أيضاً، احفظ ذلك لنفسك . أنت تعرف أنها تزوجت، وربما تعرف أنها مرضت بعد زواجهما بقليل وذهبت للاستشفاء في الجنوب. وهناك تعرفت إلى فنسان، في بو. ربما تعرف ذلك أيضاً ولكن ما لا تعرفه هو أن هذا اللقاء جعلها تحبل. عادت حبل إلى باريس، حيث لم تجرؤ على الظهور أمام أهلها؛ كذلك لم تجرؤ على العودة إلى البيت الزوجي. ومع هذا فإن أحلك تركها في الظروف التي تعرفها وأوفر عليك الشروح ولكنني أستطيع القول لك أن لورا دوفيه لم تنبس بكلمة لوم وحقد ضده. بل على العكس، اختلقت كل ما تستطيع لتبرير سلوكه. باختصار أنها امرأة ممتازة وجليلة جداً؛ وهناك آخر ممتاز أيضاً، هو أدوار. وبما أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل، ولا أين تذهب، فقد عرض عليها أن يأخذها إلى سويسرا، وفي الوقت نفسه عرض على مرافقتها لأن سفره معها بمفردهما يضايقه، ولأنه لا يحمل لها إلا

عاطفة صداقة. وها قد ساونا نحن الثلاثة. وقد تقرر هذا بسرعة: الوقت الذي احتجناه لخزم حقائبنا وتجهيزي (لأنك تعلم أنني تركت البيت دون شيء). أما ما كان عليه أدوار من لطف في هذا الظرف فلا يمكنك تكوين فكرة عنه؛ وفضلاً عن ذلك فقد كان بكرر على في كل وقت أنني أنا الذي أسدأه خدمة. نعم يا صديقي، أنك لم تكذب علي: فحالك طراز مدهش.

«كانت الرحلة شاقة لأن لورا تعية جداً وحالتها (لقد بدأت شهرها الثالث في الحمل) تتطلب الكثير من المداراة: والمكان الذي نقصده (لأسباب يطول شرحها) صعب الوصول إليه. وباختصار فإن لورا غالباً ما تعقد الأمور برفضها اتخاذ الاحتياطات، وقد اضطررنا إلى إجبارها على ذلك. كانت تردد في كل وقت أن أسعد ما تصبو إليه هو حادث يصيبيها. وغني عن القول أنها كانت بالغ في العناية بها. آه! يا صديقي، يا لها امرأة تستحق الإعجاب! لم أشعر بذلك قبل أن أعرفها. هناك أفكار لا أجرؤ على صياغتها وحركات في قلبي أكبح جاحها، لأنني سأشعر بالعار إن لم أكن لائتاً بهذه المرأة. نعم، حقيقة، حين تكون بقربها تشعر أنك مجبى على التفكير بما هو نبيل. وهذا لا يمكن كون الحديث بيننا حرّاً جداً نحن الثلاثة، لأن لورا ليست مفرطة الحذر في ما ينافض اللياقة - ونتحدث عن أي شيء؛ ولكن أؤكد لك أن هناك كثيراً من الأشياء لا أشعر

بالرغبة في تكذيبها أمامها، وقد ظهرت لي اليوم أنها كثيرة الجدية.

«ستظن أنني مولع بها. آه! يا صديقي، لست مخطئاً، جنون، أليس كذلك؟ أتراني مغرياً بأمرأة حبل. من الطبيعي أن أحترمها ولا أجرب على لسها بطرف أصبعي؟ ما أنت ترى أنني لم انقلب إلى لا».

«حين وصلنا إلى «ساس - فيه» بعد صعوبات لا حصر لها (استأجرنا مقعداً للورا يحمله حمالون لأن العربات لا تصل إلى هناك) ولم يستطع الفندق أن يقدم لنا سوى غرفتين» واحدة كبيرة بسريرين والأخرى صغيرة، حيث اتفقنا أمام صاحب الفندق أن احتلها أنا - لأن لورا حسبت كأنها زوجة لأدوار، وذلك لتخفي هويتها. ولكن هي التي، كل ليلة، تشغل الغرفة الصغيرة، أما أنا فأذهب إلى غرفة أدوار. وفي كل صباح نقوم بالانتقال لنخدع الخدم. ومن حسن الحظ كانت الغرفتان متصلتين، وهذا ما سهل الأمر.

«ها قد مر علينا ستة أيام هنا، لم أكتب إليك أثناءها لأنني كنت في بادئ الأمر مختاراً وعلي أن أسوى أمري مع نفسي. بدأت فقط في التعرف إلى نفسي.

قمنا، أدوار وأنا، بجولات صغيرة في الجبال مسلية جداً ولكن والحق يقال، أن هذه البلاد لم تعجبني كثيراً؛ ولم تعجب

أدوار. فقد وجد المناظر الطبيعية مبهجة. وهي كذلك.

«أفضل شيء هنا هو الهواء الذي تتنشقه؛ هواء بكر يطهر رئتيك. ثم أننا لا نريد أن نترك لورا وحدها طويلاً، لأنه غني عن القول أنها لا تستطيع مرافقتنا. مجتمع الفندق كثير التنوع. فهنا أناس من جميع الجنسيات. وقد عاشرنا على الخصوص طيبة بولونية تقضي العطلة الصيفية هنا مع ابنتها وغلام صغير عهد به إليها. والحق أننا لم نأت إلى هنا إلا لمقابلة هذا الولد. أنه مصاب بنوع من المرض العصبي تعالجه الطبية وفقاً لطريقة جديدة تماماً. أما ما أفاد الصغير كثيراً، ولعمري أنه جذاب، فهو هيامه حتى الجنون بآية الطبيعة التي تكبره ببعض سنوات، والتي هي أجمل مخلوق رأيته في حياتي. أنها لا يتركان بعضهما البعض من الصباح حتى المساء، وهما لطيفان جداً حتى أنه ما من شخص يفكر في السخرية منها».

«لم أشتغل كثيراً ولم أنفتح كتاباً منذ رحيلي؛ ولكنني فكرت كثيراً. حديث أدوار ذو فائدة عظيمة. هو لا يكلمني كثيراً مباشراً، لأنه يتظاهر بمعاملتي سكرتير؛ ولكنني أسمعه يتحدث مع الآخرين، ومع لورا على الخصوص، حيث يجب أن يجدها عن مشاريعه. لن تستطيع تصور الفائدة التي أجنيها من ذلك. وأقول لنفسي في بعض الأيام أن علي أن أدون ملاحظات؛ ولكنني أعتقد أنني أحفظ كل شيء. وفي بعض الأيام أتمناك بولع! وأقول لنفسي أنك أنت الذي يجب أن تكون هنا؛ ولكنني

لا أستطيع أن آسف على ما حدث لي، ولا أن أتمنى تغيير شيء فيه . قل لنفسك على الأقل أنت لا أنتي عرفت أدوار بفضلك وأنتي مدین لك بسعادتي. أعتقد أنك ستجدني متغيراً حين تراني . ولكن صداقتي لك لم تنقص وستبقى أعمق ما كانت في أي وقت كان.

«الأربعاء»

«ملاحظة: رجعنا على التو من جولة ضخمة. صعود الملايين Hallalin - أدلة بعجاهم معنا. ثلاجات، مهاو، أنهيال ثلوج الخ . ثنا في ملجاً وسط الثلوج، مليء بسياح آخرين؛ لا فائدة من القول أن عيوننا لم تغمض في الليل . في العند رحيل مع الفجر... حسناً يا صديقي، لن أقول شرّاً عن سويسرا: حين يكون المرء هناك في الأعلى، وتغيب عن نظره كل المزروعات، كل النباتات، وكل ما يذكر بدخل الناس وحاجتهم، يشعر بالرغبة في الغناء، والضحكة، والبكاء أو الطيران، وضرب الرأس بالسماء أو الرکوع على الركبتين . أقبلك.

«برنار»

كان برنار عفويًا أكثر من اللزوم، طبيعياً، نقىًّا كثيراً. كان لا يعرف أوليفيه حق المعرفة ليرتاب بموجة العواطف السيئة التي أثارتها فيه الرسالة؛ نوع من تلاطم الأمواج يختلط فيه شيء من الحزن الغاصب، واليأس، والعجز. شعر أن مرركزه في قلب

برنار وأدوار معاً قد احتلس. إن صداقه صديقه انتزعت صداقته . وهناك عبارة على المخصوص في رسالة برنار قد عذبه، ولم يكن برنار ليكتبها لو أدرك كل ما يمكن أوليفيه أن يراه فيها: «في الغرفة نفسها» هكذا كان يردد . وكانت أفعى الغيرة المقينة تنبسط وتتلوى في قلبه . «إنها في غرفة واحدة!» ما الذي تخيله على الأثر؟ .. لقد امتلاً دماغه برأي دنسة لم يحاول طردها . وخصوصاً لأنه لم يكن غيوراً من أدوار ولا من برنار، بل من الاثنين معاً . كان يتخيّل الواحد والآخر بالدور أو الاثنين دفعة واحدة . تلقى الرسالة عند الظهر . «آه ! .. إذن فالأمر هكذا!..» هذا ما ظل يردد طوال ما بقي من المellar . في تلك الليلة سكته شياطين الجحيم . صباح اليوم التالي أسرع إلى روبير، وكان الكونت دو باسافان في انتظاره .

٤

يوميات أدوار

«لم أتعذر للعثور على بوريص الصغير . وبعد يوم من وصولنا سار إلى شرفة الفندق وبدأ بتطلع إلى الجبال من خلال

منظار طويل قائم على مدار، وموضوع تحت تصرف السياح. عرفته حالاً. وهناك فتاة صغيرة تكبره بقليل قد انضمت إليه. كنت أجلس قريباً منها في الصالون الذي ظلت فرحة نافذته مفتوحة بحثاً لم تفتني كلمة من حديثها. شعرت برغبة كبيرة في التحدث إليه، لكنني رأيت أن من الحكمة أن أوعد علاقتي أولاً مع أم الفتاة الصغيرة، وهي طبيبة بولونية عهد إليها بأمر بوريس وكانت تسهر عليه عن قرب. برونجا الصغيرة للديد. لعلها في الخامسة عشرة. شعرها الأشقر ضفائر كثيفة، وينحدر حتى خصرها؛ نظرتها وجرس صوتها ييدو أن ملائكين أكثر منها إنسانين. وقد نقلت حديث هذين الولدين:

«بوريس، أمي تفضل ألا تلمس المنظار. ألا تريد أن تأتي للتزه؟...»

«نعم، أريد. كلا، لا أريد «هاتان العبارتان قيلتا بنفس واحد. أما برونجا فلم تلتقط سوى الثانية. فقالت:

«لماذا؟»

- الحر شديد، البرد شديد. (وكان قد ترك المنظار).
- بوريس، كن لطيفاً. أنت تعلم أن خروجنا معاً يسر أمي. أين وضعت قبعتك؟
- فيبروسكومينوباتوف، بلاف بلاف!
- ما معنى هذا؟.

ـ لا شيء.

ـ إذن لماذا قلته؟

ـ لكني لا تفهمي.

ـ إذا كان هذا لا يعني شيئاً فلا يهمي إذا لم أفهمه.

ـ ولكن إذا كان يعني شيئاً فإنك مع ذلك لن تفهميه

ـ يتكلم المرء ليكون مفهوماً

ـ أتريددين أن تلعب بصنع كلمات لا يفهمها أحد غيرنا؟ ..

ـ حاول أولاً أن تتكلم الفرنسية جيداً.

ـ أمي تتكلم الفرنسية، والإنكليزية، والرومانية، والروسية، والتركية، والبولونية، والإيطالية، والإسبانية، ولغة البيغان والكسيكسيتو.

ـ كل هذا قيل بسرعة بنوع من الميجان الغنائي .

ـ وضحكـت بـرونـجـاه

ـ بـوريـسـ، لماـذاـ تـظـلـ تـقولـ أـشـيـاءـ لـيـسـتـ حـقـيقـيـةـ.

ـ لماـذاـ لـاـ تـصـدـقـينـ ماـأـقـولـهـ لـكـ؟ـ..ـ

ـ أـصـدـقـ ماـتـقـولـهـ لـيـ حينـ يـكـونـ صـحـيـحاـ.

ـ كـيـفـ تـعـرـفـينـ متـىـ يـكـونـ صـحـيـحاـ؟ـ أـنـاـ صـدـقـتـكـ تـمامـاـ يومـ حدـثـتـيـ عنـ المـلـائـكـةـ.ـ قـوليـ ياـ بـرونـجاـ.ـ أـتـعـقـدـدـينـ أـنـيـ سـارـاـهـاـ أـنـاـ أـيـضاـ إـذـاـ صـلـيـتـ بـحرـارـةـ؟ـ..ـ

«- يمكن أن تراها، إذا مخلت عن عاده الكذب وإدا أراد الله أن يريكمها، ولكن الله لن يربكها إذا صلّيت له لكي تراها فقط. هناك كثبر من الأشياء الحمilla جداً تراها إذا كا أقل شرآ. «- برونجا، أنت لست سريرة وهذا تستطيعين رؤية الملائكة. أما أنا فسابقى دائمًا سريراً.

- لماذا لا تحاول إلا تكونه؟ أتريد أن نذهب نحن الاثنين إلى (وهنا إشارة إلى مكان لا أعرفه) وهناك نستطيع كلانا أن نصلب لله وللعذراء ليساعدنا حتى لا تكون سريراً.

«- نعم، لا. اسمي: سناخذ عصا؛ تمسكين أنت بطرف وأنا بالآخر. وسأطبق عيني وأعدك بالآلا افتحها إلا حين نصل إلى هناك.

«وابعدا قليلاً، وحين هبطا درجات الترفة سمعت أيضآ.

«- نعم، لا. ليس هذا الطرف. انتظري حتى امسحه.

«- لماذا؟

«- لأنني لسته .

« اقتربت مني السيدة سوفونيسكا حين أمهيت فطوري حيث كنت أتناوله وحيداً وحين كنت أبحث عن وسيلة للاقتراب منها. فوجئت حين رأيتها تمسك بيدها كتابي الآخر، وسألتها، وهي تبتسم بطريقة كثيرة اللطف، إذا كانت تتحدث إلى المؤلف: ثم اندفعت على الآخر بإطراء طويل لكتابي. وقد بدا لي

حكمها، من مدبح ونقد، أذكرى من أولئك الذين اعتدت سمعاهم، ثم أن وجهة نظرها ليست أدبية. قالت لي أنها تهتم فقط بالمسائل النفسية وبما يمكن أن ينير النفس البشرية بنهار جديد. وقد أضافت، أنهم قلائل أولئك السعراء، وكتاب المسرح، والروائيون الذين يعرفون أن لا يكتفوا بعلم نفسٍ جاهز (قلت لها أنه الوحج الذي عكّنه إرضاء القراء).

« كانت والدة بورس الصغير قد عهدت به إليها طوال العطلة الصيفية . وقد حرصت على اظهار الأسباب التي ندعونى للاهتمام به - وقالت السيدة سوفرونوسكا

ـ انه ضعيف جداً . وبجمع والدته لا يفعله بشيء . كانت تتححدث عن المجيء معنا إلى « ساس - فيه » . ولكنني لم أقل ان اهتم بائزولد إلا اذا تركته نهائياً لعياني ، وإلا فلست مسؤولة عن علاجي - ثم استمرت : تصور يا سيد أنها نرب هذا الصغير في حالة من الموس المسموم الذي يساعد على تفجر اضطرابات عصبية سيئة عنده . منذ وفاة الأب كان على هذه المرأة ان تكسب عيشهما . لم تكن سوى عازفة بيانو وعلى ان اقول : عازفة لا متبل لها ؛ ولكن عزفها الكبير الدقة لا يمكن ان يرضي معظم الجمهور . عزمت على الغناء في الحفلات ، في الكازينوهات ، وان نصعد على خشبة المسرح . اخذت بورس معها الى لوجها . وأعتقد ان جو المسرح المفتعل ساهم كثيراً في اختلال توازن هذا الولد . امه نحبه كثراً ، ولكن من المستحب

الا يعيش معها أبداً.

فسألتها :

« - مم يشكو ، على وجه الدقة ؟

فأخذت تضحك :

« - أتريد معرفة اسم مرضه ؟ آه ! سستفيد كثيراً حين
أقول لك اسمه علمياً جيلاً .

« - قولي ببساطة مم يشكو ... ؟

« - يشكو من عدد من الاضطرابات الصغيرة » من تشنج
عضلي ، من الموس . وكل هذه تجعل الناس يقولون : انه ولد
عصبي ، ويجب الاعتناء به كالعادة بالراحة والهواء الطلق
والأوكسيجين . من المؤكد ان جهازاً عضوياً متيناً لا يتبع هذه
الاضطرابات ان تحدث . ولكن اذا كان المزال يساعد هذه
الاضطرابات فإنه لا يسيبها . واظن ان من الممكن ان نجد
اصلها في اول خضة للكائن ، معزوة لحادث من المهم ان
نكتشفه . ومنذ ان يدرك المريض هذا السبب يكون قد شفي
نصف شفاء . ولكن هذا السبب يتفلت من ذاكرته في الغالب .
ويقال انه يختفي في ظل المرض ، اي ابحث عنه وراء هذا
المأوى لأظهره الى النور ، أريد ان اقول في حقل الرؤية .
واعتقد ان النظر الثاقب ينظف الضمير كما يظهر شعاع النور الماء
الأسن . » .

« رویت لسوفرونيتسكا الحديث الذي سمعته بالأمس والذي

استنتجت منه ان بوريس لم يشف اطلاقاً بعد .
« . والسبب ايضاً اني بعيدة عن معرفة كل ما أنا بحاجة
لمعرفته من ماضي بوريس ، ولم أبدأ علاجي إلا من وقت
قريب .

» - من ماذَا يتَّالِفُ هذَا العلاج ؟

« - أوه ! ببساطة ، لأن أدفعه الى الكلام . كل يوم أقضي
بجانبه ساعة أو ساعتين . وواجه اليه الاستئلة ولكن بشكل قليل
جداً . والمهم هو ان اربع ثقته . اعرف الان كثيراً من الأشياء
وأستشف أشياء اخرى ، ولكن الصغير لا يزال حذراً . انه
خجل ؛ فإذا ألححت بسرعة وبقوة أكثر من اللازم ، إذا أردت
أن أغتصب اعترافه فلن أحصل على ما ابغضه » . وهو استسلامه
الكامل لي . بل سيحصل العكس . سيعاند . ما دمت لم
أتوصل الى الانتصار على تحفظه ، على حياته » .

« هذا « التفتيش » البوليسي الذي كانت تحدثني عنه بدا لي
اعتدائياً الى حد اني بذلت جهدي كي لا أبدلي حركة
اعراض . ولكن فضولي كان أقوى من استنكاري فسألتها :
» - هل تقصددين انك تتوقعين انك تتوقعن من الصغير اعترافات دنسة ؟

« - دنسة ؟ ليس هناك من دنس في معاينة جسم المريض .
انا بحاجة لمعرفة كل شيء وعلى الخصوص معرفة ما يُبذل الكثير
من الاهتمام في إخفائه . يجب ان اصل ببوريس الى الاعتراف
الكامل . وقبل هذا لا استطيع شفاءه .

« - انت تعتقدين اذاً بوجود اعترافات بحسب ان يفوهها لك ؟
هل انت متأكدة » وعذراً ، من انك لا توحش اليه ما تريدين
منه الاقرار به ؟

« - هذا الشاغل بحسب الا نغرب عنى وهو الذي يبلي الكثير
من البطء . رأيت فصاعة تعمي حقى يهمسون ، دون ان
يريدوا ، لولد بشهادة مخالقة . والولد ، تحت ضغط
الاسنجبواب ، يكذب بحسن نية كاملة ، ويتوافق على جميع
السيئات الخيالية ، ودورى هو ان ادع هذا الاقرار يتأبى من
لقاءه دون ان اوحي اليه بشئ . وهذا بمحاج الى صبر غير
عادى .

« - اعتقاد ان قيمة المنهج هنا من قيمة مطبق المنهج .

« - لم اجرؤ على قول ذلك . أؤكد لك اننا نصل بعد وقت
من التطبيق العملى الى مهارة خارقه للعادة ، الى نوع من
التکهن ، من الحدس اذا كنت تفضل ذلك . وبالاجمال يمكن
السير احياناً وراء آثار خاطئة . واللهم هو عدم الاصرار على
هذا . اسمع : اتعرف كيف نبدأ كل احاديثنا ؟ ببدأ بوريس بأن
يفضى على ما حَلَمَ به اثناء الليل .

« - من قال لك انه لا مختلق ؟

« - واذا اختلف ؟ كل اخلاق يصدر عن خليله مريضة فهو
كافش للسر » .

« وسكتت بضع لحظات ، ثم قالت .

« - اخلاق ، خيلة مريضة ... كلا ! .. . ليس هكذا . ان الكلمات تخوننا وبوريس يحمل امامي بصوت مرتفع . يرضى كل صاح ان يظل طوال ساعة في هذه الحالة من النوم النصفي حيث الصور التي تعرض علينا تتقلب من مراقبة عقلنا . اها تجتمع وتشترك ليس وفقاً للمسطق العادي » بل وفقاً لموافقات غير منظره ، وخصوصاً فإنها تلبي تطلبأ داخلياً غامضأ هو الذي يهمنا أن نكشفه ؛ وهذه المذيانات من الولد تعلمني ما لا استطيع ان اتعلم من اذكي تخليل صادر عن اكثر الناس وعيأ . هناك كثير من الأشياء تتقلب من العقل . اما من يطبق عليها العقل فقط ، ليفهم الحياة ، فهو شيء من يزعم انه يمسك اللهيب بملقط . لا يوجد امامه سوى قطعة من الخشب المنفحم ، والتي تنقطع حالاً عن الاشتعال » .

توقفت من جديد وبدأت تتصفح كتابي ، وهتفت :

« - ما أقلّ ما تقدمتم في الدخول الى النفس البشرية !

« ثم أضافت فجأة وهي نضحك :

« - أوه ! انا لا اتحدث عنك بوجه خاص ! وحين اقول انتم » اعني : الروائيين ان معظم اشخاصكم تبدو وكأنه مقامة على أوتاد ؛ ليس لها من أساس ولا أقبية . اعتقاد صدق ان الحقيقة موجودة بشكل اكثر عند الشعراء : ان كل ما لم

يخلق إلا بواسطة الذكاء وحده فهو خاطيء . ولكنني اتكلم هنا بما لا يعنيني . . . أتدرى ما الذي يحيرني في بوريس ؟ هو ابني اظنه متحللاً بطهارة كبيرة .

« - لماذا تقولين ان هذا يحيرك ؟

« - لأنني حينئذ لا اعرف اين ابحث عن مصدر الشر . في تسعة مرات من عشر يوجد سر كبير مخفي في اصل أي اختلال مماثل .

« فقلت :

« - من الممكن وجوده عند كل منا . ولكنه لا يجعلنا كلنا مرضى ، والحمد لله .

« في هذه اللحظة نهضت السيدة سوفروننيسكا . فقد رأت من خلال النافذة ان برونجا قد مرت . وقالت وهي تريني إياها :

« - انظر ، هذا هو الطبيب الحقيقي لبوريس ، اتها تبحث عني . يجب ان اتركك . ولكنني سأعود لرؤيتك ، أليس كذلك ؟ .

« ادركت بالنتيجة ان ما تأخذه سوفروننيسكا على الرواية هو اتها لا تقدم اليها فائدة ما ، ولكن هنا ، بعض اسباب فنية . بعض اسباب عليا فاتتها ، اسباب جعلتني اعتقد انه لا يمكن صنع روائي جيد من عالم جيد في الطبيعتيات .

« قدمت لورا الى السيدة سوفروننيسكا . بدتنا اتها تفاهمنا

وكنت سعيداً بذلك . تضاءل همي حين أتفرد بنفسي لأنني اعلم انها تثيران معاً . آسف لأن بيرنار لم يجد هنا أي رفيق من سنه ؛ ولكن امتحانه الذي يستعد له يشغله من ناحيته ساعات في النهار . لقد استطعت العودة الى روائي » .

٣

رغم المظهر الأول ورغم ان كلاً منها « يضع في الأمر شيئاً من نفسه » ، كما يقال ، فإن الحالة لم تكن سوى نصف حسنة بين الحال ادوار وبرنار . ولو رأياً لم تكن راضية . وكيف يمكن ان تكون ؟ لقد اجبرتها الظروف على القيام بدور لم تخلق له ؛ كانت فضيلتها تضليلها . كانت في حاجة الى الاعتماد على الاعراف والتقاليد ، كذلك الزوجات المحبات الطيبات اللوالي هن أولى الزوجات ، وكانت تشعر انها بدون قوة منذ ان انتزعت من اطرافها . وقد بدا لها موقفها حيال ادوار اكثر زيفاً يوماً بعد يوم . وهذا ما كان يعذبها بوجه خاص . ذلك لأنها تعيش على حساب هذا المغيث ، او بصورة افضل : لأنها لا تعطيه شيئاً مقابل ذلك . وبدقه اكثر ايضاً : لأن ادوار لم يطلب منها شيئاً مقابل ذلك ، مع انها تشعر انها مستعدة لتحمله كل شيء . يقول تاسيت من خلال مونتاني : « لا تكون الحسنات لطيفة إلا بقدر

ما يمكن وفاؤها». وما من شك في ان هدا غير صحيح إلا للنفوس النبيلة. ولو رأينا بالتأكيد كانت من هؤلاء. ومع أنها كانت تريد ان تعطي فإنها هي التي كانت تأخذ دون انقطاع. وهذا ما أثارها ضد ادوار. وفضلاً عن ذلك ، فإنها حين تعود بذاكرتها الى الماضي يبدو لها ان ادوار قد خدعها بايقاظه فيها حباً لا تزال تشعر باتفاقه ، ثم بتملصه من هذا الحب وتركه دون استعمال . لم يكن هذا هو السر المسبب لضلالها ، وزواجها من دوفييه الذي كانت قد تخلت عنه والذى قادها ادوار اليه ، ثم تركها تذهب ، بعد ذلك ، وتتعرض لإغراءات الربيع؟ كانت تبحث عن ادوار بين ذراعي فنسان ، وقد اضطررت الى الاعتراف بذلك . لم تحاول ان تشرح سبب هذا البرود من حبيها فقد جعلت نفسها مسؤولة عنه ، وقالت لنفسها انه كان في إمكانها التغلب عليه لو كانت اجمل ، او اجراً ، ولم تتوصل الى ان تبغضه ، فقد اهتمت نفسها ، وقللت من قيمتها ، وانكرت على نفسها كل قيمة ، وألغت سبب وجودها ، ولم تعرف نفسها بأية فضيلة .

لنصف ايضاً ان حياة المخيمات هذه ، والتي فرضها ترتيب الغرف ، والتي يمكن ان تبدو مسرة لرفيقها ، تغفيظ فيها الحياة ، ولم تستشف أي خرج من هذا الوضع ، علىَّا بأن استمراره صعب .

ولم تكن لورا تستمد القليل من التعزية والفرح إلا

باختلاطها حيال برinar واجبات جديدة ، واجبات العرابة أو الأخت الكبرى كانت حساسة نجاه الاحترام الفائق الذي كرسه لها هذا اليافع المليء باللطف ؛ وتلك العبادة التي كانت موضوعاً لها أبقتها على محضر هذا الاحتصار لنفسها ، هذا الاشمئizar الذي يمكن ان يصل الكائنات الأكثر ترددًا الى حلول متطرفه . كان برinar في كل صباح ، حين لا تجره نزهه في الجبل فبل العجر (لأنه كان بحب النهوض مبكرًا) يفضي بجانبها ساعتين كاملتين في قراءة الانكليزية والامتحان الذي كان عليه ان يقدمه في تشرين الأول كان حجمه ملائمة .

لا يمكن القول حقيقة أن وظيفته كسكرتير تأخذ الكثير من وقته . فقد كانت هذه الوظيفة غامضة التحديد . وحين فبل برinar القيام بأعبائها تخيل نفسه حالسًا أمام طاولة السنغل ، كتاباً ما يملأه عليه أدوار ، واصعاً أنفه في المخطوطات . أن أدوار لم يمل شيئاً ، والمخطوطات ، إن كانت ملوجودة ، فقد ظلت سجنـة الحقيقة ؛ كان برinar حرًا في كل ساعة من النهار؛ ولكن ما أنه لا يمكن إلا لأدوار أن يستفيد من حبة لا تطلب إلا أن تستعمل ، فإن برinar لم يعر عطلته الكثير من الاهتمام وهو لم يربح تلك الحياة العربية إلا بفضل سخاء أدوار . لقد كان عازماً عزماً أكيداً على إلا تعوقه الأوهام . كان يؤمن ، ولا أجروه على القول بالعنایة الإلهية ، بل بطالعه على الأقل . وأن بعضـاً من هذه السعادة مدين به لهذا الطالع كالمواء للرئين اللذين تتشدقانه ؟

وكان برنار هو موزع هذا الهواء ويحمل اللقب الذي يحمله الخطيب المقدس حسب قول بوسويه، لقب الحكمة الإلهية. وفضلاً عن ذلك فإن النظام الحاصل حاله برنار وقتياً، معتقداً تمام الاعتقاد أن بامكانه الاستعفاء منه ذات يوم، حين يسلك الثروة التي كان يزن وفرتها في قلبه. أما ما يثير غيظه فهو أن أدوار لم يستعن ببعض المواهب التي يشعر بها في نفسه والتي لم يجد لها عند أدوار. «هو لا يعرف أن يستفيد مني»، هكذا فكر برنار الذي ابتلع حبه لذاته، وأضاف بتعقل عل الأثر: «خسارة!».

ولكن، من أين يمكن أن يحصل الضيق بين أدوار وبرنار؟ فبرنار يبدو لي أنه من ذلك النوع من النفوس التي تجد اطمئناناً في المعارضة. لم يكن يتحمل تسلط أدوار عليه، ومع اضطراره للخضوع للتسلط فقد كان يعاند. وأدوار الذي لم يفكر قط في اخضاعه كان يحتاج ويزن دورياً حين يشعر أنه حررون، مستعد للدفاع عن نفسه دون انقطاع، أو على الأقل، ليحمي نفسه. لقد وصل إلى أن يتساءل أن لم يكن قد أخطأ باصطدامه هذين الكاثرين اللذين لم يجتمعهما، كما يبدو له، إلا ليجعلهما يتحالفان ضده. ولما كان عاجزاً عن التغلغل إلى عواطف لورا الخفية فقد حل انكماسها وانطواءها على محمل البرود. كان متضايقاً من التطلع إليها بوضوح وهذا ما فهمته لورا؛ بنوع أن حبها المحترم لم يكن يستعمل قوته إلا في الاختباء وفي الصمت.

كانت ساعة تناول الشاي تجمع الثلاثة عادة في الغرفة الكبرى، وكان يحدث في الغالب أن تتضم إليهم السيدة سوفرونيسكا بناء على دعوتها وخصوصاً في الأيام التي يذهب فيها بوريس وبرونجا للتزهية. كانت ترك لها الحرية رغم صغر سنها؛ وكانت واثقة تمام الثقة ببرونجا وتعرف أنها شديدة الحيطة، وخصوصاً مع بوريس الذي كان يبدو مطبيعاً لها بشكل خاص. كانت البلاد آمنة، لأن المغامرة في الجبل لم تكن واردة عندهما، حتى ولا تسلق الصخور القرية من الفندق. وذات يوم، وقد نال الولدان إذنَا بالذهاب حتى سفح الثلاجة شرط ألا يتبعدا عن الطريق، فإن السيدة سوفرونيسكا كانت مدعوة لتناول الشاي، وقد شجعها برinar ولورا فخاطرت إلى حد أنها جرئت على التوسل لأدوار أن يحدثهم عن روايته المقلبة، إذا كان هذا لا يسبب له أي ازعاج.

ـ أبداً، ولكنني لا أستطيع أن أرويها لكم.

ومع ذلك فقد بدا أنه حتى تقريباً حين سأله لورا (سؤال أحق بالتأكيد) «ماذا يشبه هذا الكتاب».

ـ لا يشبه شيئاً.

ثم قال على الأثر، وكأنه لم يسمع سوى هذا التحرير:ـ لماذا أعيد عمل ما عمله غيري قبلأ، أو ما عملته قبلأ أنا لنفسي؟ أو ما يمكن لآخرين غيري أن يعملوه؟

لم يكن حريراً بأدوار أن يلفظ هذا الكلام الذي يُشعر بعدم اللياقة، والافراط، والعبث أن هذه الأقوال بدت له غير لائقة، ومستحيلة؛ أو على الأقل كان يخشى أن يحكم عليها برنار أنها هكذا.

كان أدوار سريع الغيظ. وما أن يحدثه أحد عن عمله، أو يدفعه إلى الكلام عنه، حتى يفقد صوابه.

كان يختقر غطرسة المؤلفين المعتادة احتقاراً تماماً ويلوم نفسه على غطرسته جهد استطاعته؛ ولكنه يبحث بطيبة خاطر عن نجدة لتواضعه في اعتبار الغير له؛ هذا الاعتبار أوشك أن يفقده، والتواضع أفلس على الأثر. كانت مكانته في قلب برنار تهمه جداً، فهل لأجل اكتساب هذه المكانة جعل فرسه تضرب برجليها أمامه؟ أن هذه أفضل وسيلة لفقد هذه المكانة، وهذا ما يشعر أدوار جيداً ويقوله لنفسه ويردده . ولكن بالرغم من كل عزم وخصوصاً أمام برنار، يتصرف بغير ما يريد ويتكلم بطريقة يحكم عليها حالاً أنها خرقاء (وهي بالحقيقة كذلك) .

وأخذ أدوار ينكلم كالخطيب:

- هل لأن الرواية تبقى هي الأكثر حرية، الأكثر تفلاتاً من القانون بين جميع الأنواع الأدبية...، هل لأجل هذا تقريباً، وبسبب الخوف من هذه الحرية نفسها (لأن الفنانين الذين هم أكثر من يسعى وراء الحرية، هم في الغالب الأكثر هلعاً عندما

يحصلون عليها) تثبت الرواية دائمًا بالواقع هذا التثبيت القلق؟ أنا لا أتكلم فقط عن الرواية الفرنسية. أن الرواية الروسية، مثلها مثل الإنكليزية، منها كانت متعلقة من الإكراه فإنها تستبعد للتقليد. والتقدم الوحيد الذي تواجهه هو زيادة اقتراحها مما هو طبيعي. أن الرواية لم تعرف بعد ذلك «التأكل الرهيب للنطاقات» الذي تحدث عنه نيتše، وذلك الإبعاد الاختياري للحياة، اللذين أثارا إنشاء الجيد في مؤلفات كتاب الدراما الإغريق مثلاً أو تراجيديات القرن السابع عشر الفرنسي. هل تعرفون ما هو أكثر كمالاً وما هو أنساني أكثر عمقاً من هذه المؤلفات؟ ولكن، بالضبط، أنها ليست إنسانية إلا بعمق؛ فهذه الأعمال لا تدعى التظاهر بالإنسانية، ولا إظهارها على الأقل إظهارها واقعياً. أنها تظل عملاً فنياً.

كان أدوار قد نهض، ويدافع الخوف من أن يبدو بأنه يلقي درساً، سكب الشاي وهو يتكلم، ثم سار جيئةً وذهاباً، ثم عصر ليمونة في قدره ولكنه مع ذلك تابع :

- لأن بليزاك كان عبرياً، ولأن كل عبري يبدو أنه يحمل إلى فيه حلاً نهائياً مانعاً فقد صدر أمر أن تكون خاصية الرواية في «منافسة الأحوال الشخصية». لقد بني بليزاك مؤلفاته، ولكنه لم يزعم قط أنه وضع قوانين للرواية؛ ومقالة عن ستاندال يظهر ذلك جيداً. منافسة الأحوال الشخصية! كأنه لم يكن يوجد قبله على الأرض ما يكفي من السعاديين والناهدين! أي عمل لي في

الأحوال الشخصية! فالحالة هي أنا، الفنان! ومؤلفاتي سواء كانت مدنية أم لا، تنوى إلا تنافس شيئاً.

وحيي أدوار بشكل مفتعل قليلاً، فعاد إلى الجلوس. تظاهر بعدم النظر إلى برنار، ولكنه كان يتوجه إليه بالكلام. لو كان وحيداً معه لما عرف أن يقول شيئاً؛ كان معترفاً بفضل هاتين المرأةتين اللتين دفعتهما إلى الكلام.

- يبدو لي أحياناً في الأدب أنني لا أعجب بشيء أكثر من النقاش عند راسين مثلاً بين ميتريدات وأولاده؛ حيث يُعرف تمام المعرفة أنه لا يمكن لأب وأولاده أن يتحدثوا بهذا الشكل، وحيث مع ذلك (وأريد أن أقول: بمقدار) جميع الآباء وبجميع الأبناء يمكنهم التعرف إلى أنفسهم. وبتحديد المكان والتخصيص تكون قد بلجأنا إلى الحصر. ليس هناك حقيقة سيكولوجية إلا خاصة، وهذا صحيح؛ ولكن ليس هناك من فن إلا وهو عام. كل المشكلة هي هنا إظهار العام بواسطة الخاص؛ جعل العام يظهر بواسطة الخاص. أتسمحون أن أولع غليوني؟

فقالت سوفرونيسكا:

- أولع، أولع.

- حسناً، أريد رواية تكون في الوقت نفسه حقيقة وبعيدة عن الواقع. خاصة وعامة معاً، إنسانية و مختلفة «تل» *Athalié*، مثل *Tartuffe*، مثل *Cinna* «سيينا».

- ... موضوع هذه الرواية؟

فأجاب أدوار بخشنونه:

- ليس لها موضوع، وهذا أكثر ما يثير الدهشة. أن روائي لا موضوع لها. نعم، أعلم جيداً، أن ما أقوله هنا يبدو من الغباء. لنفرض، إذا فضلت، أنه ليس لها موضوع واحد... «شريحة من الحياة» كما قالت المدرسة الطبيعية. أكبر عيب لهذه المدرسة هو أنها تقطع شريحتها دائمًا في الاتجاه نفسه، في اتجاه الزمن، بالطفل. لماذا لا يكون بالعرض؟ أو بالعمق؟ أما أنا فلا أريد أن أقطع أبداً. افهموني: أريد إدخال كل شيء في هذه الرواية. ما من ضربة مقص لايقف مادتها، هنا كما هناك. منذ أكثر من سنة وأنا أشتغل فيها ولم يحدث لي شيء إلا سكته فيها وأردت أن أدخله فيها: ما أرى، ما أعرف وكل ما تعلمني حياة الآخرين وحياتي.

- وهل صيغ كل هذا صياغة إنشائية؟

قالت سوفرونيسكا ذلك متظاهرة بانتباه شديد، ولكن أيضاً بعض التهكم. ولم تستطع لورا أن تخبس ابتسامة. أما أدوار فقد هز كتفيه هزاً خفيفاً وتابع:

- ليس هذا نفسه ما أريد عمله. أن ما أريد عمله هو أن أقدم الواقع من ناحية، ومن ناحية أخرى أقدم ذلك الجهد المبذول لتشذيبه. وقد حدثكم عنه الآن.

فقالت لورا وهي لا تستطيع إخفاء اتسامتها، وقد بدت
كضاحكة حقيقة:

- يا صديقي المسكين، ستميت قراءك من الصجر.

- أبداً. للحصول على هذا الجهد، بابعني، سأختلق
شخصية روائي أضعه في دور رئيسي، أما موضوع هذا
الكتاب، إذا أردت، فهو الصراع بين ما يعدمه الواقع لهذا
الروائي وما يريد هو أن يفعل به.

فقالت سوفروننيسكا بأدب، وكانت ضاحكة لورا على وشك
الوصول إليها:

- نعم، نعم، يمكن هذا أن يكون مدهشاً، ولكنك تعلم
أن تقديك لرجال فكر في الروايات يشكل خطراً. أنهم يقتلون
الجمهور؛ ولا يمكن أن يجعلهم يقولون سوى حقائق، وبنقلون
التجريد إلى كل من يلمسهم.

وقالت لورا:

- ثم أني أرى ما سوف يحدث. لن تستطيع أن تفعل شيئاً
 سوى أن ترسم نفسك في هذا الروائي.

كانت قد اخذت منذ قليل، وهي تكلم أدوار، لهجة
سانخرة أدهشتها هي نفسها وحيرت أدوار بقدار ذلك البريق
الذي فاجأه في نظرات برنار الخبيثة. وقال أدوار معترضاً:

- ولكن لا سأكون حريصاً على أن أجعله غير مستحب.

وكانت لورا قد سارت بعيداً فقالت وهي تتفجر بضحكه
صربيحة جرت وراءها ضحكات الثلاثة الآخرين:
ـ وأنه ل كذلك. سيعرف الناس عليك فيه
وسائل سوفروننيسكا محاولة اسعادة جدتها:
ـ وهل هناك خطط موضوع لهذا الكتاب؟
ـ كلا بالطبع.
ـ كيف! كلا بالطبع?
ـ اعلمي أن خططاً لكناب من هذا النوع هو غير مقبول
أساساً. كل شيء سيصبح مزوراً فيه إذا صممت شيئاً جاهزاً.
أني انتظر أن يلبِّي الواقع علي.
ـ ولكنني حسبت أنك تريد الإبعاد عن الواقع.
ـ أن روائي سيريد الإبعاد عنه، ولكنني ساعيده إليه دون
انقطاع. وحقيقة القول، سيكون الموضوع هنا: الصراع بين
الحوادث التي يعرضها الواقع والواقع المثالي.
كان عدم المنطق ظاهراً في حديثه يقفز إلى العينين بشكل
متعجب. وقد ظهر بوضوح أن أدوار يؤوي تحت ججمته مطلعين
لا يمكن التوفيق بينهما، وأنه يبلِّي نفسه في محاولة هذا التوفيق.
وسائل سوفروننيسكا بتهذيب:
ـ وهل تقدمت فيه كثيراً.
ـ هذا يتوقف على ما نقصدينه بذلك. حقيقة القول أني لم

أكتب سطراً واحداً من الكتاب بعد. ولكني اشتغلت فيه كثيراً من قبل. أفكّر فيه كل يوم ودون انقطاع. اشتغل به بطريقة غريبة جداً سأقولها لك: أني أسجل كل يوم على دفتر صغير حالة هذه الرواية في نفسي؛ نعم أنها نوع من اليوميات أدونها، كان يمكن أن يدونوا يوميات ولد. يعني أنه بدلاً من الاكتفاء بحل كل صعوبة وفقاً لخدوتها (وكل عمل فني ليس إلا مجموع أو نتاج حلول لكمية من الصعوبات الصغيرة المتتابعة) فأني أعرض كلاً من هذه الصعوبات وأدرسها. وإذا أردت، فإن هذا الدفتر يحتوي على تقدّم مستمر لروائيي؛ أو للرواية بوجه عام. فكّري في الفائدة التي كان من الممكن أن نجنيها من دفتر تماثل وضعه ديكترز أو بلزا克؛ لو حصلنا على يوميات «التربية العاطفية» أو «الأخوة كرامازوف»! تاريخ الأثر، تاريخ المخاض به سيكون هذا مؤثراً... شائقاً أكثر من الأثر نفسه...

كان أدوار يأمل، مضطرباً، أن يُطلب منه قراءة هذه الملاحظات. لكن أحداً من الثلاثة الآخرين لم يظهر أي رغبة. وبدلًا من هذا قالت لورا بربنة كثيبة:

- يا صديقي المسكين، أرى أنك لن تكتب هذه الرواية أبداً.

فصرخ أدوار باندفاع شديد:

- لا بأس، أريد أن أقول شيئاً. الأمر عندي سوء. نعم، إذا كنت لم تتوصل إلى كتابة هذا الكتاب فلأن تاريخ الكتاب قد

شافي أكثر من الكتاب نفسه. ليأخذ التاريخ مكانه وسيكون هذا حسناً.

- لا تخشى ، إذا تركت الواقع ، أن تضل في مناطق صعبة الإدراك بشكل ميت ، وأن تعمل رواية لا من كائنات حية بل من أفكار؟

فصرخ أدوار بشدة مضاغعة:

- وإذا حدث هذا! هل علينا أن نقضي على الرواية المصنوعة من أفكار بسبب بلهاء ضلوا السبيل إليها؟ ألم لم يقدموا لنا حتى الآن إلا روايات مقيدة ملتزمة بدلاً من روايات الأفكار. ولكن ليس هذا هو القصدود، وتعزفون جيداً. الأفكار...، الأفكار، واعترف لكم أنها تهمي أكثر من الناس، تهمي فوق كل شيء. أنها تعيش، أنها تقاتل» وتحضر كالناس. ومن الطبيعي أنه يمكن القول أننا لا نعرفها إلا بواسطة الناس كما أنها لا نعرف الريح إلا بواسطة القصب الذي تحنيه؛ ولكن، مع ذلك، فإن الريح تهمنا أكثر من القصب. فقال برنار مجازفاً:

- الريح موجودة في معزل عن القصب.

جعلت مداخلته أدوار يقفز، وكان يتظاهر بذلك منذ وقت طويل.

- نعم، أعلم ذلك: الأفكار لا توجد إلا بواسطة الناس.
ولكن هنا ما يؤثر في النفس: أنها تعيش على حسابهم.

كان برنار قد أصغى إلى كل هذا بانتباه مستمر؛ كان مليئاً
بالإرتياح وكاد أدوار يبدو له كصاحب أوهام؛ ومع ذلك، ففي
اللحظات الأخيرة هزته فصاحة أدوار؛ وشعر تحت نسمات هذه
الفصاحة أن تفكيره انحني ولكن، كما قال لنفسه، كقصبة بعد
مرور الريح، تعود حالاً وتستقيم وعاد بالذاكرة إلى ما كانوا
يعلمونهم في المدرسة: أن الأهواء تقود الناس وليس الأفكار.
وكان أدوار قد تابع:

- إن ما أريد عمله، أفهموني، هو شيء يكون مثل
«السلسل الموسيقي» ولا أفهم لماذا يكون الممكן في الموسيقى
مستحيلاً في الأدب ...

وعلى هذا أجبت سوفرونيسكا بسرعة أن الموسيقى فن
رياضي وأنها من فرط عدم أكتراها إلا بالرقم، ومن فرط الغاء
المؤثر والإنساني منها، بلغت، على يد باخ، حدود التحفة
التجريدية في الضجر، وأصبحت نوعاً من الهيكل الفلكي لا
يمكن أن يصل إليه إلا القلائل العاملون بسره. واعتراض أدوار
أنه وجد هذا الهيكل يستحق الإعجاب وأنه يرى فيه دروة عمل
باخ وقمه.

وأضافت لورا:

- وبعد هذا شفت الموسيقى من «الفوغ» (Fugue) لوقت

طويل. فالتأثير الإنساني راح يبحث عن مساكن أخرى له بعدها
أو صدت دونه مساكن الموسيقى.

وضاع النقاش في المماحكات أما برنار الذي احتفظ
بصيغته حتى هذه اللحظة، والذي بدأ يفقد صبره على مقدمه،
فإنه في النهاية لم يعد يستطيع الصبر؛ وباحترام مفرط، مبالغ
فيه، كل مرة يوجه فيها الكلام لأدوار، ولكن بذلك النوع من
المزاح الذي يبدو أنه يجعل من هذا الاحترام لعبة، قال:

- عفواً يا سيدي لمعرفتي عنوان كتابك ما دامت هذه المعرفة
ناتجة عن فضول، ولكنك أردت، تلطفاً منك، كما اعتقاد أن
تساحني عليه وبدائي هذا العنوان يعلن عن قصة.

فقالت لورا:

- أوه! قل لنا هذا العنوان.

- يا صديقتي العزيزة، إذا أردت... ولكنني أدرك أن م
الممكن أن أبدلها. أخشى أن يكون فيه شيءٌ من المخداع. هيا،
قل لهم يا برنار:

فقال برنار:

- أتسمح؟ «مزيفو النقود» ولكن جاء دورك الآن، قل
لنا: من هم مزيفو النقود هؤلاء؟

فقال أدوار:

- ماذا؟ لا أعرف عنهم شيئاً.

وتطلع برنار ولورا بعضهما البعض ثم تطلعا إلى سوفرونيسكا. وسمعت زفة طويلة؛ وأعتقد أنها صادرة عن لورا.

الحقيقة أن أدوار كان يفكر في بعض زملائه في باديء الأمر حين فكر بـ «مزيفو النقود»، وخصوصاً الكونت دو باسافان. ولكن التخصيص قد توسيع بشكل ملحوظ؛ فقد كان أبطاله مرة كهنة ومرة ماسونيين، وفقاً لمبوب ريح العقل من روما أو من غيرها. ولو كان ترك دماغه على منحدره لأنحدر بسرعة إلى الغموض حيث يتمرغ على هواه. كانت أفكار تبدل النقد، ونقص قيمته، وتضيئه تجاه كتابه شيئاً فشيئاً، كنظريات الملابس في «سارتور ريزارتوس» لكارليل وتعصب مكان الأشخاص. وأدوار الذي لا يستطيع التحدث عن هذا صمت بالشكل الأكثر حماقاً، وصمته الذي بدا وكأنه إقرار بالقحط بدأ يقلق الثلاثة الآخرين.

سؤالأخيراً:

- هل حدث لكم أن أسكتكم بأيديكم قطعة نقود زائفة؟

فقال برنار:

- نعم.

ولكن كلمة «لا» التي صدرت عن المتأتين غطت صوته.

- إذن، تخيلوا قطعة ذهبية عشرة فرنكات تكون زائفة. هي في الواقع لا تساوي شيئاً. وستساوي عشرة فرنكات ما دامت لم

تُعرف أنها زائفة. فلو سرت من هذه الفكرة التي . . .

فقط اطلعه ببرنار متراجلاً:

- ولكن لماذا السير من فكرة؟ فلو سرت من حادث معروض جيداً لأنّ الفكرة وسكتته من تلقاءها. لو كنت كتبت: «مزيفو النقود» لبدأت بتقديم قطعة النقود الزائفة، تلك القطعة الصغيرة التي تحدثت عنها الآن . . . وهذه هي .
قال ذلك وانحرج من جيشه قطعة صغيرة من فئة العشرة فرنكات وألقاها على الطاولة.

- اسمعوا كيف ترن جيداً. صوت الآخريات نفسه تقريباً.
يمكن أن يرسم أنها من ذهب . لقد خُدعت بها هذا الصباح كما خُدعاً البقال الذي أوصلها إلى ، هو نفسه قال لي . اعتقاد أن وزنها ليس كاملاً ولكن بريقها بريق قطعة حقيقة وربما صوتها أيضاً . غشاوة من ذهب بحيث تساوي أكثر من فلسرين بقليل؛ ولكنها من بلور . ستتصبح شفافة مع الاستعمال . كلا، لا تحكمها؛ فقد تفسدها . يكاد هذا الفساد يُرى من قفاها .
كان أدوار قد التقطها وتأملها بفضول منتبه .

- ولكن من أخذها البقال؟

- لا يعرف . يعتقد أنها في درجه منذ عشرة أيام . أراد ايلهوا بإعطائها إياي ليرى إذا كنت أخدع بها . ولعمري فـ قبلتها ولكن بما أنه رجل فاضل، فقد كشف لي الخدعة، ثم

تركها لي مقابل خمسة فرنكات. كان يريد الاحتفاظ بها ليربها لمن يدعوهם «الهواة». وقد اعتقدت أن أفضل من يمتلكها هو مؤلف «مزيفو النفرد»؛ اخذتها لأريك. إليها. أما الآن وقد فحصتها فأعدها إلى! أرى، مع الأسف، أن الواقع لا يشوقك كثيراً.

فقال أدوار:

- بلى، ولكنه يضايقني.

فقال برnar:

- مؤسف.

يوميات أدوار

«(هذا المساء نفسه). - سألتني سوفرونيسكا ولورا وبرنار عن روايتي. لماذا استسلمت إلى الكلام؟ لم أقل سوى حماقات قوطةت لحسن الحظ، برجوع الولدين. الولدان محمران، لاهثان كأنهما ركضا كثيراً. وما أن دخلت برونجا حتى أسرعت إلى أمها؛ اعتقدت أنها ستتحبب. وصرخت:

«- ماما، وبخي بوريـس قليلاً؛ كان يريد أن ينام عاريأ على الثلـج.

«تطلعت سوفرونيسكا إلى بوريس الذي كان واقفاً على عتبة الباب. الجبهة منخفضة مع نظر تابت يبدو كأنه مشحون بالبغض، تظاهرت بأنها لم تلحظ ما يلوح على وجه هذا الولد من تعبر غير عادي، ولكنها قالت بهدوء يستحق الإعجاب:

«ـ اسمع يا بوريس. يجب ألا تفعل ذلك في المساء. إذا شئت فستذهب غداً صباحاً إلى هناك. وسنجرب أولاً أن تذهب إلى هناك حافياً...»

«وداعب جبهة ابنتها بلطف؛ ولكن هذه سقطت فجأة على الأرض وأخذت تتنقلب متسلحة أصابانا الكثير من القلق. أخذتها سوفرونيسكا ومددتها على أريكة. وكان بوريس يتطلع إلى هذا المشهد، دون أن يتحرك، بعينين واسعتين بلهاوين.

«أعتقد أن أساليب سوفرونيسكا في التربية ممتازة نظرياً. ولكن لعلها خُدعت في ما يتعلق بمقاومة هذين الولدين.

ـ أنت تتصرفين كما لو أن الخير يجب أن يتصر دائياً على الشر.

ـ هكذا قلت لها بعد حين حين وجدت نفسي وحيداً معها. (كنت أذهب بعد الطعام للسؤال عن أحوال برونجا التي لم تكن تستطيع التزول لتناول الطعام). فالت لي:

ـ فعلاً. أعتقد اعتقاداً ثابتاً أن الخير يجب أن يتصر على الشر ولي بذلك ملء الثقة.

« - ومع ذلك ، فمن الممكن ان تنخدعي إذا أفرطت بهذه الثقة .

« - كل مرة انخدع فيها فإن هذا الخداع ينشأ لأن ثقتي لم تكن شديدة بما فيه الكفاية . واليوم ، حين تركت هذين الولدين يخرجان ، بدا علي شيء من القلق ؛ وقد سعرا بذلك ؛ وكل ما تبقى جاء من هنا .

« وأخذت يدي :

« - لا يبدو عليك أنك تؤمن بفضيلة اليقين . . . أريد القول بقوته العاملة .

« فقلت ضاحكاً :

« - فعلًا ، فأنا لست صوفياً .

« فصرخت باندفاع معجب :

« - لا بأس . أعتقد بكل كياني أنه ، بلا النصف ، لا يحدث هنا على الأرض كبير ، شيء جميل .

« اكتشاف اسم فكتور ستروفيلو في سجل السباح . لقد اضطر إلى ترك «ساس - فيه» ، وفقاً لمعلومات صاحب الفندق ، قبل يوم وصولنا عندما مكث هنا ما يقرب من شهر كنت كثيراً في السوق لرؤيه ما من سك في أن سوفرونوسكا فد حالته . يجب أن أسألهما ».

٤

قال برنار:

- أريد أن أسألك يا لورا، أعتقدين بوجود شيء على الأرض لا يمكن وضعه موضع الشك؟ هدا إلى درجة أنني أشك إذا كان لا يمكنأخذ الشك نفسه كنقطة ارتكاز. ذلك لأنني أعتقد أنه على الأقل لن يجعلنا نخطيء. استطيع الشك في واقع كل شيء، ولكن ليس في وافع شكـيـ. وقد كنت أريد... عفواً إذا كنت أعبر بطريقـة المـدعـيـ، أنـي بـطـبـيـعـيـ لـسـتـ مـدـعـيـ، ولـكـنـيـ أـخـرـجـ منـ الـفـلـسـفـةـ، وـلـاـ تـعـرـفـيـ «ـالـطـعـجـةـ»ـ الـتـيـ لـاـ يـلـبـثـ لـتـحـلـيلـ أـنـ يـطـبـعـ بـهـ الـعـقـلـ. ولـكـنـيـ سـأـصـلـحـ سـلـوكـيـ، أـقـسـمـ لـكـ.

- لماذا هذه الجملة المترضة؟ أتريد..؟

- أريد أن أكتب قصة واحد يصغي في بادئ الأمر لكل

إنسان، ويذهب مستثيراً كل إنسان، على نسق بانورج^(١) Panurge، قبل أن يعقد العزم على أمر، وبعد أن يتثبت من أن آراء هؤلاء وأولئك تتناقض حول كل نقطة، يصمم العزم على لا يسمع شيئاً إلا من نفسه، وهكذا يصبح قوياً.

فقالت لورا:

- هذا مشروع رجل عجوز.

- أنا أكثر نضجاً مما تظنين. قبل أيام بدأت أدون يومياتي، كإدوار، أكتب على الصفحة اليمنى رأياً، بينما أستطيع على الصفحة اليسرى تسجيل الرأى المعاكس. إليك مثلاً: ذلك المساء قالت لنا سوفرونيسكا أنها تجعل بورييس وبرونجا ينامان والنافذة مفتوحة على مصراعيها. وكل ما قالته لنا تبريراً لهذا النظام بدا معقولاً تماماً ومحقعاً، أليس صحيحاً؟ ولكن هنا أسمع البارحة، في غرفة التدخين في الفندق، ذلك الأستاذ الألماني الذي وصل حديثاً، يدعم نظرية معاكسة بدت لي معقوله أكثر وذات أساس أفضل، وأعترف بذلك. قال أن المهم هو أن نحصر أثناء النوم جهد استطاعتنا تلك النفقات وتجارة المبادرات التي هي الحياة، وهذا ما دعاه بعملية التفحيم، حيثذا فقط يصبح النوم مجدداً للقوى. وقد ضرب مثلاً العصافير التي تضع

(١) بانورج : من اشخاص قصة باتتا غريال لرابليه. كان وقحاً جباناً ولكنه كان دائم الحصب بالاختراعات الجديدة .. المترجم .

رؤوسها تحت أجحجنها، وجميع الحيوانات التي تتكون لتنام، بنوع أنها لا تتنفس إلا بالجهد؛ وهكذا السلالات الأكثر قرباً من الطبيعة، كما قال، كالفلاحين الأقل تقافة الذين يلazمون المخادع المسدودة؛ أما الأعراب المضطرون إلى النوم في العراء فيضعون قبعات برانسهم على وجوههم. ولكن برجوعنا إلى سوفرونيسكا والولدين اللذين تربىيهما، فكرت أنها لم تخطر أبداً، وأن ما هو صالح لآخرين يكون ضاراً لهذين الصغيرين حيث، كما فهمت، تكمن بذور السل في جسديهما. باختصار، قلت لنفسي . . . ولكنني أضجرك.

- لا تلق بالاً لهذا كنت تقول لنفسك؟

- ما عدت أعرف.

- هيا! ها هو يحرد. لا تخجل من أفكارك.

- قلت لنفسي أنه لا يوجد شيء يصلح لجميع الناس؛ بل للبعض فقط؛ وأنه لا يوجد شيء يكون صحيحاً عند الجميع؛ بل فقط من يعتقد أنه هكذا؛ وأنه لس هناك من طريقة أو نظرية يمكن تطبيقها على كل واحد بالشكل نفسه؛ وأنه إذا لزمنا أن نختار لنعمل فتحن على الأقل ملك حرية الاختيار؛ وأنه إذا لم نكن ملك حرية الاختيار، فإن الأمر هو أبسط أبداً. ولكن ليصبح هذا صحيحاً (ليس بشكل مطلق دون شك بل بالنسبة إلى) بحيث يتبع لي أفضل استعمال لفوای، ويجعل فصائل

تعمل. ذلك لأنني لا أستطيع ضبط تشكوكبي، والحيرة محلني في حالة رعب. أن «الوساده الرخوة الباعمه» عند مونتاني لم نصنع لأجل رأسي لأنني لمأشعر بالعاس بعد ولا أريد أن أسريرج. الطريق طويلة، تلك التي توصل بما اعتقدت أنه هو إلى ما هو أنا نقريباً. أشعر أحياناً بالخوف من أنني صحوب أكبر من اللزوم

- التحاف؟

- كلا، لا أخاف شيئاً. لكنك تعلمين أنني تغيرت كثيراً؛ أو على الأقل فإن منظري الداخلي لم يبق هو نفسه كما كان يوم تركت البيت؛ منذ ما التقيت بك. وعلى أثر ذلك انقطعت رغم كل شيء عن البحث عن حريتي. لعلك لم تدرك تماماً أن في حديفك.

- ماذا تعني؟

- أوه! تعرفين جيداً. لماذا تردين حمل على قوله؟ اتسطرين مني اعترافات؟ لا، لا، أرجوك. لا تحجبي ابتسامتك، وإلا أصبحت بالبرد.

- يا صديقي بربار، لن تذهب إلى الزعم أنك بدأت تخبني.

فالبربار:

- أوه! لم أبدأ. يمكن أنك أنت الذي بدأت نشعرين بذلك؛ ولكنك لا تستطعين منعني.

. كان يسوفي ألا أحدرك أما الآن فعلى ألا اقترب منك إلا بحدرك، كمادة سربعه الاسعال. . ولكن فكر في تلك المخلوقة الشوهه المتغفلة التي سأكونها عما فرس. أن منظري وحده سيعرف كف يشفيك.

- نعم، إذا كنت لم أحب فنك سوى المظهر. بم إنى لست مريضاً؛ أو إذا كان يجب أن أكون مريضاً لأحبك فإنى أفضل ألا أتمنى.

قال ذلك برصانة، وكابة. وتطلع إليها بحنون لم يصدر قط عن أدوار ولا عن دوفيه، ولكن بكثير من الاختزام بحيث لم تستطع ملاحظة أية ريبة. كانت تضع على ركبتيها كاماً إنكلزياناً توقفت عن قراءته وأخذت تصفحه لاهية، حتى ليقال أنها ما سمعت شيئاً، بحسب أن برنار اسمر في كلامه دون كثير من الضيق.

- كنت أتصور الحب كشيء بركان. الحب الذي حلمت لكى أبلوه. نعم، صحيح، كنت أعتقد أننى لا أستطيع ألا أحب إلا سكل وحشى، محرب، على طراز سرود. كم كنت أحهل نفسى! أنت بالروا حعليني أعرف نفسى؛ أختلف كثيراً عما اعتدت أننى كنته! كنت أ مثل دور شخص شنع، وأسعى جهدي لأنصح شبيها له. حين أفك فى الرسالة الي كسرها لوالدى الزائف قبل أن أترك الست أشعر بكبر من الخزي، أؤكدى لك حسب نفسي ممرداً، خارجاً على القانون، يعلب

بقدميه كل ما يشكل عائقاً أمام رغبته؛ وها أنا إلى جانبك ليس لي رغبات. كنت أنظر إلى الحرية كأنها الخير الأسمى. وما كدت أصبح حراً حتى أخضعت نفسي لـ... آه! لو تدرин كم هو مغيط أن تكون في الرأس كدسه عبارات لكتاب كبار تأتي بشكل لا يقاوم إلى شفتيك عند إرادة التعبير عن عواطف صادقة. هذه العاطفة جديدة تماماً على بحيث أنها لم تخترع لغتها بعد. لنفرض أن هذا ليس من الحب ما دامت هذه الكلمة لا ترضيك؛ ليكن من التعبد. يقال أن قوانينكم رسمت حدوداً لهذه الحرية التي كانت تبدو لي حتى ذلك الحين لا متناهية. ويقال أن كل ما يتحرك في داخلي مما هو طائش وناقض يرفض حولك رقصة متناغمة. وإذا ابتعدت إحدى أفكاري عنك فإنني أتركها... لورا، أنا لا أطلب منك أن تحبيني، لست سوى تلميذ حتى الآن؛ لا أستحق انتباحك؛ ولكن كل ما أريد عمله في الوقت الحاضر فلكي استحق شيئاً من... (آه! الكلمة فظيعة)... اعتبارك.

ورفع أماها ومع أنها أرجعت مفعدها قليلاً إلى الوراء، فإن برنار لبس ثوبها بوجهه، وذراعاه ملقطان إلى الوراء كعلامة عبادة؛ لكنه حين شعر بيد لورا تستقر على جبهته، أمسك بهذه اليد وضغط عليها بشفتيه.

وافت وهي تسحب يدها:

- يا لك من ولد يا برنار! أنا لست حرة. خذ. أقرأ هذه.

وأخرجت من صدرها ورقة مدعوكه قدمتها إليه.

رأى برنار التوقيع أولاً. هذا ما كان يخشأه. أنه توقيع فليكس دوفيه. أبقى الرسالة لحظة في يده دون أن يقرأها، ورفع نظره إلى لورا. كانت تبكي. شعر برنار حينئذ أن رباطاً في قلبه قد انقطع، أنه أحد تلك الأربطة السرية التي تربط كلاً منا إلى نفسه، إلى ماضيه الأناني. ثم قرأ:

«محبوبتي لورا.

«باسم هذا الولد الصغير الذي يوشك أن يولد، والذي أقسمت أن أحبه أكثر مما لو كنت والدّاه، أتوسل إليك أن تعودي. لا يدخلنَّ في روحك أن هناك أي لوم يمكن أن يستقبل عودتك. لا تتهمي نفسك كثيراً لأن هذا على الخصوص يعذبني. لا تتأخري. انتظرك بكل روحٍ التي تعبدك وتخر ساجدة أمامك».

كان برنار قد جلس على الأرض أمام لورا. ولكنه سألهما دون أن ينظر إليها:

- متى تلقيت هذه الرسالة؟

- هذا الصباح.

- ظننت أنه يجهل كل شيء. هل كتبت إليه؟

- نعم؛ اعترفت بكل شيء.

- وهل عرف أدوار بذلك؟

- لا يعرف شيئاً.

طل بربار صاماً بعض الوف، مخصوص الرأس. نم دار
سحوها من حدب:

- و. ماذا سوين أدا تفعل الآل؟

- أتسألني هذا حقيمه؟ العودة إلهه أدا مكانى بجانبه حب
أدا أغىش معه وأدانت بعرف ذلك.
- نعم.

فال برنار.

ونجم صمت طوبله ونابع برنار:

- أتعتقدin حقيقه أن الإنساد يستطيع أن يحب ابن رحل
آخر أكثر من انه؟

- لا أدرى إذا كت اعتمد ذلك؛ ولكنني آمله.

- أما أنا فأعتقد ذلك. ولا أعتقد، على العكس « بما بسمى
من باب الحسق «صوت الدم». نعم. اعتمد أن هذا الصوت
الشهر ليس سوى حرافة. فرأى أن نمة عند بعض سكان جزر
أوقانيا عاده تبني أباً، الغير، وأن هؤلاء الأولاد المتبنيين يفضلون
في الغالب على غيرهم. وقد قال الكاتب حرفاً، وأذكر ذلك
حيداً: «تعنى بهم أكثر من غيرهم». أندرين في ما أفكرا الآل؟
أفكرة أن ذلك الرجل الذي هو محل أبي لم يفل شيئاً ولم يعمل
شيئاً بعث على السنك في أنبي لم أكن ولده الحقيقي؛ وقد كدبت

حين كتبت إليه أني كنت أشعر دائمًا بالفروع كان الأمر على العكس، كان يخصي بنوع من التفصيل وكانت أشعر به، ب نوع أن عمومي له كان أفعظم. من تصرفي ذلك الصرف السيء جياله. لورا، يا صديقتي. كنت أريد أن أسألك هل ترين أن من واجبي أن أطلب عفوه، وأعود إليه؟ ..

قالت لورا:

- لا.

- لماذا؟ .. ما دمت أنت ستعودين إلى دوقيه ..

- قلت لي من لحظة أن ما هو صحيح للواحد ليس صحيحًا للآخر. أنا أشعر بضعفى، وأنت قوى. بستطيع السيد بروفيانديو أن يحبك ولكن إذا صدق ما فل了一 عنه فإنكما لم تخلقا لتنفاهما... أو على الأقل انتظر بعد. لا نعد إليه وأنت مفكك. أتريد أن تعرف كل فكري؟ ... لقد افريحت هذا لأجله وليس لأحله؛ لتحصل على ما سمه: اعياري. لن تحصل عليه يا بريار إلا حين أشعر أنك لا تسعى إليه لا أستطيع أن أحبك إلا طبيعياً. دع لي السوه، فهي لم تخلق لك ما برئار.

- أكاد أحب أسمى حتى أسمعه من فمك. أتدرين من ماذا برداد رعبي هناك؟ من الفحخخة. كثير من الرفاهية، كثير من السهولة . شعرت بنفسي أنني أصبحت فوضويًا. أما الآن فالعكس أعتقد أنني أنقلبت مخافطاً. أدركت هذا فجأة ذات

يُوْمٌ، فِي ذَلِكَ الْأَشْمَرْازِ الَّذِي اتَّابَنِي حِينَ سَمِعْتُ سَائِحًا عَلَى
الْمَحْدُودِ يَتَحَدَّثُ عَنِ السَّرُورِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ حِينَ يَخْدُعُ الْجَمِيرَكَ.
كَانَ يَقُولُ: «سَرْقَةُ الدُّولَةِ لَيْسَ سَرْقَةً أَحَدًا». وَيَدَافِعُ الْاحْتِاجَاجُ
أَدْرَكَتْ فَجَأَةً مَا هِيَ الدُّولَةُ. وَبِدَائِتْ أَحْبَبَهَا، بِسَاطَةً، لَأَنَّ
النَّاسُ يَخْطُؤُنَ مَعْهَا. لَمْ أَفْكِرْ فِي هَذَا قَبْلَهُ. وَقَالَ أَيْضًا: «لَيْسَ
الدُّولَةُ سَوْيَ اِتْفَاقٍ»، مَا أَجْلَى هَذَا الْإِنْفَاقُ الَّذِي سِيرَتَكَرَ عَلَى
حَسْنَ نِيَّةٍ كُلَّ فَرْدٍ. . لَوْ كَانَ لَا يَوْجِدُ سَوْيَ أَنَّاسٍ نَزَاهَاءً
أَسْمَعَيْ» سَئَلَتِ الْيَوْمَ عَنِ الْفَضْيَلَةِ الَّتِي تَبَدُّلِي أَنْهَا الْأَحْمَلُ
فَأَجْبَتْ دُونَ تَرْدُدٍ: التَّزَاهَةُ. أَوْهَا لَوْرَا، كَمْ أَوْدَ طَوَالَ حَيَاتِي،
وَعِنْدَ أَقْلَ صَدَمَةٍ، أَنْ أَرَدَ صُورَتِي طَاهِرًا، نَزِيَّاً، أَصْبَلًا. أَنْ تَسَاوِي
جَمِيعُ النَّاسِ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمْ تَقْرِيبًا يَرْنُونَ رَنِينًا زَانِفًا. أَنْ تَسَاوِي
بِالْبَلْبَطِ مَا تَتَظَاهِرُ بِهِ؛ عَدْمُ مَحَاوِلَةِ التَّظَاهِرِ بِأَكْثَرِ مَا تَسَاوِي.
تَظَاهِرُكَ بِغَيْرِ مَا أَنْتَ، وَاهْتَمَامُكَ الْكَثِيرُ بِالظَّاهُورِ، بِحِيثُ يَنْتَهِي
الْأَمْرُ بِالَا تَعْرِفُ مِنْ أَنْتَ.. عَمَّا لَتَحْدُثِي إِلَيْكَ هَكَذَا. أَنْتِي
أَكْشَفُ لَكَ أَفْكَارِي فِي الْلَّيلِ.

- كُنْتَ تَفْكِرُ فِي تِلْكَ الْقَطْعَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي أَرِيَتَنَا إِيَاهَا
الْبَارِحةَ، حِينَ أَذْهَبْ... .

وَلَمْ تُسْتَطِعْ إِتْمَامُ عَبَارَتِهَا؛ فَالْدَّمْوَعُ نَصَاعِدُتْ إِلَى عَيْنِيهَا.
وَفِي الْجَهَدِ الَّذِي بِذَلِكَهُ لَتَمْسِكُ هَذِهِ الدَّمْوَعَ رَأَى بِرَنَارَ شَفَقِيهَا
تَرْجِفَانَ، فَقَالَ بِكَآبَةٍ:

- إِذْنُ سَتَدَهِبِينَ يَا لَوْرَا.. أَخْسَى أَلَا أَعُودُ أَسَاوِي شَيْئًا،

أو قليلاً جداً، حين لا أشعر بوجودك بجانبي... ولكن قولى.
كنت أريد أن أسألك: هل تذهبين، هل كنت كتت هذه
الاعترافات لو أن أدوار... لا أعرف كيف أقول... (احمر
وجه لورا) لو أن أدوار يساوي أكثر من ذلك؟ أوه! لا
تعترضي أعرف رأيك فيه جيداً

- تقول هذا لأنك البارحة لاحظت اتسامتي حين كان يتكلم. وقد توهمت على الأثر أن حكمنا عليه مماثل. ولكن لا. أخطأت. الحقيقة أنني لا أعرف رأي فيه. أنه لا يبقى زماناً طويلاً على حاله. لا يرتبط بشيء. ولكن ما من شيء متوقف أكثر من هربه. أنت تعرفه منذ وقت قريب فلا تستطيع الحكم عليه. أن كيانه يتفكك ويترمم دون انقطاع. تظن أنك أمسكته... أنه بروتيء^(١). هو ينبعذ شكل من يحبه. وهو نفسه، لكنه تفهمه، يحب أن تخبيه.

- أنت تحببته. أوه! لورا. لا أشعر بالغيرة من دوفيه، و
من فنسان؛ بل من أدوار.

ـ لماذا الغيرة؟ أنا أحب دوفيفي؛ وأحب إدوار؛ ولكن بشّـ مختلف. وإذا اضطربت أن أحبك فسيكون حبـ آخر أيضاً.

(١) بروتوكول الميثولوجيا هو إله بحري تلقى من والده نبتون القدرة على التنبؤ ولكن كان يرفض في الغالب أن يتكلم . ولكنكي يهرب من أولئك الذين يخرجونه بأسئلته كأن يغير شكله حسب ارادته . المترجم

- لورا، لورا، أنت لا تجبن دوفسه تشعرين نحوه بالعطف، بالشفقة، بالاعنار ولكن هذا ليس بحب. اعتذر أن سر كآبتك (لأنك كثيبة يا لورا) يكمن في أن الحياة قسمتك؛ فالحب لم يقبل بك إلا ناقصة إنك توزعين أشخاص عديدين ما كان عليك أن تعطيه لواحد فقط. أما أنا، فأشعر أنني غير قادر للتقسيم. لا أستطيع أن أعطي نفسي إلا بكمالها.

- لا تزال صغيراً لتتكلم هكذا. لا نستطيع أن نعرف الآن، إذا كنت أنت أيضاً لن «تقسمك» الحياة كما تقول أنا لا أستطيع أن أقبل منك إلا هذا... التفاني الذي قدمه لي. أما ما بقي فسينال مطالبه النبي يجب أن نلبي في مكان آخر

- أيكون هذا صحيحاً؟. تكادين تجعليني اشمئز مقدماً من نفسي ومن الحياة.

أنت لا تعرف شيئاً من الحياة. في إمكانك تتنظر منها كل شيء. أتدري ما كانت غلطتي؟... إن لا أنظر شيئاً. كان ذلك، مع الأسف، عشت ذلك الربيع، في بُو، وكأنني لن أحصل على أي ربيع آخر، كان شيئاً لا يهمني. برnar، أستطيع أن أقول لك الآن في عوقيت... لا تيأس أبداً من الحياة.

ما فائدة التكلم هكذا مع كائن صغير مليء باللهب؟ علىَّ بأن ما قالته لورا لم يكن موجهاً لبرnar. واستجابة لنداء تعاطفها كانت تفكير أماته بصوت مرتفع رغماً عنها. كانت غير حادقة في

الظاهر، غير حادقة في السيطرة على نفسها. وبما أنها خضعت أولاً لذلك الاندفاع الذي ذهب بها منذ أن فكرت بأدوار حيث أفضت سر حبها، فإنها تركت نفسها تتوجه إلى حاجة التبكيت التي ورثتها، بالتأكيد، عن والدها. ولكن برنار كان يخاف التوصيات، يخاف النصائح، وخصوصاً إذا أتت من لورا؛ وانسانته أندرت لورا التي تابعت بلهجة اهداً:

- أتفكر أن تقى سكرتيراً لأدوار بعد عودتك إلى باريس؟
- نعم إذا رضي باستخدامي. ولكنه لا يعطيني شيئاً أعمله. أتعرفين ماذا يمكن أن يسليني؟ أن أكتب معه هذا الكتاب الذي لن يكتبه وحده أبداً. وقد أحست البارحة بقولك له. وطريقة العمل تلك التي عرضها علينا أجدها مستحيلة. أن الرواية الجيدة تكتب بطريقة أسطع من ذلك. وقبل كل شيء يجب الإيمان بما يُروي، إلا تعتقدين؟ وأن يروي ببساطة. ظننت أولاً أنني أستطيع مساعدته. لو كان بحاجة إلى شرطي خاص لام肯 أن أكون مسروراً من تطلبات العمل. ولكن عليه أداء شغف بوجب الحوادث التي يكتشفها الشرطي ولكن لا يذكر عمل شيء مع رجل عقائدي. حين أكون بجانبهأشعر أن روحي روح مخبر في جريدة. إذا تشبت بضلاله فسأستغل من ساعيقي. سأضطر أن أكسس معيشتي. سأقدم خدماتي إلى حريدة وأنظم أبياتاً بين وقت وآخر.

- لأنك، إلى جانب الصحافيين، ستشعر حتى، أن روحك

روح شاعر.

- أوه! لا تسخري مني. أعرف أنني مضحك. لا تجعليني
أشعر بذلك كثيراً.

- إيق مع أدوار. ستساعدك، ودعه يساعدك. أنه طيب.
وسمع قرع جرس الفطور، فنهض ببرنار. وأخذت لورا بده:

- فل أيضاً... تلك القطعة الصغيرة التي أريتنا إياها
البارحة... كتذكار منك، حين اذهب. - وتصلت واستطاعت
هذه المرة أن تتم عبارتها - أتريد أن تعطنيها؟

فقال برنار:

- إليك. ها هي، خذيها.

٥

يوميات إدوار

هذا هو ما يحصل لجميع أمراض الروح الإنسانية تقريباً التي
نتوهم أنها شفيناها. كل ما في الأمر أنها نجعلها تتردد، كما يقال
في الطب، وتبدل بغیرها.

سانت بوف (الاثنين، مجلد ١، ص ١٩).

«بدأت استشف ما يمكن أن أسميه «الموضوع العميق»

لكتابي وسيكون هذا دون شك حصومة للعالم الواقعي وخصوصة لما مثلناه به. أن النسق الذي يفرضه علينا عالم الظواهر وحيث نحاول أن نفرض على العالم الخارجي تأويلنا الخاص، يشكل مأساة حياتنا. أن مقاومة الأحداث تدعونا إلى نقل بنائنا المثالى إلى عالم الحلم، والأمل، والحياة المستقبلة التي يتغذى فيها إيماننا بكل خياراتنا فيها. الواقعيون بنطلقون من الأحداث، ويلائمون أفكارهم مع الأحداث. ويرشار واقعى. أخشى ألا أستطيع التفاهم معه.

«كيف استطعت أن أوفق حين قالت لي سوفرونيسكا أنه ليس عندي شيء من النصف؟ أنا على استعداد للاعتراف معها بأن الإنسان دون تصوف لا يمكن أن ينجح في عمل كبير. ولكن أليست هي صوفيتى التي جرّمتها لورا حين حدثتها عن كتابي؟ لترك لهم هذا الجدل.

«حدثني سوفرونيسكا ثانية عن بوريص وأنتا توصلت إلى انتزاع الاعتراف الكامل منه، كما تعتقد. ليس في نفس الولد أقل غابة، أقل بافة عشب يلجم إلينها من نظرات الطبيبة. أنه معزول تماماً. وقد أظهرت سوفرونيسكا إلى النور الدواليب المفككة الأكثر سترًا في جهازه العقلي، كما يفعل الساعاتي بقطع الساعة التي ينطفها. وإذا لم يصبح الصغر، بعد هذا، مثلاً للدقة في الانفعالات وردود الفعل فهذا يعني أن جهدها ذهب سدى. وهذا ما روتة لي سوفرونيسكا:

«كان بوريس قد وضع وهو في سن التاسعة في مدرسة في فرسوفيا. وقد توطدت علاقته مع رفيق له في صفه يدعى باتيستان كرافت أكبر منه بسنة أو اثنتين. وقد أشركه في ممارسة أعمال سرية كان هؤلاء الأولاد، المندeshون بسذاجة، يظلونها «من السحر». هذا هو الإسم الذي أطلقوه على عيدهم لأنهم سمعوا من يقول، أو قرأوا، أن السحر يتبع امتلاك ما يرغب المرء به، وأنه لا يجعل للمقدرة حدوداً. الخ... كانوا يعتقدون، بسلامة طيبة، أنهم اكتشفوا سراً يعزّيهم عن الغياب الحقيقي بالحضور الوهمي، ويوهمون أنفسهم بالإنساط، ويصابون بالذهول على فراغ حيث تتب خيلتهم المتعبة في العجائب ممتعة بزيادة كبيرة من اللذة. وهي عن القول أن سوفرونسكا لم تتلاعب بهذه العبارات؛ فقد أرادت أن تنقل عبارات بوريس بالضبط، لكنها تزعم أنها لم تتوصل إلى فرز ما ذكر أعلاه، مع أنها شهدت لي بدقتها، إلا من خلال حليط من الاختلاقات، والإنفاءات، وعدم الوضوح. وقد أضافت:

ـ التفسير الذي كنت أبحث عنه منذ زمن طويل وجدته في قصاصة كان بوريس يحتفظ بها دائمًا معه، موضوعة داخل كبس صغير بتلبي على صدره بجانب أوسمة القدسية التي أجبرته أمه على حملها ـ وعلى هذه القصاصة خمس كلمات مكتوبة بحروف كبيرة، صبيانية، ومعنى بها؛ خمس كلمات سأله عيناً عن معناها:

غاز. تلفون. مئة ألف روبل.

ـ ولكن هذا لا يعني شيئاً. أنه من السحر». هكذا كان يجيئني دائياً حين أضغط عليه. هدا كل ما استطعت الحصول عليه اعرف الآن أن هذه الكلمات اللغزية كثها ناتيستان الصغير، المعلم الأكبر وأستاذ السحر، وكانت هذه الكلمات الخمس كصيغة رقية للأولاد، و «با سمسة افتحوا»، لفودوس المخزي حيث كانوا يغطسون في اللذة. كان بوريس يسمى هذا الرق «تميمة» وقد تعذبت كثيراً لأحمه على أن يربني إيه ويتخلص عنه (كان هذا في بدء إقامتنا هنا)؛ لأنني كنت أريد أن يتخلص منه، كما أعرف الآن أنه كان قد تحرر فعلاً من عاداته السيئة. كنت أأمل أن تخنقه، «الشنجات والعادة المستهজنة التي يشكو منها مع هذه التميمة. وأنّته نعلق بها، وتعلق المرض بها تعلقه بآخر ملجاً.

ـ ومع ذلك فلت أنه تخلص من عاداته ..

ـ لم يبدأ المرض العصبي إلا ملأ أثر ذلك. لا رب أنه نجم عن الضغط الذي أضطر بوريس إلى ممارسته على نفسه ليتحرر. عرفت منه أن والدته فاحاثة ذات يوم وهو «يمارس السحر» كما يقولوا. لماذا لم تخبرني بذلك؟ أكان بدافع الحياة؟

ـ دون شك لأنها كانت تعرف أنه فد أصلح.

ـ هذه حافة.. وهذا هو السبب الذي كنت أتلمسه منذ

وقت طويل. قلت لك أني كنت أعتقد أن بوريس طاهر.

ـ وقلت لي أيضاً أن هذا ما كان يضايقك.

ـ أرأيت أني كنت على حق؟ كان على الأم أن تخبرني.
وكان بوريس سيسأل لو استطعت أن أراه بعدها بوضوح.

ـ وقلت أن هذه الاضطرابات النفسية لم تبدأ إلا على الأثر.

ـ قلت أنها ولدت بداع الاعتراف. أتصور أن أمه وبخته، وتولست إليه، وعفنته. وحدث أن مات الأب فتوهم بوريس أن أعماله السرية، التي صورت له كأنها أعمال مجرمة، قد نالت عقابها؛ حسب نفسه مسؤولاً عن موت والده؛ ظن نفسه مجرماً، ملعوناً، وشعر بالخوف؛ حينذاك، وهو يشعر كأنه حيوان ملاحق، اختلق جهازه الواهن هذه الكمية من الحيل لصغيرة حيث أمضى عقوبته الخاصة.

ـ إذا فهمتك جيداً فأنت تعتبرين أن انصراف بوريس ساطمثنان إلى ممارسة «سحره» يكون أقل ضرراً.

ـ أعتقد أنه لم يكن من الضروري أن تخيفه لشفعيه. أن تبديل الحياة الناتج عن موت والده كان كافياً دون شك لأن يشغله عن ذلك، وكان الرحيل من فرسوفيا كافياً لينفذه من تأثير صديقه. لا يمكن الحصول من الرعب على شيء صالح. حين عرفت كيف كان وذكرته بكل ذلك وأعدته إلى ماضيه،

سيبت له خجلاً لاستطاعته تفضيل امتلاك خيرات خيالية على امتلاك خيرات حقيقة هي المكافأة على الجهد، كما قلت له. ودون أن أحاول المبالغة في تصوير عييه، فقد مئلته له ببساطه كانه أحد أشكال الكسل؛ واعتقد فعلاً أنه أحد هذه الأشكال؛ أي أنه الأكثر دقة والأكثر غدرًا... .

«تذكرة، لمناسبة هذه الكلمات، بعض سطور من لاروشفوكو أردت أن أريها إياها، ومع أنني كنت أستطيع سردها من الذاكرة، ذهبت باحثاً عن الكتاب الصغير بعنوان «حكم» والذي لا أسافر من دونه. وقرأت لها:

«الكسل هو الذي نجهله أكثر من غيره من بين جميع التزعات. أنه الأكثر احتداماً والأكثر ضرراً بين الجميع مع أن عنقه لا يُحسن به والأضرار التي يسببها تظل مستورّة... . أن راحة الكسل هي فتنة خفية للنفس توقف فجأة أكثر الملاحقات احتداماً وأكثر العزائم عناداً. ولكي نعطي أخيراً الفكرة الحقيقية عن هذه التزعّة، يجب الفول أن الكسل كغبطة للنفس، بعزّتها عن خسائرها ويعوضها عن جميع الخبرات».

«فقالت لي سوفرونيسكا:

«ـ أترى عم أن لاروشفوكو بكتابته هذه أراد الإشارة إلى ما فعلناه؟

ـ يمكن؛ ولكنني لا أعتقد. أن كتابنا الكلاسيكيين أغنبوا بكل التأويلات التي يسمحون بها. وبزداد إعجاباً بدقنهم ننسى

كون هذه الدقة لا تدعى أنها نهائية وباتة.

«طلبت إليها أن تربني تلك التعبيرات الشهيرة، عميقة بوريس. قالت أنها لبست في حوزتها، وأتها أعطتها لأحد الذين بهمون ببوريس إذ طلب منها أن تتركها له كتذكرة. - «رجل بدوعي السيد ستروفيلو التقينه هنا قبل مجئكم بوفت قليل».

«قلت لسوغرونيسكا أني رأيت هذا الإسم في سجل الفندق، وأنني عرفت في السابق رجلاً يدعى ستروفيلو، وإنني كنت متشوقاً لأعرف إذا كان هو نفسه. وبناء على الوصف الذي رسمته لي لم يعد ممكناً أن أخطيء فيه. لكنها لم تعرف أن تقول عنه شيئاً يرضي فضولي عرفت فقط أنه كان لطيفاً جداً، مستعجلًا جداً، وأنه بدا لها كثير الذكاء، ولكنه كسول نوعاً. وأضافت ضاحكة: «إذا تجرأت على استعمال هذه الكلمة». روت لها بدوري ما كنت أعرفه عن ستروفيلو، وجري هذا إلى أن أحدهما عن البنسيون حيث كنا نلتقي، وعن أهل لورا (التي أدلت باعترافاتها دورها). وأخيراً عن لا بيروز العجوز، وعن رابطه القوي التي تربطه ببوريس الصغير، والوعد الذي قطعه له حين تركته بأن أجلب له هذا الولد. وما أن سوغرورنيسكا قالت لي أنها تتمىء ألا يستمر بوريس في العيش مع أمه، سألتها: «لو تضعينه في البنسيون عند أزابيس؟؟ فكرت، عند اقتراحني عليها ذلك، بالسرور العظيم الذي سيشعر به الجد حين يعرف أن بوريس فريب منه، عند أصدقائه بستطيع روبيه

متى شاء لكنني لم أسطع الاعتقاد أن الصغير، من جهته، لن يكون مرنحاً هناك. قالت لي سوفرونيسكا أنها ستفكر في ذلك. ومع هذا فقد كانت شديدة الاهتمام بما أعلمتها عنه.

«نكرر سوفرونيسكا أن بوريس الصغير قد سفى. وهذا العلاج من شأنه أن بفوي طريقتها. ولكن أخشى أن تكون قد استباقت الأمر قليلاً، ومن الطبيعي ألا أربد ماقضتها: اعترفت أن التنسجات العصبية، وحركات السويم، والتلاعب باللغة أخفقت تمريرياً، ولكن يبدو أن المرض التجأ إلى منطقة أكثر عمقاً في الكائن، كمن يفلت من نظر الطبيب الفاحص، وأن النفس وحدها الآن هي التي أصبت. وكما أن الحركات العصبية قد تبعت الإسماناء (العادة السرية *l'Onanisme*) فإن هذه الحركات ترك مكانها لما لا أدرى من رعب غير منظور. صحيح أن سوفرونيسكا تفلق لرؤبة بوريس يسرع على أمر برونجا في نوع من النصوف الصبياني؛ وهي ذكية بحيث تعرف أن «غبطة النفس» الجديدة هذه التي يبحث عنها بوريس في الوقت الحاضر، لا تختلف كثيراً عن تلك التي كان يثيرها بادئ الأمر بواسطة الحلة، وأنها إذا كانت أقل تبديراً وأقل تخريباً للجهاز العضوي، لبست أقل أبعاداً له عن بذل الجهد وعن الإنجاز. ولكن، حين أحدها عن ذلك محبي أن يفوساً كنفسى بوريس وبرونجا لا تستطيع الاستغناء عن غذاء وهى، وإذا انتزع منها فإنهما تموت، برونجا في اليأس وبوريس في ماديه دنيئه، وفضلاً

عن ذلك فهي تعتبر أنه ليس من حقها أن تخسر ثقة هذين الصغيرين. ومع أنها تحسب أن إيمانها كاذب فهي تريد أن ترى فيه رافعاً للغرائز المنحطة، وإلحاداً سامياً، وتنشيطاً، ووقاية. ما أدراني؟ ودون أن تؤمن هي نفسها بعقيدة الكنيسة فإنها تؤمن بفاعلية هذا الإلحاد. أنها تتكلم بتأثير عن تقوى هذين الولدين اللذين يقرآن معاً رؤيا القديس يوحنا، ويتحمسان، ويتحدىان مع الملائكة، ويلبسان روحيهما اكفاراً بيضاء. هي مليئة بالتناقضات ككل النساء، ولكنها على حق: أنا لست صوفياً، بالتأكيد. . لست أكثر من كرسول. وأنا اعتمد كثيراً على جو بنسيون أزاييس وباريس لأجعل من بوريش نشيطاً، ولأشفيه أخيراً من «الخيرات الخيالية». أن سلامته هناك. اعتقاد أن سوفرونيسكا وافقت على أن تعهد به إليه لكنها سترافقه إلى باريس دون شك، راغبة في أن تسهر بنفسها على نزوله عند آل أزاييس، وبهذا تبعث الإطمئنان في الأم التي تراهن على كسب رضاها.

٦

هناك بعض العيون ، اذا وضعت موضع
العمل تسقط أكثر من الفضيلة نفسها .

لاروشفوكو

من أوليفييه الى برنار

« صديقي العزيز

لأقل لك اولاً أني اجتازت امتحان البكالوريا بنجاح .
ولكن لهذا أهمية . لقد ستحت لي فرصة فريدة للذهاب في
رحلة ، وكانت لا ازال متارجحاً ، ولكنني ثبتت عليها بعد قراءة
رسالتك . مقاومة خفيفة من والدتي في بادئ الامر ، لكن
فنسان سرعان ما انتصر عليها . وقد اظهر لطفاً لم اكن آمله
 منه . لا استطيع الاعتقاد انه تصرف شخص فظ في الظروف
 التي تشير اليها رسالتك . ان لنا ، في ستنا ، ميلاً مكملاً الى
 مقاضاة الناس بقساوة كبيرة والحكم دون استئناف . هناك اعمال
 كثيرة كانت تبدو لنا معيبة ، مقيدة ايضاً ، لأننا لم نتعقب عميقاً
 كافياً في الاسباب . وفنسان لم ... ولكن هذا يجريني بعيداً
 جداً ، وعندى كثير من الاشياء أقوها لك .

« إعلم ان الذى نكتب اليك هو رئيس تحرير مجلة « الطلبة » الجديدة . لقد فبلت ، بعد قليل من المشاوره ، القيام باعباء هذه الوظيفة التي رأى الكونت دو باسافان اننى جدير بها . انه هو الوصي على المجلة ، ولكنه لا يحرص كثيراً على ان يُعرف . وسرّيس على الغلاف اسمي وحده . سبباً بالصدور في شرين الاول ؛ احرص على ان ترسل الى سيناً للعدد الاول ؛ ساعتم جداً اذا لم يلمع اسمك بجانب اسمي في الفهرس الأول . يريد باسافان ان يظهر في العدد الاول شيء فيه الكثير من الحرية ، والتوازن ، لأنه يعتبر ان اشد لوم ممثلاً يمكن ان يصيب مجلة فتية هي كونها حية ؛ وأنا من رأيه . انا نتحدث كثيراً عن هذا . وقد طلب إلى كتابة شيء في الموضوع وأمدني بفكرة قصة على جانب من الجرأة . وقد بعث في ذلك شيئاً من القلق بسبب امي التي اخشى ان تتفهم .. ولكن لا يهم . وكما قال باسافان : كلما كان المرء صغيراً كانت الفضيحة أفل نشوبها للسمعة .

« أكتب اليك من فيزافون . وفيزافون فربة صغيرة تتوسط منحدر جبل من أكثر جبال كورسيكا ارتفاعاً ، محبوكة في غابة ملتفة . والمنفذ الذي نزل فيه بعد عن العريفة وبسنعمله السياح كنقطة انطلاق للترهات . لم يمض علينا هنا سوى أيام . وقد بدأنا بأن حملنا في فندق غير بعيد عن حلحاج بورتر البديع » وهو مقفر تماماً ، حيث ننزل لنسبح في الصباح ، وحيث نستطيع ان نعيش عراة طول النهار . وكان هذا رائعأ . ولكن الحر شديد

ما اضطرنا الى ملوغ الجيل .

« باسافان رفبن شائق ؟ انه غير مفتون بلفيه ، يرد ان ادعوه روبر ؛ وابتدع ان يدعوني اوليف . قل ، الا ترى هذا شائقاً ؟ انه يفعل كل شيء ليجعلني أنسى سنه واؤكد لك أنه توصل الى ذلك . كانت امي خائفة من ذهابي معه لأنها لا نكاد عرفه .

وقد ترددت خوفاً من ان أسبب لها الحزن . و كنت قد افلعت عن الذهاب قبل ورود رسالتك . لقدر اقنعها فنسان ، ورسالتك شجعني . فجأة امضينا الأيام الاخرة قبل الرحيل ونحن نطوف بالمخازن بباسافان كربم جداً بحيث أراد ان يفهم لي كل شيء ، واضطربت دون انقطاع الى ايفافه . لكنه رأى ان تياب الحقيقة بشعة ؛ فمسان ، أربطة عنق ، احذية ، لم بعجم شيء مما كان عندي . وكان يردد انه اذا كان علي ان اعيش ما لبعض الوقت فسيتألم كثيراً حين لا يراني مرتدياً كما يحب . يعني : كما يرضيه . ومن الطبيعي ان ترسل جميع البضائع المشتراة الى منزله خوفاً من ان يساور الفلق امي وهو نفسه دانفة مفرطة . لكنه صاحب ذوق ممتاز على الخصوص ، وكثير من الأسباء الى كانت ندو محتملة اصبحت مفيدة في نظري . لن نتصوركم استطاع ان يكون لاهيا عند الباعة . انه طريف جداً . وأريد اعطاءك فكره عنه : كما عند برنتابو حتى اعطيه

قلمه للتصليح . وكان وراءه انكليزي ضخم ي يريد ان يمر قبل دوره . وحين دفعه روبي بشيء من الحشونة بدأ يرطن كلاماً موجهاً اليه لا ادرى ما هو . فالتفت روبي ، وقال بكل هدوء :

« - سيان . فأنا لا اعرف الانكليزية .

« فاجاب الآخر ، اغاضياً ، بفرنسية صافية :

- كان عليك ان تعرفها يا سيد .

« حينئذ اجاب روبي بهذيب عميق وهو يبتسم :

« - انت ترى جيداً انه سيان .

« فشارت ثائرة الانكليزي . لكنه لم يعرف ما يقول . وكان هذا لاذعاً .

« وفي يوم آخر كنا في الأولبيا . وأنئاء فترة الاسرحة كما نتنزه في الرواق حيث يتجلو جمع غفير من البغابا وقد دنا منهاثنان منهن يدل مظهرهما على الفاقة .

« أتدفع ثمن قدح بيرة يا عزيزي ؟

« جلسنا معهن على الطاولة :

« - غارسون ! هات قدح بيرة لهانين السبدين

« - وهذين السيدين ؟

« - نحن ؟ أوه ! ستأخذ شامبانا

« هكذا قال باهمال . وطلب زجاجة « موبيت » Moet

شربناها نحن الاثنين . لو رأيت رأس الفتاتين المسكينين !

اعتقد انه يخاف البغايا . وقد أسر الي انه لم يدخل في حياته بيته عمومياً وأسمعني انه سيغضب بي جداً اذا ذهبت الى هناك . ها انت ترى انه نظيف رعم هيئته واحاديه اللئيمة ، حين يقول مثلاً انه اذا كان في رحلة ، بسمي « يوم عابس » ذلك النهار الذي لم يلق فيه قبل الغداء بخمسه اسخاص على الاقل من يرغب في مضاجعتهم وعلي ان اقول لك ، بين متعارضين ، اني لم اعد الى ... - وانت تفهمي .

« ان له طريقة خاصة وسلية في الوعظ الاخلاقي . وقد قال لي ذات يوم :

« - ترى ، يا صغيري ، ان المهم في الحياة ، هو الا تكون مقادراً . الشيء يجلب شيئاً آخر ، ثم ، فأنت لا تعرف اين تسير . وهكذا . فقد عرفت تماماً معرفة جيدة ، كان يريد الزواج من اينة طاهيبي . وдав لبله دخل صدفه الى محل جوهرى ، وقتلها ، وبعد ذلك سرق ، وبعد ذلك توارى . ها انت ترى الى اين يقود هذا . ولمرة الاخيره التي رأسه فيها كان قد اصبح كذوباً . انتبه .

« انه كذلك في كل وقت وهذا لأقول لك انى لا أسام ابداً . ذهبنا على امل ان ننسغل كثيراً لكننا لم نفعل شيئاً حتى الان عدا السباحه والشمس والثرثرة ان له حول كل شيء آراء وافكاراً مفرطة في الأصالة وكثيراً ما ادفعه حهد استطاعى ليكتب بعض النظريات الجديدة الى عرضها أمامى عن

الحيوانات البحرة العائشة في الاعماق » وعما يدعى « الأصوات الشخصية » التي نسخ لهذه الحيوانات ان سنتغنى عن نور الشمس ويسنحها بنور الغوب الإلهي ونور « الوجي ». والعرض هكذا يضع كلمات كما افتعل أنا لا يمكن ان يعني شيئاً ، لكنني اؤكّد لك انه شائق كرواية حين تتحدث عن ذلك . وعادة لا احد يعرف انه ضلّيع جداً بالتاريخ الطبيعي ؛ ولكنه يجد بعض الدلال في اخفاء معلوماته . وهذا ما بدعلوه حواهره السرية . ويقول انه ما من احد يسر بعرض زبنه امام اعين الجميع الا الأنزياء الذين لا يعرف اصل ثروانهم ، خصوصاً اذا كانت هذه الزينة زائفة .

« انه يعرف كما لا احد كيف يستعمل الافكار ، والصور ، والنار ، والأشياء ؛ يعني انه يستفيد من كل شيء . ويفول : ليس فن الحياة الكبير في ان تتمتع بل الى اي در ستطيع ان تغمض .

« كتبت بعض القصائد ولكنني لست مسؤولاً منها كفاية لأرسلها اليك

« الى اللقاء باصدقني ، في تشرين الاول . سنجذب منغيراً ،انا ايضاً . بزداد اطمئنان كل يوم . انا سعيد لمعرفتي انك في سويسرا . ولكنها انت ترى انه ليس لي ما احسدك عليه .

« أوليفييه»

ناول برنار هذه الرسالة لادوار فعراها دوں ان يظهر سبنا من المساعر الى تململ في داخله كل ما رواه اوليفيه باعجاب عن روبر امار سخطه وانتهي بأد حله بكرهه واغنم على الخصوص لأن اسمه لم يرد في هذه الرسالة ولا اولعسه بدا انه سببه فام بجهود على عرب طائل ليحل رموز الاسطر الالاته التي كتبت كملحظة ، والمخفية تحت سطبات كتبه . وهذه هي :

« قل لل الحال ! انى افكر فيه دائمًا ؛ وانى لا استطيع انا اسامحه لأنه تركني ، وانى احتفظ منه بجرح ميت في قلبي »
هذه الاسطر كانت الصادقة الوحيدة في هذه الرسالة المائية ، والتي املأها كلها الحزن الغاضب . وكان اوليفيه قد سطتها .

اعاد ادوار الرسالة الشنيعة الى برنار دون ان ينس بكلمة ، واستعادها برنار دون ان ينس بكلمة ابضاً . قلت انها لا ينحدثان كثيراً ؛ فهناك نوع من الضغط الغريب ، المستغلق كان يشل عليهما حالما يصبحان وحيدين مع بعضهما البعض (لا احب هذه الكلمة « مستغلق » ولم اكتبها هنا الا بسبب النقص الموقت) ولكنها انسجتا الى غرفتها في هذا المساء . وبينما كان يتهيآن للنوم ، سأل برنار ، بادلاً الجهد وحلقومه متقلص :

- هل أرتك لورا الرسالة التي تلقتها من دوفيه ؟

فقال ادوار وهو يدخل السرير :

- لم اشك في ان دوفيه ليأخذ الأمر كما يجب . انه كثير الطيبة . يمكن ان يكون فيه شيء من الضعف ولكنه مع ذلك كثير الطيبة . انه سيعيد هذا الولد وانا متأكد من ذلك . ومن المؤكد ان الصغير سيصبح اصلب مما لم يعرف هو نفسه ان يكونه ، وذلك لأنه لا يبدولي قوياً تماماً .

كان برنار يجب لورا كثيراً ولذلك صدم من تصرف ادوار ،
ومع هذا فلم يظهر عليه شيء من ذلك .

وقال ادوار وهو يطفئ شمعته :

- ! .. أنا سعيد لرؤيي هذه الحكاية تنتهي على خير وجه
والتي كانت تبدو انه لا خرج لها سوى اليأس . وقد يحدث مع اي كان ان ينطلق انطلاقه خاطئة . يتثبت بالخطأ .

قال برنار تجنياً للنقاش :

- بالتأكيد .

- يجب ان اعترف لك يا برنار باني اخشى ان تكون لي واحدة معك .

- انطلاقه خاطئة ؟ ..

- لعمري ، نعم . فالبرغم من كل العطف الذي اسرع به نحوك خيل الي قبل بضعة ايام اننا لم نخلق لتفاهم وانني ...
(تردد لحظات باحثاً عن كلماته) أضللك اذا طالت صحبتك
لي .

كان برنار يفكر في الشيء نفسه . منذ وقت طويل لم يكلمه ادوار ، ولكن من المؤكد ان ادوار لم يستطع ان يقول شيئاً اكتر نفعاً ليملك برنار ثانية . ان غريزة التناقض تستولي عليه . وقد اعرض هذا :

- انت لم تعرفني جيداً وانا لا اعرف نفسي . انت لم تخربني . فهل استطيع الطلب منك ان تنتظر قليلاً اذا لم يكن لك اي شكوى معي ؟ .. انا قابل باننا لا نتشابه ابداً . ولكن فكرت بوضوح ان من الافضل لكل منا الا نتشابه كثيراً . وأعتقد اني ، اذا استطعت مساعدتك ، فهذا على الخصوص بسبب اختلاف عنك ولاني سأريك بشيء جديد . واذا أسرت الاستعمال فسيكون امامك وقت لتحذيري . أنا لست من يشتكون ولا من يجيرون على تهم . ولكن اسمع . اليك ما اعرضه عليك ؛ يمكن ان يكون بلاهه ... اذا كنت فهمت جيداً فان الصغير بوريس يجب ان يدخل بنسيون فيدا -

ازايس . الم توضح لك سوفرينيسكا خوفها من ان يشعر بالضياع هناك ؟ لو قدمت نفسى ، مع توصية من لورا ، الا استطيع ان آمل في ان اجد هناك عملاً ، كناظر ، كييلق ، وما يدربي ؟ .. انا بحاجة لكسب معيشتي . ولن اطلب كبير امر مقابل ما سوف اقوم به من عمل . الطعام والماوى يكفياني ... سوفرينيسكا تثق بي ، وبوريس يتفاهم جيداً معى . ساحمه « سأسعده ، سأعمل من نفسى مريباً له ،

صديقاً . ومع ذلك فسأظل تحت تصرفك ، واستغل معك بين وقت وآخر ، وأليبي عند أقل اشارة . فل ، ما رأيك ؟
وكانه يربد ان يعطي الامر كثيراً من الوزن فأضاف :
ـ فكرت في ذلك منذ يومين .

وهذا لم يكن صحيحاً . لو لم يختلف هذا المشروع الجميل في اللحظة نفسها لكان حدث لورا قبلًا عنه . ولكن ما كان صحيحاً ، ولم يقله ، هو انه منذ قراءته الفضولية ليوميات ادوار ومنذ لقائه للورا كان يفكر غالباً في بسيون فيداي ؛ وكان يتمنى ان يتعرف الى أرمان ، ذلك الصديق لأولفيبيه ، والذي لم يجد أنه اوليفية فقط عنه ؛ وبطمنى اكثر ايضاً ان يعرف ساره ، الاخت الصغرى ، ولكن فضوله ظل سراً ؛ ولم يعترف به حتى لنفسه مراعاة للورا .

لم يقل ادوار شيئاً . ومع ذلك فان المشروع الذي عرضه برنار اعجبه ان كان يؤمن له مسكنأ . لم يكن يهتم بازالة ضيقاً . وأطفأ برنار شمعته ، ثم قال :

ـ لا تظن اي لم افهم شيئاً ما روينه عن كتابك وعن التصادم الذي تخيلته بين الواقع المشوب والـ . . .

فقطاعه ادوار :

ـ انا لا اتخيله . انه موجود .

- ولكن اليه من المستحسن ان اجلو لك بعض الاحداث
ليتاح لك الكفاح ضدها ؟ سأتولى الملاحظة في سبilk.

خيل لادوار ان الآخر رعا يسخر منه قليلاً . والصحيح انه
شعر بأن برنار قد اذله . ان هذا يعبر عن افكاره جيداً .

وقال ادوار :
- ستفكر في ذلك .

ومر وقت طويل . حاول برنار عيناً ان ينام . كانت رسالة
اوليفييه تعذبه . واخيراً لم بعد بفكر فيها . وسمع ادوار ينممل
في سريره « فتمتم »

- اذا كنت لم نتم فاني أود ان اسألك ايضاً . . . ما رأيك في
الكونت دو باسافان .

فقال ادوار :

- انت تعرفه جيداً .

تم قال بعد لحظة :

- وانت ؟

فقال برنار بوحشية .

- انا ، سوف أقتلها .

المسافر ، عندما يبلغ أعلى التلة ، مجلس ، وينطلع قبل ان يعاود طريقه الذي ها قد اصبح منحدراً . انه يبحث لمميز ابن يقوده اخيراً هذا الدرب الملتوي الذي سار فيه ، والذي يبدو له انه يضيع في الظل ، وفي الليل لأن المساء هبط . وهكذا فالكاتب الغافل يتوقف لحظة ويستعيد نفسه ، ويتسائل بقلن اين تسير به قصته .

أخشى اذا عهد ببوريس الصغير الى آل ازاييس ان يرتكب ادوار حماقة . كيف تمنعه من ذلك ؟ .. كل كائن يتصرف وفقاً لقانونه ، وقانون ادوار يحمله على الاختبار دون انقطاع . انه ذو قلب طيب ، بالتأكيد ، ولكنني أفضل في الغالب ، لأجل راحة الغير ، ان اراه يعمل بدافع الفائدة ، لأن الأريحية التي تجذبه ليست في الغالب سوى رفيقة فضول يمكن ان يصبح قاسياً . انه يعرف بنسيون ازاييس ، يعرف الهواء الملوء الذي يتشقونه فيه تحت الغطاء الحاتق من الاخلاق والدين . وهو يعرف بوريس ، ورقته ، وركاكته . وعليه ان يحسب الى اي نكد بعرضه . ولكنه لا يرضي ابداً ان يعتبر ان الحماية ، والنجدة ، والسد يمكّن ان

تجدها طهارة الولد الوقتية في تكشف أزاييس العجوز . الى ابة سفسططات يعبر اذنه ؟ ما من شك في ان الشيطان هو الذي ينفعها فيه لأنها لو انته من الغير فما كان سيصغي اليها .

لقد أثارني ادوار اكثـر من مـرة (حين يتحدث عن دوفـيه مثـلاً) ، وأثارـ سخـطي ايـضاً ؛ آمـل ان لا اـدعـه بـلاحـظـ ذلك ؛ ولـكـنـيـ استـطـعـ الآـنـ انـ اـقولـ لهـ . فـطـرـيـةـ سـلـوكـهـ ، الـكـرـيمـ جـداـ اـحيـاناـ معـ لـورـاـ ، بـدـتـ بـلـ مـراتـ مـغـضـبـهـ .

أما ما لا يعجبـيـ عندـ اـدـوـارـ فـهيـ الـاسـبـابـ الـتيـ يـتـذرـعـ بـهاـ . لماذا يـخـاـولـ الصـورـ الآـنـ انهـ يـتـأـمـرـ لـخـيرـ بـورـيسـ ؟ـ الـكـذـبـ عـلـ النـاسـ مـقـبـولـ ؛ـ وـلـكـنـ عـلـ نـفـسـهـ ؟ـ هـلـ يـرـعـمـ انـ السـيـلـ الـذـيـ يـغـرقـ وـلـدـأـ بـجـمـلـ الـمـاءـ لـيـشـرـبـ ؟ـ ..ـ اـنـاـ لـاـ انـكـرـ انـ ثـمـةـ فيـ الـعـالـمـ اـعـمـالـ نـبـيلـةـ ،ـ كـرـيمـهـ حـتـىـ وـغـيرـ مـغـرـضـةـ ،ـ اـفـوـلـ فـقـطـ اـنـ يـخـتـبـئـ فـيـ الـغـالـبـ وـرـاءـ اـفـضـلـ سـبـبـ ،ـ شـيـطـانـ حـادـقـ يـعـرـفـ انـ يـسـتـخـرـ رـبـحـاـ مـاـ قـدـ نـحـسـبـ اـنـاـ سـلـبـاهـ مـنـهـ .

لنـغـتـمـ زـمـنـ الصـيفـ هـذـاـ الـذـيـ يـعـثـرـ اـشـخـاصـناـ ،ـ وـلـنـفـحـصـهـمـ عـلـ مـهـلـ .ـ كـذـلـكـ فـنـحـنـ فـيـ هـذـهـ النـقـطـةـ المـتوـسـطـةـ مـنـ حـكـاـيـتـاـ ،ـ حـبـتـ سـيرـهـاـ يـبـطـئـ وـتـبـدوـ اـنـهـ تـأـخـذـ دـافـعاـ جـديـداـ لـتـتـابـعـ سـرـعـتـهاـ مـنـ المـؤـكـدـ انـ بـرـنـارـ صـغـيرـ عـلـ تـسلـمـ قـيـادـةـ مـكـيـدةـ .ـ اـنـهـ يـنـطـوـعـ لـرـقـابـهـ بـورـيسـ ،ـ وـسـيـسـنـطـيـعـ مـرـاقـبـتـهـ جـيدـاـ .ـ وـقـدـ رـأـيـناـ قـبـلـ بـرـنـارـ يـتـغـيـرـ ،ـ وـيـكـنـ الـاهـواـءـ اـنـ تـزـيدـ مـنـ تـبـدـلـهـ .ـ وـجـدـتـ عـلـ دـفـتـرـ صـغـيرـ عـيـارـاتـ سـجـلـتـ فـيـهاـ مـاـ كـنـتـ اـرـاهـ فـيـهـ سـابـقاـ :

« كان علي أن أحذر بادرة مثل التي أقدم عليها برئار في بدء حكايته . وقد بدا لي ، استنادا إلى استعداداته كأنه استند كل مدخلاته من الفوضى التي يمكن أن تظل مصانة لو استمر على العيش عاطلاً ، كما يحب ، في جور عائلته . ومنذ ذلك الوقت عاش في رد فعل وكأنه احتجاج على هذا السلوك . وعادة التمرد والمعارضة تدفعه إلى التمرد على تردد نفسه . وما من شك في أنه ولا واحد من ابطالي خيب أملٍ مثله ، لأنه لم يكن أحد من ابطالي تقريباً يجعلني أعقد عليه الأمل الذي عقدته على برئار . لعله اطلق لنفسه العنوان باكراً » .

ولكن هذا لا يبدو لي الآن كثير الصحة . اعتقاد أنه من اللازم أن نعطيه المزيد من الفرص . كثير من الارجحية ينبع منه . أشعر أن فيه رجولة ، وقوة ؛ أنه يعرف أن يغضب . هو معجب بكلامه ؛ ولكن هذا لأنه يحسن الكلام . أني أحذر العواطف التي تجد تعبيرها بسرعة . أنه تلميد جيد ، ولكن العواطف الجديدة لا تسهل بملء اختيارها في الأشكال المكتسبة . أن قليلاً من الاختلاف يضطره إلى اللجلجة . لقد فرأ كثيراً من قبل ، وحفظ كثيراً ، وتعلم من الكتب أكثر مما تعلم من الحياة .

لا استطيع ان اعزي نفسي عن المغامرة العابرة التي جعلته يحتل مكان ارليفييه بجانب ادوار . ان الحوادث قد تربت بشكل سيء . واوليبيه هو الذي أحبه ادوار . بأية عنایة أضجهه هذا ؟ .. بأي احترام محب ؟ .. ألم يفده ، ويستنه ، ويحمله

الى نفسه؟ .. ان بأسافان سيفسلد ، وهذا اكيد . لا شيء عنده اكثراً افساداً من هذا الاحتضان الذي لا رادع له . أمل ان يسنطيع اوليفيه ، وهو يعرفه جيداً ، الدفاع عن نفسه ؛ ولكنه ذو طبيعة لدنـة ، سريعة التأثر بالتمليق . ينفعل ويتأثر بسهولة . وفصلاً عن ذلك فقد اعتتقدت اني فهمت من بعض هجمات رسالته الى برنار انه كان على شيء من الزهو ... شهوة ، حزن غاضب ، زهو ، اي تأثير لهذا عليه ! ... واحشى حين يجده ادوار ان يكون الوقت قد فات . ولكنه لا يزال فانياً ومن الحق ان نأمل .

باسافان ... الافضل ان لا نتكلم عنه ، أليس كذلك؟ .. ما من شيء اكثراً شؤماً واكثراً نيلاً للتصفيق معاً من الرجال الدين هم على شاكلته ، الا النساء الشبيهات باللديي غريفث . في الايام الأولى ، وأعترف بذلك ، كانت هذه تفرض نفسها عليّ كثيراً . ولكنني عرفت خطاي بسرعة . ان اسخاصياً من هذا النوع قد فصلوا في ثوب رقيق . وقد اصدرت امبركا كثيراً منهم ، ولكنها ليست وحيدة في انتاجهم . نُرْوَة ، ذكاء ، جمال . يبدو ان عندهم كل شيء ، ما عدا الروح . ما من شك في ان فنسان سيقتعن بذلك حالاً . انهم لا يستغرون بأي ماضٍ ، بأي الزام يثقل عليهم ، انهم بلا قوانين ، بلا أسياد ، بلا قيود ، احرار وطوعيون ، يبعثون اليأس في الروائي الذي لا يحصل منهم الا على ردود فعل لا قيمة لها .

آمل ألا ارى الليدي غريفث حتى وقت طويل . آسف لأنها اختطفت منا فنسان الذي أثار اهتمامي كثيراً ولكنه يبتذل نفسه بمعاشرتها ، سيخسر بخداعها له . وهذا مؤسف .

لو حدث لي ان أختلق قصة لما اسكنت فيها الا سجايا منشطة ، حيث الحباء تشدح ولا تضعف .. لورا ، دوفيفيه ، لابيروز ، أزاييس ... ما العمل مع كل هؤلاء الناس ؟ .. لم ابحث عنهم قط ، ولكنني وجدتهم على طريقي وانا اسبر في أثر برنار وأوليفيه . لا حيلة لي في ذلك . فأنا ، من الآن وصاعداً ، مدين هؤلاء جيئاً .

.

القسم الثالث

باريس

حين يصبح في حوزتنا ايضاً بعض الكتب الجديدة الإقليمية الجديدة التي تعالج موضوعاً واحداً. حيثذا فقط، يجمع معطياتها، وبمقارنة هذه المعطيات، وبمقابلة بعضها ببعض بدقة، يستطيع استئناف القضية الجامحة وجعلها تقوم بخطوة جديدة حاسمة. والعمل بخلاف ذلك يعني السير، مجهاً بفكريتين او ثلاث فكرات بسيطة مضخمة، في سبيل نوع من الغزوة السريعة. ويعني ذلك، المرور في معظم الحالات، بجانب ما هو خاص، وفردي، وغير منتظم - وبالاجمال، يعني بجانب الاكثر مدعاه للاهتمام

لوسيان فافر

«الارض والتطور البشري»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

عودته الى باريس لم تسبب له اي سرور
« التربية العاطفية » فلوبير

يوميات ادوار

« ٢٢ ايلول . - حر . ضجر . الرجوع الى باريس قبل
الأوان بثمانية أيام . ان عجلتي الشديدة تجعلني دائمًا أسبق
النداء . فضول أكثر منه حمية ؛ رغبة في السبق . لم اعرف قط
ان اتكيف مع عطشى

« أخذت بوريis الى جده . سوفرونسكا الي حلّت اليه النبا
البارحة اخبرتني ان مدام لاپروز دخلت احد الملاجئ .
أوف ! ..

« تركت الصغير على الدرج بعدما قرعت الجرس ، معتبراً

ان من الالين الا أحضر اللقاء الأول . كنت اخشى شكر العجوز . سأله الصغير بعد ذلك ولكن لم يكفي الحصول على شيء منه . قالت لي سوفروننيسكا ، التي رأيتها تانية ، ان الولد لم يحدثها كثيراً . وحن ذهبت بعد ساعه لنعود به ، كما جرى الاتفاق ، فتحت خادمة الباب لها . رأت سوفروننيسكا ان العجوز جالس امام لعبة داماً ، والولد في احدى الزوايا ، في طرف الغرفة ، وكان حرداً .

« وقال لاپروز مصدوماً :

« - عجيب . كان يبدو انه يلهمو ، ولكنه انقطع فجأة . اخشى ان يفقد شيئاً من الصبر ...

« كان من الخطأ تركها وحيدتين لمدة طبولة

٢٧ ايلول . - لقاء مع موليسيه تحت الاوديون هذا الصباح . بولين وجورج لن يعودا الا بعد غد . وحيد في باريس منذ البارحة ، اذا كان موليسيه ضجراً مثل فليس مما يدهش ان يسر برأيتي . جلسنا في اللوكسمبور في انتظار وقت الفطور الذي اتفقنا ان نتناوله معاً .

« موليسيه يتصنّع معي نبرة مرحة ، بطّرة احباناً ، يعتقد دون شك انها تسر فناناً . شيء من الاهتمام لي يبدو انه لا بزال فتياً .

« وقد صرّح لي :

« - في داخلي ، أنا رجل شغوف .

« ادركت انه اراد ان يقول : شهوافي . ابتسمت كما يبتسم عند سماع امرأة تصرح ان ساقيها جيلتان » ابتسامة تعني : « ثق اني ما تكفت في ذلك قط ». لم أر منه حتى اليوم سوى القاضي . وها ان الانسان فيه يبعد جبة القاضي .

« انتظرت ان نجلس الى المائدة عند فوبيو لأحدثه عن اوليفيه ، وقلت له اني عرفت أخباره حديثاً من احد اصدقائه وعلمت انه سافر الى كورسيكا مع الكونت دو باسافان .

« - نعم انه صديق لفنسان . عرض عليه ان يأخذه معه . وبما ان اوليفيه نال البكالوريا بنجاح فقد اعتقدت امه ان من الواجب الا ترفض له هذه المتعة ... انه رجل من اهل القلم ، هذا الكونت دو باسافان يجب ان تعرفه .

« لم أخف عنه اني ما أحبيت كتبه ولا شخصه . فقال :

« - بين الزملاء ، يكون الحكم احياناً شديد القسوة . حاولت قراءة روايته الاخيرة التي جعل منها بعض النقاد قضية كبيرة . لم أر فيها كبير امر ؛ ولكن انت تعلم اني لست من اهل الموضوع ... »

« وبما اني اوضحت مخاوفي حول التأثير الذي يمكن ان يفرضه باسافان على اوليفيه ، اضاف بانصياع :

« - حقيقة القول اني شخصياً لم استصوب هذه الرحلة .

ولكن يجب ان يدخل في الحساب ان الاولاد يتفلتون منا ابتداء من سن معينة ان هذا من طبيعة الامور ولا يمكن منعه . كانت بولين تريد ان تظل حادبة عليهم . أنها ككل الامهاب . وكانت اقول لها احياناً : « ولكنك تزعجبنهم » دعيهم بسلام . استلتك هذه هي التي توحى اليهم الافكار العاطلة . « اعتقاد ان مراقبتهم لا تفيد شيئاً . المهم ان تلقنهم التربية الأولى بعض المبادئ الصالحة . والمهم على الخصوص ان يكون عندهم من يلقنهم ايها . نرى يا عزيزي ان الوراثة تتصر على كل شيء . هناك بعض الاشرار لا شيء يمكن ان يصلحهم ؛ كتب عليهم ذلك ، من الضروري ان نبقى هؤلاء محصورين . اما اذا كانت القضية تتعلق بطبعات صالحة فبالامكان ترك المقدور قليلاً .

« فقلت :

« - مع ذلك قلت لي ان هذا الاختطاف لأوليفيه لم يبل رضاك .

« فقال وأنفه في صحنه :

« - اوه ! .. رضاي .. رضاي ، انهم يتخبطون رضاي احياناً . يجب ان ندخل في الحساب ان الزوج في العائلات ، وانكلم عن الاكثرها اتحاداً ، ليس دائمًا هو الذي يقرر . انت لست متزوجاً ، وهذا لا يهمك .

« فقلت ضاحكاً :

« - عفواً ، انا روائي

« - اذا فلا شك انك لاحظت ان الرجل الذي يسلم قيادة الى زوجته لا يفعل ذلك دائمًا سبب ضعف شخصيته .

« فوافقت بنوع من الزهو :

« - فعلاً ، هناك رجال من ذوي الصلابة والسلط ايضاً ، نكتشف انهم في البيت طيعون كالحملان .

« فأجاب :

« - أتعرف الى ماذا يعود هذا؟ .. في تسع مرات من عشر حين ينفع الزوج لامرأته يكون عنده ما يسعى لتسامحه على فعله . المرأة الفاضلة يا عزيزي تستفيد من كل شيء . وما ان يجيء الرجل ظهره لحظة حتى تتب على كتفيه . آه ! با صديقي . الأزواج المساكين يستحقون الشفقة احياناً . حين كنا سباباً كنا نتمني نساء عفيفات دون ان نعلم ما سوف تكلمنا فصيلنهن .

« المرفقان على الطاولة ، والذقن في اليدين ، كنت اتأمل مولينيه . لم يكن الرجل المسكين يشك كم كانت الوضعية المعوجة التي بشكوه منها تظهر طبيعة على ظهره . كان يمسح جبهته كثيراً ، ويأكل كثيراً ليس كخبير بالاطعمة بل بالاكثر كثفهم . وبدا انه يقدر على الخصوص النبيذ البورغوني المعتق الذي طلبناه . وكان سعيداً لوجود من بصعيديه ، ويفهمه . وفكر دون شك انه نال الاستحسان ، ففاض بالاعترافات :

« - صفي قاضياً ، عرفت منهن من لا يرضين بازواجهن الامرغمات ، كاذبات ... ومع ذلك يشتد غيظهن حين يذهب البائس المنبوذ باحثاً في الخارج عن خليط من العلف .

« بدأ الحاكم عبارته في الماضي ، وакملها الزوج في الحاضر ، في إحياء شخصي لا يمكن إنكاره . وأضاف بشيء من الحكمة » بين لقمتين :

« - ان شهيات الآخرين سرعان ما تبدو لنا مفرطة حين لا نشاركهم ايها .

« وشرب جرعة كبيرة من الخمر وتتابع :

« - وهذا يوضح لك يا صديقي العزيز كيف يفقد الزوج ادارة بيته .

« بالنتيجة سمعت واكتشفت ، من خلال التفكك الظاهر في حديثه ، رغبته في ان يحمل فضيلة زوجته مسؤولية إخفاقاته . وقلت لنفسي ان كائنات مفككة كهذه الدمية بالكاد تكفيهم كل انانيتهم ليقروا العناصر المقطعة الاوصال من صورتهم مرتبطة ببعضها بعض . قليل من نسيان انفسهم ويتبعدون قطعاً . وكان قد سكت . شعرت بال الحاجة لسكنب شيء من التفكير ، كما يسكنب الزيت على آلة انتهت من اجتياز مرحلة لدعوتها الى مواصلة السير . وقلت مجازفاً :

« - من حسن الحظ ان بولين ذكية .

«فأنخرج الكلمة «نعم» ومطها حتى أصبحت مداعة للريبة ، ثم قال :

«- ولكن مع ذلك هناك أشياء لا تفهمها . منها كانت المرأة ذكية ، فأنت تعرف ... بالاجمال ، اعترف اني لم اكن حاذقاً في ذلك الظرف بدأت احديتها عن مغامرة صغيرة ، بينما كنت اظن ، وانا نفسي كنت مقتنعاً ، ان الحكاية تقف عند هذا الحد . كانت الحكاية أبعد من ذلك » . وكذلك شكوك بولين . كنت مخططاً باثارة ظنها وفضولها ، وقد اضطررت الى الكتمان ، الى الكذب ... هذا هو ما يعني ان يكون للمرء لسان طويل جداً . ماذا تريده ؟ اني ذو طبيعة واثقة ... ولكن بولين ذات غيرة خفية ولن تتصوركم اضطررت الى استعمال الحيلة .

«فأسأله :

«- هل مر على ذلك وقت طويل ؟

«- اوه ! كان هذا قبل خمس سنوات تقريباً وأعتبر اني طمأنتها تماماً . ولكن كل شيء يعود الى البدء من جديد ... تصور اني قبل البارحة ، وانا عائد الى متزلي ... لو طلبنا كأساً ثانية من البومار ، ما رأيك ؟
«- ليس لي . أرجوك .

«- يمكن ان يكون عندهم أنصاف زجاجات . بعد ذلك سأذهب الى البيت لأنما قليلاً الحر يضايقني .. فلت لك

انني قبل البارحة ، وانا عائد الى متزلي ، فتحت خزانتي لأنظم اوراقي فيها . جئت بالدرج حيث خبات رسائل ... الشخص المذكور . تصور دهشتي يا عزيزي . كان الدرج فارغاً . اوه ! لم اتصور الا الفليل مما سوف يحدث : قبل خمسة عشر يوماً ذهبت بولين مع جورج الى باريس بسبب زواج ابنة احد زملائي حيث لم يكن بامكاني الحضور . انت تعلم انني كنت في هولندا ... ثم ، ان هذه الاحتفالات هي من شؤون النساء . كانت دون عمل في تلك السقة الفارغة ، وبحجة ترتيب البيت ، وانت تعرف النساء ، فضوليات دائمًا ... بدأت تبحث ... اوه ! دون ان تتوجه شرًا . انا لا أتهمها . ولكن بولين ترى في الترتيب حاجة مقدسة ... حيئذ ، ماذا تريد ان اقول لها الآن والبراهين في يدها؟ ... ويا ليت الصغيرة لم تدعوني باسمي ! .. عائلة في مثل هذا الوئام ! حين اتصور ما سلاقي ...

«كان الرجل المسكين ينثر في نجواه صدم جبهته، وتروح. لقد شربت أقل منه بكثير. ان القلب لا يأتيك بالرأفة عند الطلب. لم اشعر نحوه بسوى الاشتياز. قبلت به اباً لعائلته (و ايضاً كان صعباً علي ان اقول لنفسي انه كان اباً لأوليفييه) » ويورجوازيأ حسن التصرف ، وفاضلاً ، ومتفاضاً ، أما عاشقاً فاني لم اتخيله الا مضمحةً . كت متضايقاً بوجه خاص من غباء حديثه ، و إيمائه ، والعواطف التي كان يوضّحها

لي ، فلا وجهه ولا صوته ظهرا لي أنها خلقا ليعبرا عنها فكأنه «كونترباس» يجرب بعض انعام «الألتو» ؛ ان آلتة لا تحصل الا على نشار .

« - قلت لي ان جورج كان معها

« - نعم ، لم ننسا ان تركه وحده . ولكن من الطبيعي انه لن يكون برفقتها دائمًا في باريس . لو قلت لك يا عزيزي انه لم يحدث بيتي وبينها اقل حادث منذ ست وعشرين سنة » ولا اقل مشاجرة ... ولكن حين افکر في تلك التي ثُبِّأ ... لأن بولين ستعود بعد يومين . آه ! .. اليك ، لتحدث بشيء آخر . حسناً . ما قولك بفنсан ؟ امير موناكو ، سياحة في البحر ... يا للعجب ! .. كيف لم تعرف ؟ ... نعم ، ها هو قد دهب ليراقب عمليات سبر الاعماق وصيد السمك بالقرب من آسور . آه ! هذا ، ليس لي ان أقلق من ناحيته ، أؤكد لك ! سيصنع طريقه جيداً بمفرده .

« - وصحته ؟ .

« - شفي تماماً . اعتقد انه بذلك يشو طريقة الى المجد لم يخف الكونت دو باسافان عنى انه يعتبره واحداً من اعظم السوانح الذين التقاهم . وقال ايضاً : الاكثر نبوغاً ... ولكن يجب ان نحسب نصيب المبالغة ...

« وانتهى الطعام » فأسلع سيكاراً ، وقال :

« - أستطيع ان اسألك من هو ذلك الصديق لأوليفيه الذي زودك بأخباره؟ سأقول لك اني اعلم اهمية كبرى خاصة على من يعاشر اولادي ، معتبراً انهم منها احتاطوا لانفسهم سيظلون مقصرين . ومن حسن الحظ ان اولادي عندهم ميل طبيعي لتوثيق الصلة بالافضل . انظر ، فنسان ؛ اوليفيه مع الكونت دو باسافان ... جورج ، نفسه » وجد في « هولغات » رفيقاً صغيراً من رفاق مدرسته ، فتى من عائلة أدامنти سيدخل معه الى بنسيون فيدال - أزاييس ، وهو غلام ممتاز . والده عضو في مجلس شيوخ كورسيكا . ولكن انظر كيف يجب الخذر : كان لأوليفيه صديق يبدو انه من احسن عائلة ، يدعى برنار بروفيتانديو . يجب القول ان بروفيتانديو الا بـ هو زميل لي . ومن افضل الرجال المعارضين ، وأكمن له اعتباراً خاصاً . ولكن ... (لبيق هذا بيتنا) ها قد علمت انه ليس اباً للولد الذي يحمل اسمه ! ما قولك ؟

« فقلت :

« - ان برنار بروفيتانديو هو نفسه الذي حدثني عن اوليفيه .

« فسحب مولينيه سحبات كبيرة من سيكاره ، ورفع حاجبيه عالياً ، بحبت تغطت جبهته بالغضون :
 « - أفضل الا يكثر اوليفيه من معاشرة هذا العلام ...
 لدى معلومات ردئه عنه ؛ ومع ذلك فانها لم تثر دهشتي . لنفف

انه لا يمكن انتظار شيء حسن من غلام ولد في هذه الشروط المحزنة . انه ليس سوى ابن حرام ولا يمكن ان يحوي صفات كبيرة ، ولا فضائل ولكن ثمرة الفجور والجموح تحمل بالضرورة بذور الفوضى فيه .

نعم يا عزيزي ما يجب ان يحصل قد حصل . برnar الصغير ترك البيت العائلي فجأة الى حيث لم يعود اليه ابداً . لقد ذهب «يعيش حياته» كما قال اميل اوچيه ؛ لا احد يعرف كيف يعيش ، ولا اين يعيش . وبروفيتانديو المسكين الذي اخبرني نفسه عن هذا الحادث الغريب ، كان أول الامر يظهر عطفاً متناهياً عليه . جعلته يدرك ان من الواجب الا يغير الامر كل هذه العناية . وفضلاً عن ذلك ، فان رحيل هذا الغلام اعاد الامور الى نصابها .

« واعترضت بقولي اني عرفت بريار معرفة كافية واستطاع ان اكفل لطفه واستقامته (وغنى عن القول اني لم اتكلم عن قصة الخفية) . ولكن موليبيه قفز على الأثر :

« - هيا ! ارى ان من اللارم ان اسرد لك اكثر من ذلك .

« ثم انحنى الى الامام ، وقال بصوت خافت :

« - لقد كلف زميلي بروفيتانديو جلاء قضية ذات وعورة متناهية ، وتحمل على الضيق في داتها وفي الضجة والذبوب المترتبة عليها . اتها قصة بعيدة عن المعقول ، محب المرء ان لا

يصدقها. . . الأمر يا عزيزي يعلق بمشروع بغاء بـ. . . كلا ، لا استطاع استعمال كلمات قدرة . لنفرض وجود بيت لتناول الشاي يمثل بينماً للفضائح ، وان رواد صالوبياته هم في معظمهم ، او فقط تفريباً ، من الطلاب الذين لا يزالون صغراً . قلت لك ان هذا لا يصدق . ومن المؤكد ان هؤلاء الاولاد لا بقدرون اهمية اعمالهم ، لأنهم ما يكادون محاولون التستر . ويحدث هذا عند الخروج من الصنوف . بشربون ، ويتحدون ، ويتهون مع هؤلاء النساء ، ثم تتبع الالعاب في غرف ملاصقة للصالونات . ومن الطبيعي الا يدخل الى هناك من يريد . يجب ان يكون هناك من يقدمه ، او ان يكون عالماً بالسر . . . من الذي يدفع نفقات هذه الدعارات ؟ . من يدفع اجره الشقة ؟ هذا ما بدا انه غير صعب الاكتشاف . ولكن لا يمكن التقدم في التحرى الا بحديقة باللغة خوفاً من معرفة الكثير ، ومن التوغل « ومن ان يرغم على تشويه سمعة عائلات محترمة حيث يظن أن أبناءها بين الزبائن الرئيبين . بذلك جهدي لأخفف من حماسة بروفينانديو الذي كان مندفعاً كالثور في هذه القضية ، دون ان يشك انه عند أول نطحة من قرهنه (آه ! .. عفواً ؛ فلم أقلها عمداً . آه ! آه ! آه ! .. هذا عجيب ، هذا فاتني) . . . كان يخشى ان يصطاد ابنه ، ومن حس الحظ ان العطلة المدرسية الكبرى بعنبر جميع الناس ؛ والطلاب تفرقوا ، وأمل ان تذهب كل هذه الفضية مع ماء المعى ، وان مخنق بعد شيء من التحذيرات والعقوبات دون ان

ثير الشكوك .

« - أنت متأكد ان برنار بروفينانديو قد غطس هناك ؟

« - لست متأكداً ، ولكن ...

« - ما الذي يحملك على الظن ؟

« - اولاً لأنه ابن حرام ، وانت توافقني ان غلاماً من سنه لا يهرب من منزله دون ان يكرع كل ما هناك من خزي .. ثم اني اعتقاد تماماً ان بروفينانديو ساورته بعض الشكوك لأن حميته قد خفت فجأة ؛ ماذا اقول ؟ لقد بدا انه سوق آله الى الوراء . والمرة الأخيرة التي سألته فيها اين أصبحت هذه القضية أظهر شيئاً من الضيق وقال لي : « اعتنف ان هذا لن يتنهي بشيء ». ثم غير الحديث فجأة . مسكن بروفينانديو انت تعرف انه لا يستحق ما حدث له . انه فاضل ، وشجاع ايضاً ، وهذا ما هو اندر ما يكون آه ، مثلاً ، ابنته تزوجت زواجاً موفقاً . لم اسطع حضور هذا الزواج لأنني كنت في هولندا ، ولكن بولين وجروح عادا لأجل ذلك . قلت لك ذلك قبلأ . جاء موعد نومي . ماذا ، أحفيقة تريد أن تدفع الحساب كله ؟ أترك اذا ! بين الشباب والرفاق ، تقسم النفقات ... أما من وسيلة ؟ هبا » وداعاً .. لا تنس ان بولين تعود بعد يومين . تعال لزيارتنا تم لا تدعوني مولينيه ، قل : اوسمكار ، ببساطة ! كنت اريد ان اطلب منك ذلك منذ زمن . »

« هذا المساء ، رسالة من راشيل سفيقة لورا :

« عندي أشياء خطيرة اود قوله لك . اتستطيع » دون ان يكون في ذلك ما يزعجك ، ان تمر على البنسيون غداً بعد الظهر ؟ انك بذلك تسدلي خدمة كبيرة » .

« لو كان هذا لتحديثي عن لورا لما كانت انتظرت الى الان . انها المرة الأولى التي تكتب فيها الى » .

- ٢

يوميات ادوار

(تابع)

« ٢٨ ايلول . - وجدت راشيل على عتبة قاعة الدرس الكبرى ، في الطبقة الارضية من البنسيون . كان هناك خادمان ينظفان الارض ، وهي نفسها تضع مريلة خادمة ، وفي يدها ممسحة . قالت لي وهي تند يدها ، بكآبة رقيقة » مستسلمة ، مبتسمة رغم كل شيء ابتسامة اكتر تأثيراً من الجمال :
« - كنت اعرف اني اسطيع الاعتماد عليك . اذا كنت غير

متعجل فمن الأفضل ان تصعد اولاً ل تقوم بزيارة قصيرة بجدي . ثم لأمي . لو عرفا انك اتيت ولم ترهم لاغتها كثيراً . ولكن اقتضى شيئاً من الوقت فضوري ان احدث اليك . ستعود الى هنا ؛ ارأيت كيف اني اراقب الشغل ؟

« لم نقل : اني اشتغل ، و ذلك بدافع الحياة كانت راتسيل متزوية طوال حياتها وليس هناك شيء اكثر رصانة واكثر احتشاماً من فضيلتها . كان انكار الذات طبيعياً لديها حتى ان احداً من أهلها لم يكن يعرف كثيراً عن تضحيتها المستمرة . اهنا اجمل نفس عرفتها في امرأة

« صعود الى الطبقية الثانية عند أزاييس . العجوز لا يفارق كنبته ابداً . اجلسني بجانبه وبدأ حالاً يحدوني عن لابروز .

« - منذ عرفت انه وحيد وأنا قلق عليه . كنت اريد اقناعه ليأتي ويسكن البنسيون . انت تعلم انا اصدقاء قدماء . وقد رأيته في المرة الأخيرة ، وانخشى ان يكون رحيل زوجته العزيزة الى سان بيرين قد زاد من حزنه . قالت لي خادمته انه بالكاف يتناول غذاءه . أنا اعتبر انا عادة نأكل بافراط . ولكن يجب وضع مقياس في كل شيء ومن الممكن ان يفرط المرء في الناحيتين وهو يرى ان لا فائدة من طهي طعام له بمفرده . ولكن بتناوله الطعام معنا ، ورؤيته الآخرين بأكلون فسيقوده هذا الى الاكل . سوف يكون هنا بقرب حفيده ويغير ذلك لن

تتاح له فرصة رؤينه ، لأن المجيء من شارع فافان الى فوبور سانت اوندرية يعتر رحلة . وفضلاً عن ذلك فاني لا احب ان ادع الولد يخرج بمفرده الى باربس عرفت انطول لايرور منذ زمن بعيد . كان دائمًا غريب الاطوار . وليس هذا مجرد لوم ؟ ولكنه دو طبعه فيها شيء من الكبرياء ، ومن الممكن الا بقبل الضيافة التي اقدمها له دون ان يدفع شيئاً . فكرت ان في امكانني ان اعرض عليه القبام براقبة صفوف الدرس ، وهذا لن يتبعه ابداً . وفضلاً عن ذلك سبجد ما يلهمه به ، ويخرج قليلاً من نفسه . وهو رياضي ممتاز ويستطيع عند الحاجة اعطاء مراجعات في الهندسة او الجبر . والآن حيث لا تلامذة لديه ، فان اثاث بيته والبيان لا تفيده شيء . يجب ان يعطيها اجرة . وبما ان مجبيه الى هنا يوفر عليه الاميار ، فقد فكرت ان في وسعنا ان نحدد له اجرة صغيرة للبنسيون بحيث لا شعر بفضل عليه عليك ان تحاول اقاعه ، وذلك دون تأخير لاني اخشى ان يهزل بسرعه من جراء نظام التغذية السيء . وفضلاً عن ذلك فان افتتاح البنسيون للطلاب سيكون بعد يومين ، ومن المفيد ان نعرف على ماذا عقد النية وفيما اذا كان من الممكن الاعتماد عليه . . . كما يستطيع هو الاعتماد علينا .

« وعدت بالذهاب للتتحدث مع لايروز منذ الغد . وعلى اثر ذلك قال ، كأنه فرج عن نفسه :

« - إيه ! يا له من غلام شجاع ، محميك برنار لقد تقدم

بلطف ليقوم ها بخدمات صغيرة . كان يتحدث عن مراقبة الدرس ؛ ولكنني اخشى ان يكون هو نفسه صغيراً فلا يعرف كيف يفرض احرامه تحدثت اليه طويلاً ووجده ح EIF الروح . ان افضل المسيحيين يصعون من سجاياها هذا المزاح . من المؤسف حقاً ان قيادة هذه النفس قد زيفت ببربته الاولى . لعد اعترف لي انه بدون ايمان . ولكنه قال بللهجه بعنف في الامل . اجبته اني آمل ان اجد فيه جميع الصفات اللازمه لتكوين جندي صغير شجاع للمسيح ، وان عليه ان يهتم بالتفكير في ان يكون على مستوى المواهب التي اودعها الله فيه . قرأتنا معأً بعض اعمال الانجيل وأعتمد ان البدار الصالح لم يسعط في ارض ردينه . لقد بدا متأثراً بكلامي وواعدي التفكير فيه .

« كان برنار قد حذبني قبلًا عن هذه المقابلة مع العجوز . وكانت اعرف بماذا يفكر ، وهكذا فان المحادثة بدت متعنة لى نهضت للذهب ، ولكنه قال ، وهو محتفظ بين يديه باليد النبي مددتها الله . »

« - إيه ! قل لي ، لقد رأيت لورتنا ! كت اعلم ان هذه الابنة العزيزة امضت شهراً كاملاً معك في الجبل الجميل ؛ وببدو انه افادها كثيراً . انا سعيد لمعرفتي انها عادت الى زوجها الذي بدأ يتالم لغيابها الطويل . مؤسف ان عمله لم يسمح له باللحاق بكم الى هناك . »

« انسحبت لأذهب ، وضيقني نزداد اكثر فاكثر لاني اجهل

ما قالته له لورا . لكنه جذبني نحوه بحركة عنيفة متسلطة ،
وانحنى الى الامام نحو اذني :

« - اسرت الي لورا انها كانت تعقد آمالاً ؛ ولكن ،
هس ! ... هي تفضل الا يعرف ذلك احد . اقوله لك لعلمي
انك عارف ، ولأننا رصينان نحن الاثنان . كانت الصغيرة كثيرة
الاضطراب وهي تحدثني ، ووجهها مكسو بالحمرة ؛ انها كثيرة
التحفظ . وبما انها ركعت امامي فقد صلينا الله نحن الاثنان لأنه
اراد ان يبارك هذا الاتحاد .

« يبدو لي ان لورا احسنت عملاً بارجائها هذا الاعتراف
الذى لا تشجع حالتها على القيام به . لو شاورتني لنصحتها
بالتريث لترى دوفيه قبل ان تقول شيئاً ؛ اما أزيysis فلم يكن
يرى شيئاً ، ولكن افراد عائلته كلهم لن يكونوا بهذه مثله .

« عزف العجوز أيضاً الحاناً حول بعض المواقع الرعوية
ثم قال لي ان ابنته تكون سعيدة برأيتي . وهكذا هبطت الى
طبقة آل فيدا .

« أعدلت قراءة ما ذكر اعلاه . وحديثي بهذا الشكل عن
أزيysis يجعلني انا نفسى بغيضاً . افهمه جيداً هكذا ؛ واضيف
هذه السطور القليلة ليستعملها يرنار ، اذا ما دفعه طيشه البديع
لادخال افقه من جديد في هذا الدفتر . وباستمراره في معاشرة
العجز سيفهم ما اريد قوله . اني احب العجوز كثيراً و « فضلاً
عن ذلك » كما يقول ، احترمه ؛ ولكن ما أكاد اصبح بالقرب

منه حتى لا أعود استطيع الشعور بنفسي ! وهذا ما يجعل اجتماعي به شاقاً .

«أحب انته كثيراً، القسيسة . مدام فيدال تشبه إلفير Elvire لامارتين ؛ إلفير هرمة . حديثها لا يخلو من روعة . يحدث لها في الغالب الا تم عبارتها ، الأمر الذي يعطي تفكيرها نوعاً من الرشاقة الشعرية . أنها تضع اللامتهي مع الغامض والناقص . تنتظر من الحياة المستقبلة ما ينقصها هنا . وهذا يتبع لها ان توسع آمالها الى ما لا حد له . أنها تندفع على ضيق ارضها . ورؤيتها القليلة جداً لفيدال جعلتها تصور أنها تشبه . فالرجل الجليل على اهبة الاقلاع دائمًا ، فهو مطلوب لألف عنایه ، لألف هم ، مواعظ ، مؤترات ، زيارات للفقراء والمرضى . لا يشد على يدك الا عند مروره ، ولكن بكثير من الصداقة .

١ «- مستعجل جداً لا استطيع التحدث اليوم .

«فقلت له :

«- سيتـم اللقاء في السـاء
ولـكن لم يكن لـديه وقت ليـسمعني .

«وتـأوهـت مـدام فيـدـال :

«- ليس له لحظة من وقته . لو كنت تعرف كل ما يتـطـوع لـعملـه مـنـذـ ما ... ويـأـنهـ مـعـرـوفـ انهـ لاـ يـرـفـضـ شيئاًـ فالـناسـ

كلهم . . . حين يعود مساء يكون متعباً جداً في أكثر الأحيان بحيث لا أكاد اجرؤ على ان اكلمه خوفاً ان . . . انه يعطي الآخرين كل شيء ولا يبقى لأهل بيته شيء .

« بينما كانت تحدثني تذكرت بعض عودات فيدال يوم كنت اسكن البنسيون . رأيه يأخذ رأسه بين يديه ويصبح بعد مهلة قصيرة . حينئذ فكرت انه يخشى هذه المهلة اكثر مما يتمناها ، وان ما من شيء يمكن ان يعطي له يكون اكثر مدعاه للتعب من وقت قليل للتفكير .

« وسألتني مدام فيدال حين ظهرت خادمة تحمل صينية ملأى :

« أشرب قدح شاي ؟

« سيدتي ، لا يوجد من السكر ما يكفي .

« فلت لك قبلًا ان عليك طلب ذلك من الآنسة راشيل . اذهب بسرعة . . . هل اخبرت اولنثك السادة ؟

« السبد برنار والسيد بوريس خرجا .

« لا بأس ! والسيد ارمان ؟ اسرععي .

« ثم ، دون ان تنتظر خروج الخادمة :

« هذه الفتاة المسكينة اتت من ستراسبور . ليس لها اي . . . نضطر ان نقول لها كل شيء . . . هيء ! .. ماذا تنتظرين ؟ ..

« فالتفتت الخادمة كأفعى ديس على ذيلها .

« - المعيد موجود تحت ، ويربد الصعود . يقول انه لن
يذهب قبل ان يدفع له .

» واوضحت قسمات مدام فيدال قلقاً مفجعاً .

« - كم مرة يجب ان اكرر اني لست المكلفة تسديد
الحسابات . قولي له ان يتوجه الى الآنسة . اذهي ! . . ما
من ساعة راحة ! . . في الحقيقة لا اعرف بماذا تفكر راشيل .

« - الا ننتظرها لتناول الشاي ؟ ..

« - هي لا تشربه ابداً . . آه ! . . افتتاح المدرسة يسبب
لنا الكثير من الهم . الاساتذة المعددون الذين يعرضون انفسهم
يطلبون اجرأً تفوق الحد ؛ او حين تكون اجورهم مقبولة ،
فانهم ، هم انفسهم ، لا يكونون مقبولين . كان اي يشكوا من
الأخبر . لقد كان اي ضعيفاً معه . والآن هو الذي يهدد .
سمعت ما قالته الصغيرة . كل هؤلاء الناس لا يفكرون الا في
المال . . كان لا شيء اهم منه في الدنيا . لا يعرف كيف
نستبدلهم . يعتقد بروسبير ذاته انه ليس لنا الا ان نتوسل الى
الله ليسير كل شيء على ما يرام .

« ودخلت الخادمة بالسكر .

« - هل اخبرت السيد أرمان ؟

« - نعم يا سيدتي . سيأتي حالاً .

« - وسارة؟ .

« هكذا سألتها أنا .

« - لن تعود الا بعد يومين . أنها عند بعض الأصدقاء في انكلترا ؛ عند أهل تلك الفتاة التي رأيتها عندنا . كانوا لطفاء جداً . وأنا سعيدة لأن ساره تستطيع فليلاً ان ... أنها مثل لورا . وجدتها في احسن هيئة . هذه الاقامة في سويسرا ، بعد الجنوب ، أفادتها كثيراً وكانت كثبر اللطف لحملها على هذا العزم . ليس هناك سوى هذا المسكين أرمان الذي لم يترك باريس في كل عطلاته المدرسية .

« - وراشيل؟

« - نعم . صحيح . هي ايضاً . لقد استدعيت من جهات مختلفة ولكنها فضلت البقاء في باريس . ثم ان جدي في حاجة إليها . ومع ذلك فان الانسان في هذه الحياة لا يفعل ما يريد . هذا ما كنت اضطر ان اقوله للولاد بين وقت وآخر . يجب ايضاً ان نفكر في الآخرين . هل تعتقد ابني ، أنا أيضاً ، لم يكن يروح عنى الذهاب للتزلج في « ساس - فيه »؟ ويروسبيير نفسه ، حبن يسافر ، أتعتقد انه يفعل ذلك لمجرد سروره؟ ارمان ، تعرف جيداً ابني لا احب ان نأتي الى هنا دون طرق عنق .

« أضافت ذلك حبن رأت ولدها يدخل

« وقال هذا ماداً إلى يده :

« - با امي العزيزة لقد علمتني دينباً لا أعلق اي اهمية على
لبسى ، وبالمناسبة فان الغاسلة لا تعود الا يوم الثلاثاء والأطواق
الباقيه لي ممزقة .

« تذكرت ما قاله لي اوليفيه عن صديقه ، ويدا لي فعلاً ان
اثراً من اهم العميق يختبئ وراء تهكمه الشير . كان وجه
ارمان نظيفاً ، وانفه منقبضاً يعوجه على شفتيه الرقيقين
المخطوفتين اللون . وتابع :

« - هل اخبرت السيد ، زائرك النبيل ، اتنا ضمنا فريقنا
العادى للالتزام ، لأجل افتتاح فصلنا الشتائى ، بعض النجوم
ذوى التأثير : ابن عضو مجلس شيوخ ، والفيكونت الصغير دو
باسافان شقيق مؤلف شهرى؟ فضلاً عن اثنين آخرين تعرفانهما
قبلًا ، ولكنها لن يكونا في هذا الا اكثرا شرفاؤ : الأمير بوريس
والمركي دو بروفيتانديو ؛ ثم هناك آخرون لا تزال القابهم
وفضائلهم قيد الاكتشاف .

« فقالت الام ضاحكة لمزاحه :

« - انت ترى انه لم يتغير .

« كنت كثير المخوف من ان يبدأ الحديث عن لورا ،
فاوجزت زيارتي وهبطت بسرعة للجتماع براشيل .

« كانت رافعة كمبي قميصها لتساعد في ترتيب غرفة

الدرس ١ لكنها اسقطتها بسرعة حين رأني أقترب .

« - كان من أشق الامور على ان الجا اليك . - قالت ذلك وهي تسير بي الى غرفة صغيرة مجاورة ، تستعمل للدروس الخاصة . - كنت اريد ان الجا الى دوفييه الذي كان قد رجاني لذلك . ولكن منذ ان رأيت لورا ثانية ادركت انني لا استطيع ان الجا اليه ...

« كانت كثيرة الشحوب ، وحين قالت الكلمات الاخيرة تحركت ذقنها وشفتها باضطراب تشنجي منها من التكلم بعض الوقت . وقد أشحت بنظري عنها خوفاً من مضايقتها . استندت الى الباب الذي اغلقته . وأردت ان آخذ يدها لكنها انتزعتها من بين يدي . وتابعت أخيراً كأن صوتها انقضى بتأثير الجهد :

« - أستطيع ان تفرضي عشرة آلاف فرنك ؟ افتتاح المدرسة يبشر بخير ، وأأمل ان استطيع اعادتها لك بعد الافتتاح .

« - متى تحتاجينها ؟

« فلم تجب . وقلت :

« - معي الآن ما يزيد قليلاً عن الالف فرنك . سأكمل المبلغ صباح الغد . . . هذا المساء اذا لزم الامر .

« - كلا ؛ غداً يكفي . ولكن اذا استطعت ان ترك لي الف فرنك حالاً ، على الا تحرم نفسك .

« انحرجت الالف فرنك من حافظة نقودي وقدمتها اليها :

« - اتريدين الفاً واربعمئة فرنك؟ »

« فخفضت رأسها ولفظت « نعم » ضعيفة بحيث لم اكد اسمعها ، ثم سارت متزنة الى احد مقاعد الدرس وارتمت عليه ، وأسندت مرفقيها الى الطبقة امامها ، وظللت لحظات ووجهها بين يديها . فكرت انها تبكي ولكن حين وضعت يدي على كتفها رفعت جبها ورأيت عينيها جافتين . فقلت لها : « - راشيل ، لا تضطري لطلبك هذا مني . أنا سعيد لاستطاعتي إسداء هذا المعروف اليك . »

« فتطلعت الى بوقار :

« - ان الشاق على هو اضطراري للتسلل اليك الا تحدث بذلك جدي ولا امي . فمنذ عهدا الى بحسابات البنسيون جعلتها يظنن ان ... اخيراً انها لا يعرفان . لا تقل لها شيئاً ، اتوسل اليك . جدي هرم وامي لا تحتمل الكثير من الألم . »

« - راشيل ، ليست هي التي نقاسي كل هذا الألم ، بل أنتِ . »

« - انها قاست الكثير من الألم . اما الان فهي متعبة . وقد جاء دوري . ليس لي ما اعمله غير ذلك . »

« قالت ببساطة كل هذه الكلمات البسيطة ولم أشعر بأي مرارة في هذا الاستسلام ، بل على العكس ، شعرت بنوع من

طمأنينة الفكر وقالت :

« ولكن لا تظن ان الامور تسير بشكل سبء ، كل ما في الامر انها فترة صعبة لأن بعض الدائنين فارغو الصبر .

« سمعت الخادمة منذ لحظة تتحدث عن اساذ معيد يطالب بدينه .

« نعم . جاء يرهق جدي بمشهد مؤلم ومن المؤسف انني لم استطع منعه . انه رجل شرس ، فظ . ويجب ان اذهب لأدفع له .

« أترضين ان اذهب بدلاً منك ؟

« فترددت لحظة وحاوت عيناً ان تبتسم .

« شكرأً ، ولكن لا . من الافضل ان اكون انا ... ولكن اخرج معي ، اتريد؟ اشعر بشيء من الخوف منه ، اذا رأك فلن يحرو ان يقول شيئاً

« ساحة البنسيون تشرف بعد بعض درجات على الحديقة التابعة لها ، والتي يفصلها عنها درايزين كان المعيد يستند اليه ، ومرفقاه مهدوفان الى الوراء . كان يعتمر لبادة رخوة ويدخن غليوناً . وبينما كانت راشيل تفاوضه جاء أرمان الى ، وقال بوقاحة :

« راشيل استدانت منك . وقد اتيت سريعاً لتخرجهما من قلق خائق . انه كالعادة الكسندر « أخي الخنزير » الذي

يستدرين في المستعمرات . ارادت اخفاء ذلك عن اهلي . وقد تركت قبلًا نصف بائتها لتصخم بائنة لورا . ولكن الباقي كله ذهب هذه المرة . لم تحدثك بشيء من ذلك كما يسلو . ان توافعها يثير حنقى . هذه واحدة من أشأم المزحات في هذا العالم السافل : في كل مرة يضحي واحد بنفسه في سبيل الآخرين ، فكن واثقاً انه افضل منهم ... كل ما فعلته في سبيل لورا ! .. كافأتها هذه جيداً ، الساقطة ! ..

« فصرخت مشمتزاً :

« - أرمان ، ليس من حقك الحكم على اختك .

« ولكنه قال بصوت مرتج ذي صفير :

« - بل على العكس ، لأنني لست افضل منها احكم عليها . انا اعرف ذلك في نفسي . وراشيل ، هي ، لا تحكم علينا . انها لا تحكم على احد أبداً ... نعم ، الساقطة ، الساقطة ... وما اعتقاده فيها لم اخفه عنها ، واقسم لك ... انت الذي غطيت ، حيث كل هذا انت الذي كنا نعرف ... جدي نفسه لا يرى شيئاً في الأمر . وامي اتجهد نفسها لثلا تفهم شيئاً . اما ابي فيسلم هذا للرب ؛ وهذا اسهل . عند كل صعوبة يجتو للصلة ويترك راشيل تتملص من الورطة . كل ما يطلب هو الا يرى الامور على حقيقتها . انه يركض » . ويبذل الجهد . ولا يبقى في البيت . انا ادرك انه يختنق هنا ؛ اما انا

فأموت . هو يبحث عن تغدير لنفسه ، وامي اثناء ذلك تنظم اشعاراً . اوه ! .. انا لا الومها فانا افعل ذلك ايضاً . ولكنني اعرف على الاقل ابي قدر . ولم احاول قط ان اكون شيئاً آخر .
قل اليـس مـقـرـفـاً : جـديـ الذـي « يـعـمـلـ مـحـسـاً » مع لـابـيـروـزـ لأنـه بـحـاجـةـ إـلـىـ مـعـدـ؟ـ وـفـجـأـةـ .ـ ماـذـاـ تـجـرـأـ هـذـاـ الخـتـزـيرـ هـنـاكـ انـ يـقـولـ لـأـخـتـيـ؟ـ اـذـاـ لمـ يـلـفـ عـلـيـهـاـ التـحـيـةـ حـينـ ذـهـابـهـ فـسـأـخـلـ قـبـضـتـيـ فـيـ حـلـقـوـمـهـ .ـ .ـ .ـ

« وـانـدـفـعـ نـحـوـ الـبـوهـيـيـ ،ـ وـظـنـنـتـ اـنـهـ رـاحـ يـصـدـمـهـ .ـ وـلـكـنـ الآـخـرـ حـينـ رـآـهـ بـقـرـبـ انـحـنـىـ لـهـ رـافـعـاـ قـبـعـتـهـ بـحـرـكـةـ مـسـرـحـيـةـ سـاخـنـةـ ،ـ ثـمـ غـابـ تـحـتـ القـبـةـ .ـ وـفيـ تـلـكـ اللـحظـةـ فـتـحـ الـبـابـ الكـبـيرـ وـدـخـلـ الـقـسـيسـ .ـ كـانـ يـرـتـدـيـ مـعـطـفـاًـ ،ـ وـبـحـمـلـ اـنـبـوبـ موـقـدـ ،ـ وـقـفـازـيـنـ اـسـوـدـيـنـ ،ـ كـمـنـ يـعـودـ مـنـ حـفـلـةـ عـمـادـةـ اوـ دـفـنـ .ـ وـتـبـادـلـ مـعـ المـعـيدـ السـابـقـ تـحـيـةـ اـحتـفـالـيـةـ .ـ

« اـقـرـبـ اـرـمـانـ وـرـائـيـلـ .ـ وـحـينـ لـحـقـ بـهـاـ فـيـدـالـ بـالـقـرـبـ مـنـ بـيـنـ

قالـتـ رـاشـيلـ لـوـالـدـهـاـ :

« لـقـدـ سـوـيـ كـلـ شـيـءـ .ـ

« فـقـبـلـهـاـ هـذـاـ فـيـ جـبـهـتـهـ :

« هـاـ اـنـتـ تـرـيـنـ مـاـ قـلـتـهـ لـكـ يـاـ اـبـنـيـ :ـ اـنـ اللهـ لـاـ بـرـكـ مـنـ يـعـتمـدـ عـلـيـهـ .ـ

« تمـ اـمـسـكـنـيـ بـيـدـيـ :

« اـذـاهـبـ اـنـتـ الـآنـ؟ـ ..ـ اـلـىـ الـلـقـاءـ فـيـ الـقـرـيبـ :ـ اـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ

٣

يوميات ادوار

(تابع)

« ٢٩ ايلول - زيارة للايروز . ترددت الخادمة في دعوتي الى الدخول . « السيد لا يريد رؤية احد ». ألححت كثيراً حتى أدخلتني الى الصالون . كانت مصاريع النوافذ مقفلة : لم أكدر أتبين في الظلام معلمي القديم الغارق في كنبة كبيرة مستقيمة لم ينهض . ودون أن ينظر إلى مد من جانبه يده الرخوة التي سقطت بعدما شددت عليها . جلست بجانبه بحيث لا اراه إلا جانبياً . ظلت قسماته قاسية جامدة . كانت شفتاه ترتجفان لحظات ، لكنه لم يقل شيئاً . بدأت ارتتاب فيها اذا كان قد عرفني . دق المنبه اربع ساعات ؛ حيثند بأنه تحرك بدولاب الساعة ، فأدار رأسه بيضاء ، وبصوت احتفالي قوي لكنه غير معبر بأنه آت من وراء القبر ، قال :

« - لماذا أدخلت؟... كنت امرت الخادمة ان تقول لكل من يأتي في طلبي « ان السيد لايروز مات » .

«اغتممت» ليس من كلماته الحمقاء يقدر ما هو من نبرته المبهргة المتصنعة والتي لم يعودني ايها استاذي القديم الذي كان من عادته ان يكون طبيعياً معي وواثقاً بي.

«اخيراً اجبت :

«ـ هذه الفتاة لم تشا ان تكذب . لا توبخها لأنها فتحت لي . انا سعيد برؤيتها .

ـ فردد بغياء : «السيد لا بيروز مات». ثم عاد الى الانغماس في الصمت . اما انا فأتيت بحركة سام ونهضت استعداداً للرحيل «مؤجلاً البحث عن سبب هذه المهزلة المحرنة الى يوم آخر . لكن الخادمة دخلت هذه اللحظة ؛ وكانت تحمل قدحاً من الشوكولا الساخنة :

ـ ليجهد السيد نفسه قليلاً . انه لم يتناول شيئاً بعد .
ـ فأق لابيروز بانتفاضة ملل كممث قطع عليه كومبارس أخرق عمله .

ـ في ما بعد . حين يذهب هذا السيد .

ـ ولكن ما كادت الخادمة تغلق الباب حتى قال :

ـ يا صديقي ، كن طيباً . هات لي قدح ماء ، ارجوك .
ـ قدح ماء بسيط . اكاد اموت من العطش .

ـ وجدت في غرفة الطعام زجاجة وقدحاً . فعلاً القدح وأفرغه دفعه واحدة ، ومسح شفتيه بكم سترته الحريرية

القدية . وسألته :

« اتشعر بالحمى ؟ ..

« فذكرته عباري بعاطفة شخصيه :

« - السيد لا بيروز لا يشكو الحمى . ليس به شيء . منذ مساء الاربعاء لم يعد السيد لا بيروز حياً .

« ترددت في ما اذا لم يكن من الافضل عدم الدخول في لعبه :

« - أليس نهار الاربعاء هو النهار الذي جاء فيه بوريس ليراك ؟ ..

« فلدار رأسه نحوبي وانارت ابتسامة ، كظل ابتسامته الماضية ، قسماته عند ذكر اسم بوريس . ورضي اخيراً ان يتخل عن الدور الذي يمثله :

« يا صديقي ، استطيع ان اقول لك ، لك انت : هذه الاربعاء كانت اليوم الاخير الذي بقى لي . - ثم تابع بصوت اكثـر انخفاضاً : - النهـار الاخير الذي منحته لنفسي قبل ... ان انتهـي .

« كان مما يؤلمني حتى النهاية ان أرى لا بيروز يعود الى ذلك الحديث المشؤوم . وأدركت اني لم اكن احمل ما قاله لي سابقاً على محمل الجد لأنني تركت ذاكرتي تتخل عنـه ، وها انا ألومه الآن . تذكرة كل شيء ولكنـه أدهـشـني ، لأنـه حدـثـني اوـلاً عنـ

استحقاق دين بعيد جداً ، وبما انني جعلته يلاحظ ذلك ، فقد اعترف لي ، بنبرة صوت عاد طبيعياً ، وبشيء من التهكم ايضاً ، انه خدعني في ما يتعلق بالتاريخ ، وانه ارجعه قليلاً الى الوراء خوفاً من ان احاول الاستيلاء عليه او ان اسرع لأفعل ذلك عند عودتي . ولكن ركع على طول امسيات عديدة متتابعة متوسلاً الى الله ان يمنعني قبل موته رؤية بورييس . وأضاف :

« - كنت متفقاً معه ايضاً اني عند الضرورة أرجيء رحيله بضعة ايام ... وذلك بسبب تأكيدك لي انك ستأتي به إلی ، اتذكر ؟ ... »

« اخذت يده ، كانت باردة كالثلج ، فأدفأتها بين يدي . وتتابع بصوت رتيب :

« - حينئذ ، لما رأيت انك لم تنتظر نهاية العطلة لتعود ، وان في وسعي رؤية الصغير دون ان يؤخر ذلك رحيله ، ظنت ان ... بدا لي ان الله استجاب صلاتي . ظنت استحسنني ! نعم ، ظنت ذلك . لم ادرك انه كان يسخر مني ، كما هي الحال دائمًا . »

« واحتطف يده من يدي » وبنبرة اكثر حياة :

« - اذاً ، وعدت نفسى بالانتهاء من الحياة مساء الاربعاء ، ونهار الاربعاء اتيتني ببورييس . يحب ان اقول اني لم اشعر عند رؤيته بكل السرور الذي وعدت نفسى به . فكرت في ذلك

على الاتر . بالتأكيد لم اكن على حق في ان آمل ان هذا الصغير يمكن ان يكون سعيداً برؤيتي . والدته لم تحدثه عني مطلقاً .

«توقف» وتسنفناه ترتجفان فظلت ابه على اهبه البكاء .
فقلت مجازفاً :

« - بوريس لا يطلب سوى ان يحبك . ولكن اترك له
الوقت الكافي ليعرفك .

فقال لايروز :

« - بعدما تركني الصغير دون ان يصفعني الى ، وحين وجدت
نفسه وحيداً في المساء (لأنك تعلم ان مدام دو لايروز ليست
هنا) ، قلت لنفسي : « هيا ! . هذه هي اللحظة المناسبة » .
يحب ان تعلم ان احي ، ذلك الذي فقدته ، قد اوصى لي
بزوج من المسدسات احتفظ بها دائمًا بجانبي ، في غلاف على
رأس فراش سريري . اخذت هذا الغلاف . وجلست على
كنبة ؛ هناك ، كما انا في هذه اللحظة . وحسوت احد المسدسين
بالرصاص .. .

« والثفت نحوي . وفجأة ، وبشراسة » رد كلامها
شككت في كلامه :

« - نعم ، حشوتهم بالرصاص . تستطيع رؤيته . انه لا
يزال مخشوأ . ماذا جرى ؟ .. لم استطع ان افهم . حلت
المسدس الى جبهتي ، وأبقيته طويلاً على صدغي . ولم اطلق

النار . لم استطع . . . في اللحظة الأخيرة . من العار القول . . . اني لم اكن املك الشجاعة الكافية لاطلاق النار .

« وكان قد حي وهو يتكلم . عادت نظرته اكثر حياة ، ولو ن الدم خديه قليلاً . وتنطلع الي هازاً رأسه :

« - كيف تفسر ذلك ؟ .. امر عزمت عليه » . ومنذ شهور لم أكف عن التفكير فيه . . . ربما بسبب ذلك استنفذت كل شجاعتي بالتفكير . . .

« فقلت له :

« - كيف استنفذت السرور ببرؤية بورييس قبل عودته ؟ ..
« ولكنه استمر :

« - ظللت طويلاً والمسدس على صدغي . كانت اصبعي على الزناد . ضغطت قليلاً ، ولكن ليس بقوة . قلت لنفسي : « بعد لحظة سأزيد من الضغط وتنطلق الرصاصة ». شعرت ببرودة المعدن ، وقلت لنفسي : « بعد لحظة ، لن اشعر بشيء ، ولكني ساسمع دويأ رهيباً . . . » تصوراً بالقرب من الاذن ! .. ان هذا على المخصوص هو الذي أوقفني : الخوف من الدوي . . . مستحيل ؛ ففي اللحظة التي يموت المرء فيها . . . نعم ! .. ولكن كنت أأمل ان يكون الموت كالنوم ؛ ودوي الانفجار ؟ ان هذا لا ينبع ، انه يوقظ . . . نعم ؛ ان هذا بالتأكيد هو ما خفت منه . كنت خائفاً ان استيقظ فجأة بدلاً من ان انام .

« ويد انه تمالك نفسه ؛ او بالاحرى تجمع . وعادت شفتها طوال لحظات تحركان في الفراغ ، وتتابع :

« - كل هذا لم أقله لنفسي الا في ما بعد . والحقيقة ، اذا كنت لم اقتل نفسي فلانى لم اكن حراً . واقول الان : كنت خائفاً ! ولكن لا : لم يكن الامر كذلك . شيء غريب تماماً عن ارادتي ، أقوى من ارادتي ، امسكتني ... كما لو ان الله لا يريد ان اذهب . تصور عروسأ دمية تريد ترك المسرح قبل نهاية المسرحية ... قفى هناك ! ..

لا يزالون بحاجة اليك لاجل النهاية . آه ! .. هل اعتقدت ان في امكانك الرحيل حين تثنين ؟ ... ادركت ان ما ندعوه ارادتنا ، هي الخيوط التي تجعل العروس الدمية تمشي ، وان الله يسحب هذه الخيوط . ألم تفهم ؟ ... سأشرح لك . اليك : اقول لنفسي في الوقت الحاضر : « اريد ان ارفع ذراعي اليمني » ؛ وأرفعها . (ورفعها فعلاً) . ولكن الخيط كان قد رفع فعلاً ليجعلني افكر واقول : « اريد ان ارفع ذراعي اليمني » . والبرهان على اني لست حراً هو انه لو اضطررت الى رفع الذراع الاخرى لكونت قلت : « سأرفع ذراعي اليسرى » ... كلا ، ارى انك لم تفهمي . لست حراً بفهمك لي ... اوه ! . اني الان احسب ان الله يلهمو . وذاك الذي يجعلنا نفعله ، فاته يلهمو بأن بدعنا نظن اتنا اردنا ان نفعله . وهنا لعبه الشنيع ... اعتقدت اني اصبحت مجنوناً ؟ ...

للمناسبة : تصور ان مدام لا بروز ... انت تعلم انها دخلت الى ملجاً للعجزة ... حسناً ، تصور انها تتوجهوا انه مأوى للمجانين وانني ادخلتها اليه لأنخلص منها قاصداً ان يظنوا انها مجنونة .. قل لي ان هذا عجيب : ان أي عابر سبيل تصادفه في الشارع يمكن ان يفهمك افضل من تلك التي اعطيتها حياتك ... في الايام الاولى كنت اذهب كل يوم لرؤيتها . ولكن ما ان تشاهدني : « آه ! انت هنا ! جئت تتجسس على ايضاً ... » فاضطررت الى الاقلاع عن هذه الزيارات التي لا تنفع في غير اثارتها . كيف تريد ان تتعلق بعد بالحياة ما دمنا لا نستطيع عمل خير مع إنسان ؟ ..

« وخفت الدموع صوته ، فخفض رأسه ، وظننت انه سيسقط منهوكاً ، ولكنه قال باندفاع فجائي :

- اتدري ماذا فعلت قبل رحيلها ؟ .. اغتصبت درجي وأحرقت جميع رسائل المرحوم اخي . كانت دائمًا تغار من اخي . خصوصاً منذ وفاته . كانت تثير لي المشاكل حين تفاجئني ليلاً وانا اقرأ رسائله . فتصرخ « آه ! ... انت تنتظر نومي . انت تخبيء مني » . وايضاً : « من الافضل ان تذهب وتنام . انت تتعب عينيك » . كان بفال انها كثيرة العناية بي ، ولكنني اعرفها . كان ذلك من الغيرة لم تكن تريد ان تتركني وحيداً معه .

« - هذا يدل على انها تحبك ، فلا غيرة بلا حب .

« - لا بأس . وافقني على انه امر مخزن ان يصنع الحب بلية الحياة بدلاً من ان يصنع سعادتها .

« وكان قد حمي كثيراً وهو بتكلم ، وفجأة قال :

« - انا جائع . حين اريد ان آكل فان هذه الخادمه تأتيني دائمًا بالشوكولا قالت لها مدام لا بيروز ابني لا اتناول شيئاً آخر . ستكون لطيفاً اذا ذهبت الى المطبخ ... الباب الثاني الى اليمين ، في الدهلizer ... لترى اذا كان هنالك بيض . اظن اها قالت يوجد بيض .

« - اتريد ان تهيء لك بيضة بالصلحون ؟

« - اظن سآكل اثنين . ا تكون كثير الطيبة ؟ .. انا لم اوصل الى ان اكون مطاعاً .

« فقلت له عند عودتي :

« - يا صديقي العزيز ، سيكون بيضك جاهزاً بعد لحظة . اذا سمحت لي فسأبقى لأراك تتناوله : نعم ، هذا يسري . كان شاقاً علي ان اسمعك تقول من لحظة انك لم تستطع ان تعمل خبراً مع احد . يبدو انك نست حفيدك . وصديفك » السيد أزابيس ، يعرض عليك الذهب لتعيش بجانبه في البنسيون . طلب الي ان اقول لك ذلك . بعتقد انه ما دامت مدام لا بيروز لم تعد هنا الان ، فليس من شيء يرغبك على البقاء .

« كنت انتظر بعض المقاومة منه . لكنه استعلم عن شروط الاقامة الجديدة التي قدمت له .. وقال :

« اذا لم اكن قتلت نفسي ، فلست أقل موتاً . هنا او هناك ؛ سيان . تستطيع ان تأخذنى .

« وافقت على المجيء لأنّـخذـهـ فيـالـعـدـ » وأن أضع منـذـ الأنـ تحتـ تـصـرـفـهـ حـقـيـقـيـنـ لـيـسـطـعـ انـ يـرـتـبـ فـيـهـاـ الملـاسـ التيـ سيكونـ فيـ حـاجـةـ اليـهـ والـقـيـ يـأـخـذـهـ مـعـهـ وأـضـفـتـ .

«ـ بماـ انـكـ سـتـحـفـظـ بـالـتـصـرـفـ بـهـذـهـ الشـقـةـ إـلـىـ نـهاـيـةـ عـقـدـ الـأـجـارـ ،ـ فـسـيـقـيـ اـمـامـكـ مـتـسـعـ مـنـ الـوقـتـ لـتـأـيـ وـتـأـخـذـ ماـ يـنـقـصـكـ .ـ

ـ فـكـرـرـ :

ـ اـنـيـ اـسـبـبـ لـكـ الـكـثـيرـ مـنـ التـعبـ .ـ اـنـ طـيـبـ .ـ

ـ كـنـتـ اـرـيدـ اـنـ يـعـهـدـ اـلـىـ بـمـسـدـسـيـهـ اللـذـيـنـ لاـ يـحـتـاجـهـاـ ،ـ كـمـاـ قـلـتـ لـهـ ،ـ وـلـكـنـهـ أـيـ اـنـ بـتـرـكـهـاـ لـيـ .ـ

ـ لاـ يـسـاـورـكـ خـوـفـ .ـ فـالـذـيـ لـمـ اـفـعـلـهـ فـيـ ذـلـكـ الـيـومـ اـعـلـمـ اـنـيـ لـنـ اـسـتـطـعـ فـعـلـهـ اـبـداـ .ـ لـكـنـهـاـ التـذـكـارـ الـوحـيدـ الـذـيـ بـقـيـ لـيـ مـنـ اـخـيـ .ـ وـاـنـاـ فـيـ حـاجـةـ اـيـضاـ إـلـىـ اـنـ بـذـكـرـانـيـ بـأـنـيـ لـسـتـ سـوـىـ لـعـبـةـ بـيـنـ يـدـيـ اللهـ .ـ

٤

كان الحر شديداً ذلك النهار . من نوافذ بنسيون فيدال المفتوحة بانت رؤوس اشجار الحديقة التي لا يزال يطفو عليها شيء كثير من صيف قيد الاعداد .

يوم افتتاح المدرسة هذا كان فرصة لأزييس العجوز لكي يلقي خطاباً . كان واقفاً بجانب المنبر مدبراً وجهه نحو التلامذة كما يحمل به . وكان لا يبرر العجوز جالساً على المنبر . وقد نهض عند دخول التلامذة . الا ان اشارته صداقة من أزييس دعته للجلوس . استقر نظره القلق على بوريس أولاً . هذه النظرة كانت تضيق بوريس اكثر مما ضيقه أزييس في خطابه ، حين قدم للأولاد استاذهم الجديد ، ظاناً ان من واجبه ان يشير الى القربى التي تربط الاستاذ بواحده منهم . ومم ذلك فان لا بروز اغتنم لاستطاعته التقاط نظر بوريس . وفكرة : اهلاً لا مبالغة منه ، انه برود .

وكان بوريس يفكر :

- أوه ! .. ليتركني وشافي . ليقلع عن ان يجعلني « محطة الانثار » . كان رفقاء ينحيفونه . وكان يضطر الى الانضمام اليهم

عند الخروج من المدرسة ، وسمع احاديثهم طوال المسافه بين المدرسة و « العلبة ». كان يريد ان يجدوا حذوهم بداع الحاجة القصوى للتعاطف ، ولكن طبيعته المرهقة جداً كانت تختلفه ؛ والكلمات تقف على شفتيه ؛ وكان يجدهم على ضسهه ويحاول ان يمنع ظهوره ، ويحاول ايضاً ان يصحح ليتجنب السخرية ؛ ولكنه عبثاً حاول : فقد ظهر بين الآخرين كأنه فتاة ، وكان يشعر بذلك ويمزح جداً .

وتشكلت جماعات على الأثر ، كان حبه العقد فيها تلميذ يدعى ليون جيريدانيزول ، وقد فرض نفسه . انه اكبر بقليل من الآخرين ، واكثر تقدماً في دروسه . اسمر الجلد ، اسود الشعر ، اسود العينين . ولم يكن كثير الكبر او قوياً بشكل خاص ، ولكن كان عنده ما يسمى « إقدام » . مهيب حقيقة . حتى ان جورج مولينيه نفسه اقر بأن جيريدانيزول قد بهره ؛ وانت تعرف ان بيري يحتاج الى شيء عظيم ». الم بره بأم عينه هذا الصباح يقترب من امرأة شابة تحمل ولداً بين ذراعيها ويقول لها :

- هل هذا الولد لك يا سيدتي ؟ .. (فيل هذا بتحية كبيرة) . انه قبيح جداً ، ولدك . ولكن اطمئني : فانه لن يعيش .

وضحك جورج ضحكة مجلجة .

- لا ، دون مزاح ؟ ..

هكذا قال فيليب أدامتي ، صديقه ، والذي اورد جورج
قصته .

هذا الحديث الواقع كان مبعث سرورهم ؟ لا ينخيلون
الطف منه . انه زورق استعمل كثيراً من قبل ، أحده لبون من
ابن عمه ستروفيلو ، ولكن لم يكن لخورج ان يعرفه .

في البنسيوب نال مولينيه وأدامتي حق الجلوس على المقد
الذى يجلس عليه جيريدانيزول ، وهو المفعد الخامس ، ودلك
حق لا يتعرضوا كثيراً لنظر البيدق . كان ادامبي الى يسار
مولينيه ، والى يمينه جيريدانيزول ، المسمى جيري ، وعلى طرف
المقد عجلس بوربس ، ووراء هذا ناسافان .

عاش غونتران دو بناسافان حباً نائساً منذ وفاة والده .
والحياة التي كان يعيشها قبلَ لم تكن مرحة . ادرك منذ وفت
طوبيل انه ليس له ان يتضرر اي تعاطف او سند من اخيه . وكان
قد أمضى العطلة في مناطعة بروتانية حيث اخذته خادمه
العجز المخلصة سرافين الى عائلتها . انه شعر برغبة حبه
لخته لينبت لأنبيه انه افضل منه . وقد دخل البنسيوب من
تلنائه ، وبمحض اختياره ، وبالرغبة في عدم السكن عند اخيه
في ذلك القصر القائم في شارع بابيلون الذي لا يذكره الا
بامور حزينة . لم تشا سرافين ان تتركه ، فانحذت مسكيتا في
باريس وتح لها ذلك دخل قليل وصعه ولدا الكونت المرحوم
تحت نصرفها بناء على بند صريح في الوصبة . وكان لغونتران

غرفته الخاصة التي يشغلها أيام خروجه من المدرسة . وقد زينها حسب ذوقه . وكان بتناول وجبتين من الطعام أسبوعاً مع سيرافين ؛ وكانت هذه تعني به ، وتحرص على الا ينفصه شيء . ويجانبها يثرثر غوينزان على هواه ، مع انه لا يستطيع ان يحدثها بشيء مما يعتمل في صدره . وفي البنسيون لا يدع الآخرين يطعنون شخصه . يسمع رفافه بأذن ساهية وهم يزحفون ويرفضن في الغالب ان يلعب معهم هو ايضاً يفضل القراءة على الالعاب التي لا تكون في المسواء الطلق . يجب الرياضة ، جميع انواع الرياضة ، لكنه بفضل اللعبة التي يستطيع لعبها بمفرده . وهو ايضاً فخور ولا يلهو مع احد . وايام الأحد ، حسب الفصول ، يتزلج ، ويسبح ، ويجدف ، او يذهب في سباقات كبيرة في البرية . انه كثير النفور ولا يحاول التغلب على نفوره : لا لأنه لا يحاول ان يوسع مداركه ، ولكنه يقوى هذه المدارك . لقد رأيناه بجانب سرير والده لعله ليس بالسذاجة التي يظن . عند وفاته . ولكنه لا يجب الغواص . ويضيق ذرعاً حين لا يعود يشبه نفسه . واذا كان قد توصل الى البقاء على رأس صفة فقد كان ذلك بداعم الاجتهد لا من السهولة . سوف يجد بورييس حماية بجانبه اذا عرف كيف يبحث عن هذه الحماية ، ولكن جاره جورج هو الذي يحيط به « اما جورج فلا يتبعه الا الى جيري الذي لا يتبعه الى احد .

كان لدى جورج اخبار مهمة يريد ايصاها الى فيليب ادامنتي ، لكنه رأى ان من الحكمة الا يكتتبها اليه كتابة .

صباح يوم الافتتاح وصل امام ناب المدرسة ، قبل بدء الصفوف بربع ساعة . لقد انتظر هذا الافتتاححقيقة . وبعدها مشى منه خطوة امام الباب سمع لبون جيريدانيزول يخاطب امرأة شابة ؛ وعلى اثر ذلك كان الولدان قد عرقا في حديث ليكتشفا انها سيكونان رفيقين في البنسيون . وكان سرور جورج عظيماً .

وعند الخروج من المدرسة استطاع جورج وفيليب ان يتلقيا اخيراً ، فسارا نحو بنسيون أزاييس مع التلامذة الآخرين ، ولكن في معزل عنهم ليستطعوا التحدث بحرية وقد بدأ جورج وهو يشير باصبعه الى الوردة الصفراء التي ما زال فيفي يزين عروته بها :

- الافضل ان تخفي هذه .

فسأل فيليب وقد رأى ان جورج لا يضع وردته :

- لماذا ؟

- يخشى ان يقبض عليك يا صغيري . اردت ان اقول لك ذلك قبل الصدف ؛ ما كان عليك الا ان تصلك قبل الوقت .
انتظرتك امام الباب لأحدرك .

فقال فيفي :

- ولكنني لم اعرف .

فقال جورج مقلداً :

- لم اعرف ، لم اعرف . كان عليك ان تفكك ان من الممكن ان تكون لدى ما اقوله لك منذ ان تعددت على رؤيتك في هولغات .

كان الهم الدائم لهذين الولدين هو ان يحجز كل منها على الآخر . ان فيفي مدین بما يمتاز به عن غيره لوضعيه والده وثروته ، ولكن جورج يفضلها كثيراً بجرأته وواقحه . ويضطر فيفي الى ان يبذل جهداً مفرطاً حتى لا ييفي في آخر الجموع . وليس هو بالغلام العاطل ولكنه رخو . قال :

- حبينا ! .. هات ما عندك .

وسمعهما لبون جيريدانيزول الذي اقترب منها . ولم يكن جورج ليعلم اذا سمعه هذا ؛ وادا كان الآخر يدهشه احياناً فان لدى جورج ما يدهشه بدورة . وهذا قال لفيفي بنبر كثيرة البساطة :

- لقد سجنت برالين الصغيرة .

- برالين ! ..

هكذا صرخ فيفي وقد أربعه ببرود جورج . وبما ان لبون تظاهر بالاهتمام فان فيفي سأل جورج :

- ايمكن ان نقول له ؟ ..

- بالتأكيد ! ..

فالجورج وهو يهز كتفيه . حينئذ قال فيفي بلجييري مشيراً الى جورج :

- انها صاحبته .
ثم لحوج :

- كيف عرفت ذلك ؟ ..
- جرمين التي التقيتها هي التي اخبرتني .

وقص على فيفي انه حين مر بباريس منذ اثنى عشر يوماً اراد رؤيه احدى الشقق التي كان مولينيه وكيل النيابة قد اشار اليها في السابق على انها «مسرح هذه الموبقات». وفд وجد الباب مغللاً. واثناء طوافة في الحي التقى بعد وقت طويل بجرمن « صاحبة ففي » التي نقلت اليه الخبر : « كبسه » قام بها الشرطة عند بدء العطلة. اما ما كان يجهله هؤلاء النسوة وأولئك الولاد فهو ان بروفيتانديو كان يحرص اشد الحرص على ان يعين هذه العملية موعداً يكون فيه الجانحون الفاசرون قد تفرقوا ، راغباً في عدم إيقاعهم في الشبكة ليوفر هذه الفضيحة على اهلهم .

وردد ففي من دون تعليق :
- نعم يا صديهي ، نعم يا صديفي ! ..

معتبراً ان جورج وهو قد نجوا من هذه الورطة
وقال جورج وهو يضحك :

- ان هذا يبعث البرد في عمودك الفقري « اليس كذلك ؟
اما ان تكون هو نفسه خائفاً فقد رأى ان لا فائدة من

الاعتراف بذلك خصوصاً أمام جيريدانيزول .

يمكن الظن ، من هذا الحوار ، ان هؤلاء الاولاد اكثر فساداً مما هم . انهم يتكلمون كذلك ليروحوا عن انفسهم ، وانا متأكد من ذلك . ويدخل في حالتهم شيء من التبعج . لا يهم : جيريدانيزول يسمعهم ؛ يسمعهم ويدفعهم للكلام . ان هذه الاحاديث تتسلل ابن عمه ستروفيلو حين ينقلها اليها هذا المساء .

في هذا المساء نفسه لقي برنار ادوار .

- هل مر الافتتاح على خير ؟

- لا بأس .

وبما انه سكت ، اضاف ادوار :

- يا سيد برنار ، اذا لم تكن ذا مزاج لتتكلم من تلقائك فلا تعتمد على لأدفعك . انا اكره الاستجابات . ولكن اسمح لي بتذكيرك انك عرضت علي خدماتك ، وان من حقي ان آمل منك بعض القصص ...

فقال برنار مكرهاً :

- وماذا ت يريد ان تعرف ؟ الأب أزاييس القى خطاباً احتفالياً عرض فيه على الاولاد ان يثبوا « باندفاع مشترك وبهمة سباب ... » وقد حفظت هذه الكلمات لأنها تكررت ثلاث مرات . ويزعم أرمان ان العجوز يضع هذه الكلمات في كل

من خطاباته . كنا جالسين ، انا وهو ، على المبعد الآخر ، في صدر قاعة الصف نتأمل دخول الاولاد ، كما كان نحو يتأمل دخول الحيوانات الى السفينة كان بينهم من جميع الانواع . المجنزة ، وذات الجلود السميكه ، والرخويات ، وغيرها من عادات الفقار . وحين اخذوا ينحدرون في ما بينهم بعد الخطاب ، لاحظنا ، أرمان وانا ، ان اربعين من عشر من عبارتهم تبدأ : « ببدو لي انك لا ... »
- والست الآخريات ؟ ..

تبدأ : « أنا ، أ ... »
- ما أحسن ما لاحظت ! اني اخشى ملاحظتك . وماذا غير ذلك ؟ ..
- ييدو بي ان لبعضهم شخصية مصنوعة .
فسأل ادوار :

- ماذا تعني بهذا ؟
- افكر خصوصاً بواحد منهم . كان جالساً بجانب باسافان الصغير ، ويبدو عاقلاً . اما جاره الذي لاحظنه طويلاً فيبدو انه اتخذ قاعدة له في الحياة قاعدة القدماء Ne quid nimis . الا ترى ان هذا التumar مستحيل لمن كان في مثل سنه ؟ .. ملابسه ضيقه وربطة عنقه مشدودة ، ليس هناك ما يلامع مع العدة حتى اشرطة حذائه . ومع اني تحدثت معه فللا ففند انسع له

الوقت ليقول لي انه يرى بعثرة للفوة في كل مكان ، وكان برد كاللازم : « لا نبذلوا جهداً دون فائدة » .

فقال ادوار :

- الى الجحيم لكل نوع من انواع الادخار !

واضاف ادوار :

- لم تقل لي شيئاً عن ارمان ؟

- انه غرة عجيبة . حقيقة لم القول انه لا يعجبني ابداً .انا لا احب المشوهين . هو ليس احق ، بالتأكيد ، ولكن روحه لا تعمل الا لتخرب : وبالاجمال ، انه يبدو اكتر ضرواوة ضد نفسه . انه يخجل من كل ما هو خير ، وكريم ، ونبيل ، وحنون فيه . يجب ان يمارس الرياضة ، ان يتزوج . انه يحمض اذا بقي سجيناً كل النهار . يبدو انه يطلب حضوري ؛ وانا لا اهرب منه ولكني لا استطيع ان اكيف نفسي مع عقله .

- الا تعتقد ان سخريته وتهكمه بخبايا حساسية مفرطة ، وي يكن انها يخفيان الما عظيماً ؟ .. ان اوليفيه بعتقد ذلك .

- يمكن . وقد قلت ذلك لنفسي . لا اعرفه جيداً بعد . وما بقي من افكاره لم ينضج . وانا بحاجة الى التفكير فيه ؛ سأجعل لك منه نصيحاً ، ولكن في ما بعد . عفواً اذا تركتك هذا المساء ؛ عندي امتحاني بعد يومين ؛ ثم ، لا عرف لك بذلك : اشعر اي حزين .

٥

يجب الا نأخذ ، اذا لم اخطيء ، الا الزهرة من كل شيء
فنيلون

اوليفيه الذي عاد الى باربس منذ امس نهض مرتاحاً . كان
الهواء حاراً ، والسماء صافية . وحين خرج ، وقد حلق ، وأخذ
حمامًا بارداً ، وارتدى ملasse بانافه ، شاعرًا بقوته ، بتباهه ،
بجماله ، كان ياسفان لا يزال نائماً .

اسرع اوليفيه الى السوربون . هذا الصباح يقدم برنار
امتحانه الخطبي . كيف عرف اوليفيه بذلك ؟ ربما لم يعرف .
لكنه ذهب للاسنعلام . اسرع . لم يكن قد رأى صديقه منذ
تلك الليلة التي جاء فيها برنار يطلب ملجاً في غرفته . اي
تغيرات حدثت منذ ذلك الوقت ! . من يقول انه كان منعجلًا
ليريه نفسه اكتر من عجلته لرؤيه ؟ انه غاضب لأن برنار قليل
الاهتمام بالاناقة ! ولكه ذوق تأثر احياناً مع الرخاء . واوليفيه
هو البرهان على ذلك ، بفضل الكونت دو ياسفان .

يقدم برنار الامتحان الخطبي هذا الصباح . ولن يخرج الا

عند الظهر . اوليفيه يتظره في الساحة . عرف بعض الرفاق ،
شد على الايدي ، ثم انحني جانباً . انه متضايق قليلاً من
ملابسه . وأصبح اكثر ضيقاً حين انتهى برنار وتقدم في الساحة
وහتف ، وهو يمد اليه يده :

- ما أجمله ! ..

واوليفيه الذي كان يعتقد ان الخجل لا يعرف سببه اليه ،
احمر خجلاً . كف لا يرى تهكماً في هذه الكلمة رغم همجتها
الودادية ؟ لا يزال برنار يرتدي الملابس التي كان يرتديها مساء
هربه لم يتوقع ان يجد اوليفيه . كان يقوده وهو يوحه اليه
الأسئلة . كان سروره برأيته فجائياً . وان هو ابتسم في بادئ
الامر امام اناقه المفرطة ، فقد كان ذلك دون اي خبث . انه
ذو قلب طيب ، دون حقد .

- ستتناول الفطور معى ، أليس كذلك ؟ نعم ، يجب ان
ادرس حتى الساعة الاولى والنصف لأجل امتحان اللاتينية .
هذا الصباح كان امتحان اللغة الفرنسية .

- أمسرور انت ؟

- أما ، نعم . ولكني لا اعلم اذا كان ما بضمته سيلائم ذوق
الفاخدين . كان الموضوع يتعلق بابداء الرأي حول اربعة أبيات
للافترستين .

فراشة البرناس ، وشبيهة النحل الذي يقارن
افلاطون الطيب بدائعتنا به ، انا شيء خفيف اطير
الى كل موضوع ، اسير من زهرة الى زهرة ومن
شيء الى شيء

قل ، ماذا كنت تفعل بهذا ؟

لم يستطع أوليفيه ان يقاوم رغبه الناشف ، فقال :
- كنت اقول ان لا فونتب ، وهو يرسم نفسه ، صنع صوره
الفنان ، صورة ذلك الذي يرضي الا يأخذ من الدنيا سوى
مظاهرها الخارجيه ، سوى السطح ، سوى الزهرة . نم كنت
أعرض للانظار صورة لعالم ، لباحث ، لذلك الذي يمحى ،
وأظهر أخيراً انه بينما يكون العالم يبحث فان الفنان مجد وان
من يمحى لا بد ان يغوص ، وان من يغوص لا بد ان يصاب
بالعمى ١ وان الحقيقة هي المظهر ، وان الغامض هو السكل ،
وان أعمق شيء في الانسان هو جلده .

هذه العبارة الاخيرة اخذها اوليفيه من باسافان ، وهذا
اقتطعها من شفتي بول - اميرواز بينما كان هذا يخطب ذات يوم
في احد الصالونات . كان باسافان يرى في كل ما لم يطبع غنمه
طيبة ؛ وما دعاه « الأفكار في الهواء » كان يعني به : افكار
الآخرين .

شيء ما في هجوة اوليفيه انذر برثار بان هذه العبارة ليست

له . ان صوت أوليفيه فد نعتر بها . كان برنار يوشك ان
يسأل : « هذه العبارة مل ؟ .. » ولكن بصرف النظر عن انه لا
 يريد ان يذكر صديقه ، كان يخشى ان يسمع اسم ياسافان
 الذي كان الآخر حريضاً على الا لفظه حتى الان اكتفى برنار
 بالنطلع الى صديقه بالحاج عجيب ؛ واحر وجه اوليفيه للمرة
 الثانية

المفاجأة التي اصابت برنار بسماعه اوليفيه العاطفي يشرح
 افكاراً تختلف تماماً عن الافكار التي يعرفها فيه ، افسحت
 المجال لاشمئزاز عنيف ، لشيء فجائي مذهل ، لا يقاوم كأنه
 اعصار .

وبده ، لم يكن حنقه بسبب هذه الافكار ، مع انها تبدو له
 مستحبة . على كل حال يمكن الا تكون اكثر استحاللة من
 ذلك . انه يستطيع ان بضعها مقابل افكاره الخاصة على دفتره
 الذي يسجل فيه الآراء المتصاربة . لو كانت هي افكار اوليفيه
 الاصلية لما كان اغناط منه ولا منها ؛ ولكنه كان يشعر ان هناك
 من اخفى وراءها ؛ انه كان يغناط من ياسافان .

- بأفكار بهذه تسمم فرنسا .

هكذا صرخ بصوت هبیم ولكنه حاد لعدم تكلم من على .
 راعياً في السحلب فوق ياسافان . وقد دهش هو نفسه بما فاله ،
 كما لو ان عمارته سفت تفكيره ! ومع ذلك كانت هذه المكرة

هي نفسها التي ادرحها هذا الصباح في مسابقته ولكن وسعي من الخفر ، كان يرفض أن «بنازل» في كلامه ، حصوصاً عندما يخاطب اوليفييه ، وبطهر نشأً مما يسميه «العواطف الكبرى» فما ان يعبر عن هذا النوع من العواطف حتى تدو له افل صدفاً . وهكذا لم تكن اوليفييه قد سمع صديقه نتكلم منه عن «مصالح فرنسا» . مما ادهشه هو هذه المره . ففتح عينيه واسعين ولم يفكر في الابتسام . انه لم يعرف ببربار . وكرر بغباء :

- فرنسا؟ .. ثم برأ نفسه من المسؤولية لان برنار لم يكن يزح : - ولكن با صديقي ، لست انا الذي يفكـر هـكـذا ؛ انه لا فـونـتـين

واصبح برنار اعتنائياً تقرباً ، وصرخ .

- بالتأكيد ! .. اعرف بالتأكيد انك لست بالذى يفكـر هـكـذا . ولكن ما صديقي ، ولا لـفـونـتـين ايـضاً لو لم يكن فيه سوى هذه الخفة ، ولقد تاب واعذر في نهاية حياته - لما كان الفنان الذى نعجب به . هذا بالضبط ما فعله فى موضوع هذا الصباح . واستعنت باستشهادات كثيرة ، وانت نعلم اي املك ذاكرة جيدة . ولكن بتركـي لـفـونـتـين قـلـبـاً والـاـنـبـاهـ الى ما يمكن لبعض النـفـوسـ السـطـحـيـهـ التـفـكـيرـ في ان مجدهـاـ في شـعـرهـ ، فـانـ استـوفـيـتـ حـمـىـ شـبـمـةـ ضدـ روـحـ دـعـمـ الاـكـزـاثـ ، والـكـدـبـ ، والـتـهـكـمـ ، وما يـسمـىـ اـحـيـراـ «ـالـروحـ الفـرـنـسـيـهـ»ـ الىـ يـكـلـفـناـ فيـ

الخارج احياناً سمعة يوتى لها . لقد قلت ان من اللازم ان يرى فيها كشة فرنسا وليس ابتسامتها ؛ وان الروح الحقيقة لفرنسا كانت روح بحث ، روح منطق ، روح حب وتغفل صبور ، وانه لو لم تكن هذه الروح قد أحيت لافونتين لكان من الممكن ان يكتب حكاباته ، ولكن ليس اساطيره ، ولا تلك الرسالة الشعرية البدعة (اظهرت اي اعرفها) التي استخرجت منها تلك الأبيات التي أعطيت للشرح . نعم يا صديقي ، لقد افرغت جنبي ، وقد يجعلني ذلك ارسب . ولكن لا يهمني ، لقد كنت بحاجة لأن اقول ذلك .

لم يكن أوليفييه متستحاً بما قاله منذ لحظة ، ولكنه خضع لحاجة التألق ، ولأن يسرد ، بلا مبالغة ، عبارة يعتبرها ذات طبيعة تذهل صديقه . وما دام هذا الان يحاسبه بهذه اللهجة فلم يعد امامه سوى التراجع . كان يبقى له الا ان يرجع القهقرى . كان ضعفه العظيم منأتياً من انه بحاجة الى مودة برنار اكثر مما برnar بحاجة الى مودته لقد أذله تصريح برنار ، أماته . حقد على نفسه لانه اسرع في الكلام . وقد فات الوقت الآن للرجوع عن كلامه ، لتقصير خطواته ، كما كان يفعل لو ترك برنار يتكلم اولاً . ولكن كتف يستطيع التخمين ان برنار ، الذي تركه كثير اللوم ، ينصب نفسه مدافعاً عن عواطف وافكار كان باسافان قد علمه الا يطالعها دون ان يبتسم . اما ان يبتسم ، فلم يكن راغباً في ذلك حقيقة ؛ لقد

كان خجلاً . لم يستطع الرجوع عن كلامه ، ولا ان يقوم ضد ادوار الذي فرض عليه انفعاله الاحترام . لم يكن يحاول الا ان يختفي ، ان يتملص .

- اذا كان هذا ما كتبته في امتحانك ، فانك لم تكتب ضدي انا ... ان أحب هذا

كان يتكلم كأنه مرغم وليس باللهجة التي ارادها . وقال برنار :

- ولكني اقوله الآن لك .

هذه العبارة طعنت أوليفيه في قلبه . وما من شك في ان برنار لم يقلها بمنة عدائية ، ولكن كيف يحسبها غير ذلك ؟ .. وصمت أوليفيه . لقد حفرت هوة بين برنار وبينه . فتش عن اسئلة يستطيع الماءها من حافة الى اخرى من هذه الهوة ، اسئلة تعيد اصلاح الاتصال . فتش دون امل . وكان يقول لنفسه : « لم يفهم شقائي ؟ » وقد ازداد شقاوه ربما لم تدمع عيناه ، الا أن الامر كان قادراً على ابكتاه . انها غلطته ايضاً : كان هذا اللقاء يبدو له اقل كآبة لو وعد نفسه فيه بفرح أقل . وحين كان مسرعاً قيل شهرین للاقعة ادوار كان يشعر بالشيء نفسه . وقال لنفسه انه سيظل دائمًا هكذا . كان يريد ترك برنار ، والذهاب الى اي مكان ، ونسيان باسفان ، وادوار . . . ولكن لقاء ليس بالحسبان قطع بجرى تفكيره الكثيب .

على بعد خطوات امامها ، في بولفار سان ميشال الذي كان

يصعدانه ، شاهد اوليفيه اخاه الصغير جورج فامسك برنار من ذراعه . ودار حالاً على عقبيه ، وجر برنار بسرعة :

- انتظ انه رأنا .. عائلتي لا تعرف اني عدت .

لم يكن جورج الصغير وحده ، كان يرافقه ليون جيريدانيزول وفيليب أدامنти . كان الحديث بين هؤلاء الثلاثة حامياً جداً ؛ ولكن اهتمام جورج به لم يمنعه من ابقاء نظره يقظاً . ولنستمع اليهم ، علينا ان نترك اوليفيه وبرنار لحظة ، بعدما دخلنا الى المطعم . وكان صديقاناً لفترة قصيرة ، اكثر اهتماماً بالأكل منها بالكلام . وكان في ذلك عزاء لأوليفيه .

قال فيليب لجورج :

- اذاً ، اذهب انت .

فأجاب جورج واصعاً في صوته كل ما يمكن من احتقار تهكمي يصلح لتحقير فيليب :

- اووه ! .. انه خائف ! انه خائف !

وقال جيريدانيزول متعالياً :

- يا حلي ، اذا لم تريدا فقولا حالاً . لن اعدم ايجاد آخرين عندهم من الإقدام اكثر منكما هيا . أعيدا الى هذا .
والتفت نحو جورج الذي يمسك بيده المطبقة قطعة صغيرة .

وصرخ جورج باندفاع معاجىء :

- انا اذهب . تعال معي . (انهم امام مكب للتبغ) .

فال ليون :

- كلا ننظرك في زاويه الشارع . تعال يا فيفي .

وخرج جورج بعد لحظة من الدكان يحمل عليه سكايير من نوع « لوكس » ، وقدمها لرفيفه .

- إيه ؟ ..

سأل فيفي باضطراب .

- إيه ماذا ؟ .

اجاب جورج منكلاعاً اللامبالاه كان ما فعله اصبح طبيعياً الى حد انه لا يستحق ان يتحدث عنه . ولكن فيليب ألح :

- هل مررتها ؟

- بالتأكد .

- اما فبل لك شئ ؟

فهز حورج كتفه .

- ماذا كنت تربد ان يقال لي ؟ ..

- هل اعد لك المال ؟

هذه المرة لم ينمازل جورج للجاجة . ولكن بما ان الآخر لا يزال مرتباً ، خائنا فقد قال ملحاً : « أرق » . فأخرج جورج المال من جيشه . وأخذ قلبب يعده . الفرنكاب السمعة موجودة . كان بشهي ان يسأل : « أأنت مناكم على الافل انها

صالحة ، هذه؟ » ولكنه امتنع

كان جورج قد دفع عملة رائفة . وكان من المتوقع عليه ان يقتسموا المال . فتناول جيريدانيزول ثلاثة فرنكات « اما فيفي لم يبل اي فلس » وعلى الاكتر سيكاره ؛ وهذا سيكون درساً له .

وتشحغ فيفي بهذا النجاح الاول فأصبح يريد الان . طلب من ليون ان يبيع له قطعة ثانية . ولكن ليون وجد فيفي هلوعاً . ولكي يشجعه على اتم وجه تكلف نوعاً من الاحتقار لجنبه الاول وتظاهر باحراده . « ليس له الا ان بصمم بسرعة ؛ يمكن اللعب بدونه ». وفي النهاية رأى ليون ان من الغفلة المجازفة بتجربة جديدة قريبة من الاولى . ثم ان الوفت فات الان . ان ابن عمه ستروفيلو يتنتظره على الفطور .

ليس جيريدانيزول عاجزاً عن تصريف قطعه بنفسه ؛ ولكنه ، وفقاً لتعليمات ابن عمه الكبير ، بمحاول التحسن وراء الشركاء بالتوافق . سيقدم حساباً عن مهمته التي ثُمت على اكمال وجه .

- أبناء العائلات المرموقة ، وأنت تعرف ، هؤلاء هم الذين يحتاجهم ، لأن القضية اذا انكشفت يجعل الأهل على طمسها (ابن العم ستروفيلو ، عميله الوقتي ، هو الذي كان بكلمه هكذا بينما كانوا يتناولان الفطور) . - فقط ، بذلك النظام القاضي بيع القطع واحدة واحدة . وبهذا تباع بسهولة وبطء .

معي اثنان وخمسون علبة في كل منها عشرون قطعة ، للاستمار . يجب ان تباع كل منها بعشرين فرنكاً ، ولكن ليس لأي كان . وانت تفهم . من الأفضل تأليف شركة لا يشترك فيها احد دون ان يأتي برهن . يجب ان يعرض الاولاد انفسهم للخطر وان يأتوا بما نمسك به أهلهم . ستحاول ان تفهمهم ذلك قبل ان تترك القطع . اوه ! .. دون ان تفزعهم . يجب الا تخيف الاولاد ابداً . قلت لي ان مولينيه الاب كان قاضياً . هذا حسن . . . وأب أダメنقي ؟ ..

- عضو في مجلس الشيوخ .

- وهذا ايضاً افضل . انت الان ناضج نضجاً كافياً لتدرك انه ليس هناك عائلة دون سر ؛ وان أصحاب العلاقة يرتكبون هلعاً اذا عرف هذا السر . يجب ان تطلق الاولاد للصيد . وهذا سيشغلهم . والمرء عادة يضجر كثيراً في العائلة . ثم ، يمكن لهذا ان يعلمهم الملاحظة ، والبحث . وهذا بسيط جداً : من لا يجلب شيئاً لا يأخذ شيئاً . وحين يدرك بعض الاهل انهم في قبضتنا فانهم يدفعون غالياً ثمن الصمت . ليس في نيتنا ان نجعلهم يصرخون . فنحن اناس شرفاء . والمقصود الاحتفاظ بهم . سكتهم مقابل سكتنا . ليصمتوا وليجعلوا غيرهم بصمت ! حينما سنسكت نحن ايضاً . لشرب نخب صحتهم .

وملا ستوفيلو قدحين . وقرعاهم . وقال :

- هذا حسن . مما لا غني عنه خلق علاقات تبادل بين المواطنين . هكذا تتالف المجتمعات المتينة . يحصل الاتفاق ، ماذا ! نمسك الصغار ، الذين يمسكون اهلهم ، الذين يمسكوننا . هذا غاية في الاتقان . افهمت ؟

وفهم ليون تماماً . وضحك . ويدأ قائلًا :

- جورج الصغير ...

- ماذا ؟ .. جورج الصغير ...

- مولينيه ؛ اظن انه ناصح . لقد سرق رسائل لوالده
مرسلة من فتاة في الاولبيا .

.. أرأيتها ؟ ..

- أرأي ايها . وسمعته حين كان يتحدث مع أدامنти .
اعتقد انها كانا مسرورين لأنني سمعتها . وعلى كل حال فهما لا
يختبثان معي ؛ لقد اخترت احتياطاتي لذلك وقدمت لها طبقاً على
طريقتك لأجعلهما يثقان بي . كان جورج يقول لفيليپ (لكي
يدهشه) : « ان لأبي عشيقه » . واجاب فيفي على ذلك حتى لا
يبقى متأخرأ عنه : « أبي له اثنان » وكانت هذه حافة ، فليس
هناك ما يوجب ان يتضاربا من اجله ؛ ولكنني اقتربت وقلت
لجورج : « ماذا تعرف عن ذلك ؟ .. » فقال لي : « لقد رأيت
رسائل » . فتظاهرت بالارتياب ، وقلت : « يا لها كذبة ... »
أخيراً دفعته فأنتهى بان قال لي ان هذه الرسائل موجودة معه «
واخرجها من حفظة كبيرة ، وأرأي ايها .

.. - أقرأتها ؟ ..

- لم يكن لدى وقت . رأيت فقط أنها بخط واحد ، وواحدة منها مرسلة إلى : « هري الكبير العزيز » .

.. - موقعه ؟ ..

- « فارتوك البيضاء ». وقد سألت جورج : « كيف أخذتها ؟ » حينئذ أخرج من جيب بنطلونه ، وهو يزح ، سلسلة مفاتيح ضخمة وقال لي : « يوجد مفاتيح لجميع الأدراج » .

.. - وماذا قال السيد فيفي ؟ ..

- لا شيء . اظن انه اصيب بالغيرة .

- وهل يعطيك جورج هذه الرسائل ؟

- سأعرف كيف ادفعه إلى ذلك اذا لزم الامر . لم أشا ان أخذها منه . وسيعطيها اذا مشى فيفي ايضاً . فالاثنان يدفع واحدهما الآخر .

- هذا ما يسمى بالمنافسة . الم تر آخرين غيرهم في البنسيون ؟

سأبحث .

- اريد ان اقول لك ايضاً ... لابد انك واجد في البنسيون من يدعى بوريis الصغير . هذا ، دعه وشأنه . - ثم توقف قليلاً واضاف بصوت اكثر انخفاضاً : - موقتاً .

وليفيه وبرنار هما الآن جالسان في مطعم في الشارع . وقد

ذاب شقاء اوليفيه كالجليد في الشمس امام ابتسامة صديقه الحارة . ان برنار يتمنى ان يلطف اسم باسافان ؛ وشعر اوليفيه بذلك ॥ انها غريرة خفية اندرته . ولكن هذا الاسم على شفتيه ॥ يجب ان يتكلم ، وليرحدث ما يحدث .

- نعم ، لقد عدنا قبل ان أخبار عائلتي . في هذا المساء سيقيم محررو مجلة « الأرغونوت » مأدبة . ويحرص باسافان على حضورها . انه يريد ان تعيش مجلتنا على وثام مع شقيقتها الكبرى وان لا تقف منها موقف الخصومة ... يجب ان تأتي ؛ وتعرف ... يجب ان تأتي بادوار اليها ... ليس الى المأدبة نفسها ، لأنه لا بد ان يكون مدعواً ولكن بعد انتهاءها . ستقام في احدى قاعات الطبقة الاولى في حانة البانزيون . وسيكون هناك محررو « الأرغونوت » الرئيسيون وكثيرون من الذين سوف يساعدون في تحرير « الطليعة » . عدنا الاول جاهز تقريراً ؛ ولكن قل ... لماذا لم ترسل الي شيئاً ؟

فأجاب برنار بشيء من الجفاف :

- لأنه لم يكن لدى شيء جاهز .

وأصبح صوت اوليفيه شبه متسلل :

- كتبت اسمك بجانب اسمي في الملاصق ... يمكن الانتظار قليلاً اذ لزم الأمر . لا يهم مهما يكن ... ولكن اي شيء ... لقد وعدتنا ...

وكان يشق على برنار ان يكدر اوليفيه ؛ ولكنها قال
مشدداً :

- اسمع يا صديقي ، من الافضل ان اقول لك حالاً ؛
اخشى الا اتفاهم جيداً مع باسافان .

- ولكن ما دمت انا الذي يتولى الرئاسة ! لقد ترك لي
الحرية الكاملة .

- ثم ، لا يرضيني ان أرسل اليك اي شيء . اني لا اريد
ان اكتب « اي شيء » .

- قلت « اي شيء » لأنني اعرف تماماً ان اي شيء يصدر
عنك يكون بالغ الجودة ... ومن المؤكد انه لن يكون « اي
شيء » .

لم يدر ما يقول . انه يدندن . لو لم يشعر بوجود صديقه
بقربه لما بقىت هذه المجلة تهمه . انه جهيل هذا الحلم ، ان يبدأ
العمل ، معاً .

- ثم ، يا صديقي ، لو بدأت اعرف جيداً ما لا اريد
عمله ، فاني لا اعرف بعد ما سأعمله معرفة جيدة . حتى اني لا
اعرف اذا كنت ساكتباً .

هذا التصريح احزن اوليفيه . ولكن برنار تابع :
- ما من شيء يغربي في ما اكتبه بسهولة . ولأنني أسبك
عباراتي جيداً اخاف العبارات الجيدة السبك . وليس ذلك لأنني
احب الصعوبة ل مجرد الصعوبة ولكنني ارى ان ادباء اليوم لا

يتبعون انفسهم . لكي اكتب رواية ، فاني لا اعرف بعد حياة الآخرين معرفة كافية ، وانا نفسي لم اعش بعد . والشعر يضجرني . والتفعيلات بليت حتى الخيوط ، والشعر المحر مشوه . ان الشاعر الوحيد الذي يعجبني اليوم هو رامبو .
ـ هذا بالضبط ما اقوله في البيان .

ـ اذاً لا لزوم لتكلاته . كلا يا صديقي ؛ كلا . لا اعرف اذا كنت سأكتب . يبدو لي احياناً ان الكتابة تمنع من الحياة وان من الممكن ان يوضح المرء افكاره بالاعمال اكثر من الكلمات .

ـ المؤلفات الفنية هي اعمال خالدة .
ـ هكذا جازف اوليفيه بخوف . ولكن برنار لم يسمعه :
ـ وهذا ما يعجبني اكثر من كل شيء في رامبو ؛ هو انه آثر الحياة .

ـ لقد أفسد حياته .
ـ ماذا تعرف عنه ؟ ..

ـ اووه ! هذا ، يا صديقي ...
ـ لا يمكن الحكم على حياة الآخرين من الخارج . ولكن ،
ـ نسلم انه أخفق ؛ انه سيء الحظ ، البؤس والمرض ... مهما
ـ كانت حياته فاني أغبطه ؛ نعم ؛ نعم ، تزداد غبطتي له حتى مع
ـ نهايته القنطرة ، كنهاية ...
ـ ولم يتم برنار عبارته ، كان على اهبة تسمية معاصر شهير .

وقد تردد بين اسماء كثيرة . هز كتفيه وتابع :

- اني اشعر في نفسي ، بشكل غامض ، بانفعالات قلبية خارقة للعادة ، بتنوع من الامواج العميقه ، بحركات ، بتململ غير مفهوم ، ويانبي لا اريد محاولة فهمها ، ولا اريد ايضاً ملاحظتها خوفاً من منها من المحدث . منذ وقت غير طويـل بلـأت الى تحليل نفسي دون انقطاع . كانت لدى عادة التكلـم الى نفسي باستمرار . والآن ، حين اريد ذلك ، لا أستطيع . لقد انتهت هذه العادة الغريبة فجأة ، حتى دون ان انتبه اليها . اعتقاد ان هذه المناجـة للنفس ، هذا «الحوار الداخـلي» كما يقول استاذـنا ، كان يتطلب نوعـاً من التجـزءة لم اعد قادرـاً عليها منذ اليوم الذي بدأت احب احدـاً غيرـي ، اكـثر من نفـسي .

فقال اوليفـيه :

- تـريـد التـحدـث عن لـورـا . الا تـزال تـحبـها دائـئـماً كالـسـابـق ؟

فقال برـنـار :

- كـلا ، بل اكـثر . اعتقاد ان خـاصـة الحـب هي هـذـه ، أـلا تستـطـيع الـبقاء على حال واحد ، ان تـضـطـر الى الـزيـادة تحت طـائـلة النـقصـان . وهذا ما يـميـزه عن الصـداـقة .

فقال اوليفـيه بـكـآـبة :

- وهي ايـضاً يمكن ان تـضـعـف .

- اعتقاد ان الصـداـقة ليست ذات هـوـامـش واسـعـة .

- قل . . . لن تغضب اذا سألك شيئاً ؟
- سترى جيداً .

- ان ما اريده هو الا اغضبك .

- سيرداد غضبي اذا احتفظت بأسئلتك لنفسك .

- اريد ان اعلم اذا كنت تشعر حيال لورا . . . بالرغبة ؟
فاصبح برنار فجأة كثير الرصانة :

- لا بأس ما دمت انت . . . حسناً يا صديقي . يجري في داخلي شيءٌ غريب ، هو اتنى منذ ان عرفتها لم يعد عندي رغبات . انا الذي كان في السابق ، وانت تذكر ، يشتعل دفعه واحدة لعشرين امرأة التقى بهن في الشارع (وهذا ما معنى من اختيار واحدة منهن) . اما الآن ، فأعتقد اني لن استطيع ان اكون حساساً لشكل آخر من الجمال غير جمالها ؛ واني لن استطيع ابداً ان احب جهة اخرى كجهتها ، كشفيتها ، كنظرتها . ولكن ما اشعر به نحوها هو الاجلال . وبقرها ، فان كل فكرة جسدية تبدو لي كافرة . اعتقاد اني اخطأت في حكمي على نفسي ، وان طبيعتي ظاهرة جداً . لقد سمت غرائزى بفضل لورا . واسعير في نفسي بقوة كبيرة غير مستعملة ، واريد استعمالها . انا أغبط الراهب الذي يطوي كبرياته تحت النظام ॥ ذلك الذي يقال له : « انا اعتمد عليك ». اغبط الجندي . . . او بالاحرى ، كلا ، انا لا اغبط احداً . ولكن طيشي الداخلي

- نعم . سأحاول ان آتي بادوار . لكنك تعلم انه لا يجب
باسافان كثيراً . واجتماعات الادباء تقتله . سيكون مجئه
لرؤيتك فقط .

قل : الا استطيع رؤيتك بعد امتحان اللاتينية ؟

لم يجب اوليفيه فوراً . كان يفكر يائساً انه وعد باسافان
بالذهاب للقائه في الساعة الرابعة عند صاحب المطبعة التي ستطبع
«الطليعة» . ما الذي لم يعطه ليكون حراً ! ..

- كنت اريد بطيبة خاطر ولكنني مرتبط .

- لا بأس .

وعلى هذا افترق الصديقان .

لم يقل اوليفيه شيئاً لبرنار من كل ما وعد نفسه بان يقوله
له . كان يخشى ان يغطيه . وقد اغاظ نفسه . ومع انه كان كثير
المرح هذا الصباح فقد مishi الان مطلقاً الرأس . ان صداقتة
باسافان التي كان فخوراً بها في بادئ الامر اصبحت تضليله
لأنه شعر بنفور برنار يشتعل عليها . هذا المساء ، وفي هذه
الوليمة ، لو رأى صديقه تحت انتظار الجميع لما استطاع ان
يكلمه . وهذه الوليمة يمكن الا تكون مسلية الا اذا لقي احدهما
الآخر قبلأ . وتلك الفكرة المكدرة التي املأها الزهو بان يجتذب
الي الحفلة الحال ادوار ايضاً ! عليه ان يتوجه عجبأ الى جانب
باسافان المحاط بالكتاب الكبار والزملاء والذين سيساعدون في

المستقبل في تحرير «الطليعة» ! سيزداد خطأً ادوار في حكمه عليه ؛ لا شك في أنه سيظل مخطئاً في حكمه عليه إلى الأبد . لو كان يستطيع على الأقل أن يراه قبل هذه المأدبة ! .. يراه حالاً . سيرثي على عنقه ؛ وربما بكى ! سيفضي إليه بدخولته . لا يزال لديه وقت من الآن حتى الساعة الرابعة . سيارة ، بسرعة .

اعطى السائق العنوان . وصل أمام الباب وقلبه يدق . رن الجرس : لقد خرج ادوار .

مسكين أوليفيه ! لماذا لا يذهب إلى أهله بكل بساطة بدلاً من الاختباء منهم ؟ .. لو ذهب لوجد حاله ادوار بجانب والدته .

٦

يوميات ادوار

(يخدعون الروائيون حين ينشئون الفرد دون أن يحسبوا حساباً لضغط المحيط . أن الغابة تكيف الشجرة . لم يترك لكل منا إلا مكان صغيراً كم من برامع قد ضمرت ! كل واحد يقذف فرعه حيث يستطيع . الغصن الصوفي في الغالب ، مدين للقمع . لا

يضيق علي وآمل ان اهذبه . انه كالبخار في داخلي » يمكن ان يتفلت بالتنفس (هذا هو الشعر) ، ويدير مكابس ، ودوالib ، او انه يفجر الآلة . اتدرى ما العمل الذي يبذلو لي احياناً اني اوضح افكارى بموجبه بشكل افضل ؟ انه ... اوه ! اعرف جيداً اني لن اقتل نفسي . ولكنني افهم ديمترى كارامازوف باعجاب حين سأله اخاه اذا كان يدرك ان من الممكن ان يقتل المرء نفسه بداع الحماسة » بدافع افراط بسيط في الحياة .. بالانفجار .

اشاعر غير عادي كان ينشق من كيانه كله . ما أحسن ما اوضح افكاره ! .. كان اوليفيه يتأمله بنوع من الاعجاب الشديد . وتمتم بخوف :

- انا ايضاً ، افهم ان يقتل المرء نفسه . ولكن هذا يحدث بعد ان يكون قد تذوق سروراً عظيماً تشحباً معه كل حياته التي تليه ؛ سرور يمكن ان يقول المرء بعده : يكفي ، انا مسرور ، ابدأ لن ...

ولكن برنار لم يكن يسمعه . فضمت . ما فائدة الكلام في الفراغ ؟ لقد تجهمت سماوه كلها من جديد . سحب برنار ساعته :

- حان وقت ذهابي . اذا ، قلت ، هذا المساء ... في اي ساعة ؟

- اوه ! .. اعتقاد ان الساعة العاشرة هي الوقت المناسب أتائى ؟

يمكن التفلت إلا في الأعلى. أنا لا أفهم كيف عملت بولين لكي تمنع نمو غصن صوفي، ولا أي زيادات في الضغط تتضرر كلمتني بجودة لم تفعلها حتى الآن. وأعترف بأن الشك لم يساورني بكل ما تخفي تحت مظاهر السعادة من غموم واستسلام. ولكنني أعترف أنها بحاجة إلى نفس خاملة جداً لكي لا يخدعها مولينيه... بحديثي معه أمس الأول امتنعت أن أقيس حدوده. كيف استطاعت بولين أن تتزوجه؟.. مع الأسف... أن النقص المحزن، نقص السجية، مثباً ولا يكشف نفسه إلا عند الاستعمال.

«لقد وجهت بولين كل عنایتها لستر نقص زوجها وضعفه، وإنففاء ذلك عن عيون الجميع» وخصوصاً عن عيون الأولاد. كانت تحاول لتتيح لهؤلاء الأولاد أن يحترموا والدهم. الحقيقة بذلك جهداً.

لكنها تصرفت بشكل صرت معها نا نفسى مخدوعاً. أنها تتحدث عن زوجها دون احتقار؛ ولكن بنوع من التساهل فيه الكثير من المعنى. هي تشكو من أنه ليس ذا سلطة على الأولاد. ولما كنت قد عبرت عن اسفى لرؤيه اوليفيه مع باسافان، فقد ادركت انه لو كان الامر متعلقاً بها وحدها لما كان هناك مكان لرحلة الى كورسيكا. وقد قالت لي:

«لم استصوب هذا الرحيل. وهذا السيد باسافان، والحق يقال، لا يعجبني ابداً. ولكن، ماذا تريده؟ الامر الذي

ارى انني لا استطيع منعه أفضل الموافقة عليه بالرضا . اوسكار نفسه يخضع دائمًا ! يخضع ليانا أيضًا . ولكن حين ارى من واجبي ان اعارض بعض مشاريع الأولاد ، واقاومهم » وأقف في وجههم ، فاني لا اجد عنده اي سند . ان فنسان نفسه تدخل في القضية . عندئذ ، اية مقاومة استطيع فيها معارضة اوليفييه دون المجازفة بتزع ثقته بي ؟ هذه الثقة هي التي اتمسك بها .

« كانت تصلح جوارب قديمة من تلك التي لا يرضى بها اوليفييه ، كما قالت لي . وقد توقفت لتدخل الخيط في الاية .. ثم قالت بنبرة اكثرا انخفاضاً كأنها اكثرا ثقة واكثر كآبة :

« - ثقته ... لو كنت على الأقل واثقة من حصولي عليها ! ولكن لا ؛ لقد فقدتها ...

الاعتراض الذي اقدمت عليه دون افتتاح ، جعلها تبتسم . لقد تركت الشغل يسقط من يدها وقالت :

« - إليك : انا اعرف انه في باريس . لقد التقى به جورج هذا الصباح ! قال ذلك بطريق العرض . وتظاهرت بعدم سماعيه لأنه لا يعجبني ان اراه يشي بأخيه . ولكن اخيرا عرفت . ان اوليفييه يختبئء بي . وحين اراه سيظن انه مجرم على الكلب ، وسأتظاهر بتصديقه » كما اتظاهر بتصديق والده حين يختبئ مني في كل مرة .

« هذا من خوفه ان يحزنك .

« - هكذا يزيد حزني . انا لست منصلبة . فهناك عدد من الذنوب الصغيرة أتساهم بها ، واغمض عنها عيني

« - عمن تتكلمين الآن ؟

« - اوه ! .. عن الأب والابن ايضاً .

« - انك ايضاً تكذبين عليهما بتظاهرك بعدم رؤيتها

« - ولكن كيف تريد ان افعل ؟ هذا اكثر مما يجب عدم الشكوى منه . ولكني مع ذلك لا استطيع انسحاساته ! كلا ، وانت ترى ، وقد قلت لنفسي ان قبضتي ستفلت عنهم عاجلاً ام آجلاً ؛ وأن احني حب لا يستطيع عمل شيء في سبيل ذلك . ماذا اقول ؟ انه يضايق ، انه يزعج . وقد اتوصل الى اخفاء حتى هذا الحب .

« - انت الآن تتحدى عن اولادك .

« - لماذا قلت هذا ؟ اتزعم اني لا اعرف ان احب اوسكار ؟ .. اقول هذا لنفسي احياناً ؛ ولكني اقول لنفسي ايضاً ان خوفي من ان اتعذب كثيراً يمنعني من ان ازداد حما له . و .. نعم ، لابد أن تكون على حق . اذا كان الامر يتعلق بأوليقيه فاني افضل ان اتعذب .

« - وفنسان ؟

« - قبل بضع سنوات كنت اقول عنه ما قلته عن اوليقيه .

« - يا صديقتي المسكينة . . . وعما قليل سنقولينه عن جورج .

« - ولكن المرأة ينسسلم ببطء . ومع ذلك لا يطلب الكثير من الحياة . بتعلم المرأة ابضاً ان يطلب اقل . . . دائمًا اقل - ثم اضافت بهدوء : - اما من نفسه فدائماً اكثر .

« فقلت مبتسئاً بدوري :

« - بهذه الافكار يكون المرأة مسيحيًا تقريباً .

« - وهذا ما أقوله احبابنا لنفسنا ، ولكن ان يكون مع المرأة هذه الافكار ، لا يكفي ليكون مسيحيًا .

« - ولا يكفي ايضاً ان يكون مسبحاً لتكون معه هذه الافكار .

« - لقد فكرت كثيراً ، ودعني اقل لك أنك تستطيع التحدث الى الاولاد ما دام والدهم غير موجود .

« - ان فنسان بعد

« - لقد فات الوقت معه . اني افكر في أوليفيه . كنت اتمنى ان يذهب معك .

« لدى هذه الكلمات ، التي تركتني اتخيل فجأة ما كان يمكن ان يحدث لو لم اقبل المغامرة دون تبصر ، شعرت بتأثير خفيف يضيق علي ، ولم استطع ايجاد شيء اقوله في بادئ الامر . و بما ان الدموع صعدت الى عيني ، قلت متأنهاً راغباً في

اعطاء اضطرابي مظهراً معللاً :

« - ومع اوليفيه ايضاً اخشى ان يكون الوقت قد فات .

« فأمسكت بولين عندئذ بيدي وقالت :

« - ما أطيب قلبك !

« وشعرت بالضيق لرؤيتها تخطيء بهذا الشكل ، وعا انني لا اريد خداعها فقد اردت على الاقل ان اوجه الحديث نحو موضوع جعلني اكثر ضيقاً .

« فسألت :

« - وجورج ؟

« فأجبت :

« - انه يسبب لي هموماً لم يسببها الاثنان الآخران . لا استطيع ان اقول عنه انه افلت من قبضتي لأنه لم يكن قط واثقاً ولا خاضعاً .

« وترددت بضع لحظات . من المؤكد ان ما يأني كان صعباً عليها قوله .

« - جرى في هذا الصيف حادث خطير » حادث يؤلني جداً ان اسرده لك » وقد احتفظت ببعض الشكوك حول موضوعه . لقد اختفت ورقة مالية بمئة فرنك من الخزانة حيث كان من عادتي ان اضع مالي . ونحو في من الارتباط الخاطئ » امسكتي عن اتهام احد . والخدمة التي تخدمنا في الفندق فتاة صغيرة جداً

وتبدو لي اميته . قلت امام جورج اني فقدت هذا المال ؛ وأعترف لك ان شكوكى اخهت اليه . لم يضطرب . لم يحمر خجلاً . . خجلت من شكوكى ! .. ادلت ان اطن انى كنت مخطئة ؟ أعدت حسابي . مع الاسف ! ليس هناك من وسيلة للشك : مئة فرنك بالناقص . ترددت في سؤاله ، واخيراً لم استطع عمل شيء معه . لقد أوقفني الخوف من ان اراه يضيق الكذب الى اليسرة . هل كنت مخطئة ؟ نعم ، اني اليوم نفسي الان لأنى لم اكن كثيرة الاخلاص . لعله ايضاً كنت اخاف الاضطرار الى ان اكون صارمة ؛ او لعدم معرفتي ان اكون كذلك । والخلاصة مثلت دور من تجاهل ، ولكن قلبي تعذب كثيراً ، أؤكد لك . تركت الوقت يمضي وقلت لنفسي ان الوقت فات وان العقاب أصبح بعيداً جداً عن الخطأ . وكيف اعاقبه ؟ .. لم افعل شيئاً ؛ ولست نفسي على ذلك . . ولكن ماذا كان في وسعي ان اعمل ؟ ..

« فكرت في ارساله الى انكلترا ؛ واردت ايضاً ان استشيرك في هذا الموضوع ، ولكني لم اكن اعرف اين كنت . . على الاقل لم أخف عنه كدرى وقلقي » وأعتقد انه أحس بذلك لأنه ذو قلب طيب ، وانت تعرف . . اعتمدت على اللوم الذي يستطيع ان يوجهه الى نفسه ، اذا كان هو السارق حقيقة ، اكثر من اعتمادي على ما استطاع توجيهه اليه . انه لن يعود الى ذلك وانا واثقة . كان هناك بصحبة رفيق غني جداً يجره الى الانفاق .

اكيده تركت الخزانة مفتوحة . . . ومرة اخرى ايضاً لست متأكدة من انه هو . فهناك كثير من الناس العابرين يجولون في الفندق .

«أعجبت بمهاراتها حين وضعت في المقدمة ما يبرئ ولدها . وقلت :

ـ كنت اتمنى ان يعيد المال الى المكان الذي اخذه منه .

ـ قلت ذلك لنفسي ايضاً . وبما انه لم يفعل ، فقد اردت ان ارى في ذلك برهاناً على براءته . وقلت لنفسي ايضاً انه لا يهرب .

ـ وهل حدثت والده عن ذلك ؟ ..

ـ فترددت لحظات وقالت اخيراً :

ـ كلا ، افضل الا يعرف شيئاً .

ـ ظننت انها سمعت حركة في الغرفة المجاورة فذهبت تطمئن الى عدم وجود احد ، ثم عادت الى الجلوس بجانبي .

ـ قال لي اوسكار انكما تناولتها الغداء معـاً ذلك اليوم . وقد اثنى عليك كثيراً بحيث اعتتقدت انك اضطررت الى الإصياغة اليه بوجه خاص . (وابتسمت بكآبة عند قوله هذه الكلمات) . اذا كان قد اسر اليك باعترافات فاني اريد احترامها . . . ثم اني اعرف عن حياته الخاصة اكثر بكثير مما يظن . . . ولكن منذ عودتي لم افهم ما به . انه مخطيء .منذ

زمن طويل وانا على علم بالعلاقات التي يعقدها ... حتى اني اعرف مع من . هو يظن اني أجهلها ويتخذ احتياطات ضخمة ليخفيها عني ؛ ولكن هذه الاحتياطات شفافة الى درجة انها تظهر اكثر مما تخفي . وفي كل مرة يتذهب للخروج يتظاهر بهيئة المشغول ، المعاكس ، المهموم . اعرف انه يركض وراء لذته . كنت راغبة في ان اقول له : « ولكن يا صديقي ، لن امسكك » هل انت خائف من ان أغارت؟ ... » كنت أضحك لو استطعت . وكان خوفي الوحيد هو الا يلاحظ الاولاد شيئاً انه كثير الغفلة ، كثير الخرق ! ... احياناً اجد نفسي مجبرة على مساعدته دون ان يشعر ، كما لو اني استعد للعبه . وقد انتهيت بان اجد في ذلك شبه تسلية ، او كد لك . لقد اختلت له اعذاراً ، وأعدت الى جيب معطفه رسائل تركها تقع .

« فقلت لها :

« - من المؤكد انه يخشى ان تكوني قد وقعت على الرسائل .

« - اقال لك ذلك ؟

« - هذا ما جعله خائفاً .

« - اعتقد اني احاول قرائتها ؟

« وانتصبت بفعل شيء من الكبرياء الجريحة . واضطررت ان اضيف :

ـ الامر لا يتعلق بتلك التي أضاعها سهواً ؛ بل برسائل
كان وضعها في احد الادراج وقال انه لم يجدها . هو يعتقد انك
استوليت عليها .

ـ عند هذه الكلمات رأيت بولين تشحب . والشك الرهيب
الذي ساورها استولى فجأة على نفسي . أسفت لأنني تكلمت ،
ولكن ما فات فات . حولت نظرها عني وقتمت :

ـ حاشا ان اكون أنا ...

ـ وبدت متعبة . ورددت :

ـ ما العمل ؟ ما العمل ؟ ... - ثم رفعت عينيها الى من
جديد : - الا تستطيع انت ان تكلمه ؟ ..

ـ ومع انها تحببت مثلثي ان تلفظ اسم جورج ، الا انه كان
من الراهن انها تفكير فيه .

ـ سأجرب . سأفكير في ذلك .

ـ هكذا قلت لها وانا انهض . وحين رافقتني الى غرفة الزوار
قالت :

ـ لا تقل شيئاً من ذلك لأوسكار . ارجوك . ليستمر على
ارتباه بي ؛ ولبيطن ما يظن ... هذا أفضل . عذر لرؤيتي » .

٧

فَكِرَ أُولِيفِيَّيْهِ الشَّدَّدُ الْحَزَنُ لِعدَمِ لِقَائِهِ الْخَالِ أَدْوَارِ، وَالَّذِي
لَا يُسْتَطِعُ احْتِمَالَ وَحْدَتِهِ، فَكِرَ فِي تَحْوِيلِ قَلْبِهِ نَحْوَ أَرْمَانَ بِحَثَّا
عَنِ الصِّدَاقَةِ. وَلَذِلِكَ سَارَ فِي طَرِيقِ بَنْسِيُونَ فِيدَالِ.

استقبله أرمان في غرفته. كانت هناك سلم للخدم توصل إلىها. إنها غرفة صغيرة ضيقة، تطل نافذتها على ساحة داخلية وتشرف عليها أيضاً مستراحات ومطابخ البناء المجاورة. وهناك عاكس للنور من الزنك المتنفس يحيطني الضوء من أعلى وينخفضه شاحباً. الغرفة سبعة التهوية وتعمرها رائحة متعبة.

وقال أرمان:

- هكذا اقتضى الأمر. أنت تعلم أن أهلي يحتفظون بأفضل الغرف للتلامذة الذين يدفعون. وهذا طبيعي. وقد تخليت عن الغرفة التي كنت أشغلها في السنة الماضية إلى فيكونت: شقيق صديبك الشهير بأسافان. أنها تليق بالأمراء؛ كثير من الغرف هنا تحت رقابة راشيل، ولكنها كلها ليست مستقلة. وهكذا فإن ساره المسكينة التي عادت من إنكلترا هذا الصباح لترجع إلى غرفتها الجديدة، مجبرة على المرور من غرفة أهلي (الأمر الذي لا

يميل قضيتها)، أو من غرفتي التي لم تكن في بادئ الأمر سوى غرفة زينة أو مستودع للأمتعة القديمة. أن لدى هنا على الأقل ميزة الدخول والخروج حينما أريد، دون أن يتتجسس علي أحد. وأفضل هذه الغرفة على غرفة السقف حيث يسكن الخدم. حقيقة القول إنني أحب أن أكون في مسكن سيء، لأن أي سوف يدعو ذلك: ذوق النقع، وسوف يشرح لك أن ما هو ضار بالجسم يعني «خلاص النفس». والخلاصة، فهو لم يدخل إلى هنا فقط. وأنت تعلم أن لديك شواغل أخرى غير القلق على مأوى ولدك. والذي مدهش جداً. يعرف عن ظاهر قلب كدسه من عبارات التعزية لأجل حوادث الحياة الرئيسية. وهي جميلة على السمع. وما يؤسف له أن لا وقت لديك للتحدث... ها أنت ترى رواق لوحاتي؛ والماء يتمتع بشكل أفضل في الصباح.

هذه، أنها صورة على الخشب بالألوان، لأحد تلامذة باولو أو كسللو؛ ليستعملها الأطباء البيطريون. لقد ركز الفنان على حصان واحد، في جهد بديع من التركيب، كل الآلام التي يمساعدتها تطهر العناية الإلهية النفس الحصانية. سوف تلاحظ روحانية النظارات... وهذه، أنها لوحة رمزية عن مراحل الحياة، من المهد إلى اللحد. وهي كرسم، ليست قوية جداً، ولكن قيمتها في القصد منها. وهناك، بعيداً، ستعجب بصورة فوتografية لأحدى محظيات تيسيان، أني أضعها فوق سريري لتتوحى إلى أفكاراً داعرة. وهذا الباب، هو باب غرفة سارة.

منظر المكان شبه القذر أثر على أوليفيه بشكل مؤلم.

فالسرير لم يكن مرتبًا. وعلى طاولة الزينة لم يكن الطشت قد أفرغ من الماء.

وقال أرمان بجيأ على نظراته القلقة:

- نعم، إني أرتب غرفتي بنفسي. هنا ترى طاولة عملي ليس لديك أي فكرة عنها يوحيه إلى جو هذه الغرفة:

«جو العزلة العزيزة...»

إن مدبن لهذا الجلو بفكرة قصيدي الأخيرة: «المبولة».

جاءه أوليفييه لرؤيه أرمان قاصداً أن مجده عن مجلته ويحصل على مساعدته؛ لم يعد بغيره على ذلك. ولكن أرمان فتح الحديث من تلقاءه:

- «المبولة!». ما أجمل هذا العنوان!.. مع ذلك الشاهد ليوديلر:

«هل تنتظر أهيا الإناء المأتمي شيئاً من البكاء؟...»

إني أستعيد منه تلك المفارنة الفدية (الشابه دائمًا) للخزاف المبدع الذي يكيف كل كائن شري على هيئة إناء مدعو لأن يحيطوي ما لا يُعرف. وأقارن نفسي، باندفاع عنائي، بالإماء المذكور؛ وهي فكرة، كما قلت لك، جاءتني وأنا اتنشق رائحة هذه الغرفة. وأنا مسرور على الخصوص من استهلال القصيدة:

«كل من في الأربعين لم يكن مصاباً بالبواسير ...» وقد وضعت في بادئ الأمر لطمأنينة القارئ: «كل من في الخمسين...» ولكن هذا يفسد على الترديد. أما «البواسير» فهي فعلاً أجمل كلمة في اللغة الفرنسية، بصرف النظر عن معناها.

هكذا أضاف مقهها. أما أوليفيه فكان صامتاً منقبض القلب. وتتابع أرمان:

- لا فائدة من القول لك أن المboleة قد فُتنت على الحصوص حين تلقت زيارة إثناء مثلك مليء بالطيب.
- وانتهى أوليفيه إلى السؤال بيأس:

- ألم تكتب شيئاً غير هذا؟ ...

- كنت سأعرض «مبولي» على مجلتك المجيدة، ولكن مع اللهجة التي قلت فيها «هذا؟...» أرى أنه ليس هناك من حظ لإرضائك. وفي هذه الحالات يظل عند الشاعر سبيل ليبرهن: «أنا لا أكتب لأرضي الناس» ولأن يتوهم أنه باضم إحدى الطرف. ولكن ليس لي أن أخفي عنك أنني رأيت قصيديتى كريهة. وباختصار، فإني لم أكتب منها سوى البيت الأول. وحينما أقول «أكتب» فهذه أيضاً طريقة في التعبير، لأنى صنعتها على شرفك، في اللحظة نفسها... كلا، ولكن أتفكر حقيقة في نشر شيء لي؟... أتمنى مساعدتي؟... إذن لم تحكم علي بأني غير قادر على كتابة شيء خاص بي؟... هل أبصرت جلياً على جهتي

سمات العبرية الكاشفة؟.. اعلم أن الرؤية هنا غير جيدة لكي يتطلع المرء إلى المرأة، ولكن حين أتأمل نفسي فيها، كترسيس، لا أجد سوى رأس خائب. وبعد كل شيء يمكن هذا أن يكون من تأثير انعكاس الضوء.... كلا يا عزيزي أوليفيه، كلا، لم أكتب شيئاً في هذا الصيف. وإذا كنت تعتمد على في مجلتك فبإمكانك تنظيف نفسك بالفرشاة. ولكن كفى كلاماً عنـي... إذن هل مضى كل شيء على ما يرام في كورسيكا؟... هل ارتحت جيداً من أتعابك؟.. هل... - اسكت يا صديقي. كفى مزاحاً... إذا كنت تظن أن أحد هذا طريقاً...

فقاں اور مان:

- حسناً... وأنا... آه! كلا، يا عزيزي؛ ليس الأمر هو نفسه! لست بالأحق إلى هذا الحد. عندي أيضاً ما يكفي من الذكاء لأدرك أن كل ما أقوله لك هو بلاهة.

ـ ألا تستطيع أن تتكلّم بجد؟..

- ستكلم جدياً ما دام النوع الجدي يرضيك. راشيل، اختي الكبرى، أصبحت عمياء. ضعف بصرها كثيراً في هذه الأيام الأخيرة. ومنذ ستين لا تستطيع القراءة دون مظارات. ظنت أولأ أنه ليس عليها إلا أن تغير الزجاج. ولكن هذا لم يكف. وقد استشارت اختصاصياً بناء على توصياته.

الحسائية الشبكية هي التي ضعفت. أنت تدرك أن هناك شيئين مختلفين جداً: فمن ناحية، تكيف معيب للبلور بحيث يسبب الزجاج الشفاء. ولكن حتى بعدما أبعد الزجاج الصورة البصرية وقربها فإن هذه يمكن أن تؤثر تأثيراً غير كاف على الشبكة وهذه الصورة لا تُنقل إلى الدماغ إلا مشوشاً. هل كلامي واضح؟.. أنت لا تعرف راسيل تقريراً. والنتيجة، إياك أن تظن إنني أحارول إتارة شفقتك على مصيرها. إذن، لماذا أفص عليك كل ذلك؟... لأنه خطر بيالي، وأنا أفكّر في حالتها، أن الأفكار، كالصور، يمكن أن تُعرض على الدماغ بشكل أكثر أو أقل وضوحاً. أن الروح العليظة لا تتلقى سوى إدراكات مشوشاً، ولكن، بسبب هذا نفسه، لا تهتم بأنها غليظة. ولن تبدأ بالتأمل من حافتها إلا إذا وعى هذه الحماقة، ولكي تعي ذلك يجب أن تصبح ذكية. تخيل هذا المسع لحظة: أن في الأبله من الذكاء ما يكفي ليدرك أنه أبله.

- إذن، لن يكون أبله.

- بلى يا عزيزي، صدقني. أنا أعرفه. ما دام هذا الأبله هو أنا.

فهز أوليفيه كتفيه، وقال أرمان:

- الأبله الحقيقي لا يعي فكرة وراء فكرته. أما أنا، فإني أعي «في ما وراء». ولكنني أبله مع كل هذا، لأنني أعلم أن هذه الـ «في ما وراء» لن أستطيع بلوغها أبداً.

فقال أوليفيه باندفاعة تعاطفي :

- ولكن، يا صديقي المسكين، كلنا خلقنا هكذا بحيث لا
نستطيع أن نكون أفضل مما نحن. واعتقد أن أعظم ذكاء هو
الأكثر تللاً من حدوده.

ودفع أرمان اليد التي وضعها أوليفيه بحودة على ذراعه،
وقال:

- هناك آخرون يشعرون بما عندهم، أما أنا فليس عندي
 سوى الشعور بما ينقصني. نقص المال، نقص القوى، نقص
 العقل، نقص الحب. العجز دائمًا. وسابقني دائمًا من هذا
 الجانب.

واقرب من طاولة الزينة وغمس فرشاة شعر في ماء الطشت
القدر وأنزل شعره على جبهته بشكل شنيع.

- فلت لك أنني لم أكتب شيئاً. ومع ذلك جاءتني فكرة
بحث في هذه الأيام الأخيرة، وقد دعوته: بحث في النقص.
ولكن من الطبيعي أنني ناقص فلا أستطيع كتابته. وكنت قلت
عنه... ولكنني أزعجك.

- أكمل... تزعيجي حين تمزح، أما الآن فتشوقني كثيراً.

- بحثت له خلال الطبيعة كلها عن الحد الأخير الذي لا
يوجد بعده شيء. وإليك مثلاً يجعلك تفهم: نقلت الصحف
حكاية عامل صعقته الكهرباء فمات. كان يحرك أشرطة الاتصال

بغفلة، ولم يكن الفولتاج كثير القوة، ولكن يبدو أن جسد العامل كان يرشح عرقاً. وقد عزي موته «لـ تلك الطبقة الرطبة التي أتاحت للمجرى الكهربائي أن يغلف جسده. ولو كان الجسد أكثر جفافاً لما وقع الحادث. ولكن لنصف العرق قطره بعد قطرة... قطرة واحدة أيضاً: وانتهى الأمر.

قال أوليفيه:
- لم أفهم.

- هذا لأنني لم أحسن اختيار المثل. دائمًا لا أحسن اختيار أمثلتي.

هذا مثل آخر: سنة من الغرقى التقطوا في زورق. منذ عشرة أيام وال العاصفة تضلّلهم؛ مات ثلاثة، وأنقذ اثنان. أما السادس فكان مغمى عليه. وكان هناك أمل في إعادته إلى الحياة. كان جهازه العضوى قد بلغ الحد الأخر.

قال أوليفيه:

- نعم، فهمت. بعد ساعة يمكن إنقاذه.

- ساعة، ما أسرع ما تصل إلى نتيجة!.. أنا أحسب اللحظة النهاية: يمكن أيضاً.... يمكن أيضاً. لا يمكن أبداً!.. أنها حسكة ضيقة تتنزه روحي عليها. حظر التماس هذا الفاصل، بين الكائن واللاكائن، أسعى لأرسمه في كل مكان. حد المقاومة... إليك متلاً ما يدعوه أبي: إغراء. ولا

واختنق صوته، فاتخذ نبرة مؤثرة أدهشت أوليفيه وجعنه يضطرب. وناب بشكل أكثر هدوءاً وأكثر رقة تقريباً:

- أنت نذكر: «لقد ذرفت دمعة كهذه في سبيلك...».

من المؤكد أن أوليفييه يتذكر عبارة باسكال؛ وكان أنصتاً متضايقاً لأن صديقه لم يسردها بدقة لم يستطع أن يمسك نفسه عن إصلاحها: «لقد ذرفت قطرة دم مثلها...».

وحالاً هي بطيء حماسة أرمان، فهو كنفيه:

- مَاذَا نُسْتَطِعُ حِيَالَ ذَلِكِ؟ . فَهُنَّا كَمَنْ يَسْتَقْبِلُونَ وَهُمْ

مرفوعو الأيدي... أفهمت الآن ما يعني أن يشعر المرء دائمًا أنه «على الحد؟» سينقصني دائمًا نقطة...

وأخذ يضحك. فكر أوليفييه أن هذا الضحك بداعم الخوف من البكاء. كان يريد أن يتكلم بدوره، وأن يقول لأرمان كم حركته أقواله، ويقول له عنها شعر به من غم تحت هذا التهكم الساخط. ولكن موعده مع باسافان جعله يسرع. فسحب ساعته، وقال:

- يجب أن أتركك. هل أنت حر هذا المساء؟..

- لماذا؟..

- تأتي إلى في حانة الباينيون. أن جماعة «الأرغونوت» يقيمون مأدبة. ستذهب إلى هناك بعد نهايتها، سيكون هناك كثير من الناس الأكثر أو الأقل شهرة والمخمورين قليلاً. لقد وعدني برنار بروفيتانديو بالمجيء إلى هناك. يمكن أن يكون هذا مسلياً.

قال أرمان بلهجة عابسة:

- لم أحلق ذقني. ثم ماذا تريد أن أعمل بذهابي بين ذوي الشهرة هؤلاء؟ ولكن أتعرف ماذا؟ سل سارة التي عادت هذا الصباح من إنكلترا. أن هذا يسليها كثيراً، وأنا متأكد. أتريد أن أدعوها باسمك؟ ستأخذها برنار إلى هناك.

قال أوليفييه:

- يا صديقي، لا بأس.

٨

كان من المتفق عليه إذاً أن يمر برناجر وأدوار، بعد أن يتعشيا معاً، ليأخذا ساره قبل الساعة العاشرة بقليل. وكان أرمان قد أخبرها فقبلت العرض بسرور. وعند الساعة التاسعة والنصف انسحبت إلى غرفتها حيث رافتتها والدتها. وقد اجتازا غرفة الأبوين ليصلا إلى هذه الغرفة. لكن هناك باب آخر، يُظن أنه مقفل، يصل بين غرفة ساره وغرفة أرمان التي تفتح من الناحية الأخرى على سلم الخدم كما أسلفنا.

تظاهرت ساره أمام أمها بالنوم، وطلبت أن تُترك لتنام. وما إن أصبحت وحدها حتى اقتربت من طاولة زيتها لتعيد التألق إلى شفتتها وخدبيها. وطاولة الزينة تحجب الباب المغلق، وهي ليست كثيرة الثقل لتعجز ساره عن نقلها دون ضجة، وفتحت الباب السري.

كانت ساره تتخفف من أن تلتقي أخاهما، لأنها تخاف سخريته. صحيح أن أرمان كان يشجعها في مجازفاتها الأكثر جسارة، حتى ليقال أنه يجد بها للذلة، ولكن بنوع من التساهل الموقت فقط؛ وذلك ليقايسها على الأثر ويكتبه من الصرامة؛

حتى أن ساره لم تكن تعرف إذا كانت تساهلاً لها ليست هي نفسها مادة صرامتها.

كانت غرفة أرمان فارغة. جلست سارة على مقعد صغير منخفض، منتظرة وهي سارحة في تأملاتها. كانت تغرس في نفسها، بنوع من الاحتياج الاحتياطي، احتقاراً سهلاً لجميع الفضائل المنزلية. كان الضغط العائلي قد وثّر نشاطها وأحقن غرائز التمرد فيها. وقد عرفت طوال مدة إقامتها في إنكلترا أن تزيد من حرارة شجاعتها، وكانت عازمة على نيل حريتها كالأنسة أبودين التلميذة الإنكليزية الشابة، وأن تمنح نفسها كل رخصة، وتجرؤ على كل أمر. كانت تشعر في نفسها بالاستعداد لمجاهاه جميع الاحتقارات، وجميع التوبيخات، والقدرة على جميع التحديات. وفي دروسها السابقة إلى جانب أوليفييه كانت قد انتصرت على حشمتها الطبيعية وعلى كثير من الحياة المكتسب. كان مثل اختيها قد علمها؛ كانت تعتبر استسلام راشيل الدين غشاً. ولم ترض أن ترى في زواج لورا سوى عملية بيع حزنة تقد إلى العبودية. والتعليم الذي تلقته، وذلك الذي أعطي لها، والذي اكتسبته، قد هيأها بشكل سيء، كما تعتبر، إلى ما تدعوه: التفاني الزوجي. إنها لا تفهم لماذا من ستزوجه هو حتى أعلى منها مستوى؟ لم تقدم امتحانات كالرجل؟.. ألم تكن لها آراءها الخاصة، وأفكارها، حول أي موضوع؟.. وحول مساواة

الجنسين بنوع خاص؟ ويدو لها أبضاً أن المرأة قدمت في أغلب الأحيان برهاناً على الفكير ككتير من الرجال، في سلوك الحياة، والأعمال، وفي السياسة عسها إذا اقتضى الأمر.

سمعت وقع خطوات على السلم. أرهفت أدتها، ثم فتحت الباب بهدوء

لم يكن برنار وساره قد تعارفاً بعد. كان الرواق دون نور، لم يستطيعاً في الظلام أن يميزاً بعضهما البعض إلا بالجهد. وعتمر برنار:

ـ الآنسة ساره فيدال؟

فتابطت ذراعه دون كلفة.

ـ أدوار يتتظرنا في راويه الشارع في سيارة. لعد فضل الا ينزل خوفاً من أن يلتقي بأهلك. أما أنا فلا أهمية لذلك عندي: أنت تعرفي أنني أسكن هنا.

حرص برنار على ترك الباب الكبير مفتوحاً فليلاً يثير انتباه البواب. بعد لحظات وضعنهم السيارة، نلاشهم، أمام حانة البانيتون. وبينما كان أدوار يدفع أحيرة السائق سمعوا الساعة تدق العاشرة.

كانت الوليمه قد انهت. ورفع الطعام، لكن الطاولة طلت مزدحمة بفناجين القهوة والرجاجات والكؤوس. كان الجميع يدخنون، وأصبح الجو غير صالح للتنفس. مدام دو برووس

زوجة ماير «الأرغونوت» طلبت الهواء. كان صوتها الحاد ينذر من خلال المحادلات الخصوصية. وفتحت النافذة. ولكن جوستينيان الذي كان يريد إلقاء خطاب عاد وأغفلها على الأثر «لأجل تقوية الصوت». وكان قد نهض، وضرب على كأسه بملعقة دون أن يتوصل إلى لفت النظر وتدخل مدير «الأرغونوت» الذي يدعى الرئيس دو بروس وانتهى بالحصول على قليل من الصمت. وسأل صوت جوستينيان بأغطية وافرة من الضجر. واختفى ابتداء تفكيره تحت موجة من الصور. كان يوضح أفكاره بفخامة حلت محل الروح ووجدت الوسيلة لنوجيه تهنة غامضة لكل فرد. وعند الوقفة الأولى، وحين دخل أدوار برنار وسارة، انفجرت تصفيقات المjamالمة. وقد مددها بعضهم بشكل تهمي دون شك كأنهم يأملون أن يضعوا حداً للخطاب؛ ولكن عبثاً: فقد تابع جوستينيان؛ وما من شيء يصعب شجاعته فصاحته. لقد غطى الآن الكونت دو باسافان بأزاهير بلاغته. تحدث عن «الماجذب الثابت» كأنها إلية جديدة. وشرب الجميع على صحة باسافان. لم يكن لدى أدوار كأس، كذلك برنار وسارة، وهذا ما أعقدهم من قرع الكؤوس.

وانتهى خطاب جوستينيان بشميات للمجلة الجديدة، وببعض التهاني لمديريها في المستقبل «الشاب الموهوب مولينيه، المحبوب من آلهة الفن، صاحب الجبهة النبيلة الطاهرة التي لن تنتظر طويلاً إكليل الغار».

كان أوليفيه واقفاً قرب باب الدخول بحيث يستقبل أصدقائه حال وصولهم. وقد ضايقته تحيات جوستيان المفرطة، شكل ظاهر. لكنه لم يستطع أن يتوارى عن المحتاف الغلبل الذي تلا.

كان القادمون الثلاثة الجدد قد تناولوا طعامهم بكثير من التفاح فلم يستطعوا الارتفاع إلى مستوى نشوة المجتمعين. ففي هذه الأنواع من الاجتماعات يفسر الآتون متأخرین تفسيراً سيئاً كثرة هياج الآخرين. أنهم يحكمون بينما لا يحمل بهم أن يحكموا، ويمارسون، ولو لم يكن عفوياً، نقداً دون تساهل؛ هذه كانت حال أدوار برنار على الأفل. أما سارة التي كانت حديدة على هذا الوسط، فلم تكن تفكّر إلا في أن تتعلم. ولم يكن لها من هم إلا أن تقتفي آثار الآخرين.

لم يكن برنار يعرف أحداً. وأوليفيه الذي تأبط ذراعه، كان يريد أن يقدمه لباسافان ولدو بروس. لكنه رفض. ومع ذلك فقد اغتنم باسافان الفرصة وتقدم، ومد إليه بما لم يستطع، لبقة، أن يرفضها.

- سمعت من يتحدث عنك منذ وقت طوبيل حتى خيل إلي إنني أعرفك.

- وأنا كذلك.

هكذا قال برنار بنيرة جمدت لطف باسافان. وعلى أثر ذلك

اقرب من أدوار.

ومع أن أدوار كان في الغالب مسافراً، وعاشَا في معزل عن الناس حتى في باريس، فقد كان يعرف الكثير من المدعون. ولم يكن يشعر بأي ضيق. وهو وإن لم يكن محبوياً من زملائه، إلا أنهم يقدرون مكانته وإن كان قلماً يختلط بهم. رضي أن يُحسب ذا كبراء. وكان يسمع أكثر مما يتكلم.

وبدأ بأسافان بصوت هادئ شبه منخفض.

- ابن أختك جعلني آمل حضورك. وقد سرت بذلك لأنى ...

ولكن نظر أدوار التهكمية قطعت ما بقي من عبارته. ولما كان بأسافان ماهراً في الإغراء، معتاداً بيل الرضا، فقد كان بحاجة إلى السعور أمامه بمرأة مطواة لكي يتالق. ومع ذلك فقد تمالك نفسه لأنه لم يكن من أولئك الذين يفقدون ثقتهم بأنفسهم لوقت طويل ويقبلون بالنزول عن مكانتهم. فرفع جبهته وشجن عينيه بالواقحة. إذا لم يستجب أدوار للعبة بطيبة خاطر فإن لديه، على كل حال، ما يذله به. وقال بأسافان كأنه يكمل فكرته:

- كنت أريد أن أسألك... هل لديك شيء من أخبار ابن أختك الآخر، صديقي فند إن... فهو الذي كنت على علاقة وطيدة به

فقال إدوار بشفاف:

- كلا.

هذه الـ «كلا» قلبت باسافان عن السرج من جديد ولم يعرف إذا كان يجب أن يعبرها تكتيئاً استفزازياً أو جواباً بسيطاً عن سؤاله. لم يدم اضطرابه سوى لحظة. وبكل براءة إعادة أدوار إلى السرج عندما أضاف على الأثر:

- علمت فقط من والده أنه يقوم بزيارة مع أمير موباكو.

- كنت قد طلبت من إحدى صديقاتي أن تقدمه إلى الأمير، فعلاً. كنت سعيداً باختلاق هذه الألهمية لألهي قليلاً عن معامرته البائسة مع تلك السيدة دوفيفيه... التي تعرفها كما قال لي أوليفييه. كان معرضاً لافساد حياته.

كان باسافان شجيد استعمال الإزدراء والاحتقار والتنازل بكثير من المهارة: ولكن كان يكفيه أن يربع هذه الدورة ويرغم أدوار على احترامه. وكان هذا يبحث عن أي شيء يضرب به ولكنه فقد حضور الذهن بشكل غريب. وما من سك في أنه كان قليلاً ما يحب الناس لهذا السبب: لم يكن لديه شيء مما يحتاجه لكي يتألق بينهم. ومع ذلك فقد تقطب حاجبه. وكان باسافان يتحلى بحسنة الشم؛ فحين يكون هناك شيء يقال له فإنه يشعر بمجيئه، ويذور. وهذا سأله وهو يبتسم، مغيراً لهجته فجأة دون أن يستعيد أنفاسه:

- ولكن من هذه الفتاة اللذيدة التي نراففك؟

فقال أدوار.

- إنها الآنسة ساره فيدال، شقيقة مدام دوفيه صديقتي.

ولعجزه عن قول ما هو خير من ذلك فقد شحد كلمة «صديقتي» كالسهم؛ ولكنه لم يبلغ هدفه، وقد تركه باسافان يسقط.

- تكون لطيفاً جداً إذا فدمتني إليها.

قال هذه الكلمات الأخيرة والعبارة السابقة بصوت مرتفع لستطيع ساره أن تسمعه؛ وبما أنها التفت نحوهما فلم يستطع أدوار أن يتملص، وقال بابتسامة قسرية:

- ساره، الكونت دو باسافان بأمل التشرف بمعرفتك.

وطلب باسافان تلات كؤوس جديدة ملأها «بالكوقل». وشرب الأربعة على صحة أوليفيه. كانت الزجاجة شبه فارغة. وبما أن ساره دهشت للبلورات التي بفيت في القعر فقد بذل باسافان جهده ليفصلها عنه بواسطة القش. عند ذلك تقدم شخص يشبه خادماً غبياً غريباً، بوجه بلون الطحين، وعين كأنها من الزجاج الملون، وشعر كطاقيه من جلد الخلد الناعم، وهو يعلك كل مقطع بجهد ظاهر، وقال:

- لن تتوصلي إلى فعل شيء. أعطني الزجاجة لأبقرها.

وأخذها، وكسرها بضررها واحدة على حافة النافذة وقدم

الغرر إلى ساره، وقال:

- بهذه الأشكال دات الوجوه المعددة الصغيرة القاطعة
ستحصل الأنسة اللطيفة دون جهد على ثقب في الزجاجة.

- من هو هذا المضحك؟

هكذا سألت بأسافان الذي اجلسها وجلس بحابها

- أنه الفريد حاري Jarry مؤلف «أوبو الملك»، وجماعة
«الأرغونوت» بصفوفه بالعقبة لأن الجمفور صفر لمسرحيته أنها
أغرب ما مثل على المسرح منذ وقت طويل.

فقالت ساره:

- أحب «أوبو الملك» كثيراً وأنا مسروورة جداً للقاء حاري.
قيل لي أنه دائمًا سكران.

- سيضطر أن يكون كذلك هدا المساء. رأيته يتربى على
الغداء كأسبن كبيرتين مليونين بالأستنت الصرف ولا تدل هيئته
على أنه نضايق منها. أتريدن سكارا؟ على المرء أن يدحر
بنفسه لثلا يختنق من دخان الغير.

وانحنى نحوها مقدماً لها النار. وقصمت بعض اللورات
وقالت منحدعة قليلاً:

- ولكن ليس هدا سوى سكر مخفف. كست آمل أن يكون
قوياً جداً.

وكانت وهي محذت بأسافاد تبتسم لرizar الذي طل

بجانبها. وكانت عياباً اللاهيتان تألقان ببريق غبر عادي. وبرنار الذي لم يستطع رؤيتها في الظلام دهش من سبها بلوراً. الجبهة نفسها، التفتان نفسها. لكن فسماتها نوحية ملائحة أقل ملائكة. وكانت نظراتها تحرك في قلبه ما لا يعرف من الإضطراب. وأحسن بشيء من الضيق فالافت نحو أوليفيه:

- قدمني لصديقك بركاي.

كان قد التفى بيركاي في اللوكسمبور، لكنه لم يتحدث إليه أبداً. قط. وبركاي الذي كان في غير وسطه، في هذا الوسط الذي أدخله فيه أوليفيه، بحيث لم يفارقه خجله، كان يحمر حياء في كل مرة يقدمه فيها صديقه كواحد من محاري «الطلبيعة» الرئيسين. والحقيقة أن تلك القصيدة الرمرة التي كان يجدث أوليفيه عنها في بدء قصتنا سوف تظهر في بداية المحلة الجديدة، بعد الافتتاحية مباشرة.

وقال أوليفيه لبرنار:

- في المكان الذي احتفظت به لك، أنا على ثقة أنها ستعجلك. فهي أفضل ما في العدد. طريقة جداً.

كان أوليفيه يشعر بالسرور في مدح أصدقاءه أكثر من سروره سماع مدح موجه إليه. وبافتراب بربار همض بركاي؛ كان يمسك فنجان القهوة بيده بشكل آخر حتى أنه سكب نصفه على صدرته من فرط تأثره. وفي هذه اللحظة سمع صوت جاري الميكانيكي.

- برکای الصغر سیتسسم لأنی وضعت سیاً فـ فـنـجـانـهـ .
- كان جاري يلـهـو بـخـجلـ برـكـايـ ويـجـدـ مـتـعـةـ فيـ التـشـويـشـ عليهـ . ولكنـ برـكـايـ لمـ يـكـنـ يـخـافـ جـارـيـ ، فـهـزـ كـتـفـيـهـ وأـكـملـ فـنـجـانـهـ باـطـمـثـانـ
- وسـأـلـ بـرـنـارـ :
- ـ منـ هـذـاـ؟ـ .ـ .ـ .ـ
- ـ كـيـفـ!ـ .ـ أـلاـ تـعـرـفـ مؤـلـفـ «ـأـوـبـوـ الـلـكـ»ـ؟ـ
- ـ غـيرـ مـمـكـنـ!ـ .ـ أـهـذـاـ جـارـيـ؟ـ .ـ حـسـبـتـهـ خـادـمـاـ .ـ
- فـقـالـ أـولـيفـيـبـيـهـ بـشـيءـ منـ الغـيـظـ لـأنـهـ كانـ فـخـورـاـ بـرـجـالـهـ
- الـكـبارـ :
- ـ أـوـهـ!ـ .ـ أـرـجـوكـ!ـ تـلـعـ إـلـيـهـ بـصـورـةـ أـفـضـلـ أـلاـ تـجـدـهـ
- خـارـقاـ؟ـ
- فـقـالـ بـرـنـارـ الذـيـ لـاـ يـدـحـ إـلـاـ ماـ هوـ طـبـيـعـيـ ،ـ وـلـكـنـهـ معـ ذـلـكـ
- كـانـ يـوـليـ «ـأـوـبـوـ»ـ الـكـثـيرـ منـ الـاعـتـباـرـ .ـ
- ـ أـنـهـ يـفـعـلـ كـلـ مـاـ يـسـتـطـيـعـ لـيـظـهـ خـارـقاـ .ـ

كانـ كـلـ مـاـ فيـ جـارـيـ يـوـجيـ التـصـعـبـ .ـ مـنـ مـلـابـسـ

«ـغـوـغـوـسـ»ـ التـقـلـيدـيـهـ لـيـدانـ السـبـاقـ الـتـيـ اـرـتـدـاهـاـ ،ـ إـلـىـ بـنـوـعـ

أـحـصـ ،ـ طـرـيقـهـ فـيـ الـكـلـامـ الـتـيـ يـنـافـسـ فـيـ تـقـلـيدـهـاـ كـنـيـرـ مـنـ جـمـاعـهـ

«ـأـرـغـونـوـتـ»ـ ،ـ بـحـيـثـ يـطـرـقـ مـقـاطـعـهـ ،ـ وـيـخـتـلـقـ كـلـمـاتـ غـرـيـبـهـ ،ـ

وـيـلـفـقـ كـلـمـاتـ أـخـرـىـ بـشـكـلـ غـرـيـبـ ،ـ وـلـكـنـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ لـبسـ

هناك سوى جارّي نفسه الذي يجعلنا نحصل على صوت دون رنة، دون حرارة، دون لحن، دون روّق.

وقال أوليفيه :

- حين تتعرف عليه تجده فاتناً.

- أفضل الأّ أعرفه. يبدو ضارياً.

- هو شكل يتظاهر به. ويعتقد باسافان أنه في سريرة نفسه هادئ جداً، ولكنه شرب بشكل خفيف هذا المساء! دون أي قطرة ماء، وأرجو أن تصدق ذلك، ولا نبيذ. لا شيء سوى الأبسنت ومشروبات قوية. باسافان يخشى أن يرتكب بعض الحماقات.

كان اسم باسافان يعود إلى سفتية بإصرار، رغمّ عنه، بقدر ما كان يريد أن يتتجبه.

وسخط لأنّه غير مالك نفسه. فغير الحديث كان نفسه تلاحقه :

- الأفضل أن تذهب وتتحدث قليلاً مع دورمر. أخشى أن يكون قد تمنى لي الموت لانتزاعي منه إدارة «الطليعة»؛ ولكن ليس الخطأ خطئي. لم أستطع إلا أن أقبل. عليك أن تحاول إفهامه ذلك، وتهديه. ناسا... فيل لي أنه غاضب جداً علي.

تعثر ولكنه لم يقع هذه المرة. وقال بركاي :

- آمل أن يكون قد استعاد مخطوطته. لا أحب ما يكتب.

ثم التفت إلى بروفينانديو.

- ولكن أنت يا سيد. كنت أفكّر أن ..

- أوه! .. لا تدعني سيداً .. أعرف تماماً أنّي أحمل اسمها مزعجاً مضحكاً .. أتمنى أن أخذ اسمها مستعاراً، إذا كتبت.

- لماذا لم تعطنا شيئاً؟ ..

- لأنني لا أملك شيئاً جاهزاً.

واقترب أوليفيه من أدوار، تاركاً صديقه يتحدثان.

- كم كنت لطيفاً بمجيئك! .. كنت راغباً في مشاهدتك. ولكنني كنت أتمنى أن أراك في أي مكان، في الخارج بدلاً من هنا .. في هذا الأصيل قرعت جرس نابك .. هل قيل لك؟ .. كنت ساخطاً لعدم لقائك. ولو عرفت أين أجدهك ..

كان سعيداً جداً بايضاح أفكاره بهذه السهولة، متذكرة الوقت الذي كان وجوده أمام أدوار يبيّنه ساكتاً. كان يعزو هذه السهولة، مع الأسف، إلى تفاهة حديثه وإلى الإفراط في الشرب. وكان أدوار قد أدرك ذلك بكاءً.

- كنت عند والدك.

- هذا ما علمته عند عودتي إلى المنزل.

أجاب أوليفيه الذي كدره استعمال أدوار صيغة الجمع في مخاطبته. وتردد فيها إذا كان سيقول ذلك له. وسألته أدوار وهو يتحقق فيه:

- أفي هذا الوسط سعيت من الآن فصاعدا؟

- أوه! لن أحمل على غير ما أقصد.

- أوثق أنت؟ ..

قبل هذا بلهجة رصبة، رفيعه، أخوية... وسرع أوليفيه
بطمامنته ترنح.

- أترى أنني أخطأت بعشرة هؤلاء الناس؟

- كلا، أبداً، تقرباً: ولكن عضأ منهم، دون شك.

حسب أوليفيه أن هذا الجمع هو مفرد. طن أن أدوار يعني
باسافان بوجه خاص. وكان هذا، في سمائه الداخلية، كبرق
لامع مؤلم يخترق السحب التي تكاثفت منذ الصباح بشكل مخيف
في قلبه. كان يجب برنار، ويجب أدوار كثيراً لتحمل احتقارهما.
بجانب أدوار تزداد حاسة أفضل ما فيه. أما رحاب باسافان فإن
أسوا ما فيه يسيطر أنه يعرف بذلك لنفسه الآن. ثم، ألم
يعرف ذاتياً بذلك؟.. ألم نكن عما وته بجانب باسافان
طوعيه؟.. إن إقراره بالفضل لكل ما عمله الكونت في سبيله
قد تحول إلى ضغبته. لقد عاد إلى نكرانه بولع. وما رأه الآن،
هنا، جعله يكرهه. فقد رأى ما يأتي:

باسافان منحن على ساره، وقد طوق حصرها بدراعه وبدأ
يضغط أكثر فأكثر. كان قد بلغه الدوى المكدر الذي انتشر
 حول ملافاته بأوليفيه، فأراد الآن أن يكذب الإشاعات. ولكي

بزيـد من لفـت الأنـطـار نـوى أن يـدعـو سـارـه للـحلـوس عـلـى رـكـسيـه
وسـارـه، حـتـى الآـن، لم تـقـانـع إـلا قـلـلاً. وـلـكـ عـيـنـهـا كـانـتـا تـبـحـثـانـ
عـن عـيـنـيـ بـرـنـارـ وـلـا لـفـتـ عـيـنـهـا اـسـمـتـ كـانـهـا تـقـولـ لهـ:
- انـظـرـ إـلـى أـيـ حـدـ يـمـكـنـ المـرـءـ أـنـ تـجـرـأـ مـعـيـ.

وـمعـ ذـلـكـ فـقـدـ كـانـ باـسـافـانـ مـخـسـنـيـ أـنـ يـسـيرـ سـرـعـهـ. كـاتـ
تـنـفـصـهـ الـمـارـسـهـ وـقـالـ لـنـفـسـهـ، مـادـاـ الـبدـ الـتـيـ نـقـيـتـ حـرـةـ نـحـوـ
زـجاـجـةـ مـنـ الـكـورـاسـاوـ:

- لوـ توـصـلـتـ فـقـطـ إـلـى أـنـ أـجـعـلـهـاـ تـشـرـبـ فـلـبـلـاـ بـعـدـ.

وـأـولـيفـيـهـ الـذـيـ كـانـ يـرـافـبـهـ، سـبـقـ حـرـكـتـهـ، وـاستـولـ عـلـىـ
الـزـجاـجـةـ، لـكـيـ يـخـطـفـهـ مـنـ باـسـافـانـ؛ وـلـكـنـ بـداـ لهـ أـنـ سـبـسـعـيدـ
فيـ الشـرابـ شـيـئـاـ مـنـ الشـجـاعـهـ الـتـيـ أـحـسـ بـهاـ بـخـورـ وـالـتـيـ كـانـ
بـحـاجـةـ إـلـيـهـاـ لـيـوـصـلـ إـلـىـ إـدـوارـ تـلـكـ السـكـوـيـ الـتـيـ تصـاعـدـتـ إـلـىـ
شـفـتـيـهـ:

- كـانـ الـأـمـرـ شـوقـ عـلـيـكـ . . .

وـمـلـاـ أـولـيفـيـهـ كـأسـهـ وـأـفـغـهـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ. وـفـيـ تـلـكـ اللـحـظـةـ
سـمـعـ جـارـيـ الـذـيـ كـانـ بـطـوفـ مـنـ جـمـاعـهـ إـلـىـ أـخـرـىـ يـعـولـ بـصـوـتـ
خـتـنـقـ وـهـوـ يـرـاءـ بـرـكـايـ.

- وـالـآنـ سـنـفـلـ بـرـكـايـ الصـغـيـرـ.

فالـلـفـتـ هـذـاـ فـجـأـةـ وـفـالـ؛

- أـعـدـ مـاـ قـلـتـهـ بـصـوـتـ مـرـتفـعـ .

كان جاري قد ابتعد فانتظر حتى دار حول الطاولة وأعاد بصوت حاد:

- والآن . سنتل بركاي .

ثم أخرج من جيده مسدساً ضخماً كان جماعة «الأرغونوت» يرونـه غالباً وهو يلعب به؛ وصوّبه نحو بركاي .

كان جاري قد اكتسب شهرة كبيرة باطلاق النار. وارتقت الاحتجاجات ولم يكن أحد يعلم أنه سبق تصر على التمثيل وهو في هذه الحالة من السكر. ولكن بركاي الصغير أراد أن يظهر عدم خوفه، فصعد على كرسي وذراعاه منصباً على وراء ظهره، وانحنى وقفـة نابليونية. كان فيه شيء مضحك. وارتقت بعض الضحكـات، ثم تعـطفـت بالتصفيق.

وقال باسافان لساره بسرعة:

- يمكن أن ينتهي الأمر نهاية سيئة. أنه خمور غاماً. اخـبـئـي تحت الطاولة.

وحـاـولـ دـوـ بـرـوسـ أنـ يـسـكـ جـارـيـ،ـ وـلـكـنـ هـذـاـ أـفـلـتـ منهـ وـاعـتـلـ بـدـورـهـ مـقـعـداـ (لاـحـظـ بـرـنـارـ أنهـ يـتـعلـ خـفـينـ للـرـقصـ)ـ وـلـمـ أـصـبـ وجـهـاـ لـوـجـهـ أـمـامـ بـرـكـايـ مـدـ ذـرـاعـهـ لـيـصـوـبـ.

وـصـرـخـ دـوـ بـرـوسـ:

- اـطـفـلـواـ الأـنـوارـ،ـ أـطـفـلـواـ الأـنـوارـ.

وـكـانـ أـدـوارـ باـقـياـ بـقـرـبـ الـبـابـ فـأـدـارـ عـاـكـسـ التـيـارـ.

كانت ساره قد نهضت مستجيبة أمر بأسافان. وما أن أصبحا في الطلام حتى التصقت ببرنار لتقوده معها تحت الطاولة.

وذهبت الطلقة. لم يكن المسدس محسواً إلا بالبارود. ومع ذلك فقد سمعت صرخة ألم. أنه جوستينيان الذي تلفى الطلقة في عينه.

وحين أعيد النور، أعجب الجميع بيركاي الذي ظل واقعاً على كرسيه، محتفظاً بوقفته، جاماً ولا يكاد شحوبه يزيد عنها كان.

ومع ذلك فإن الرئيسة نالت حقها أزمة عصبية. وسمع من قال:

- أنها لحماقة أن تحدث أمور كهذه! ..

ولما لم يكن هناك ماء على الطاولة، فإن جاري هبط عن قاعده وغمس منديلاً في الكحول ليفرك به صدغي الرئيسة، بشكل اعتذار.

لم يلبث برنار تحت الطاولة إلا هنيهة؛ الوقت الكافي ليشعر بشفتي ساره المحرقتين تنسحقان بلذة على شفتيه. وكان أوليفيه قد تبعهما، بداع الصدقة، بداع الغيرة... لقد أثر السكر عنده شعور البقاء على الهاشم، هذا الشعور الذي يعرفه جيداً. وحين خرج بدوره من تحت الطاولة كان رأسه يدور قليلاً حيثئذ سمع صوت دورمر يصرخ:

- انظروا مولينيه! . . أنه جبان كالمرأة.
وكان هذا كثيراً. ودون أن يعرف أوليفيه ماذا يفعل،
هجم، ويده مرفوعة، على دورمر. خيل إليه أنه بتحرك في
حلم. وتجنب دورمر الضربة. وكما في الحلم، فإن يد أوليفيه لم
تلتف سوى الفراغ.

وأصبح الإضطراب عاماً. وبينما كان بعض الحضور
مشغولين بجانب الرئيسة التي استمرت في الإكثار من الحركات
مخرجة ضغاباً حاداً، كان آخرون يحيطون بدورمر الذي كان
يصرخ: «لم يصبني! . لم يصبني!». وبذل آخرون كثيراً من
المجهد ليهدئوا من ثائرة أوليفيه الذي كان يستعد لهجمة أخرى،
ووجهه كالنار.

وسواء أصيب دورمر أم لا فقد اعتبر نفسه كأنه قد صُفع.
وهذا ما سعى جوستنيان ليفهمه إياه، وهو يسمع عينه. أنها
قضية شرف. ولكن دورمر قليلاً ما يهتم بدرس جوستنيان عن
الشرف وقد سمع وهو يردد بياصرار:

- لم أُصُب... لم أُصُب...

فقال دو بروس:

- دعه. لا يمكن إجبار الناس على القنال رغباً عنهم.
ومع ذلك فإن أوليفيه كان يصرخ عالياً أن دورمر إذا لم
يكن راضاً فهو مستعد لصفعة أيضاً. ولما كان عازماً على جر

الأخر إلى الميدان فقد طلب من برناز وبركاي أن يكونا شاهديه .
لم يكن أحد منها يعرف شيئاً عنها يدعى قضايا «الشرف» ولكن
أوليفبيه لم يجرؤ على طلب ذلك من أدوار كانت ربطه عنقه قد
انحلت عقدها وسقط شعره على جبهته المتصلدة عرقاً .
ـ كان هناك اضطراب متشنج يحرك يديه . وأمسكه أدوار من

ذراعه

ـ نعال وصع قليلاً من الماء على وجهك . أنك تبدو
كمجنون .
وفاده إلى مغسلة .

وما أن أصبح أوليفبيه حارج القاعة حتى أدرك كم كان
ثملأ . وحن شعر ببد أدوار على دراعه ظن أنه سيسقط وترك
نفسه يقاد دون مقاومة . ولم يدرك شيئاً مما قاله له أدوار سوى
صيغة المفرد المخاطب . وكصحاته كبيرة من زوعه تنفجر مطراً
بذا له أن قلبه ذاب فجأه وسال دموعاً . ووضع أدوار على جبهته
منشفة مبللة جعلته يصحو من سكره . ماذا جرى؟ .. لفدر
احتفظ بوعي مبهم من تصرفه كولد ، كبهيمه ... سعر أنه
مضحك ، حقير ... حيشذ ارتقى على أدوار ، وهو يرتعش من
الشقاء والحنو ، وصممه إليه وراح يتنح :
ـ خذني ...

كان أدوار متأثراً حتى الهابة ، فسأله :

- أهلك؟ ..

- لا يعرفون أني عدت.

وبيها كانا بجهازان المقهى للخروج، قال أوليفييه لصديقه أنه يريد أن يكتب كلمة.

- إذا وضعت في البريد هذا المساء فستصل غداً في الساعة الأولى. وجلس على منضدة في المقهى، وكتب.

«عزيزي جورج.

نعم، هذا أنا الذي يكتب إليك، لأطلب منك إسدائي خدمه صغيرة. لن أعلمك بجديد دون شكر بقولي لك أنني عدت إلى باريس، لأنني اعتقاد جيداً أنك شاهدتني هذا الصباح قرب السوربون. كنت نازلاً عند الكونت دو باسافان (وأعطي العنوان)؛ وأمتعتي هي أيضاً عنده. ولأسباب بطول شرحها لك ولن تسرك أنها أفضل إلا أعود إلى عنده. ليس هناك غيرك من تستطيع الطلب منه أن يأتي بي بهذه الأمتעה. ستقوم بهذه الخدمة بطيبة خاطر، أليس كذلك؟ بشرط المبادلة. هناك صندوق مغلق. أما الأمتעה الموجودة في الغرفة فستضعها بنفسك في حقيبتي وتنقل كل شيء إلى منزل الحال إدوار. سأدفع أجراً السيارة. من حسن الحظ أن غداً هو الأحد، وتستطيع القيام بذلك حالماً تتسلم هذه الكلمة. أنا معتمد عليك. مفهوم؟

أخوك الكبير أوليفييه

«ملاحظة: أعرفك حسن التدبر ولا أشك في أنك ستقوم بذلك على أكمل وجه ولكن انتبه، إذا كان تعاطيك مع بأسافان مباشرة فيجب أن تظل كثير البرود معه. إلى صباح الغد».

الذين لم يسمعوا أقوال دورمر المهيأة لم يفهموا جيداً هجوم أوليفييه الفجائي. كان يبدو أنه أضاع عقله. ولو عرف كيف يحتفظ برباطة جأشه لنال استحسان برnar. برnar لم يكن يحب دورمر ولكنه يعرف أن أوليفييه تصرف كمجون وبدا كأنه ارتكب جميع الأخطاء. وكان برnar يتأمل عندما يسمعه وهو يصدر حكمه بصرامة اقرب من بركاي وأخذ منه موعداً. ومهما كانت هذه القضية مستحيلة فقد كان يهمها، الإثنان، أن يكونا دقيقين، واتفقا على أن يذهبا لمقابلة زبونها في الساعة التاسعة من صباح الغد.

وبرnar، حين ذهب صديقه، لم يبق عنده أي سبب وأي رغبة في البقاء. بحث بعيبيه عن ساره، وامتنأ قلبه غضباً حين رآها جالسة على ركبتي بأسافان. كان الإثنان يبدوان ثملين، ولكن ساره مع ذلك نهضت حين رأت برnar يقترب. وقالت وهي تتأطط ذراعه:

- لذهب ...

كانت تريد أن تعود على القدمين، فالمسافة ليست طويلة؛ وقد قطعاها دون أن يقولوا كلمة. في البنسيون كانت الأنوار مطفأة. وخوفاً من أن ينيرا الإناء صعدا سلم الخدمة تلمساً، ثم أشعلا ثقاباً. كان أرمان لا يزال ساهراً. وحين سمعهما يصعدان خرج على رأس الدرج وفي يده مصباح. وقال لبرنار (وكانا يكلمان بعضهما البعض بصيغة المفرد منذ البارحة) :

- خذ المصباح. أنر لساره؛ ليس في غرفتها شمعة...
أطفي أعود الثقاب لأنضيء شمعتي.

ورافق برنار ساره إلى الغرفة الثانية، وما كادا يدخلان حتى كان أرمان المنحني وراءهما قد أطفأ القنديل بنفخة ثم قال ساخراً:

- ليلة سعيدة!... ولكن لا تحذرنا ضبجة. فالأهل ينامون قربكما.

ثم تقهقر فجأة، وأغلق عليهما الباب وسحب الملاج.

٩

تمدد أرمان وهو مرتد ثيابه. يعرف أنه لن يستطيع النوم. أنه يتنتظر نهاية الليل يتأمل، يصغي. البيت ينام، المدينة، الطبيعة كلها. ليس هناك أي جلبة.

ما إن ظهر نور ضعيف أنزله عاكس النور من أعلى السماء الضيقة إلى غرفته، وأتاح له أن يميز الشناعة من جديد، حتى نهض. ذهب نحو الباب الذي أغلقه بالمزلاج مساء أمس، وفتحه بهدوء...

ستائر غرفة سارة غير مغلقة. والفجر الطالع يلقي بياضاً على الزجاج. تقدم أرمان نحو السرير حيث تنام أخته وبرنار. هناك غطاء يعطي إلى النصف أعضاءهما المشابكة. ما أجملهما!.. تأملهما أرمان طويلاً. كان يريد أن يكون غفوهما، قبلانهما. ابتسם في بادئ الأمر. ثم ركع فجأة عند رجل السرير، بين الأغطية الملقة. أي إله يمكن أن يصلى هكذا ويداه مضمومتان؟.. عراه تأثر يعجز عنه الوصف. ارتجفت شفتيه. .. شاهد تحت الوسادة منديلاً ملوثاً بالدم؛ نهض، استولى عليه، حمله، وعلى الطاولة الصغيرة ذات الرائحة العنبرية، وضع شفتيه وهو يتحبب.

ولكنه التفت عند الباب. كان يريد إيقاظ برنار. على هذا أن يعود إلى غرفته قبل أن ينهض أحد في البنسيون. وفتح برنار عينيه بسبب الجلبة الخفيفة الصادرة عن أرمان. وهرب أرمان تاركاً الباب مفتوحاً، وترك الغرفة، وهبط الدرج؛ سيختبئ في أي مكان. أن وجوده يزعج برنار؛ لا يريد أن يلققه سيراه من نافذة غرفة الدرس بعد لحظات وهو يمر ملاصقاً للحدار كاللص: . . .

برنار لم يتم كثيراً، لكنه ذاق هذه الليلة سباناً يجلب الراحة أكثر من الإغفاء: تضاعف نشاط كيانه وتلاش لهذا الكيان. لقد انزلق في نهار جديد، غريب عنه، وهو مشعر، خفيف، جديـدـ، هادـءـ، مرتعـشـ كأنـهـ اللهـ. لقد ترك سارة نائمة، وتخلاص هارباً من بين ذراعيها إـيـهـ، ماـذـاـ؟.. دون أية قبلة جديدة، دون نظرة أخـيرـةـ، دون عناق غرامي سـامـ؟ لا أدرـيـ. هو نفسه لا يدرـيـ. سـعـىـ جـهـدـهـ لـكـيـلـاـ يـفـكـرـ. أنه متضايق لا ضـطـرـارـهـ أن يـدـمـجـ هذهـ اللـيـلـةـ التيـ لاـ مـاضـيـ لهاـ بماـ مضـيـ من تـارـيخـهـ. كـلاـ؛ أـنـهاـ ذـيـلـ، مـلـحقـ لاـ يـسـتـطـيـعـ أنـ يـجـدـ مـكـانـاـ لهـ فيـ صـلـبـ الـكـتـابـ -ـ حـيـثـ قـصـةـ حـيـاتـهـ سـتـسـتـمـرـ كـأـنـ شـيـئـاـ لـمـ يـكـنـ، وـسـتـتـابـ مـجـراـهاـ

صعد إلى الغرفة التي يتقاسمها مع بوريس الصغير كان
هذا ينام نوماً عميقاً. يا له من ولد!.. خرب برنار ترتيب
سريره، ودعك الأغطية بقصد الخداع. واغسل بكثير من الماء.
لكن رؤبة بوريس أعادته إلى «ساس - فيه» تذكر ما قالته له

لورا حينذاك: «أنا لا أستطيع أن أقبل منك إلا هذا التفاني الذي قدمته لي. أما ما بقي فسيمال مطالبه التي يجب أن تُلبى في مكان آخر». هذه العبارة أثارته. يحيل إليه أنه لا يزال يسمعها لم يكن يفكر في ذلك، ولكن ذاكرته لهذا الصباح تبدو واضحة وعاملة بشكل خارق للعادة. دماغه يعمل رغمًا عنه بقوة مدهشة. طرد برتراند صورة لورا، وأراد أن يخنق ذكرياتها، ولكي يمنع نفسه من التفكير أخذ كتاباً مدرسيًا، وتكلف الاستعداد لامتحانه. ولكن هذه الغرفة تبعث على الاختناق. فهبط إلى الحديقة ليشتغل. كان يريد الخروج إلى الشارع، يمشي، يركض، يذهب بعيداً، يتزوج. أنه يراقب الباب الكبير. وسيهرب حالما يفتحه الباب.

وصل إلى اللوكسمبور مع كتابه، وجلس على مقعد. وانحلت عقدة تفكيره، ولكن بشكل هش، فإذا أكثر من التد ينقطع الخيط. وما أن ينوي أن يستغل حتى تجول بين كتابه وبينه ذكريات وقحة. ليست ذكريات لحظات سروره الحادة، بل تفاصيل صغيرة مضحكة، حفيرة، يتعلق فيها حب الذات، وينسلخ، ويلين. بعد الندم لن يكون ساذجاً إلى هذا الحد. نهض نحو الساعة التاسعة وذهب للقاء لوسيان سركابي. وذهب الاثنان إلى منزل أدوار.

كان أدوار يسكن في بأسى، في الطبقة الأخيرة من نهاية. غرفته الوصول إلى مدخل واسع. عند أول الفجر كان أوليفيه قد

نهض. ولم يكن أدوار قد أحس بالقلق بعد.

وقال أوليفييه:

- سأرتأح قليلاً على هـ. الأريكة.

وبما أن أدوار كان يخسّى عليه أن يصاب بالبرد فقد طلب منه أن يأخذ بعض الأغطية. وبعد ذلك بقليل نهض أدوار بدوره. من المؤكد أنه نام دون أن يلقي بالأ لأنّه دهش من تقدّم النهار. كان يريد أن يعرف كيف أمضى أوليفييه ليلته، يريد أن يراه. لعل شعوراً مبهجاً كان يقوده . . .

كان المشغل فارغاً. وقد بقيت الأغطية عند رجل الأريكة وهي لا تزال مطوية. أذرته رائحة غاز هائلة. فهناك غرفة صغيرة مطلة على المشغل وتستعمل كغرفة حمام. والرائحة آتية من هناك. ركض إليها؛ لكنه لم يستطع فتح الباب في بادئ الأمر، فهناك شيء كان يعيق ذلك: إنه جسد أوليفيه المنهار أمام المغطس، كان عارياً، بارداً، مزرياً، ملوناً بالقبيء. بشكل رهيب.

أقل أدوار حالاً صبور التدفئة الذي ينفلّ الغاز منه، ماذا جرى؟.. حدث؟.. احتقان دم؟.. لم يستطع الاعتقاد بذلك. كان المغطس فارغاً. أخذ المحضر بين دراعيه وحمله إلى المسغر، ومدده على طنفسة أمام النافدة المفتوحة وركع على ركبتيه، وواحى بحثو، واستمع إلى القلب. لا بزال أوليفييه يتنفس

ولكن بشكل ضعيف. حيث أخذ أدوار يحاول بولع أن يقوى هذا القليل من الحياة الأخذ بالانطفاء. رفع النراugin المريضين بشكل إيقاعي، وضغط على الخاصرتين، وفرك القفص الصدري جرب كل ما يذكره مما يتخذ في حالة الاختناق يجب أن يعمل ذلك، وقد سخط لعدم استطاعته عمل كل هذا دفعة واحدة. بقيت عيناً أوليفيه مطبقين. رفع أدوار بأصبعه الجفنيين اللذين عاداً وتعلقاً على نظرة لا حياة فيها. ومع ذلك فالقلب يتحقق بحث عيناً عن كونياك، عن ملح. سخن ماء وغسل أعلى الجسم والوجه. ثم مدد هذا الجسد الماهمد على الأريكة ووضع عليه الأغطية. كان يريد أن يدعوا طبيباً ولكنه لم يجرؤ على الإبتعاد. كان هناك خادمة تأتي كل صباح لترتيب البيت، لكنها لا تصل إلا في الساعة التاسعة. وما إن سمعها حتى أرسلها في طلب طبيب من الحي ثم عاد واستدعاها على الأثر خائفاً من التعرض لتحقير.

وعاد أوليفيه إلى الحياة رويداً رويداً. كان أدوار جالساً على حافة السرير قرب الأريكة. كان يتأمل هذا الوجه المغلق ويتعثر في حل لغزه. لماذا؟ .. لماذا؟ .. قد يقدم المرء على إفعال مجنونة بهذه دون تبصر مع المساء، في حالة السكر. ولكن نوايا الفجر تحمل حولتها الكاملة من الفضيلة. لقد أفلح عن أن يفهم شيئاً بانتظار اللحظة التي يستطيع أوليفيه أن يتكلم فيها. لن يتركه أبداً منذ الآن. أخذ إحدى يديه وركز استجوائه، تفكيره، حياته

بكاملها في هذا النماض. خبل إليه أخيراً أنه سعر بيد أوليفييه تستجيب لقبضته. فانحنى، ووضع شفتيه على تلك الجبهة التي تحمل بين غصونها الماء عطي غامضاً.

وُقْرَع الجرس. نهض أدوار ليفتح الباب. أنها برنار ولوسيان بركاي. أبقاهم أدوار في الدهليز وأخبرهما، ثم انتهى جانبأً ببرنار وسأله إذا كان يعرف إذا كان من عادة أوليفييه أن يصاب بدورات وأرمات عصبية؟... فتذكر برنار فجأة حديثها البارحة وخصوصاً بعض الكلمات من أوليفييه لم يسمعها إلا بالجهد ولكنه بمحظتها الآن بشكل واضح. وقال لأدوار:

- أنا حدته عن الانتحار. سأله إذا كان يدرك أنه من الممكن أن يقتل المرء نفسه لمجرد فورة بسيطة من الحياة «بدافع الحماسة» كما قال ديمتري كارامازوف. كنت مستغرقاً تماماً في تفكيري ولم انتبه حينذاك إلا لأقوالي الخاصة. ولكنني أذكر الآن بماذا أحابني.

- عبّاد أجاب؟ ..

قال أدوار هذا باللحاح لأن برنار توفّ وبدا أنه لا يريد أن يزيد شيئاً.

- هو يدرك أن المرء يقتل نفسه، ولكن فقط بعد أن يبلغ قمة معينة من السرور، والتي يمكنه بعدها أن يهبط. ونطلع الاثنين بعضهما إلى بعض دون أن يضيفا شيئاً.

وانجلج النهار في نفسهاها . وأخيراً حوال أدورا عينيه ؛ وغضب برnar من نفسه لأنه تكلم واقتربا من بركاي .

وقال هذا :

- المزعج في الأمر أنه يمكن الظن أنه أراد قتل نفسه ليتجنب المبارزة .

ولم يكن أدورا يفكر في هذه المبارزة . وقال :

- ظاهر كان لم يحدث شيء . واذهب إلى دورمر واطلب منه أن يوصلك إلى شهوده . مع هؤلاء يجب أن تتكلم إذا لم يتسرّ هذا العمل الأبله من تلقائه . أن دورمر يبدو غير راغب في هذه المبارزة .

فقال لوسيان :

- لن نحدثه بشيء . لترك له خزي التقهر ، لأنه سيتوارى . وأنا متأكد .

وسأله برnar إذا كان في وسعه رؤية أوليفيه . ولكن أدورا أراد أن يتركه ليرتاح بهدوء .

كان برnar ولوسيان على وشك الخروج حين وصل جورج الصغير . كان آتيا من منزل بأسافان لكنه لم يستطع تسلم أشياء أخيه .

- السيد الكونت خرج ولم يترك لنا أوامر .

هكذا أجابه خادم الكونت واقفل الباب في وجهه .

كان هناك بعض الرزانة في لهجة أدوار وفي هيئة الاثنين الآخرين مما أفلق حورح، فاشتم شيئاً غير عادي، واستفسر، فاضطرر أدوار إلى أن يقص عليه كل شيء
- ولكن لا تقل شيئاً من ذلك لأهلك.

وشعر جورج بالنشوة لمشاركته بالسر.
- أعرف أن أسكت.

ولما كان عاطلاً عن العمل هذا الصباح فقد عرض أن يرافق برنار ولوسيان إلى دورمر.

بعدما ترك أدوار الزوار الثلاثة دعا مدببة البيت. كان هناك إلى جانب غرفته عرقه لأحد أصدقائه، فطلب من المرأة أن تعدها لليستطيع أوليفيه البقاء فيها. ثم دخل إلى المشغل دون جلبة. كان أوليفيه ينام. جلس أدوار بجانبه، وأخذ كتاباً، لكنه ألقاه حالاً من غير أن يفتحه وتطلع إلى صديقه وهو نائم.

١٠

لا شيء بسيط مما ينعرض للنفس، والنفس لا تعرض نفسها
بسقطة لأي موضوع على الإطلاق.

باسكار

في اليوم التالي قال أدوار برنار:

- أظن أنه سيكون سعيداً برؤيتك. سألفي هذا الصباح إذا
كنت لم تأت البارحة. لقد سمع صوتك بينما كنت أعتقد أنه
فائد الوعي... أنه يبقي عينيه مغمضتين ولكنه لا ينام. لا
يقول شيئاً. يضع أحياناً يده على جبهته علامه الألم. وما أن
أتجه إليه بالكلام حتى تنقضن جبهته؛ أما إذا ابتعدت فإنه
ينادياني ويجلسني بجانبه... كلام، أنه ليس في المشغل... فقد
اسكتته الغرفة التي بجانب غرفتي، بحيث أني أستطيع استقبال
زيارات دون أن أزعجه.

ودخلا إلى تلك الغرفة. وقال برنار بكثير من الدقة:

- جئت استعلم عن أخبارك.

وبعثت الحياة في قسمات أوليفيه حين سمع صوت

صديقه. ويدت على وجهه شبه ابتسame
ـ كنت انتظرك.
ـ سأذهب إذا كنت أتعبك
ـ إبق.

ولكن حين قال أوليفيه هذه الكلمة وضع أصبعاً على شفتيه
كان يطلب ألا يكلمه أحد. وبرنار الذي كان مضطراً لتقديم
الامتحانات الشفهية بعد ثلاثة أيام لم يكن ينجو دون أن يكون
معه أحد تلك الكتب التي يتركز فيها، كإكسير، كل مرارة مواد
امتحانه. جلس على رأس سرير صديقه واستغرق في القراءة
وبدا أن أوليفيه الذي كان وجهه إلى الجدار، ينام. انسحب
أدوار إلى غرفته؛ وشوهد يظهر على الباب الموصل بين الغرفتين
والذي ظل مفتوحاً. كان يعطي أوليفيه كأساً من الحليب كل
ساعتين ولكن منذ هذا الصباح فقط. طوال نهار البارحة لم
تحمل معدة المريض شيئاً.

ومر وقت طويل. ونهض برنار ليذهب. فالتفت أوليفيه
ومد إليه يده محاولاً الإبتسام:
ـ هل تجيء غداً؟

وفي اللحظة الأخيرة ناداه ثانية، وأشار إليه أن ينحني، كأنه
يمشى ألا يكون صوته مسموعاً، وقال بصوت منخفض:
ـ أرأيت كم أني كنت أحمق!

ثم، وكأنه يريد أن يستبق اعتراضًا من برنار، رفع من
جديد إصبعاً إلى سفتية:

- كلا... في ما بعد سأشرح لك.
وفي الغد تلقى أدوار رسالة من لورا؛ وحين عاد برنار
أعطاه الرسالة ليقرأ:

«صديق العزيز،

أكتب إليك بكثير من السرعة محاولة تعادي مصيبة خرفاء،
سنساعدني، وأنا واثقة، إذا وصلت إليك هذه الرسالة بسرعة.
فليكس ذهب إلى باريس قاصداً أن يراك. هو يعتقد أنه
سيحصل منك على إيضاحات رفضت إعطاءها له، ويعلم
بواسطتك اسم ذلك الذي يريد أن يتحداه للمبارزة. فعلت ما
استطعت لأمسكه، ولكن عزمه ظل راسخاً وكل ما قلته له كان
يزيده رسوخاً. أنت وحدك يمكن أن تتوصلا إلى ثنيه عن عزمه.
هو يثق بك وبصدقك إليك، وأمل ذلك. تصور أنه لم يمسك
بيده مسدساً ولا سيفاً. وفكرة مخاطرته بحياته لأجل لا تستطيع
احتراها؛ وأكرر ما أخشاه، ولا أكاد أجروء على الاعتراف
بذلك، هو أن يتغطى بالعار.

«منذ عودتي وفليكس معي مليء بالنشاط، بالحنون، باللطف،
ولكني لا أستطيع أن أتظاهر له بأكثر مما عندي من الحب. وهو
يتآلم من ذلك؛ وأعتقد أن الرغبة في اغتصاب اعتباري،

إعجابي، هي التي دفعته إلى ذلك المسعى الذي ستعتبره طائشاً. لكنه يفكر فيه كل يوم وقد ركر فكرته عليه منذ عودتي. ما من شك في أنه ساخنٌ ولكنه يكره الآخر حتى الموت.

«أتول إليك أن تستقبله بالعطف الذي تستقبلني به؛ ولن تجد برهاناً أفضل من ذلك تقدمه لي على صداقتكم - برهاناً سأكون حساسة جداً له. عفواً لأنني لم أكتب إليك قبلًا لأعبر لك عن كل عرفان الجميل الذي أحفظه لإنفاقكم وللعناية التي بذلتها في سبيل طوال مدة إقامتنا في سويسرا. أن ذكرى ذلك الوقت تخيبني وتساعدني على تحمل أعباء الحياة.

«صديقتك القلقة دائمًا والواثقة بك دائمًا
لورا»

وسائل برنار وهو يعيد الرسالة.

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- ماذا تريديني أن أفعل؟

أجاب أدوار بشيء من الضيق لا من سؤال برنار بل من كونه سبق أن طرح هذا السؤال على نفسه.

- إذا فسأستقبله بأفضل ما أستطيع، وسأقدم إليه النصيحة جهد استطاعتي إذا استشارني؛ سأحاول أن أقنعه بأن خير ما يفعله هو أن لا يفعل شيئاً. أن أشخاصاً كهذا المسكين دوفيه يخطئون دائمًا عند محاولتهم الوقوف في المقدمة. ستفكر التفكير

نفسه لو كنت تعرفه، صدفي. أما لورا فهد خلقت للادوار الأولى كل منا يقوم باعباء مأساة على فدره و بتلقى نصيبيه من الفاحعه. ماذا سستطيع حيال ذلك؟.. أن مأساة لورا هي في أنها بزوجت أحد أفراد الكومبارس وليس هناك ما يمكن عمله لتلافي ذلك.

وأجاب برنا:

- و مأساة دوفيه هي في أنه تزوج امرأة تظل متفوقة عليه منها عمل.
فأجاب أدوار كرجع الصدى.

- منها عمل... ومها استطاعت لورا أن تعمل. أما ما يستحق الاعجاب فهو أن لورا أرادت، بداعم الأسف على خطيبتها، بداعم التوبية، أن تنهن نفسها أمامه؛ لكنه خرّ أمامها بشكل أكثر اخفاضاً منها. وكل ما يفعله الواحد منها والأخر فلن بتوصل إلا إلى تصغيره وتكتيرها.

وقال برنا:

- إني أرى له كثيراً. ولكن لماذا لا تقبل أن يكبر هو أيضاً في هذا السجود؟

فقال أدوار بشكل جازم:

- لأن الغنائية تعوزه.

- ماذا ت يريد أن تقول؟

- أنه لا ينسى نفسه أبداً في ما يتصرّف به، بنوع أنه لا يشعر بشيء عظيم. لا تدفعني كثيراً في هذا المضمار، فإن لي أفكاراً خاصة؛ ولكنها أفكار تناقض القياس ولا أحاوّل سيراً أن أقيسها. من عادة بول أمبرواز أن يقول أنه لا يرضى أن يحسب حساباً إلا لما يمكن أن يُرْقِم؛ وهذا اعتبر أنه يلعب على كلمته «يحسب حساباً»؛ فهو في «هذا الحساب» كما يقال مجرّد على إهمال الله. هذا ما يرمي إليه، وما يرغبه... إليك: أعتقد أنني أطلق اسم «غناية» على حالة الإنسان الذي يرضي أن يغلب الله.

- أليس هذا أيضاً ما تعني الكلمة: حماسة؟..

- ويمكن كلمة: إلهام. نعم، هذا ما أريد قوله. دوفيفيه غير قادر على الإلهام. وأقبل بان بول أمبرواز على حق حين يعتبر الإلهام من أكثر الأمور الضارة بالفن؛ واعتقد أن المرء لا يكون فناناً إلا بشرط السيطرة على الحالة الغنائية؛ ولكن من المهم الشعور بها أولاً قبل السيطرة عليها.

- لا تعتقد أن هذه حالة الزبارة الإلهية هذه يمكن شرحها فيزيولوجياً بواسطة... .

فقاطعه أدوار:

- إن هذا لا يقدم ولا يؤخر. اعتبرات كهذه، حتى لو كانت صحيحة، لا تصلح إلا لصياغة الحمقى. ليس هناك من حركة رمزية ليس لها كفيلها المادي. وبعد؟.. فالروح، لكي

تقوم بشهادتها، لا تستطيع أن تتغاضى عن المادة. ومن هنا جاء سر التجسد.

- وبعكس ذلك، فإن المادة تتخبط الروح بشكل يش

الإعجاب

فقال أدوار ضاحكاً:

- هذا، لا نعلم عنه شيئاً.

كان برنار يشعر بكثير من التسلية وهو يسمعه يتكلم هكذا. وأدوار قليلاً ما يستسلم عادة. أما الحماسة التي يظهرها اليوم فقد جاءته من وجود أوليفيه.

وقد أدرك برنار ذلك، ففكر:

- أنه يخدبني كما يريد أن يخدثه في ما بعد. يريد أن يجعل من أوليفيه سكريباً له. سأنسحب حالماً يشفى أوليفيه. أن مكانه هو في الخارج.

كان يفكر في هذا دون مرارة. فهو مشغول من الآن فصاعداً بساره التي عاود زيارتها الليلة الماضية ويستعد لزيورها الليلة.

وقال بدوره وهو يضحك:

- ها نحن بعيدون جداً عن دوفيه. هل ستتحدثه عن فنسان؟

- طبعاً لا، ومافائدة ذلك؟

- ألا تعتقد أن ما يسمم دوفيه هو أنه لا يعرف إلى من يوجه شكوكه؟

- يمكن أن تكون على حق. ولكن يجب أن يقول هذا للورا. لا أستطيع أن أتكلم دون أن أنكث بعهدها... لا أعرف أين هو

- فنسان؟... باسافان يعرف.

وقطعت حديثها رنة جرس. لقد جاءت مدام مولينيه تستعلم عن ولدها. وجاءها أدوار في المشغل.

يوميات إدوار

«زيارة بولين. كنت حائراً كيف أخبرها. ومع ذلك فما كنت لأستطيع أن أدعها تجهل أن ولدها مريض. رأيت أن لا فائدة من أن أسرد عليها محاولة الانتحار الغامضة؛ تكلمت ببساطة عن أزمة عيفة في الكبد كانت فعلاً أوضاع نتيجة هذه المجازفة. وقالت لي بولين:

ـ كنت مطمئنة لعلمي أن أوليفيه عندك. لن أعني به أفضل منك لأننيأشعر أنك تحبه أكثر مني.

«قالت هذه الكلمات الأخيرة وتعللت إلى يالحاج غريب.
هل تصورت المقصود الذي بدا لي أنها وضعته في هذه النظرة؟
كنت أشعر أمام بولين بما يسمى عادة «ضمبر متعب». ولم
أستطع إلا أن أتمم ما لا أدرى مما هو غير واضح. ويجب الفول
أن ارتتعاشي من التأثير منذ يومين جعلني أفقد السيطرة على
نفسى . ولعل اضطرابي كان بادياً، إذ أضافت:

- اهراوك فصيح... يا صديقي المسكين، لا تنتظر مني
لوماً. كنت لأوجه إليك لوماً لو أنك كنت لا تخب اللوم...
أستطيع رؤيته؟ ..

«أخذتها إلى جانب أوليفيه؛ وحين أحس برنار بمجئنا
انسحب.

.. «ـ ما أجمله! ..

«هكذا تمنت وهي تتحدى فوق السرير. ثم التفتت إلى
وقالت؛

ـ ستقبله عني. أخشى أن أوشه.

ـ «ما لا شك فيه أن بولين امرأة غير عادية. وليس اعتقادى
هذا وليد اليوم ولكنى لم أستطع الأمل أن تصل بإدراكها بعيداً
إلى هذا الحد. كان يخيل إلى في كل مرة أنى استششف نوعاً من
القسر خلال عاطفة كلامها وفي ذلك النوع من البشائة الذى
تضنه في نبرة صوتها (يمكن أن يكون ذلك بسبب الجهد الذى
أبذله لأنفسي ضيقى). وتذكرت عبارة من حديثنا السابق، عبارة

ظهرت لي يومذاك كثيرة الحكمة بينما كنت غير مهتم بأن أجدها كذلك: «أفضل أن أمنع عن طيبة خاطر ما اعلم أنني لن أستطيع منعه». بالتأكيد، يولين تسعى جهدها لتصل إلى طيبة الخاطر. وقالت عندما عدنا إلى المشغل، وكأنها تجذب على فكري الخفية:

«ـ أخشى أن أفضحك بعدم فضيحة نفسى الآن. هناك بعض الحرفيات في التفكير يريد الرجال الاحتفاظ باحتكارها. ومع ذلك فلا أستطيع التظاهر معك بأكثر مما أشعر به من الاستنكار أن الحياة علمتني. أنا أدرك مقدار تعرض طهارة الصبيان للزوال بينما تبدو مصانة كأفضل شيء. وفضلاً عن ذلك فلا أعتقد أن اليافعين الأكثر عفة يكونون أفضل الأزواج في ما بعد، ولا الأكثر إخلاصاً، مع الأسف! ـ هكذا أضافت وهي تبتسم بحزن ـ وأخيراً فإن مثل والدهم جعلني أتمنى لأولادي فسائل أخرى. ولكنني أخاف عليهم الفسق، أو العلاقات المخزية. أن أوليفييه ينقاد بسهولة. وعليك أن تمسكه. اعتقاد أن في إمكانك أن تفعل له الخير، فهو لا يتعلق إلا بك.

«كلمات كهذه ملأتني اضطراباً

ـ لقد جعلني أفضل مما أنا... .

ـ هذا كل ما استطعت أن أقوله، بالطريقة الأكثر ابداً والأكثر تحفلاً.

ـ وتابعت برقة لذيذة:

«ـ أن أوليفيه هو الذي س يجعلك أفضل مما أنت. وأي شيء لا يجعلنا الحب نناله؟

ـ وسألها لأضع شيئاً من الهواء بيدي وبينها:

ـ هل تعلم أوسكار بوجوده عندي؟

ـ هو لا يعرف أنه في باريس. فلت لك أنه لا يهم كثيراً بأولاده، وهذا اعنمتك عليك لكي تكلم جورج. هل فعلت؟

ـ كلا، بعد.

ـ (ودكنت جبهة بولين فجأة:

ـ قلقي يزداد أكثر فأكثر. أنه يتخد هيئة الامتحان حيث لا أرى إلا عدم الاكترات، إلا الوفاحة، إلا الزهو. أنه يشتغل جيداً وأساندته مسرورون منه. وقلقي لا يعرف على ماذا يرتكز.

ـ وعدلت عن هدوئها فجأة بحدة:

ـ أرأيت ما الذي صارت له حياته؟... أي حضرت سعادتي؛ من سنة إلى سنة اضطررت إلى أن أخضها، واختصرت أمالي واحداً واحداً. خضعت، تساهلت، ظهرت بعدم الفهم، بعدم النظر... ولكن المرء يعلق أخيراً بشيء ما، وحين يفلت منك هذا القليل!... في المساء يأتي ويشغله بجانبي تحت هذا المصباح، وحين يرفع أحياناً رأسه عن كتابه، فلبست المحبة هي التي ألقاها في نظرته، بل التحدي. قليلاً ما استحققت هذا... يبدو لي أحياناً، وفجأة، أن حبي له تحول

إلى كراهية؛ وأتفى ألا يكون لي أولاد.

«كان صوتها يرتجف. وأخذت يدها.

ـ أوليفييه سبكاڨٹك؛ وأنا أتعهد بذلك

«فيذلت جهداً لتملك نفسها

ـ صحيح، أنا مجونة لنكلمك هكذا؛ كان لس بي ثلاثة أولاد. حين أفكر في واحد منهم لا أرى إلا هذا... ستجدني غير منطقية. ولكن العقل لا يكفي أحباباً.

ـ افقلت ببرود آمالاً أن أهدئها:

ـ سمع ذلك فالعقل هو أكثر ما يعجبني فيك.

ـ حدثتني ذات يوم عن أوскаر بكثير من الحكمة.

ـ وانتصبت بولين فجأة وتطلعت إلي، وهزت كتفيها.

ـ وقالت بتحمّل:

ـ دائمًا تبدو المرأة أكثر عقلاً عندما تبدو أكثر استسلاماً.

ـ لقد أثارتني هذه الفكرة بسبب صحتها. ولكي لا أظهر شيئاً من ذلك قلت على الآثر:

ـ أما من جديد بخصوص الرسائل؟

ـ جديد؟ جديد؟ ما الذي تريده أن يحدث من جديد بين أوسكار وبيني؟ ..

ـ كان ينتظر إيضاحاً.

ـ وأنا أيضاً كنت انتظر إيضاحاً. طول حياته يظل الإنسان

ينتظر إيضاحات.

«وقلت في شيء من الضيق:

ـ ولكن أوسكار يرى نفسه في وضع غلط.

ـ ولكن، يا صديقي، أنت تعلم أن الأوضاع الغلط هي أكثر الأوضاع ميلاً إلى الاستمرار وهذه القضية، عليكم أنتم الروائيين أن تبحثوا لها عن حل. في الحياة لا يحُل شيء. كل شيء يسمر. ويبقى المرء رهن الشك. وسيقى إلى النهاية دون أن يعرف شيئاً. وفي انتظار ذلك تستمر الحياة، وتستمر، لأن شيئاً لم يكن. من هذا أيضاً يأخذ المرء نصيحة كما يأخذه من الباقي كله... كما يأخذه من كل شيء. هيا. وداعاً.

«افتعمت بشكل محزن من دوي بعض الرنات الجديدة التي ميزتها في صوتها، نوع من المجموم أجبرني على التفكير (ربما ليس في اللحظة نفسها وإنما أثناء استذكاري حديثنا) أن بولين استسلمت إلى واقع علاقتي بأوليفييه بسهولة أقل. مما ادعت بكثير. بسهولة أقل من كل ما بقي. أريد القول أنها لم تستصوب تماماً هذه العلاقات؛ وأنها تستبشر بها لبعض الاعتبارات كما جعلتني اسمع؛ ولكنها لم تستطع منع نفسها من الغيرة، ولو لم تعرف بذلك.

«هذا هو التفسير الوحيد الذي وجدته لتلك الانتفاضة الفجائية من التمرد، بهذه السرعة وحول موضوع قليلاً ما ينقل

على قلبها. حتى ليقال أنها استنفدت احبطتها من الرفق بمنحها في نادى الأمر ما كلفها كثيراً، ووجدت نفسها فجأة مفتقرة إليه. ومن هذه كانت أقوالها المنطرفة شبه المعتوه التي يجب أن تدهش هي نفسها منها عندما تعدد التفكير فيها، وحيث غبرتها صحة نفسها.

«واني لاتسأله في الواقع ماذا يمكن أن تكون حالة امرأة غير مستسلمة؟ اقصد: «امرأة فاضلة»... كان ما بدعي «فضيلة» عند النساء لا يتضمن دائمًا استسلاماً!»
 «عند المساء بدأ أوليفيه يحسن بشكل محسوس. ولكن الحياة التي تعود تحيل معها القلق. حاولت أن أطمئنه.
 «مبارزته؟ - أن دورمر هرب ومن غير الممكن الركض
 وراءه.

«المجلة؟ - برکاي يتم بها.

«الأشياء التي تركها عند بسافان؟ - هي النقطة الأكثر دقة. اضطررت إلى الاعتراف أن جورج لم يستطع نسلمه. ولكنني تعهدت بالذهب بنفسني في صباح الغد للبحث عنها. كان يخشى، كما بدا لي، أن يمسكها بسافان كرهن؛ الأمر الذي لم أستطع القبول به لحظة واحدة.

«تأخرت البارحة في المشغل بعدها كتبت هذه الصفحات، حين سمعت أوليفيه يدعوني. فقفزت إلى عنده. قال لي:
 «ـ أنا الذي كان سياقي لو لم أكن كثير الضعف. أردت أن

أنهض، ولكن حين وقفت دار رأسي وخفت أن أسقط. كلا، لاأشعر بكثير من الألم، بالعكس... ولكنني بحاجة لأن أكلمك.

«جبب أن تقطع وعداً... بلا تجاهل أبداً معرفة السبب الذي جعلني أريد قتل نفسي أمس الأول. أعتقد أنني أنا نفسي لا أعرف كنت أريد أن أقوله، صحيح! لم أستطع. ولكن بحسب ألا تعتقد أن ذلك كان بسبب شيء غامض في حياتي، شيء لا تعرفه - ثم بصوت أكثر انخفاضاً: - كلا، لا تتصور أن ذلك كان بدافع الخجل..

«ومع أننا كنا في الظلام، فقد غطى جبهته بكثفي.

«أوه! إذا كنت أشعر بالخجل، فمن تلك الوليمة في ذلك اليوم، من سكري، من هيجاني، من دموعي، ومن أشهر الصيف تلك؛ ولأنني أنتظرتك بشكّل غير لائق.

«ثم اعتراض بأنه بعد الآن لن يعود يرى نفسه ولا في شيء من كل هذا، وأن هذا كله هو ما أراد أن يقتله، وأنه محظوظ جدّه

«شعرت بضعفه حتى في هياجه، وهدّهده كطفل دون أن أقول شيئاً. لقد كان بحاجة إلى الراحة. وسكته جعلني أعتقد أنه غفا، ولكنني سمعته يتمتم أخيراً:

«ـ بالقرب منك، أنا سعيد جداً بالنوم.

«ولم يدعني أفارقك إلا في الصباح».

١١

جاء برنار باكراً هذا الصباح، وكان أوليفيه لا يزال نائماً. وكما كان يفعل في الأيام السابقة، جلس على رأس سرير صديقه ومعه كتاب. وهذا ما أناح لإدوار أن يقطع حراسته ليذهب إلى منزل الكونت دو باسافان كما وعد أن يفعل. كان واثقاً أنه سيجده في هذه الساعة.

كانت الشمس تتألق، وهواء عنيف ينطف الأشجار من بقایا أوراقها؛ وكان كل شيء يبدو صافياً، لازوردياً. ولم يكن أدوار قد خرج منذ ثلاثة أيام. سرور عظيم كان يشرح قلبه؛ حتى خيل إليه أن كل كيانه غلاف مفتوح مفرغ، يطفو على بحر مشاع، على أوقیانوس إلهي من الطيبة. إن الحب والطقس الجميل لا يفيمان حدوداً لما يحيط بنا.

كان إدوار يعرف أنه في حاجة إلى سيارة لحمل أشياء أوليفيه؛ لكنه لم يتوجه أخذها؛ كان يجد منعة في السير على القدمين، وحالة الاستلطاف التي شعر بها حيال الطبيعة بكاملها أعدته إعداداً سيئاً لمجاهدة باسافان. كان يحدث نفسه بأن عليه أن يفته، وعرض في فكره كل ما سبب من أذى إلا أنه لم يشعر

منها بأي قرصة. لقد احتلس مكان هذا الخصم الذي كان يكرهه حتى نهار البارحة، احتلسه شكل كامل، فلم يعد يستطيع أن يكرهه بعد الآن. على الأقل لا يستطيع ذلك هذا الصباح. وبما أنه يعبر أنه يجب أن لا ظهر شيء من هذا الانقلاب حتى لا يفضح سعادته، أراد أن يتوارى عن المواجهة. وبالفعل، لماذا يذهب إليه هو نفسه، هو بالضبط، أدوار؟ سيدهب إلى شارع بابلدون ويطلب أمتعة أوليفيه، إلى أي عنوان؟.. لفديه قبل القيام بهذه المهمة دون ناصر، هكذا فالنفسه وهو يمشي - مما س يجعل الآخرين يستنتجون أن أوليفيه اختار أقامته عنده؛ وهذا بالضبط ما كان يريد إخفاءه... فات الوقت للعودة. لفديه نال أوليفيه وعداً منه. كان المهم، على الأقل، أن يظهر أمام باسافان كثير البرود، كثير الصلابة. ومرت سيارة أجرة، فناداها

لم يكن أدوار يعرف بأسافان معرفة جيدة. كان مجاهلاً لأحدى سمات طباعه. أن بأسافان الذي لا يؤخذ بسهولة لم يكن يطيق أن يُخدع. ولكي لا يعترف بانكساراته كان يناظر دائئراً بأنه تمنى مصيره، وارتضاه جلء إرادته منها حدث. ومنذ أن علم أن أوليفيه أفلت منه لم يكن له من هم إلا أن يخفي ثورته. ولما كان بعيداً عن الركض وراءه والمجازفة بأن يصبح أضحوكة، فقد تصلب ويدلل جهده ليهز كتفيه. لم تكن تأثيراته عنيفة بالقدر الذي يمنعه من التغلب عليها. وهذا ما يستبشر به بعض الناس

دون أن يرضاها بالاعتراف أنهم مدینون بهذه السبطة على أنفسهم لفقر في مزاجهم أكثر مما هم مدینون لقوة في طباعهم. وإنني امتنع عن التعميم. ولنفرض أن ما قلته لا سطقي إلا على باسافان. إذاً فهو لن يتعب كثيراً في أن يتخيل أنه شبع من أوليفيه؛ وأنه في ذيئن الشهرين من الصيف قد استنفذ كل ميل إلى مغامرة أصبح يخشى أن تزعج حياته وأنه بالتبعية غالى في جمال هذا الولد وفي كياسته وموارده روحه. وقد حل الوقت أيضاً لتتفتح عيناه على المحاذير المترقبة على أن يعهد بإدارة مجلة لفقي لا يزال صغيراً وغير مهرب. لقد نظر إلى كل هذا بعين الاعتبار، وستروفيلو يقوم بعمله أفضل منه بكثير. وهذا يصلح أن يكون مديرأً لمجلة. وقد كتب إليه يدعوه هذا الصباح.

لنضيف أن باسافان قد اخطأ حول سبب هرب أوليفيه. كان يظن انه أثار غيرته بإكثاره من ملاطفة ساره؛ ورضي عن نفسه بهذه الفكرة التي ترضي اعجابه الطبيعي بنفسه. وهذا كان حقه قد خمد.

إذاً كان ينتظر ستروفيلو؛ وبما أنه أصدر أمره بإدخاله فور وصوله، فإن أدوار استفاد من هذا الأمر ووجد نفسه أمام باسافان دون أن يُعلن عن قوادمه.

لم يظهر باسافان شيئاً من دهشته. ومن حسن حظه فإن الدور الذي يجب أن يلعبه بلا ثم طبيعته ولا يغير أفكاره. وما إن

عرض أدوار أسباب مجئه حتى قال:

- كم أنا سعيد بما قلته لي. إذاً، صحيح؟ أتريد الاهتمام به؟ . ألا يزعجك هذا كثيراً؟ .. أوليفييه غلام بديع ولكن وجوده هنا بدأ يضايقني بشكل مخيف، لم أجرب أن أدعه يشعر أنه كثير اللطف. . كنت أعلم أنه يفضل... . ألا بعود إلى أهله .. الأهل الذين تركهم ذات مرة... ولكن أفكر فيه، أليست أمه نصف أخت لك؟ .. أو شيئاً من هذا القبيل؟ ... لقد اضطر أوليفييه أن يوضح لي ذلك في الماضي. إذاً ما من شيء أكثر طبيعية من سكته عندك. ما من أحد يجد في ذلك ما يدفعه إلى الإبتسام (أما هو فقد ابتسم وهو يقول ذلك). وأنت تعلم أن وجوده عندي كان أكثر صعوبة. وفـد كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أرغب في رحيله.. مع أنه ليس من عادتي أن اهتم بالرأي العام. كلا. أن هذا مصلحته...

لم تبدأ المحادثة بشكل شيء. ولكن باسافان لا يستطيع مقاومة اللذة في أن يسكب على سعادة أدوار بعض قطرات من سـم مكره. كان يحتفظ من هذا السم باحتياطي، فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث.

شعر أدوار بأن صبره قد نفذ. ولكنه تذكر فنسان فجأة، ولا بد أن يكون عند باسافان شيء من أخباره. صحيح أنه الى على نفسه ألا يتحدث عن فنسان إلى دوفيه إذا جاء هذا وسأله.

ولكنه لكي يستطيع التهرب من الإستجواب شكل أفضل رأي أن يكون هو نفسه عاً ببعض المعلومات عن فنسان، مما يجعل مقاومته قوية. فتمسك بهذه الحجة للتشاغل. وقال باسافان:

- فنسان لم يكتب إلي؛ ولكنني تلقيت رسالة من الليدي غريفث - وأنت تعرف جيداً إنها: البديلة - تحدثني فيها طويلاً. خذ. هذه هي الرسالة... وبعد، فلا أدرى لماذا لا تطلع عليها.

وناوله الرسالة. وقرأ ادوار:

٢٥ آب

«عزيزي.

«سيسافر يخت الأمير من دكار دوننا. ومن يعلم أين تكون حين تصلك هذه الرسالة التي يحملها اليخت؟ قد تكون على شاطئ «الказامانس» حيث شئنا ذلك. فنسان يجمع النبات وأنا اصطاد لا أعرف كثيراً إذا كنت أذهب به أو بذهب بي؛ أو بالأحرى إذا كان شيطان المغامرة هو الذي يحرضنا نحن الاثنين هكذا. لقد قدمتنا إليه شيطان الضجر الذي تعرفت إليه على ظهر الباخرة... آه! يا عزيزي. يجب أن تعيش على يخت لتتعلم كيف تعرف الضجر. في وقت العاصفة تظل الحياة عليه

محتملة، أتنا نساهم في هياج المركب ولكن منذ تيريف^(١)، ما من نسمة، ما من تخضن على صفحة البحر.

.. مرآة يأسى

الكبيرة.

ثم، أتعرف بماذا أهتم منذ مدة؟ .. بآن أكره فنسان. نعم يا عزيزى. أن الحب يبدو لنا تافهاً، وقد عزمنا على أن نكره بعضنا بعضاً. وحقيقة القول أن هذا قد بدأ من قبل: نعم، منذ إبحارنا. في بادئ الأمر لم يكن سوى غضب، سوى نوع من الحقد لم يكن يمكن تلامح جسدينا. ومع الطقس الجميل، أصبح هذا ضارياً. آه! أعرف الآن ما معنى أن يشعر المرء بحب أحد الناس...».

كانت الرسالة طويلة وقال أدوار وهو يعيدها إلى باسافان:

- لست بحاجة لقراءة أكثر من ذلك. متى يعود؟

- الليدي غريفث لا تتحدث عن العودة.

كان باسافان متقدراً لأن أدوار لم يهد كثيراً من الشهية لهذه الرسالة. ومنذ اللحظة التي سمح له بقراءتها، عزم أن يعتبر عدم رغبته في معرفة ما فيها كإهانة. كان يرفض مختاراً ما يقدم

(١) تيريف : أكبر جزر ارخبيل كناريا في الأطلسي مقابل موريتانيا . الترجم .

إليه ولكنه لا يتحمل احتقار ما يقدمه هو. ملأته هذه الرسالة سروراً. كان يغذى بعض المحبة للبلدان ولفنсан؛ ولكنه أتبت أنه يستطيع أن يكون محسناً إليهما، ميالاً إلى مساعدتها. إلا أن محبته ضعفت منذ أن استغنى عنها. أن صديقه لم يسيرا نحو السعادة حين تركاه، وهذا ما دعاه للتفكير أن هذا حسن.

أما أدوار فإن غبطته الصباحية كانت كثيرة الصدق مما جعله يشعر بالضيق أمام صورة العواطف المجنونة. وهذا أعاد الرسالة دون أي تصنّع.

وكان يهم بأسافان أن يستعيد المبادرة حالاً:

- آما كنت أريد أن أقول لك أبداً: هل نعلم إني كنت فكرت في أوليفيه لإدارة مجلة؟... من الطبيعي ألا يعود هذا موضوع بحث.

- هذا لا يحتاج إلى بحث.

أجاب أدوار، الذي خلصه بأسافان من هم كبير دون أن يشعر. وقد أدرك من لهجة أدوار أنه لعب لعبته، فقال دون أن يفسح مجالاً ليعرض على شفتيه:

- الأمتعة التي تركها أوليفيه موجودة في الغرفة التي كان يستغلها معك سيارة دون شك. ستنتقل الأمتعة إليها.

للمناسبة، كيف حاله؟

- على خير ما يرام.

كان باسافان قد نهض ، وحذا أدوار حذوه . وافتراق الإثنان
على تحية من أبرد التحيات .
زيارة أدوار أزعجت الكونت دو باسافان بشكل مرعب
- أوف! ...

هذا ما قال عندما رأى ستروفيلو يدخل .
ومع أن ستروفيلو يعاكسه فإن باسافان شعر أنه مرتاح معه ،
أو بصورة أصح : فقد ترفة . والحقيقة أن وقعته هذه مع خصم
قوي ، وهو يعرفه ، ولكنها يعتقد بنفسه أنه ذو قوة ويفتخرا
بإثباتها . وقال وهو يقدم إليه كتبة :
ـ خذ سكانك يا عزيزي ستروفيلو . أنا في الحقيقة سعيد
برؤيتك .

ـ السيد الكونت طلبنيوها أنا في خدمته .

كان ستروفيلو يتكلف معه وقاحة خادم ؛ ولكن باسافان كان
مصنوعاً على نمطه .

ـ إلى العمل رأساً . لقد جاء الوقت للخروج من تحت
الأثاث ، كما قال الآخر . إنك امتهنت في السابق كثيراً من
المهن ... وأريد اليوم أن أعرض عليك وظيفة حقيقة لدكتاتور .
ولنسرع بالإضافة أن الأمر يتعلق بالأدب .

ـ ما هم - ثم ، وبما أن باسافان مذ نحوه علبة سكاير : - لو
سمحت ، إني أفضل ..

لا أسمع أبداً. سلوك غرفتي بسكايرك المخيفة المهرية. لم
أفهم أي لذة تجدونها في تدخين هذه السكاير.
ـ أوه! . . لا أستطيع القول إني مولع بها. ولكن هذا
يضايق الجيران.
ـ إنك دائمًا من راشقي الملاع.

ـ مع ذلك، يجب لا تخسيبي معتوهاً.
وستروفيلو، دون أن يجبر مباشرة على عرض باسافان، ظن
أن من الملائم أن يستوضح، وأن يركز وضعه جيداً؛ وهذا ما
سوف يظهر حالاً. وقال:
ـ سحبة الناس لم تكن قط مiziقي الأساسية.

فقال باسافان:
ـ أعلم، أعلم.

ـ والأناية أيضاً. وهذا ما لا تعرفه جيداً. . . لقد أرادوا أن
يدخلوا في خلتنا أن ليس للإنسان من مهرب من الأنانية إلا
بإثمار أكثر شناعة منها! أما أنا، فأزعم أنه إذا كان هناك من
يستحق الاحتقار أكثر من الإنسان وأكثر صغاراً منه فهو الكثير
من الناس. وليس هناك برهان يجعلني اقتنع أن جمع الوحدات
القدرة يمكن أن يعطي مجموعاً لذيداً. لم يحدث لي أن صعدت
إلى حافلة كهربائية أو قطار حديدي إلا تمنيت أن يحدث حادث
جميل يحول كل هذه الأقدار الحية إلى حساء. ولم أدخل قاعة

مسرح إلا تمنيت إيهيار الثريات أو انفجار قبلة؛ وحين اضطر إلى الانفجار معها فسأحملها مختاراً تحت سترقي، هذا إذا لم احتفظ بمنسي شيء أفضل. ماذا قلت؟..

- كلا، لا شيء، استمر. أني مصخ إليك. لست من أولئك الخطباء الذين ينتظرون سوط المعارضة ليسروا.

- خيل إلي أني سمعتك تقدم لي كأساً من شرابك «البورتو» المعتبر.

فابتسم باسافان، وقال وهو يناديه الزجاجة:

- ابق الزجاجة قربك. أفرغها إذا شئت، ولكن تكلم.

فملأ ستروفيلو كأسه، وطوى شراعه في كتبه عميقة، وبدأ:

- لا أدرى إذا كنت أملك ما يدعى قلباً جافاً؛ ولكنني أظن ذلك لأن عندي الكثير من السخط، والتقزز؛ وقليلاً ما يهمني. صحيح أني كبحث في هذا العضو منذ وقت طويل كل ما أخشى أن يبعث فيه الشفقة. ولكنني قادر على الإعجاب، وعلى نوع من الإخلاص الآخر. لأنني كإنسان، احترق واكره نفسي أسوة بالغير. وقد سمعت من يردد ذاتاً في كل مكان أن الأدب، والفنون، والعلوم تعمل لخير الإنسانية حتى الرمق الأخير، وهذا يكفيني لأتقيأها. ولكن ما من شيء يسكنني من أن أعكس القضية، حينئذ أتنفس. نعم، إن ما يرضيني تخيله هو العكس تماماً. الإنسانية الخسيسة وهي تعمل في تشبييد

نصب ضار ما؛ شخص كبرنار باليسي (لقد أزعجونا كثيراً به) وهو يحرق النساء والأولاد، ويحرق نفسه أيضاً، في سبيل الحصول على بريق طبق جميل. أحب أن أعكس المسائل ماداً تريده، أن روحي خلقت هكذا بحيث بقي في توازن أفضل إذا كان الرأس إلى أسفل. وإذا لم أستطع احتمال فكرة مسيح يضحي بنفسه في سبيل خلاص جاحد من كل هؤلاء الناس الشنيعين الذين أدفعهم برفقي، فإني أجد شيئاً من السرور، ونوعاً من الطمأنينة أبداً، بأن أتخيل هذا الخليط بتغفف في سبيل إنتاج مسيح... وأفضل شيئاً آخر أيضاً، لأن كل تعاليم هذا لم تستخدم إلا في مزيد من تغطيس الإنسانية في الوحل. المصيبة تأتي من أناية الضواري. ضراوة مخلصة، هذا ما يفتح أشياء عظيمة. أنتا تنتكب الطريق بحماية المؤسأة، والضعفاء، والعاجزين، والجرحى. وهذا السبب أكره الدين الذي يعلمنا ذلك... والسلام العظيم الذي يزعم محبو البشر أنفسهم أنهم يغترفونه من تأمل الطبيعة، حيواناتها وبناتها، يأتى من أن الكائنات الفوية تنبع وحدها في الحالة الوحشية؛ أما الباقي كله، النهاية، فيستعمل سداداً. لكنهم لا يعرفون أن يروا ذلك، ولا يريدون الاعتراف به.

- بلى، بلى، أفي أعترف به مختاراً، أكمل.

- أليس هذا مخجلأً، نائساً؟... أن يكون الإنسان قد فعل ما فعل في سبيل الحصول على نسل جميل من الحبوب، والماشية،

والطيور، والحبوب، والزهور - وهو نفسه، وفي سبيل نفسه، لا يزال يبحث في الطب عن عزاء لبؤسه، وفي المحبة عن مسكن وقفي، وفي الدين عن سلوى، وفي السكر عن التسیان... أن ما محب الاستعمال به هو محسين النسل ولكن كل اختيار يصيب البعض - مسوّهم أحياناً هدّاماً في المجتمع - أن يحمله. وهو لا يعرف أيضاً أن يأخذ على عاتقه خصاء فاسدي النوع؛ وهم الأكثر قدرة على التناسل. أما ما يلزم فهو مريض لتحسين النسل وليس المستشفيات.

- أنت نسرني بهذا يا ستروفيلو.

- أخشى أن تكون قد أخطأت الظن بـ حتى الآن، يا سيدي الكونت. لقد حسبي ارتياياً وأنا مثالي، صوفي. أن الإرتيابية لم تعط شيئاً صالحاً. وقد أصبح معلوماً إلى أين تقود... إلى الساحل! إني أعتقد أن الإرتيابيين أناس دون مثل أعلى، دون مخبأة، كحمفى... ولا أجهل شيئاً من الرقة، وللطفاة العاطفة اللذين سيحذفها انتاج هؤلاء المتر الأسداء. ولكن لن يكون هناك أحد ليأسف على الرقة واللطافة، دام جميع الرقيقين واللطفاء سيحذفون معها. لا تنخدع، فعندي ما يسمى: الشفاعة، واعرف جيداً أن مثلي الأعلى قد استنشفه بعض اليونانيين؛ وإني أجد للذّة على الأقل بأن أتخيله لنفسي، وأن أتذكر أن كوربه Corée ابنة سيريس هبطت إلى الجحيم ملائكة بالشفاعة على الظلال. ولكنها وقد أصبحت ملكه، وزوجة

لبلوتون Pluton، فإن هوميروس لم يطلق عليها سوى اسم «بروزرين البلا رحمة». راجع الأوديسة - النشيد السادس - «البلا رحمة». هذا ما يجب أن يكونه الإنسان الذي يدعى الفضيلة.

- أنا سعيد بأن أراك تعود إلى الأدب، هذا إذا كنا قد تركناه. إن أسالك يا ستروفيلو الفاضل إذا كنت تقبل أن تصبح المدير «البلا رحمة» للمجلة.

- الحق يقال، يا عزيزي الكونت... يجب أن أعترف لك إن الأدب يقرزني أكثر من أي شيء بين جميع البرازات الإنسانية التي تسبب القيء. لا أرى فيه سوى مجاملات ونمليقات. وقد بدأت أشك فيها إذا كان يمكن أن يكون شيئاً آخر ما دام لم يكن الماضي على الأقل. أنا نعيش على عواطف متعارف عليها، والقارئ يتخيّل أنه يشعر بها لأنّه يؤمّن بكل ما يُطبع؛ والمؤلف يضارب من فوق كأنه يضارب على اتفاقات يعتقدها قواعد لغته. هذه العواطف ترن رنينا زائفاً كفيش الفمار، ولكنها منداولة. «النقد الرديئة تطرد النقد الجيدة» كما هو معروف. ومن يقدم للجمهور مسرحيات حقيقية يبدو أنه يدفع لنا كلمات. والإنسان الحقيقي هو الذي يبدو كدجال في دنيا كل من فيها يلجأ إلى الغش. إني أنذرتك بذلك: إذا قمت بإدارة مجلة فلكي أبقرها بالطعنات، ولأقضى فيها على جميع العواطف الجميلة، والأوراق النقدية هذه: هي الكلمات

- أحب أن أعرف كيف تصرف بها

- دعني أعمل وسنزري جيداً كثيراً ما فكرت في هذا

- لن تكون مفهوماً من أحد، ولن يبعك أحد.

- أعود بالله! إن الفنانين الأقل خولاً واعون اليوم للتضخم الشعري. أنهم يعرفون ماذا يتمنوا من ريح وراء الإيقاعات المدعاية والترددات الغنائية الرنانة. ليقترح أحدهنا الهدم والزنود ستتوافر. أتريد أن نؤسس مدرسة لا يكون لها من هدف سوى أن تخلف كل شيء؟.. أيخيفك هذا؟..

- كلا... إذا لم تُدرس حديقتي.

- هناك ما يمكن العمل به خارجاً... وبانتظار ذلك، فإن الساعة مناسبة. وأنا أعرف من لا يتذمرون سوى إشارة الاجتماع؛ من الصغار... نعم، هذا يعجبك، وأنا أعلم، ولكنني أنذرك بأنهم لن يقعوا في فخ أحد. وغالباً ما تسأعلت بأية معجزة أصبح الرسم متقدماً وكيف حدث أن الأدب قد سبق؟ وبأي هوان سقط اليوم ما كان يعتبر عادة في الرسم أنه «الباعث»!.. موضوع جميل! إن هذا يدعو إلى الضحك. والرسامون لا يجرؤون على المجازفة بصورة إلا بشرط تجنب كل شبه. إذا سرنا بعملنا سيراً حسناً، وفي وسعك الاعتماد علي في هذا، فإني لا أطلب سنتين لكي أجعل شاعر الغد يعتقد أنه أهين في شرفه إذا استطاع أحد أن يفهم ما يريد أن يقول.

نعم، يا سبدي الكونت؛ أتريد أن تراهن؟.. أن كل معنى، وكل تفسير سوف يُعتبران ضد السعر. أني أقترح أن نعمل لصلاحة اللامنطقية. «المنظفون!» ما أجمله عنواناً لمجله!..
كان باسافان يصغي دون أن يحرك ساكناً وقال بعد صمت:

- هل تعد ابن أخيك الفتى بين اتباعك؟

- ليون الصغير، ظاهر. الاستقامة والثابرة تدفعان الإنسان إلى التقدم حقيقة. أن هناك لذة في تعليمه. قبل الصيف كان يجد من المضحك أن يقفز فوق الأقواء في موضوع صفة وأن ينال جميع الجوائز، ومنذ دخوئه إلى المدرسة لم يعد يفعل شيئاً. ولا أدرى ماذا يطبخ؛ ولكني منحته ثقتي ولا أريد أن أزعجه.

- أتائي به إلى؟...

- أظن أن السيد الكونت يمزح... إذاً هذه المجلة؟.

- سنعود إلى الحديث عنها. أنها بحاجة لإنضاج.. يا بعث في نفسي. وبانتظار ذلك يجب أن تأتي بي بسكرنير؛ فذاك الذي كان عندي لم يعد يعجبني.

- سأرسل إليك منذ الغد كوبلافلور الصغير الذي لا بد أن أراه بسرعة، والذي سيقوم بعملك دون شك.

- هل هو من جنس «منطف؟».

- قليلاً.

- من جنس واحد؟ Exuno
- كلا!.. لا تحكم على هذا وفقاً لذاك. فهذا فنون
ويناسبك تماماً.
- ونهض ستروفيلو. وقال بأسافان:
- للمناسبة، أظن أنني لم أعطك كتابي. آسف لعدم وجود
نسخة من الطبعة الأولى.....
- ما دمت لا أنوي بيعه فليس لهذا أهمية.
- الطبعة الثانية أفضل.
- أوه!.. ما دمت لا أنوي أيضاً أن أقرأه... إلى اللقاء.
وإذا كان ذلك على بالك: أنا بخدمتك لي الشرف أن أحسيك.

١٢

يوميات ادوار

«جئت بأمتعته. بعد العودة من عند بأسافان، شغل. حماسة
هادئة واعبة. فرح غير معروف حتى هذا اليوم. كتابة ثلاثة
صفحة من «مزيفو النقد»، دون تردد، دون سطب. كمنظر
طبيعي ليلى على ضوء برق فجائي هكذا انبثقت المأساة من القتل
كثيرة الاختلاف عما سعيت عبثاً لابتداعه. والكتب التي كتبتها

حتى الآن تبدو لي شبيهة بتلك الأحواض في الحدائق العامة، ذات إطار معين، كامل تقريباً، ولكن الماء الموجود فيها هو دون حياة. أما الآن فأريد أن أتركه يسيل وفقاً لانحداره، تارة سريعاً وطوراً بطيئاً، في شباك أرفض أن أستشفها.

«X، يرى أن الروائي الجيد عليه قبل أن يبدأ كتابه أن يعرف كيف سيتهي هذا الكتاب. أما أنا الذي ترك كتابه يسير بلا قصد معنٍ فاعتبر أن الحياة لا تعرض علينا شيئاً لا يمكن أن يعتبر نقطة انطلاق جديدة. «يمكن أن يستمر...» بهذه الكلمات أريد أن أنهي كتابي «مزيفو النقود». «زيارة دوفيه. طبعاً هو غلام طيب.

«ما أنني أفرطت في تعاطفي، كان علي أن أكابد تدفقاً عاطفياً يبعث على كثير من الضيق حين كنت أتحدث إليه استعدت في نفسي هذه الكلمات لروشفسوكو: «أنا قليل الشعور بالشفقة، ولا أريد أنأشفق إطلاقاً. أني أقول أنه على المرء أن يكتفي بإظهار الشفقة وأن يجمي ذاته من الشعور بها». ومع ذلك فتعاطفي كان حقيقياً، لا يمكن إنكاره، وكنت متأثراً حتى الدموع. وحقيقة القول أن دموعي بدت لي كتعزية أكثر من أقوالي. وأظن أيضاً أنه أقلع عن حزنه مذراني أبكي.

«كنت مصمماً بشدة على ألا أكشف له اسم من أغوى أمرأنه. لكنه ادهشني بعدم سؤاله عنه. اعتقد أن غيرته تلاشت

منذ أن سعر بأن لورا لم تعد تنعم النظر إليه وعلى كل حال فإن تصرفه معى ناتج عن شيء من التع أصاب همه.

«شيء من اللامنطقية في حاله؛ هو حانق لأن الآخر أهمل لورا. وقد أظهرت له أن لورا لم تكن لنعود إليه حتى لو لم يصدر عنه هذا الإهمال. وعد بأن يحب الولد كما سيحب انا له. ومن يدري هل كان سيعرف إلى مسارات الأبوه لولا داك الذي أغوى أمرأته؟ هذا ما تجنب أن يجعله بالحظه، لأن غيرته ستزداد عندما يذكر عدم كفاءته. ولكن هذه الغرفة عند ذلك ستتحول إلى حب الذات ولا تعود تهمي».

«إذا كان واحد كعطل غيراً فهذا يظل مفهوماً، لأن صورة اللذة التي حصلت عليها زوجته مع رجل آخر كانت تلازمها. ولكن واحداً كدوفيه ليكون غيراً يجب أن يتخيل أن عليه أن يكون هذا الغير».

«ما من سك في أنه برعى في نفسه هذا المبل بداع حاجة خفية لبقوى شخصه الهزيل وسوف تكون السعادة طبيعية له، لكنه في حاجة للاعجاب بنفسه. أما ما يعتبره فهو الحاصل وليس الطبيعي. إذا فقد بذلك جهدي لأصور له أن السعادة البسيطة تستحق الاعناب أكثر من العذاب، ويلوغها صعب جداً. لم أدعه بذهب إلا وهو أكثر بشاشة».

«تناقض في الشخصيات، الأشخاص الذين يتصرفون كما قدر

لهم من أول الرواية أو المأساة إلى آخرها... فإن ثباتهم هذا قد عرض لينال إعجابنا. أما أنا فعل العكس لأنني أعرف أن هؤلاء الأشخاص ليسوا سوى اصطناعيين ومصنوعين

«ولا أزعم أن التناقض يجب أن يكون الدليل الأكيد على الطبيعي» لأننا نجد كثيراً من التناقض المصطنع، لا سيما بين النساء. ومن ناحية أخرى أستطيع أن أتعجب عند بعض القلائل بما يدعى «روح العذاب»؛ ولكن نتيجة الكائن هذه لم يحصل عليها في أغلب الأحيان إلا بواسطة تشويه مزهو، وعلى حساب الطبيعي. وكلما كان الفرد ذا كنه شريف تكثر إمكاناته، وكلما ظل ناشطاً للتغيير يقل تركه لماضيه أن بيت مستقبله. «أن الإستقامة والمثابرة يدفعان الإنسان إلى التقدم *Justum et tenacem propositi virum*» كأغذوج لا تقدم في الغالب سوى أرض صخرية صعبة حراثتها.

«وعلفت» من نوع آخر أيضاً، من يصنعون بالثابرة أصالة واعية، ويكون همهم الرئيسي إلا يجحدوا عنها، بعد اختيار بعض منهم؛ ومن يظللون على أهبة الاستعداد ولا يتسامحون في أي إهمال. (أني أفكر في X الذي رفض كأساً من شراب مونتراسيه ١٩٠٤ الذي قدمته إليه، وقال: «لا أحب سوى نبيذ بوردو»، وحين قدمته إليه كأنه نبيذ بوردو بدا له المونتراسيه لذيداً جداً).

«عندما كنت صغيراً كنت أعقد العزم على أمور أتخيلها فاضلة. وكانت أقلق من أن أكون ما كنته أقل من أن أصبح ما

كنت أزعم أن أكونه. أما في الوقت الحاضر فإني أكاد أرى في التردد سر عدم الشيغوخة.

«سألني أوليفيه عاداً اشتغل. انسقت إلى أن أحدهه عن كتابي، وأن أقرأ له الصفحات التي كتبتها ما دمت أراه مهتماً. كنت أخاف حكمه، عارفاً بتشدد الشباب وبالصعوبة التي يشعر بها في قبول وجهة نظر أخرى غير وجهة نظره. ولكن بعض الملاحظات التي تجراً على قوتها بخوف بدت لي كثيرة الحصافة إلى درجة أني استفدت منها حالاً.

«أشعر وأتنفس بواسطته ومن خلاله.

«كان لا يزال قلقاً حول موضوع تلك المجلة التي عليه أن يتولى إدارتها، وخصوصاً حول تلك القصة التي أنكر كتابتها، والتي وضعها بناء على طلب باسافان. قلت له أن الترتيبات الجديدة التي اتخذها هذا سوف تقود إلى تغيير في الفهرس، وسيستطيع استعادة مخطوطته.

«استقبلت الزيارة غير المتوقعة، زيارة السيد بروفيتانديبو قاضي التحقيق. كان يجفف جبهته ويتنفس بشدة، وقد بدا لي أن ضيق نفسه ناتج عن كدره أكثر من صعوبته. احتفظ بقبعته في يده ولم يجلس إلا بعد دعوتي. أنه رجل ذو مظهر جميل، متين البنية، طويل القامة، لا شك في مهابته. وقال لي:

«ـ اعتقد أنك شقيق زوجة الرئيس مولينيه. سمحت

لنفسى أن آتى لمقابلتك في موضوع ولدك جورج. تريد دون شك أن تعفو عن مسلك من الممكن أن يبدو لك في بادئ الأمر غير رصين، ولكنى أأمل أن يكفى العطف والمودة اللذان احملهما لزميلي لإيضاح ذلك لك.

«وتوقف هنالك. فنهضت وأسدلت ستاراً خوفاً من أن تستطيع مدبرة البيت أن تسمع، وهي فضولية، واعرف أنها في الغرفة المجاورة. وقد استتصوب بروفيتانديو عمل بابتسامة، وقال:

ـ بصفتي قاضي تحقيق كان على أن أهتم بقضية أزعجتني جداً، أن ابن اختك الصغير كان قد اشترك سابقاً في مغامرة... . ولبيق هذا بيننا أليس كذلك؟ ـ مغامرة تحملب الفضيحة، حيث أريد الظن، آخذنا في الاعتبار صغر سنه، أن سلامته طويته وبراءته قد غرد بها. وأعترف لك بأن هذا جعلني حينذاك ألجأ إلى شيء من المهارة لكي... . أحصرها في حدود معينة دون أن أسيء إلى مصلحة العدالة. وأمام عودة إلى ارتكاب الجرم... . أسرع فأقول: من نوع آخر تماماً... لا أستطيع التعهد بأن يتخلص جورج الصغير من الورطة بالسهولة التي تخليص بها هذه المرة، وأشك إذا كانت محاولة تخليصه تكون في صالحه، رغم كل رغبتي الحبية في توفير الفضيحة على صدرك. ومع ذلك سأجرب. ولكن عندي رجال، كما تعلم، ويبذلون نشاطاً لا أستطيع دائمًا أن أوقفه. أو إذا فضلت، فإني لا أزال

قادراً على إيقافه. أما عداً فلن أستطيع أبداً. وهذا ما دعاني للتفكير أن عليك أن تكلم ابن اختك وتخبره بما يعرض نفسه له ..

«ريارة بروفيناينديو أفلقني بادئ الأمر بشكل خيف، ولماذا لا اعرف بذلك؟ ولكن حين علمت أنه لم يأت كعدو أو كقاض شعرت بشيء من النسليّة. وقد ازداد فهمي له حين قال:

ـ إن قطعاً من العمله الرائفة أنزلت للتداول منذ زمن وقد انبثت بذلك. لم أنجح بعد في اكتشاف مصدرها. ولكني أعرف أن جورج الصغير . وأريد الاعتقاد أنه كثير السذاجة - هو أحد الذين يستعملونها ويعملون على ترويجها. والذين يتعاطون هذه التجارـة كلهم من الصغار في سن ابن اختك. ولا أشك أن هناك من استغل براءتهم. وأن هؤلاء الأولاد، وهم دون بصيرة، بلعبون دور الحمقى بين أيدي بعض المجرمين الكبار. وقد استطعنا قبلـاً أن نقبض على بعض الماحظين الصغار وجعلناهم يعترفون، دون بذل أي جهد، بمصدر هذه القطع. ولكني أعلم أننا إذا اجتنزا نقطة ما فإن القضية تتفلت منا... وأعني أن التحقيق لا يمكن أن نجهله. لقد نويت التوصل إلى اكتشاف المجرمين الحقيقيين دون اللجوء إلى شهادة هؤلاء الصغار. وهذا أصدرت أمراً بتركهم و شأنهم. ولكن هذا الأمر ليس إلا وقتاً. وأريد ألا يخبرني ابن اختك على العودة عن هذا الأمر. وسيكون من الأفضل أن يعرف ابن اختك أن العين

مفتوحة عليه. ولن ترتكب شرًّا إذا أخفته قليلاً. أنه يسير على منحدر وعر . . .

اعترضت أنني سأبدل ما بوسعي لأنذره، ولكن بروفيتانديو بدا أنه لم يسمعني. وقد ضاعت نظراته، وردد مرتين: «على ما يسمى منحدر وعر». ثم سكت

«لا أدرى كم استغرق سكوته، ودون أن يعبر عن تفكيره بدا لي هذا التفكير منتشرًا في نفسه. وقد سمعت أقواله قبل أن يقولها لي:

«ـ وأنا نفسي أب، أيها السيد . . .

ـ لقد اخترني كل ما قاله قبلًا ولم يبق بيننا سوى برنار. أما الباقي فليس سوى ذريعة؛ لقد جاء لكي يحدثني عنه.

ـ إذا كان تدفق العواطف يضايقني، وإذا كان الإفراط في العواطف يزعجني، فيما من شيء يمكن أن يؤثر أكثر من ذلك التأثير المكبوت. لقد كبحه جهد استطاعته ولكن بجهد عظيم جعل شفنيه ويديه ترتجفان. لم يستطع الاستمرار وفجأة غطى وجهه بيديه واهتز أعلى جسمه كله من النحيب وتم:

ـ ها أنت ترى، ها أنت ترى أيها السيد أنه يمكن لابن أن يجعلنا بؤساء.

ـ ما فائدة المواربة؟ .. أنا نفسي تأثرت حتى النهاية.

ـ وقلت:

ـ لو رأك برinar لذاب قلبه، وأنا الضميين لذلك.

ـ لقد شعرت بكثير من الحيرة. فبرinar لم يحدثني قط عن أبيه. وقد قبلت بتركه لعائلته واعتبرت هذا الهرب طبيعياً، وكذلك لم أر فيه سوى فائدة كبرى للولد. وفي حالة برinar، أضيّفت حالة كونه ابن زنى..

ولكنها هو والده الزائف يتكتشف عن عواطف قوية دون شك، بعيدة عن التصنيع وكثيرة الصدق لأن ليس وراءها هدف. وأمام هذا الحب، هذا الغم، تساملت إذا كان برinar على حق. لم أشعر في قلبي أنني أستصوّب عمله. وقلت:

ـ كلّفي إذا كنت تعتقد بفائدي لك، إذا كنت تعتقد بجدوى كلامي معه. أنه ذو قلب طيب.

ـ أعرف، أعرف... بعـم، أنت تستطيع كثيراً. أنـي أعلم أنه كان معـك هذا الصيف. لقد أحسن رجالـي القيام بواجبـهم... وأعلم أيضاً أنه يقدم اليـوم امتحانـه الشـفـهيـ. اغتنـمت الـوقـتـ الذي أـعـرفـ أنه خـالـلهـ في السـورـيونـ لـآـتـيـ إـلـيـكـ. أنـي أـخـشـيـ أنـ التـقـيـ بهـ.

ـ منذ لحظـاتـ كانـ تـأـثـيرـيـ قدـ هـبـطـ لـأـنـ لـاحـظـتـ أنـ فعلـ «ـعـلـمـ»ـ دـخـلـ كـلـ عـبـارـاتـهـ. وـأـصـبـحـتـ أـقـلـ اـهـتمـاماًـ بـماـ يـقـولـهـ لـيـ وـأـكـثـرـ اـهـتمـاماًـ بـمـلاـحظـةـ عـادـتـهـ تـلـكـ.

ـ وقالـ لـيـ أنـ «ـعـلـمـ»ـ أـيـضاًـ أنـ برـinarـ اـجـتـازـ الـامـتـحانـ الـخـطـيـ

بنجاح بالغ. ومسايرة أحد الفاحصين الذي ظهر أنه من أصدقائه، جعلته يعرف أيضاً مسابقة ولده في الإنشاء الفرنسي، والتي كانت من أحسن المسابقات، كما ييلو كان يتحدث عن برنار بنوع من الإعجاب المستمر جعلني أسأله أن لم يكن يظن نفسه والده الحقيقي وأضاف:

«يا إلهي! لا تقل له شيئاً من هذا! أنه ذو طبيعة كثيرة الكبراء، كثيرة التفور! إذا عرف أي، منذر حبله، لم انقطع عن التفكير فيه ومتابعته!... ولكن منها كان الأمر، فإن ما تستطيع قوله هو أنك رأيتني (كان يتنفس بشقة بين كل عباره). ما تستطيع وحدك أن تقوله له، هو أنني لا أحقد عليه (ثم بصوت آخر بالضعف): وأنني لم انقطع عن حبه. كولدي. نعم، اعرف جيداً أنك تعرف... وما تستطيع قوله له أيضاً... (ودون أن ينظر إلى، وبصعوبة، وبحالة من التشوش البالغ): هو أن أمه تركتني... نعم، نهائياً، هذا الصيف؛ وأنه إذا أراد أن يعود فإليني...».

«ولم يستطع أن يكمله

«رجل كبير، قوي، إيجابي، مستقر في الحياة، منمكн في وظيفته، يقلع فجأة عن كل تحفظ ويفتح نفسه ويتدفق أمام غريب. وقد استطاعت التتحقق مرة أخرى أيضاً بهذه المناسبة أنني أتأثر بسهولة من تدفق عواطف رجل مجهول أكثر من تأثيري من رجل أعرفه. سأحاول شرح ذلك في يوم آخر».

لم يخف على بروفيتانديو الميل الذي كان يغدّها بصدقه في
بادئ الأمر، وقد فسر ذلك بشكل سيء، ولا يزال يسيء
التفسير أيضاً، من أن برنار ترك منزله ليتحقق بي وهذا ما أمسكه
أيضاً عن محاولة روبيتي لم أحجز على سرد قصة حقيقتي عليه ولم
اتكلم إلا عن صدقة ولده لأوليفيه، وقلت له أن صلتنا
توطدت بسبب هذه الصدفة. وقال بروفيتانديو:

ـ هؤلاء الشبان يندفعون في الحياة من غير أن يعرفوا إلى
ما يعرضون أنفسهم أن قوتهم ناتجة دون شك عن جهلهم
للأخطر. لكننا نحن الذين يعرفون، نحن الآباء، نزجف هلعا
عليهم. أن عنايتنا بهم تبرهن ومن الأفضل لا نريهم الكثير
منها. أنا أعلم أنها تمارس بلجاجة، بعدم تبصر أحياناً. بدلاً من
أن نردد أمام الولد دون انقطاع أن النار تحرق، فلنرض أن نتركه
يمحرق قليلاً. من المؤكد أن التجربة تعلم أكثر من النصيحة.
كنت دائمًا أمنع برنار أكبر قدر من الحرية إلى أن وصلت به إلى
الظن أنني فليل الاهتمام به، وبالأسف!... أخشى إلا يكون
قد احتقر نفسه بعد هربه، وطننت أيضاً أن من الأفضل أن
أتركه يفعل ذلك؛ وأنا أسرع عليه من بعيد دون أن يساوره
الشك أنني رتببت الوسائل لذلك والحمد لله. (ما من شك في
أن بروفيتانديو استرجع كبرياءه في ذلك وقد بدا على الخصوص
فخوراً بتنظيم شرطته. وهذه هي المرة الثالثة التي يجدثني عنها).
طننت أن من اللازم أن أقلل في عيني هذا الولد من مخاطر
إقدامه. لم اعترف لك أن هذا العصيان، رغم الغم الذي سببه

لي، قد زداني تعلقاً به؟ لقد رأيت فيه برهاناً على الشجاعة،
والقيمة... .

«والآن، وفدي شعر هذا الرجل الممتاز بالثقة، راح تدفعه
يجري بلا انقطاع. حاولت توجيه الحديث نحو ما يزداد اهتمامي
به، فقطعت حديثه بأن سأله إدا كان رأى تلك الفتاة النقدية
الزائفة التي حدثني عنها أولاً. كنت مشتاقاً لأعرف إذا كانت
 شبهاً بقطعة البلور التي أرانا إياها برنار. ولم أكد أحدهما عنها
حتى تغير وأطبق جفنيه نصف أطباقة بينما كان في أعماق عينيه
يتلألق هليب غريب؛ وانقضت شفته، وجر الانتباه كل قسماته
نحو الأعلى، وكل ما قاله أولاً لم يعد ذا موضوع. أن القاضي
احتاج الألب، ولم يعد موجوداً لديه سوى المهنة. أخلف علي
بالأسئلة، ودون ملاحظات، وتحدث عن إرسال سرطاني إلى
«ساس - فيه» لينقل أسماء المسافرين عن سجلات الفنادق.

وأضاف:

- علماً بأن هذه القطعة الزائفة، ربما يكون قد تسللها
بقالك من أحد المغامرين عابري السبيل، وفي مكان لم يمكث فيه
بل مر به مرور الكرام.

«أجبت على ذلك أن «ساس - فيه» تقع في نهاية طريق غير
نافذ وأنه لا يستطيع الذهاب إليها والرجوع منها سهولة في يوم
واحد؛ وقد بدا مسروراً من هذه المعلومات الأخيرة. ونركتني
بعدما شكرني بحرارة، وهو مشغل البال، منتشر، ودون أن
يعود إلى الحديث عن جورج ولا عن أوليفييه.

شعر برnar هذا الصباح أن ما من فرح، بالنسبة إلى طبيعة
كرية كطبيعته، تفوق فرحة اسعد كائن آخر. وهذه الفرحة
متنوعة عليه. لقد نجح في امتحانه بتقويه، ولم يجد أحداً بجانبه
ليزف إليه هذا الخبر السعيد. وكان هذا يثقل عليه. كان برnar
يعلم أن والده سيكون أكثر الناس سروراً. وقد تردد هنيهة فيها
إذا كان يذهب إليه حالاً ليعلمه؛ ولكن الكبرياء أمسكته.
وأدوار؟.. وأوليقيه؟.. أنه يجعل كثيراً من الأهمية لدبلومه
أصبح من حملة البكالوريا. يا للتقدم الجميل!. الآن بدأت
الصعوبة.

في ساحة السوريون رأى أحد رفقاء، وكان ناجحاً مثله.
كان هذا الرفيق متزرياً عن الآخرين، ويبكي. هو في حالة حداد
ويernar يعلم أنه فقد والدته. أن اندفاعاً عظيماً من التعاطف دفع
به نحو اليتيم؛ اقترب، ثم تجاوز عنه بدافع من الحياة الأحق.
اما الآخر الذي رأه يقترب ثم يتجاوزه فقد شعر بالخجل من
دموعه، كان يحترم برnar، ويتأمل مما يحسبه احتقاراً.

دخل برnar إلى حديقة اللوكسمبور، وجلس على مقعد في ذلك الجزء من الحديقة حيث كان قد جاء للبحث عن أوليفيه مساء، يوم كان يبحث عن مأوى. الهواء فاتر، واللواء اللازوردي يبتسمل له من خلال أغصان الأشجار الكبيرة الجرداء. وقد يرتاد الماء فيحقيقة افتراض الشتاء. هناك عصافير مغفردة يبدو أن دفء الطقس خدعها. ولكن برnar لم ينظر إلى الحديقة. فقد رأى أوقيانوس الحياة يمتد أمامه. بفال أن هناك طرقات على البحر، ولكنها ليست مرسومة، وبرnar لم يكن يعرف أي طريق هي طريقه بينها.

كان غارقاً في التأمل منذ بعض لحظات حين رأى ملاكاً يقترب منه، متزلقاً، يقدم خفيفة تبعث على الشعور بأنه يستطيع أن يضعها على الأمواج. لم يكن برnar قد رأى ملائكة من قبل، ولكنه لم يتزدد لحظة. وحين قال له الملائكة: «تعال» نهض مطيناً وتبعه. ولم تكن دهشته عظيمة إلا لأنه ليس في حلمه وقد حاول في ما بعد أن يتذكر إذا كان الملائكة قد أمسك بيده، ولكنها في الواقع لم يتلامسا، حتى أنها احتفظا ببعض المسافة بينها. وعادا كلامهما إلى تلك الساحة حيث برnar ترك اليتيم، عازماً أن يكلمه. ولكن الساحة كانت فارغة.

وسار برnar في طريقه، ورافقه الملائكة نحو كنيسة السوربون، فدخلها الملائكة أولاً، أما برnar فلم يكن قد دخلها قبلًا. هناك ملائكة آخرون يتجلوون في ذلك المكان؛ ولكن لم تكن لبرnar

العينان اللازمان لايستطيع رؤيتهما. لقد أحاط به سلام مجهر، واقترب الملائكة من سيد المذبح وحين رأه برنار يركع ركع بجانبه. لم يكن يؤمن بأي إله، بحيث أنه لا يستطيع الصلاة. ولكن قلبه اجتىء بحاجة إلى العطاء، إلى الهبة، إلى التصحيحة، وقدم نفسه. ظل تأثره مشوشاً بحيث لا يمكن أية كلمة أن توصحه. وفجأة ارتفع غناء الأرغن. وقال الملائكة.

- لقد قدمت نفسك كذلك إلى لورا.

وشعر برنار بدموعه تجري على خديه.

- تعال، اتبعني.

واصطدم برنار، بينما كان الملائكة يعود، بأحد أصدقائه القدماء الذي اجتاز الامتحان الشفهي متله. فحسبه برنار أحد التلامذة الكسالى ودهش لأنهم أنجحوه. وهذا الكسول لم يكن قد لاحظ برنار، أما هذا فقد رأه يضع في يد خادم الكنيسة مالاً ثمن شمعة. هز برنار كتفيه وخرج.

وحين أصبح في الشارع رأى الملائكة قد تركه. فدخل إلى محل لبيع النبغ، ذلك المحل الذي دخل جورج قبل تمانية أيام شاطراً بقطعته النفذية الزائفة لقد صرف كثيراً على شاكلتها منذ ذلك الوقت. استرى برنار عليه س Kapoor ودخن. لماذا ذهب الملائكة؟ لم يكن له ولبرنار ما يغولنه أحد هما للآخر؟ وأعلنت الساعة الظهر. كان برنار جائعاً. أيعود إلى البسيرون؟ أいでه إلى أوليفييه ويقتسم معه قطور أدوار؟ تأكد من وجود مال كاف في

جيبيه ودخل إلى مطعم. وما أن انتهى من الطعام حتى سمع صوتاً عذباً يتمتم:
حان الوقت لتصفية حساباتك.

والتفت برinar. كان الملائكة بجانبه من جديد. وكان يقول:
- أصبح عليك أن تخزم أمرك، لم تعيش حتى الآن إلا في المغامرة أترك الصدفة تتصرف بك؟ أنت تريد القيام بعمل.
والمهم أن تعرف لماذا.

فقال برinar:

- علمي. دللي.

فقاده الملائكة إلى قاعة ملأى بالناس. وفي صدر القاعة منصة، وعلى هذه المنصة طاولة مغطاة بطنسة عقيقية. ووراء الطاولة جلس رجل لا يزال شاباً، وكان ينكلم، كان يقول:

- إن افتراض عدم اكتشاف شيء هو من الجخون البالغ. إننا لا نملك شيئاً لم نكن تلقيناه. على كل منا أن يفهم، ما دام لا يزال شاباً، إننا نتعلق بماضي، وأن هذا الماضي يُلزمنا. لقد رسم مستقبلنا بواسطته.

وحين انتهى من شرح نظرياته حل محله خطيب آخر وبداً كلامه باستصواب ما قاله زميله. ثم هاجم المعجب بنفسه الذي يزعم أنه يعيش دون مذهب، أو يقود نفسه وفقاً لأوضوائه الخاصة. وقال:

- أن هناك مذهباً ورثناه قبلًا قد اجتاز كثيراً من العصور. أنه أفضل المذاهب بلا ريب وهو المذهب الأوحد. وعلى كل منا أن يثبته بالبرهان. أنه المذهب الذي نقله إلينا معلمونا، مذهب بلادنا التي ما جحدته مرة إلا دفعت ثمن ضلالها غالياً. لا يمكنك أن تكون فرنسيّاً صالحًا دون أن تعرفه، ولا أن تنفع في شيء صالح دون أن تقف في صفة.

وبعد هذا الخطيب خطيب ثالث فشكر الاثنين الآخرين اللذين أجادا تصوير ما سماه نظرية منهاجمهم؛ ثم قرر أن هذا المنهاج لا يحوي شيئاً أقل من تجديد فرنسا، بفضل جهود كل فرد من أعضاء حزبهم. وقد ادعى أنه رجل عمل؛ وإن كل نظرية تجد في التطبيق نهايتها ويرهانها؛ وأن كل فرنسي صالح يجب أن يكون مقاتلاً وأضاف:

- ولكن مع الأسف!.. كم من قوى معزولة، ضائعة! لماذا لا تكون هذه القوى عظمة لبلدنا، وإشعاعاً للأعمال، وازدهاراً لكل فرد، إذا كانت منتظمة، وإذا كانت هذه الأعمال تجد النظام، وإذا كان كل فرد قد انضوى تحت لواء النضال.

وبيتها ظل مستمراً بدأ شبان يتجلبون بين الحضور، ويوزعون نشرات انضواه لا تحتاج إلا إلى وضع التوقيع عليها. وقال الملوك عندئذ:

- كنت تريد أن تقدم نفسك، ماذا تنتظر؟ . . .

أخذ برinar أحدى هذه النشرات التي قدمت إليه والتي يبدأ نصها بهذه الكلمات: «أتعهد أن...» وقرأ. ثم تطلع إلى الملائكة فرأه يبتسم؛ ثم تطلع إلى المجتمعين، وعرف بين الشبان حامل البكالوريا الجديد الذي أحرق شمعه في كنيسة السوربون تقدمة شكر عن نجاحه. وفجأة، وعلى مسافة غير بعيدة، رأى أخيه الأكبر الذي لم يشاهده منذ أن ترك البيت الأبوي. لم يكن برinar يجهه وكان يغار من التمييز الذي خيل إليه أن والده ينحصه به فدعاك النشرة بعصبية.

- أترى أن من الواجب أن أوقع؟

وقال الملائكة:

- نعم، بالتأكيد، إذا كنت شاكاً بنفسك.

فقال برinar وقد ألقى الورقة بعيداً:

- لا أشك أبداً.

كان الخطيب لا يزال يخطب وحين بدأ برinar يصغي إليه، كان يعلم وسيلة أكيدة تجعل المرأة لا يخطيء أبداً، وهي أن يقلع المرء عن مقاضاة نفسه، وأن يسلم أمره إلى قضاء رؤسائه.

سؤال برinar:

- من هم هؤلاء الرؤساء؟

واستولى عليه فجأة غضب عظيم. وقال للملائكة:

- إذا صعدت إلى المنصة وتماسكت وإيه فستلقيه أرضاً دون شك...

ولكن الملائكة قال وهو يبتسم :

- إنني سأصارعك أنت. هذا المساء، أتريد؟

فقال برنار:

- نعم.

وخرجا. ووصلوا إلى الشوارع الكبيرة. وقد بدا الجمهور المسرع فيها أنه مؤلف فقط من أناس أغبياء. كل منهم يبدو واثقاً من نفسه، لا مبالياً بالآخرين، ولكنه مهموم.

وقال برنار الذي شعر بقلبه يمتلئ بالدموع:

- هل هذه هي صورة السعادة؟

ثم أخذ الملائكة برنار إلى الأحياء الفقيرة التي لم يكن يرتاد قبلاً بيوسها. وهبط المساء. تاهماً طويلاً بين المنازل العالية القدرة التي يسكنها المرصوص، والبغاء، والعuar، والجريمة، والجحود. عندئذٍ فقط أخذ برنار بيد الملائكة. أما هذا فتحى وجهه عنه ليشكى.

لم يتناول برنار طعامه ذلك المساء. وحين عاد إلى البنسيون لم يحاول الذهاب إلى ساره كما كان يفعل في الأماسي الأخرى، بل صعد رأساً إلى تلك الغرفة التي يشغلها مع بوريس كان بوريس قد نام لكنه لم يغف بعد. كان يعيد على صوته الشمعة قراءة الرسالة التي تلقاها من برونجا صباح هذا اليوم نفسه.

كانت صديقتها تقول له. «احشى ألا أراك ابدأ بعد

اليوم . لقد أصابني البرد على اثر عودي الى بولونيا ، فانتابني السعال . اشعر بأنني لن أستطيع العيش طويلاً مع ان الطبيب يخفي ذلك عنِّي » .

وحين سمع بوريس اقتراب برنار خبأ الرسالة تحت وسادته « وأطفأ شمعته بسرعة .

تقدم برنار في الظلام . كان الملائكة قد دخل معه الى الغرفة . ولكن مع ان الليل لم يكن شديد الظلام فإن بوريس لم يرى سوى برنار . وسأل هذا بصوت منخفض :
- أتام ؟ .

و بما ان بوريس لم يجب فقد اعتقاد برنار انه نائم . وقال للملائكة :

- إذاً ، الآن ، جاء وقتنا نحن الاثنين .

وظلا يتصارعان طوال تلك الليلة الى الفجر .

ورأى بوريس باضطراب ان برنار يتململ . فظن ذلك نوعاً من الصلاة وحاذر أن يقاطعه . ومع ذلك فهو يريد ان يكلمه لأنَّه يشعر بكثير من الشقاء . نهض ، وركع بجانب سريره . يريد ان يصلِّي لكنه لا يستطيع سوى التحجب .

- أوه ، برونجا ، أنت التي ترين الملائكة . أنت التي فتحت عيني ، أتركيني ! ماذا سيحل بي من دونك ؟ ماذا سأصبح ؟

كان برinar والملاك مشغولين جداً فلم يسمعاه . ظل الاثنان يتصارعان حتى الفجر . انسحب الملاك دون ان ينتصر اي منها .

في ما بعد ، حين خرج برinar من الغرفة بدوره التقى راشيل في الرواق .

- عندي ما أقوله لك .

هكذا قالت . كان صوتها كثير الكآبة حتى ان برinar أدرك حالاً كل ما تريده ان تقوله له . لم يجب بشيء . خفض رأسه . ويدافع الشفقة العظيمة على راشيل احس فجأة ببعض لسارة وبالرعب من اللذة التي ذاقها معها .

١٤

نحو الساعة السادسة سار برinar الى مسكن ادوار ، يحمل كيساً يدوياً كان كافياً ليضم القليل من الملابس ، والبياضات ، والكتب التي يملكونها . ودع أزييس ومدام فيدال ، لكنه لم يحاول ان يرى سارة .

كان برinar مهموماً . فقد انضجه صراعه مع الملاك . هو لا يشبه سارق الحقيقة اللامبالي الذي كان يعتقد انه يكفي المرء في

هذه الدنيا ان يكون ميسوراً . لقد بدأ يدرك ان سعادة الغير
تشكل في الغالب نفقات هذه الجسارة . وقال لإدوار :
- جئت ابحث عن مأوى بجانبك . ها أنا من جدبد دون
ملجاً .

- لماذا تركت آل فيدال ؟ ...

- لأسباب سرية ... إسمح لي أقوها لك .

كان ادوار قد راقب برنار وسارة عشية الوليمة ، وكان هذا
كافياً ليعرف على وجه التقرير سبب هذا الصمت . وقال
مبتسماً :

- يكفي ... إن الأريكة في مشغلي تحت تصرفك ليلاً .
ولكن يجب ان اقول لك أولاً ان والدك جاء البارحة ليحا ..
ونقل اليه ذلك الجزء من الحديث الذيرأى ان لا غضاضة من
قوله - ليس عندي يجب ان ت تمام هذه الليلة ، بل عنده انه
ينتظرك .

وসكت برنار . ثم قال اخيراً :

- أريد ان افكر في الأمر . واسمع ، بانتظار ذلك ، ان أترك
أمتعتي هنا . هل استطيع رؤبة أوليفيه ؟
- الطفس جميل وقد تعهدت له بأخذه في نزهة . اردت
مرافقته لأنه لا يزال شديد الضعف ؛ إلا انه آثر ان يخرج
وحيداً . والنتيجة ، ذهب منذ ساعة ولن يتاخر في العودة
انتظره .. ولكن . على فكرة . وامتحانك ؟

- نجحت ، وليس لهذا أهمية . أما ما يهمي فهو ما اعمله في الوقت الحاضر . تعرف ما الذي يسكنني بوجه خاص عن العودة الى والدي ؟ .. هو اني لا أريد ماله . ما من شک في انك تجذبني احق لرفضي هذا الحظ ، ولكن وعد قطعته على نفسي ان استغنى عنه . يهمي ان اثبت اني رحل لأني بكلامي واستطيع الاعتماد على نفسي .

- ارى كبرىء هنا .

- سُمّ ذلك كما تريده : كبرىء ، اعجب بالنفس ، جداره ... إن الشعور الذي يحثني لن تستطيع ان تنقصه في عيني . ولكن ، في الوقت الحاضر ، اليك ما اريد معرفته : أمن الضروري ان يركز المرء عينيه على هدف إذا اراد ان يقود نفسه في الحياة ؟

- أوضح .

- لقد بحثت هذا الأمر طوال الليل . في سبيل ماداً استخدم هذه القوة التي اشعر بها في نفسي ؟ كيف انتفع بأفضل ما في نفسي ؟ هل يكون ذلك سيريري نحو هدف ؟ ولكن كيف اختار هذا الهدف ؟ ... كيف أعرفه وأنا في الطريق اليه ؟

- الحياة دون هدف ، يعني ان تتصرف المغامرة بك .

- أخشى انك لم تفهمي جيداً . حين اكتشف كولوموس اميركا هل كان يعرف الهدف الذي يختلف نحوه ! كان هدفه

في ان يسير الى الامام ، رأساً . انه هو نفسه كان المدف ، وهو ما كان يقذف به الى الامام .

فقاطعه أدوار :

- غالباً ما فكرت انه في الفن ، وعلى الأخص في الأدب ، وحدهم ذوو قيمة او لثك الذين ينطلقون نحو المجهول . لا يمكن اكتشاف ارض جديدة دون القبول أولاً بالابتعاد ولو قت طويل « عن جميع الشواطئ ». ولكن كتابنا يخشون الذهاب الى عرض البحر وليس هؤلاء الا من ملازمي الشواطئ ». وتابع برنار دون ان يسمعه :

- البارحة » وعند خروجي من امتحاني ، دخلت قاعة كان فيها اجتماع عام . ولست ادرى اي شيطان دفعني اليها . كانت هناك مسألة شرف قومي ، وخلاصن للوطن ، وكدسة من الاشياء جعلت قلبي يخفق . ولو لا قليل لكنت وقعت على ورقة اتعهد فيها بشرفي ان اكرس فعالتي لخدمة قضية بدت لي في الحقيقة حسنة ونبيلة .

- انا سعيد لأنك لم توقع ، ولكن ما الذي أمسكك ؟

- انها غريزة خفية دون شك .

وفكر برنار قليلاً ثم أضاف وهو يضحك :

- اظن انه رأس الاشياع على الخصوص » مبتدئاً برأس أخي الأكبر الذي عرفته في الاجتماع . لقد بدا لي ان جميع

هؤلاء الشبان كانت تختهم افضل العواطف ، وانهم فعلوا خيراً بتخليلهم عن مبادرتهم الشخصية لأنها لن تقوthem بعيداً ، وعن رجاحة عقلهم لأنها غير كافية ، وعن استقلالهم الفكري لأنه سرعان ما سيجد نفسه مذعوراً . وقلت لنفسي ايضاً ان من صالح البلاد ان تعدد بين المواطنين عدداً كبيراً من تلك الأرادات الحسنة التي تقوم بالخدمة ؛ ولكن ارادتي انا نفسي لن تكون بينها . عندئذٍ تسألي كيف يمكن اقامة نظام ما دمت لا أرضي ان اعيش دون نظام ، وان هذا النظام لا أقبله من الغير .

- الجواب يبدو لي بسيطاً . هو ان تحدث هذا النظام في نفسك ، وان يكون هدفك هو ان تبني نفسك .

- نعم ، هذا ما قلته لنفسي . لكن ذلك لم يغدو شيئاً . لو كنت أيضاً واثقاً من تفضيل الأفضل في نفسي لجعلته يتقدم الباقي . ولكني لم اتوصل إلى معرفة ما هو افضل شيء في نفسي . . . قلت لك اني بحثت طول الليل . وعند الصباح كنت متبعاً حقاً اني فكرت في ان استبق دعوة صفي . أن أتجند .

- التفتلت من المسألة ليس حلاً لها .

ـ وهذا ما قلته لنفسي . وهذه المسألة إذا أرجئت فسأجدها اصعب بعد انتهاءي من الخدمة . حينئذٍ جئت اليك لأسمع نصيحتك .

- ليس لي ان أستديكها . لن تستطيع إيجاد هذه النصيحة

إلا في نفسك ، ولا ان تتعلم كيف يجب ان تعيش إلا ان تعيش.

- وادا عشت عيشة سيئة بانتظار عقد العزم على كيفية العيش ؟ .

- وهذا ايضاً سيعلمنك . جيل من المرء ان يتبع منحدره شرط ان يكون ذلك وهو يصعده .

- أنتزح ؟ كلا ؛ أعتقد اني فهمتك . وأرضي بهذه الصيغة . ولكن وأنا أغنى نفسي كما قلت ، يلزمني أن أربع معاشي . ما رأيك في اعلان براق في الصحف : «شاب ذو مستقبل كبير يعرض نفسه للعمل في أي شيء كان » .

فضحك أدوار :

- لا شيء اكثـر صعوبة من الحصول على « اي شيء كان » . من الأفضل ان توضح .

- فكرت في واحد من تلك الدواليب الصغيرة الكثيرة في بنية صحيفة كبرى . أوه ! سأقبل بوظيفة مرؤوس : مصحح بروفات ؟ مصلح مطبوعات في المطبعة . . . وما أدراني ؟ أنا بحاجة الى القليل !

كان يتكلم متربداً . في الحقيقة كان يتمنى وظيفة سكرتير ؛ لكنه كان يخشى ان يقول ذلك لادوار بسبب خيبة أملهما المتبدلة . وبعد فليس الخطأ خطأه ، هو برنار ، اذا كانت محاولة

السكرتيرية تلك قد اخفقت بشكل يدعو للسفة .

وقال أدوار .

- قد استطيع ادخالك في « الغران جورنال » التي اعرف مدیرها ..

بينما كان أدوار وبرنار يتحدثان ، كان لساره مع راشيل استيصال من أكثر الاستيصالات مسافة . لقد ادركت سارة فجأة ان تنبهات راشيل كانت سبباً لرحيل برنار الفجائي ؛ واستشاطت غيظاً من اختها وقالت عنها أنها تخون أي شيء من السرور من الطواف حولها . لم يكن يحق لها ان تفرض على الآخرين فضيلة كان مئلها وحده كافياً ليجعل هذه الفضيلة مقيمة .

اما راشيل التي ضايقها هذه الاتهامات ، لأنها قد صحت دائمًا بنفسها ، فقد احتجت ، وازدادت شحواناً ، وارتخت شفاتها :

- لا استطيع أن اتركك تضللين

- ولكن سارة انتخبت وصرخت :

- لا استطيع الابمان بسمائك . ولا أريد أن أنقذ .

وقررت حالاً العودة الى انكترا حيث ستقبلها صديقتها لأنها « بعد كل شيء حرة ، وتنوي ان تعيش كما يحلو لها » . هذا الشجار المحزن ترك راشيل محطمة

١٥

حرص ادوار على الوصول الى البنسيون قبل عودة التلامذة . لم يكن قد رأى لايروز منذ افتتاح المدرسة وهو يريد التحدث اليه اولاً . يقوم استاذ البيانو العجوز بواجبات وظيفته الجديدة كناظر جهد استطاعته ، يعني بشكل سيء للغاية . حاول في البداية ان يكون محبوباً ، ولكن السلطة تقصه ؛ واستغل الاولاد ذلك ، فحسبوا تساهله ضعفاً وافرطوا في استغلال ذلك بشكل غريب . حاول لايروز ان يلجم الى العقاب ولكن فاته الوقت . لقد انتهت توبيخاته ، وتهدياته ، وتعنيفه بأن اثارت التلامذة عليه . فاذا ضخم صوته يقهرون ، واذا ضرب بقبضته على الطبقة الرنانة يصرخون متظاهرين بالرعب ، ويقلدونه ، ويدعونه « الا ب لايروز » ؛ وكانت تتقدن من مقعد الى مقعد صور كاريكاتورية تمثله ، هو المفرط في الحلم ، مفترساً ، مسلحًا بمسدس ضخم (هذا المسدس اكتشفه جيريدانيزول وجورج وفيي اثناء تفتيش غرفته) ، يقوم بمجزرة كبيرة بين التلامذة ؛ او تمثله ساجداً امام هؤلاء ، ويدها مضمومتان ، متسللاً ، كما كان يفعل في الايام الاولى : « قليل من الصمت » بداعي الشفقة ». انه يشبه أيليا محاصراً بسرب من الكلاب المتوجحة . ان ادوار يجهل كل هذا .

يوميات ادوار

استقبلني لا بيروز في غرفة صغيرة في الطبقة الارضية كنت اعرف انها اسوأ غرف البنسيون . كان كل ما فيها من اثاث يتالف من اربعة مقاعد ملتصقة باربع طبقات ، تواجه اللوح الاسود ، وكرسي من القش اجبرني لا بيروز على الجلوس عليه . اما هو فقد انطوى على احد المقاعد باعوجاج ، بعد جهود فاشلة ليدخل ساقيه الطويلتين تحت الطبقة .

«- لا ، لا ، انا على احسن حال او كد لك .

« وكانت نبرة صوته وتعبير وجهه يقولان :

«- انا على اسوأ حال وأأمل ان يظهر ذلك » ولكن يعجبني ان اكون هكذا ، فكلما ازدادت حالي سوءاً يقل استماعك لشكواي .

« حاولت ان امزح ولكنني لم استطع ان اجعله يبتسم . كان يتصنع طريقة احتفالية » ووقارا كفياً بابقاء شيء من المسافة بيننا وبأن يجعلني اسمع : « انا مدين لك بوجودي هنا » .

« ومع هذا فقد قال انه مسرور جداً من كل شيء ؛ لكنه

كان يتجنب استئتي وشور من إلحاچي . ولما سأله این غرفته
اجاب :

« - بعيدة قليلاً عن المطبخ .

« وحين دهشت أضاف :

« - اشعر بال الحاجة الى الأكل في الليل احياناً ... حين لا
استطيع النوم .

« كنت قريباً منه ، وقد اقترب ايضاً . وضعت يدي بهدوء
على ذراعه » فقال بنبرة طبيعية :

« - يجب ان اقول لك اني انا نوماً سيناً ، وحين يصدق
ان انا نام لا افقد الشعور بنومي . ليس هذا بنوم حقيقي ، وليس
ذلك ؟ .. ان من ينام حقيقة لا يشعر بأنه ينام ؛ بل ببساطة
يرى عند استيقاظه انه كان نائماً .

« ثم تدفق بالحاج حول هذه التوافه ، ومال على :

« - احياناً احاول الظن اني اوهم نفسي ، وانام حقيقة ،
بينما يخلي اني لم انم . ولكن البرهان على اني لم انم حقيقة
هو اني افتح عيني اذا اردت ان افتحها . وعادة لا اريد ذلك .
وانت تدرك انه ليس لي مصلحة في فتحها . وما الفائدة في اد
اثب لنفسي اني لست نائماً ؟ .. اني احتفظ دائمًا بأمل النوم
وذلك بايهام نفسي اني نمت قبلًا ...

« وازداد احناؤه ، وقال بصوت منخفض :

« - ثم ، هناك امر يزعجني . لا تقله .. اني لا اشكو منه لأن ليس هناك ما يمكن عمله . وما لا يمكن ان نغيره فلافائدة من الشكوى منه ... تصور ان هناك شيئاً يحدث ضجة ، مقابل سريري ، في الجدار ، على علو رأسي بالضبط .

« وحبي وهو يتكلم . عرّقت عليه ان يقودني الى غرفته . فقال وهو ينهض فجأة :

« - نعم ، نعم . قد تقول لي ما هو ... انا لم اتوصل ان افهم . تعال معي .

« وصعدنا طبقتين ، ثم دخلنا في رواق طويل . لم آت قط في السابق الى هذا القسم من البيت .

« غرفة لا بيروز تطل على الشارع ، انها صغيرة لكنها لائقة . لاحظت على طاولته الليلية ، بجانب كتاب الصلاة ، علبة المسدسات التي أصر على الاتيان بها معه . امسكتي من ذراعي ، ودفع السرير قليلاً :

« - هناك . اانظر ... قف بجانب الجدار ...
... أسمعت ؟ ..

« أرهفت سمعي ، وأطلت انتباхи . ولكنني لم اتوصل الى سماع شيء رغم افضل ارادة في العالم . وغضب لا بيروز . ومررت شاحنة فهتزت البيت وجعلت الزجاج يصطفق . فقلت « على امل ان اعيد اليه بساشهته :

« - الضجة التي تزعجك تتغطى بجلبة الشارع في هذه

الساعة من النهار .

« فصرخ بحدة :

« - تغطى عليك انت الذي لا يستطيع تمييزها عن غيرها من الضجيجات الاخرى . اما انا فأسمعها مهما كان الامر . اني استمر في سمعها رغم كل شيء . واتعب منها احياناً بحيث انوي ان اتحدث الى أزاييس او الى صاحب الملك ... اوه ! اني لا ادعى نانبي سأجعلها تتقطع ... ولكنني اريد على الاقل ان اعرف ما هي ... »

« وبدا انه يفكر بعض الوقت ، ثم تابع :

« - انه يشبه صوت قضم ... جربت كل شيء حتى لا اسمعه . أبعدت سريري عن الجدار . وضعتقطنا في اذني . علقت ساعتي الصغيرة (ترى اني غرست مسماراً صغيراً هناك) في المكان الذي يمر منه الانبوب بالضبط ، وافتراضت ان تكتكة الساعة يمكن ان تعلو على الضجة الاخرى ... ولكن هذا زادني تعباً ، لاني كنت مضطراً الى بذل الجهد لأميز بين الاثنين . مستحيل ، أليس كذلك ؟ ولكنني لا ازال افضل ان اسمعها بوضوح لأنني اعرف انها هناك . اوه ! ما كان علي ان اقص عليك كل هذه الامور ... انت ترى اني لست سوى عجوز . »

« وجلس على السرير ومكث كالمشدوه . ان الانحطاط المسؤول الذي يسببه التقدم في السن لا يمكن ان نؤاخذ لا بيروز

عليه ، سواء أكان من ناحية الذكاء ام من ناحية اعمق الطياع .
ان الدودة تسكن قلب الشمرة . هكذا فكرت وانا اراه ، هو
الذى كان شديد الصلابة كثير الكبراء ، يستسلم ليأس
صبياني . حاولت اخراجه من هذا اليأس سأن حدثه عن
بوريس . فقال وهو يرفع جبهته :

« - نعم ، غرفته بجانب غرفتي . سأريك ايها . اتبعني .

« وتقديمي الى الرواق وفتح باباً مجاوراً :

« - السرير الآخر الذي تراه هو سرير برنار بروفيتانديو
(رأيت الا فائدة من اعلامه ان برنار سينقطع عن النوم عليه
ابتداء من هذا النهار بالضبط . وتتابع) : بوريس مسرور
برفقة . واعتقد انه يتفاهم جيداً معه . ولكن انت تعرف ، هو
لا يكلمي كثيراً . انه كثير الانطواء على نفسه . اخشى ان
يكون هذا الولد ذا قلب جاف .

« قال ذلك بكثير من الكآبة مما اضطرني الى الاعتراض والى
ان اضمن له عواطف حفيده ، فقال لا بروز :

« - اذا كان كذلك فلماذا لا يظهر محنته ولو قليلاً ؟
اسمع : في الصباح حين يذهب الى المدرسة مع الآخرين ،
انحني على نافذتي لأراه وهو يمر . وهو يعرف ذلك ...
إيه ! ... انه لا يلتفت ! ...

« حاولت إيهامه ان بوريس يختى دون سك ان يصبح

عرضة لانظار رفاقه ويخشى سخريتهم ولكن في هذه اللحظة تصاعد صياح من الساحة . فامسكني لا بيروز من ذراعي . وقال بصوت مضطرب :

« اسمع ! اسمع ! ها هم يدخلون .

« تطلعت اليه . كان يرتجف بكل جسده . وسألت :

« أينيفونك ، هؤلاء الصبيان الاشقياء ؟ ..

« فقال باضطراب :

« لا ، لا . كيف افترضت ذلك ثم بسرعة : -
يجب ان انزل . الفرصة لا تدوم سوى دقائق ، وانت تعرف
اني اراقب الدرس . وداعاً . وداعاً .

« واندفع في الرواق دون أن يشد على يدي . وبعد لحظة سمعته يتعرّث على السلم . بقيت لحظات مرهقاً السمع ، غير راغب في المرور امام التلامذة . وقد سمعتهم يصرخون ، ويضحكون ، ويغنوون . ثم دقة جرس ، وفجأة ، استتب الصمت .

« ذهبت لرؤيه أزاييس لأحصل على أذن منه يتبع جورج ان يترك الدرس ويأتي ليكلمني . جاء على الاثر الى تلك الغرفة الصغيرة التي استقلبي لا بيروز فيها اولاً .

« ما ان اصبح جورج امامي حتى ظن ان عليه ان ينخد هيئة ساخرة . كانت هذه هي طريقته في اخفاء قلقه . ولكنني لا

اقسام انه كان اكثروا قلقاً نحن الاثنين . وقف على اهبة الدفاع لأنه كان يتظر تائياً دون شك . بدا لي انه حاول ان يجمع السلاح الذي يمكن ان يخربني به لأنه سأله قبل ان افتح فمي عن اخبار اوليفيه بلهجة ساخرة جعلتني اود صفعه . لقد قطع علي الطريق . « ثم ، انت تعلم اني لا اخافك » ، هكذا بدا ما تقوله نظراته التهكمية ، وطيبة شفتيه الساخرة ، ورننة صوته . فقدت حالا كل اطمئنان ولم يبق لي من هم الا ان أخفي ذلك . والخطاب الذي هيأته لم يعد ببده انه مقبول . لم تكن لي الحظوة الالزمه لالعب دور الرقيب . في اعمامي كان جورج يسلبني جداً . وقلت اخيراً :

« - لم آت لأوبخك . اريد فقط ان اندرك (وغضطت الابتسامة وجهي بкамله رغمما عني) .

« - قل اولاً اذا كانت والدتي هي التي ارسلتك ؟

« - نعم ولا . تكلمت عنك مع والدتك ؛ ولكن هذا كان قبل ايام . اما البارحة فقد كان لي عنك حديث مهم جداً مع شخص عظيم الأهمية لا تعرفه ؛ وقد جاء الى لبحثني عنك . قاضي تحقيق . وانا آت من قبله . اترى ما معنى قاضي تحقيق ؟

« شجب لون جورج فجأة ، وما من شك في ان فلبه نوقف لحظة عن الحففان . صحيح انه هز كتفيه ولكن صوته كان يرتجف قليلاً .

٣١ - مزيغو التقد

«إذاً، هات ما قاله لك الاب بروفيتانديو.

«أقلقتي رباطة جأش هذا الصغير وما لاشك فيه ان السير رأساً الى المدف كان بسيطاً ، ولكن نفسي تختلف البساطة وغيل الى المواربة بشكل لا يقاوم ، وإيضاً سلوك يبدو حالاً انه احق » ولكن تلقائي ، استطيع القول ان حديثي الاخير مع بولين عمل عمله في بشكل غير عادي . والانعكاسات التي نتجت عنه سكتتها حالاً في روايتي بشكل حوار يلائم تماماً بعض اشخاصي . ونادرأ ما انا نصبياً مباشراً بما تحمله الى الحياة ، ولكن مغامرة جورج خدمتني لمرة واحدة . كان يبدو ان كتابي يتنتظرها ما دامت تجد مكانها الملائم فيه . لم اغير منها سوى القليل القليل من التفصيات . ولكن هذه المغامرة (وقصد سرقاته) لم أقدمها مباشرة انا هي وما يتبعها تستشف استشفافاً من خلال المحادثة . سجلت هذه التوابع على دفتر صغير احمله في جيبي . وبالعكس ، فان حكاية العملة الزائفة ، كما نقلها الي بروفيتانديو بدا لي انه لا يمكن استعمالها . ولهذا السبب وحده راوغت بدلاً من ان اطرق مع جورج هذه النقطة المعينة » موضوع زيارتي . وقلت :

« اريد اولاً ان تقرأ هذه الاسطرا . وستعرف لماذا .

« قدمت اليه دفترى مفتوحاً على الصفحة التي يمكن ان تثير اهتمامه .

« واكرر : هذه الحركة تسلو لي حمقاء الآن . ولكن في

روايتي ، كنت افكر ان علي ان اخبر اصغر ابطالها وذلك عن طريق قراءة مشابهة . وكان يهمي ان اعرف رد الفعل عند جورج . كنت آمل ان يلعمني رد الفعل هذا ... حتى عن قيمة ما كتبته .

« وها انا انقل المقطع موضوع الحديث :

*

« كان في هذا الولد منطقة مظلمة ينصب عليها فضول أوديير الودود . كان لا يكفيه ان يعرف ان اودولف قد سرق ، بل يريد من اودولف ان يسرد له كيف وصل الى السرقة وما كان يشعر به عندما سرق للمرة الاولى . الا ان الولد ، رغم انه واثق به ، لم يستطع ان يقول له ذلك . ولم يجرؤ أوديير على استجوابه خوفاً من الوصول الى أذدار كاذبة .

« وذات مساء بينها كان أوديير يتناول الطعام مع هيلدبران ، حدثه عن حالة اودولف دون ان يذكر اسمه ، ورتب الامور بحيث لا يستطيع الآخر معرفه . وقال هيلدبران حينئذ : - لم نلاحظ ان الاعمال الاكثر حسماً في حياتنا ، واريد القول : تلك التي تجاذف اكثر من غيرها لتقرر مصيرنا كلها ، هي في الغالب اعمال صادرة عن عدم تبصر .

فاجاب أوديير :

- اعتقد ذلك . انه قطار يصعد به دون التفكير فيه ،

ودون التساوٰل الى اين بسیر . وفي الاغلب ايضاً لا تعرف ان القطار قد نقلك الا في ما بعد ، حين تهبط منه .

- ولكن الولد موضوع حديثنا قد لا يتمىء ان ينزل منه ابداً ...

- ما من شك في انه لا يحرص على النزول منه في الوقت الحاضر ، لقد انحصار الميالر الطبيعية تسلية وقليلًا ما يهمه اين يذهب .

- هل اعطيته دروساً في الاخلاق ؟

- كلا بالتأكيد . فهذا لن يفيد . كان مشبعاً بالاخلاق « حتى التقيؤ » .

- لماذا سرق ؟

- لا اعرف تماماً . اكيداً ليس بداع حاجة حقيقة ، بل ليحصل على بعض الفوائد ، لكي لا يبقى في مؤخرة رفاق اكثر حظاً منه ... وما ادراني ؟ .. بداع ميل طبيعي ولذة بسيطة بالسرقة .

- وهذا اراداً .

- بالتأكيد ، لأنه حينئذ سيعاود من جديد .

- هل هو ذكي ؟

- طللت طويلاً اعتقاد انه اقل ذكاء من اخوه . ولكني اظن في الوقت الحاضر اني ربما اخطأت . ان فضوله قد

تضليل حتى الآن ؟ او بالحرى ، انه ظل في حالة ابتدائية ، في مرحلة عدم التبصر .

- هن كلمته ؟

- انوي ان اجعله يضع في الميزان تلك الفائدة القلبية التي يجنيها من سرفاته ، وما يخسره بسبب عدم استقامته . تمة اقربائه ، اعتبارهم له ، كذلك اعتباري انا . وكل شيء مما لا يحدد برم و الذي لا يمكن تحديده قيمة الا بضخامة الجهد المبذول للحصول عليه . ان بعض الناس افروا حمامهم في سبيل الحصول على ذلك . سأقول له ، وهو لا يزال اصغر من ان يعلق اهمية على ذلك ، ان السكوك ستتحم البه دائمًا من الان فصاعداً كلما حصل شيء مريب بالقرب منه ، او شيء ملتبس فد بتهم باعمال حطيره ، حطا ، ولو يستطيع الدفاع عن نفسه ، لأن ما عمله قبلًا يدل عليه وقد اصح ما سمي « محروم » . واحبأ ما اريد قوله له ول Kirby اخاف احنجاجاته .

- ما يريد قوله له ؟ ..

- هو ان ما فعله فد حلن سابقه ، وابه اذا كان فد احتاج الى « بعض العزم عد اقدامه على سرقته الاولى فلن تحتاج الى شيء في السرفات النالبه ، الا ان يحضر للعادة . وكل ما يأتي بعد ذلك ليس الا اسلام للعادة ان ما اريد قوله له هو

ان الحركة الاولى التي يقوم بها المرء دومن يفكر بها ترسم في الغالب صورتنا بشكل لا يرى منه ، وتبدأ ترسم سمة لا تستطيع جميع جهودنا بعد ذلك ان تحوها . واريد ... ولكنني لن اعرف ان أكلمه .

- لماذا لا تكتب حديثنا هذا المساء ؟ ... وتعطيه ايام ليقرأه .

فقال أوديير :

« - إنها فكرة ... ولماذا لا ... »

*

« لم أحول بصري عن جورج طوال وقت قراءته . ولكن وجهه لم يكشف عما يمكن ان يفكر فيه .
وسأل وهو يقلب الورقة :

« - ايجيب ان اكمل ؟

« - لا فائدة من ذلك ، فالحديث انتهى هنا .

« - مؤسف ! ..

« واعاد الى الدفتر . وبلهجة شبه فكاهية :

« - كنت اريد ان اعلم بماذا اجاب اودولف بعدما قرأ الدفتر .

« - هذا بالضبط ما انتظر انا نفسي ان اعرفه .

« - أودولف اسم مضحك . الم يكن في امكانك ان تعمده باسم آخر ؟

« - ليس لهذا اهمية .

« - كذلك ما يمكن ان يجib به . وماذ صار بعد ذلك ؟

« - لا اعرف بعد . ان هذا يتوقف عليك سترى .

« - اذا ، اذا كنت فهمتك جيداً ، فأنا الذي يجب ان يساعدك على اتمام كتابك . اعترف بأن ...

« وتوقف ، كأنه يشعر بشر في ايضاح فكرته .

« - بأن ماذا ؟ ..

« هكذا قلت لأشجعه . واجاب اخيراً :

« اعترف بانك ستتصبح مخدوعاً لو ان اودولف ...

« وتوقف من جديد . ظنتت اني فهمت ما كان يريد قوله وأنتمت عنه :

« - لو اصبح غلاماً فاضلاً ؟ .. كلا يا صغيري .

« وفجأة صعدت الدموع الى عيني » فوضعت يدي على كتفه لكنه تخلص منها .

« - لأنه لم يسرق لما كتب كل هذا .

« عندئذ فقط ادركت خطئي كان جورج مزهوأ في اعماقه لأنه اشغل تفكيري طويلاً . شعر انه موضع اهتمام . وكنت نسيت بروفيتانديو ؛ وجورج هو الذي ذكرني به .

ـ . وماذا سرد عليك قاضي تحقيقك؟ ..

ـ . كلفني اذارك انه عالم مانك تروج عمله زائفه ..

ـ . ونغير لون جورج من حديد ، وادرك ان انكارك لن يفيد شيئاً ، ولكنه احتاج باضطراب :
ـ . لست الوحيد .

ـ . فأكملت :

ـ وبأنك اذا لم نقطع حالاً عن هذه التجارة ، انت ورفاقك ، فسيجد نفسه مضطراً الى سجنكم .

ـ . كان جورج قد اصبح كثير الشعوب في البداية ، اما الان فقد اشتعل خدها . كان يتطلع امامه ، وحفر حاجبه المتقطبان غضين في اسفل جبهته . وقلت له وانا امد يدي اليه :

ـ . وداعاً . أنصحك بانذار رفاقك ايضاً . اما انت فقد انذرتك .

ـ . وضغط على يدي بصمت وعاد الى صفه دون ان بلتفت .

ـ . باعادي فراءة صفحات «مزيفو النقود» التي أريتها بجورج وجدتها سيئة . نقلتها هنا كما فرأها جورج ؛ ولكن هذا الفصل كله ستعاد كتابته . من الافضل التكلم مع الولد . علي ان اجد الناحية التي اثير فيها تأثره . في الحالة الراهنة (سأغير هذا الاسم ، وجورج على حق) من الصعب اعادة اودولف الى النزاهة . ولكنني انوي ان اسir به اليها . وهذا هو الامر الاكثر

اهية ، منها كان تفكير جورج ، لأنه الاصعب . (ها اني
اخذت افكر كدوفيه !) لترك للروائين الواقعين حكاية
الاستسلام للعادة .. »

ما ان عاد جورج الى قاعة الدرس حتى أطلع رفيقيه على
انذارات ادوار . كل ما قاله هذا حول موضوع سرقات جورج
انزلق عن هذا الولد دون ان يحدث تأثيراً فيه . ولكن القطع
الزائفه التي يخشى ان تلعب معهم دوراً سيئاً كان من المهم
التخلص منها بسرعة . كان منهم يحمل عصاً منها وينوي
تصريفها عند الخروج القريب من المدرسه جمعها جيريدانيزول
وأسرع وألقاها في المحر . وفي المساء نفسه احبر ستروفيلو الذي
اخذ الاحتياطات حالاً

١٦

في هذا المساء نفسه ، بينما كان ادوار يتحدث مع ابن احنه
جورج ، كان أوليفيه قد نلصي زيارة أرماد بعدما تركه ادوار
كان أرمان فيدال لا يكاد يعرف الا بالجهد ؛ حلق الدقن
حدساً ، مبسمًا ، علىالي الحبطة ، في ثوب جديد كتير التفوس ،
مضحك تربينا . وكان يشعر بذلك وبظاهر انه يتضرر به .
- كت اريد ان آتي لأراك قسلاً ، ولكن كار ندى

ما يشغلني ! . اتعلم اني اصبحت سكرتيراً لباسافان ؟ او اذا كنت تفضل : رئيس تحرير المجلة التي يديرها ؟ لن اطلب منك المساعدة فيها لأن بأسافان بدا لي حاقداً عليك . وهذه المحله تميل نحو اليسار . وهذا بدأت بالخلص من برکاي وزرائه

ففال اوليفيه :

- لا تهمي ...

- وهذا استقبلت قصيدي « المبولة » التي ، بين فوسين .
ستهدى اليك اذا سمحت .
- والاسفاه .

- اراد بأسافان ان تظهر قصيدي العبرية في رأس العدد الأول ؛ وهو ما يتعارض مع تواضعي الطبيعي الذي اخجله مدحه شديد الخجل . لو كنت واثقاً من اني لن اتعب اذنيك الناقهتين لسردت عليك حكاية مواجهتي الاولى مؤلف « الحاجز الثالث » الشهير الذي لم اكن اعرفه قبل اليوم الا من خلالك .
- ليس لي ما اعمله افضل من الاصناعه اليك .

- الا يضايقك الدخان ؟

- سأدخن انا نفسي لأطمئنك .

- وبدأ أرماني بعدما اشعل سيكاره :

- يجب القول ان تخليك عن الوظيفة اوقع عزيزنا الكونت في الارباك . وقد قيل ، دون ان نبعث فيك الزهو ، انه لا يمكن

الاستعاضة بسهولة عن تلك الباقة من المواهب ، والفضائل ،
والمزايا التي تجعل منك واحداً من ..

.. باختصار ..

قاطعه اوليفيه بعدما احنته تهكمه الثقيل .

- باختصار ، كان باسافان في حاجة الى سكرتير وكان
يعرف واحداً يدعى ستروفيلو اعرفه انا ، لأنه ابن عم وعميل
لأحد نزلاء البنسيون ، وهذا يعرف جان كوب - لافلور الذي
تعرفه انت .

فقال اوليفيه :

- الذي لا اعرفه .

- لا بأس ! . يا عزيزي كان عليك ان تعرفه انه
شخص غير عادي ، مدهش ، نوع من طفل ذايب ، متغضن ،
مطلي بالمساحيق ، يعيش بالمقبلات ، ويوضع اشعاراً بدبيعة حين
يكون ثملأ . ستقرأ له في عدتنا الاول . رأى ستروفيلو اذاً ان
يرسله الى باسافان ليشغل مكانك . تستطيع ان تخيل دخوله
إلى قصر شارع بايلون . ويجب ان اقول لك ان كوب - لافلور
يرتدى ملابس مغطاة بالبقع ، ويترك حزمة شعر كمشaque القنب
تسترسل على كتفيه ، بحيث يبدو انه لم يغسل منذ تمانية ايام .
وياسفان الذي يقصد دائماً السيطرة على الموقف أكد ان كوب -
لافلور قد اعجبه كثيراً . وقد عرف كوب - لافلور ان يبدو

هادئاً ، مبتسمًا ، ححولاً وكان حين يربد ، يستطيع ان يشبه غرانغوار دي بانفيل . الخلاصة بدا بأسافان مفتوناً به وكان على اهتمام التعاقد معه . يجب ان اقول لك ان لافلور كان مفاسداً تماماً .. ها هو ينهض مسأذناً بالرحيل : « - قبل ان اتركك اظن ان من الافضل يا سيدى الكوت ان اخبرك ان لي بعض الاخطاء . ومن هنا بلا اخطاء؟ - وبعض العيوب ، انا ادخن الافيون . فقال بأسافان الذي لا يضطرب لشيء تافه : لا اهمية لذلك . وعندى منه جنس ممتاز اقدمه اليك . فقال لافلور : «نعم ، ولكن حين ادخن افقد تماماً اصول الاملاء». فظنها بأسافان مزاحاً ، وحاول ان يضحك ومد اليه يده . وتتابع لافلور : «ثم اني ادخن الحشيش». فقال بأسافان : لقد دخنته انا نفسي بعض الاحيان . فقال لافلور : «نعم ، ولكن تحت سلطة الحشيش لا استطيع امساك نفسي عن السرقة». بدأ بأسافان برى ان الآخر يسخر منه . اما لافلور وقد خطا بعيداً ، فقد اكمل بحدة : «ثم اني اشرب روح الكحول ، عندئذ امزق كل شيء واكسر كل شيء». واستولى على انانه بلوري وتناظهر بأنه سيلقيه في المدخنة ، فانتزعه بأسافان من يديه وقال : اشكرك لأنك حذررتني .

- وطرده؟ ..

- ثم راقبه من النافذة ليرى اذا كان لم يضع قبلاه في القبو وهو ذاهب .

فقال أوليفييه بعد صمت :

- ولكن لماذا فعل لافلور ذلك ؟ هو بحاجة ماسة الى الوظيفة كما قلت لي .

- لا بد ان تسلم يا عزيزي بان هناك انساناً يشعرون بال الحاجة للعمل ضد مصلحتهم الخاصة . تم ، اتريد ان اقول لك : لافلور ... ان فخخة باسافان قد أقرفته ، كذلك اناقه ، وتصرفاته المحبوبة ، وتنازله ، والتظاهر بتفوته . نعم ، ان هذا قد اثار قلبه ، واضيف اني افهم ذلك ... ضمنا ، ان باسافانك هذا يبعث على القيء .

- لماذا قلت «باسافانك» ؟ انت تعرف اني لا اراه ابداً .
ثم ، لماذا قبلت منه هذه الوظيفة ما دمت تجده مقرضاً ؟

- لاني بالضبط احب ما يقرضني .. مبتدئاً بنفسي او بشخصيتي القدرة .. ثم ، فان كوب - لافلور هو ضمنا خجول . ما كان ليقول شيئاً من كل هذا لو لم يكن قد شعر بالضيق .

- اووه ! هذا ، مثلاً ...

بالتأكيد كان متضايقاً ، وهو يرتعب حين يتضايق من واحد يشعر في أعماقه أنه يحتقره . لقد تعطّرس لكي يخفى ضيقه .
أني أجده هذا بلاهة .

- ليس كل الناس أذكياء مثلك يا عزيزي .

- قلت لي ذلك في المرة الأخيرة.
- يا لها ذاكراً ..
أظهر أوليفيه أنه مصمم على العناد وقال :
- أحاول أن أنسى مزاحك لكنك في المرة الأخيرة حدثني
بشكل جدي. قلت لي أشياء لا أستطيع نسيانها.
واضطربت نظرات أرمان، وضحك ضحكة مغتصبة :
- أوه! يا عزيزي، في المرة الأخيرة حدثك كما ترغب أن
أحدثك. ماذا تريده؟ أني لا أكن صادقاً إلا حين اكذب.
- لن تحملني على الاعتقاد أنك لم تكن صادقاً وأنت تكلمني
كما فعلت. أنك الآن تمثل.
- أوه! أيها الكائن المليء بالسذاجة. بأي روح ملائكة تقدم
البرهان! ... كأن كلاً منا لم يمثل، أكثر أو أقل صدقاً ووعياً.
الحياة يا عزيزي ليست سوى مهزلة. ولكن الفرق بيني وبينك،
هو أنني أعرف إنني أمثل؛ بينما...
- بينما...
ردد أوليفيه بشكل هجومي .
- بينما والدي مثلًا، لكي لا أتكلم عنك، يعش حين يمثل
دور قسيس. منها قلت أو فعلت فإن قسماً مني يبقى في المؤخرة
ليري القسم الآخر وهو يخاطر بنفسه، فيراقبه، ويُسخر منه،
ويصف له ، أو يصفق له. كيف تريد أن يكون المرء صادقاً حين
يكون مقسوماً هكذا؟ .. لقد توصلت أن لا أفهم شيئاً مما يمكن

ان تعنيه هذه الكلمة . . . ما من شيء يمكن عمله في هذا الصدد : فإذا كنت حزيناً أجد نفسي مضحكاً وهذا ما يجعلني أضحك ؛ وإذا كنت مسروراً أقوم بجمازحات بلهاه تدفعني الى البكاء .

- وتدفعني أنا ايضاً الى البكاء يا عزيزي المسكين . ما كنت لاعتقد انك مريض الى هذا الحد .

فهز أرمان كتفيه ، وبنبرة مختلف تماماً :

- لكى اروح عنك ، اتريد ان تعرف من يتألف عدتنا الاول ؟ ..

ستكون فيه « مبولتي » ؛ واربع اغانيات من كوب - لافلور ؛ حوار من جاري ؛ قصائد نثرية من جيريدانيزول الصغير ، الموجود عندنا في البنسيون ؛ ثم « المكواة » وهي تجربة واسعة في النقد العام ، تتوضّح فيها ميول المجلة . لقد اشتغلنا كلنا لنبيض هذه التحفة .

اما أوليفيه الذي لم يكن يعرف ما يقول فقد اعلن بمحماقة :

- ما من تحفة تكون نتيجة تعاون .
فانفجر أرمان ضاحكاً :

- ولكن يا عزيزي قلت تحفة على سبيل المزاح ليس هناك حتى تأليف ، اذا تكلمنا الحق . يجب اولاً ان نعلم ماذا يفهم

بكلمة «تحفة». ان «المكواة» بالتأكيد ستهم بايضاح ذلك . هناك كثير من المؤلفات تناول الاعجاب عن طريق الثقة لأن جميع الناس يعجبون بها ، ولم يخطر ببال أي شخص حتى الآن ان يقول أنها بلهاء ، او انه لا يحقر على قول ذلك . لقد وضعنا « مثلاً » في رأس العدد صورة تقلد الجوكندة وأصدقنا لها شاريين ، وسترى يا عزيزي ان لهذا مفعولاً ساخراً .

- أيعني هذا انك تعتبر الجوكندة حماقة؟ ..

- ولكن كلا يا عزيزي (وأيضاً فانا لا اراها اكثر ادهاشاً من ذلك) . انت لا تفهمي . الحماقة في الاعجاب الذي تحاط به . العادة وحدها هي التي لا تجعلنا نتكلم عما يسمى «تحفة» الا وقعتنا منخفضة . «المكواة» (وسيكون هذا هو عنوان المجلة العام) من هدفها ان يجعل هذا الاحترام مضحكاً ، وان تقضي على هذه المخطوة ... وهناك وسيلة صالحة ايضاً ، هي ان يفرض على اعجاب القارئ بعض المؤلفات البلهاء («مبولي» مثلاً) مؤلف خالٍ تماماً من العقل السليم .

- هل يستصوب باسفان كل هذا؟ ..

- ان هذا يسليه كثيراً .

- ارى اني احسنت بانسحابي .

- الانسحاب ... عاجلاً ام آجلاً يا عزيزي . وسواء شاءه المرء ام لا ، فيجب دائمًا الوصول اليه . وهذا التفكير الحكيم

يقودني بحكم الطبيعة الى الاستئذان منك بالانصراف .

- إيق هنـيـهـةـ بـعـدـ اـيـهـاـ المـهـرجـ .ـ ماـ معـنـىـ قـوـلـكـ انـ وـالـدـكـ

يـثـلـ دـورـ القـسـيسـ ؟ـ أـلـاـ تـظـنـهـ مـقـتـنـعاـ ؟ـ

- السـيدـ وـالـدـيـ رـتـبـ حـيـاتـهـ بـشـكـلـ لـاـ يـجـعـلـ لـهـ الحـقـ اوـ

الـوـسـيـلـةـ لـاـ يـكـوـنـ مـقـتـنـعاـ .ـ نـعـمـ ،ـ اـنـهـ اـفـتـنـاعـ مـهـنـيـ .ـ اـسـتـاذـ

الـاـقـنـاعـ .ـ لـقـدـ تـشـرـبـ الـايـانـ ؛ـ وـهـذـاـ سـبـبـ كـيـنـونـتـهـ ؛ـ اـنـ الدـورـ

الـذـيـ يـقـومـ بـأـعـبـائـهـ وـالـذـيـ يـجـبـ اـنـ يـسـيرـ بـهـ الـنـهاـيـهـ .ـ اـمـاـ

مـعـرـفـةـ مـاـ يـجـرـيـ فـيـ مـاـ يـدـعـيـ «ـ دـخـيـلـتـهـ »ـ ؟ـ ..ـ سـيـكـوـنـ مـنـ الطـيـشـ

اـنـ نـسـأـلـهـ عـنـ ذـلـكـ .ـ وـأـعـتـقـدـ اـنـهـ لـاـ يـسـأـلـ نـفـسـهـ .ـ فـقـدـ كـيـفـ

نـفـسـهـ بـطـرـيـقـ لـاـ تـجـعـلـ لـهـ وـقـتاـ لـيـسـأـلـ نـفـسـهـ عـنـ ذـلـكـ .ـ لـقـدـ حـشـاـ

حـيـاتـهـ بـكـدـسـةـ مـنـ الـاـلتـزـامـاتـ تـفـقـدـ كـلـ مـعـنـىـ اـذـاـ ضـعـفـ بـرـهـانـهـ ؛ـ

بـنـوـعـ اـنـ هـذـاـ بـرـهـانـ تـتـطـلـبـهـ وـتـعـهـدـهـ هـذـهـ الـاـلتـزـامـاتـ .ـ هـوـ

يـتـخيـلـ اـنـ يـؤـمـنـ لـأـنـهـ اـسـتـمـرـ فـيـ التـصـرـفـ كـاـنـهـ كـاـنـ يـؤـمـنـ .ـ هـوـ

لـيـسـ حـرـأـ فـيـ اـنـ لـاـ يـؤـمـنـ .ـ وـلـوـ تـقـهـرـ اـيـانـهـ يـاـ عـزـيـزـيـ ،ـ وـلـكـنـهاـ

تـكـوـنـ الـمـصـيـبـةـ !ـ ..ـ الـاـنـهـيـارـ !ـ ..ـ فـكـرـ فـيـ اـنـ عـائـلـيـ لـنـ يـبـقـيـ لـهـ

فـجـأـةـ مـاـ تـعـيـشـ بـهـ .ـ هـذـاـ اـمـرـ يـجـبـ اـنـ يـؤـخـذـ فـيـ الـاعـتـيـارـ يـاـ

عـزـيـزـيـ ؛ـ اـنـ اـيـانـ وـالـدـيـ هـوـ مـكـسـبـ خـبـزـنـاـ .ـ اـنـاـ نـعـيـشـ كـلـنـاـ

عـزـيـزـيـ ؛ـ اـنـ اـيـانـ اـبـيـ .ـ وـاـنـتـ تـأـقـيـ وـتـسـأـلـيـ اـذـاـ كـانـ اـبـيـ مـؤـمـنـاـ حـقـيـقـةـ .ـ

سـوـفـ تـعـرـفـ اـنـ هـذـاـ لـيـسـ لـطـيـفـاـ مـنـكـ

- كـنـتـ اـظـنـ اـنـكـمـ تـعـيـشـونـ مـنـ دـخـلـ الـبـنـسـيـوـنـ .ـ

- هذا صحيح نوعاً . ولكن ليس من اللطف ان تقطع على تأثيري الغنائي .

فأسأله اوليفيه بكآبة ، لأنه كان يحب أرمان ويتأمل من خسته :

- اذاً انت لا تؤمن بشيء؟

- «أمر بتجديد الآلام ...» يبدو انك نسيت يا عزيزي ان اهلي ينونون ان يجعلوا مني قسيساً . لقد هياوني لاجل هذا وعلقوني تعاليم دينية آملين الحصول على تجديد للإيمان ، اذا جرئت على القول ... يجب الاعتراف باني لا املك هذا الميل . وهذا مؤسف . والا لكتت أصبحت واعظاً مدهشاً . لقد كان ميلني ان اكتب «المبولة» .

- لو تعلم يا عزيزي المسكين كم اشفق عليك ! ..

- عندك دائمًا ما يسميه ابي «قلباً من ذهب» ... وانا لا اريد استغلاله طويلاً .

وأخذ قبعته . وكان قد اوشك على الذهاب حين التفت فجأة :

- لم تسألني عن اخبار ساره .

- لأنك لن تخبرني بشيء لم اعرفه قبلًا من برنار .

- هل قال لك انه ترك البنسيون؟

- قال لي ان اختك راشيل دعته للرحيل .

كانت يد ارمان على مقبض الباب ، والاخرى على عصاها .
ابقى الباب مرفوعاً ؛ ودخلت العصا في ثقب في الباب
فوسعته . وقال وقد اخذ وجهه تعبيراً رزيناً :

- فسر هذا كما تستطيع . اعتقاد ان راشيل هي وحدها التي
احبها وأحترمها في هذا العالم . احترمها لأنها فاضلة ، واتصرف
دائماً بطريقة تهين فضيلتها . اما في ما يتعلق ببرنار وساره فهي لم
تكن ترتيب بشيء . وانا الذي حكم لها كل شيء ... ان
طبيب العيون الذي اوصاها بعدم البكاء كان هازلاً .

- هل يجب ان اعتبرك صادقاً الآن ؟

- نعم ، اعتقاد ان هذا اصدق شيء عندي : التفور ،
بغض كل ما يسمى فضيلة . لا تحاول ان تفهم . لا تعرف ما
يمكن ان تفعله بنا التربية الاولى المتزمتة . انها تركت في قلبك
حقداً لا يمكن ابداً ان يشفى ... اذا قست ذلك على نفسي . -
وأكمل وهو يضحك . - بالمناسبة عليك ان تقول لي ماذا اصابني
هنا .

ووضع قبعته واقترب من النافذة .

- انظر . على حافة الشفة ، في الداخل .
وانحنى على اوليفيه رفع شفته باصبعه .
- لا ارى شيئاً .

- ولكن بلى ، هنا ؛ في الزاوية .

ورأى اوليفيه بجانب الموصل (موقع يصل بين بعض اجزاء الجسد commissure) بقعة بيضاء . فشعر بشيء من القلق .

- انها قلاع . *Aphte*

قال ذلك ليطمئن ارمان . اما هذا فهو كتفيه .

- لا تقل حماقات . انت رجل جد . اولاً القلاع مذكر .

ثم ان القلاع رخو ويزول . اما هذا فهو قاس ، ويكبر من أسبوع الى آخر . ويجعلني اشعر بطعم كريه في الفم .

- هل معك هذا منذ زمن طويل ؟

- لاحظته منذ اكثر من شهر . ولكن كما يقال في

«التحف» الادبية : ان الملي يأتي من البعيد بعيد ..

- اذاً يا صديقي ، اذا كنت قلقاً فعليك باستشارة طبيب .

- وهل تظن اني انتظر نصيحتك ؟

- وماذا قال الطبيب ؟

- لم انتظر نصيحتك لأقول لنفسي ان علي ان استشير الطبيب ، كذلك فاني لم استشر الطبيب لانه اذا كانت هذه الاصابة كما اظن فمن الافضل الا اعرف .

- هذه بلاهة .

- اليك كذلك ؟ ولكنه تصرف بشري ايضاً ، يا عزيزي ،

... بشرى

- عدم الاعتناء بنفسك بلاهة .
- وكذلك استطاعتي القول لنفسي «فات الوقت» حين ابدأ
الاعتناء ببني myself . وهذا ما اوضحه كوب - لافلور في قصيدة
ستقرأها :

يحب التسليم بالبداهة :
لان الرقص في هذا العالم غالباً ما يسبق الاغنية .
- يمكن عمل ادب من اي شيء .
- قلتتها : من اي شيء . ولكن يا عزيزي ، هذا ليس
بالامر السهل .. هيا ، وداعاً ... آه ! كنت اريد ان اقول لك
ايضاً : تلقيت اخباراً من الكسندر ... ولكن نعم ، انت تعلم
جيداً ! .. اخي الاكبر الذي هرب الى افريقيا حيث بدأ يقوم
باعمال سيئة وأكل كل المال الذي ارسلته راشيل اليه . استقر
الآن على شواطئ الكازامانس . كتب الي ان تجارتة تزدهر وانه
سيسدد كل الديون .
- تجارة بمذا ؟

- وهل هناك من يعرف ؟ .. مطاط ، عاج ، وربما
زنوج ... يعمل في بعض حرف ويطلب مني اللحاق به .

- وهل ستذهب ؟
- ومنذ الغد ، لو لم تكون عندي وظيفتي . الكسندر ابله من

نوعي . واظن اني اتفاهم جيداً معه . . . اتريد رؤيتها رسالته
معي .

وأخرج من جيئه غلافاً ومن الغلاف بعض اوراق ، واختار
واحدة منها وناولها لأوليفيه .

- لا ضرورة لقراءتها كلها . ابتدئ هنا .
وقرأ اوليفيه :

«اعيش منذ خمسة أشهر برفقة شخص عجيب استقبلته في
بيتي . ضربته شمس هذه البلاد على ججمته . لقد حسبت أولاً
جنونه هذياناً . هذا الغلام العجيب في الثلاثين من عمره
تقريباً ، كبير ، قوي ، وجميل ومن «عائلة طيبة» كما يقال ،
اذا حكمنا عليه من خلال تصرفاته . لغته ويداه ناعمة جداً ما
يدل على انه لم يقم باعمال ضخمة - وهو يعتقد ان به مسأً من
الشيطان او بالأحرى يعتقد انه هو الشيطان نفسه ، اذا كنت
قد فهمت جيداً ما قاله . ربما قام بـمغامرة لانه حين يسقط في
الغالب في حالة حلم او نوم نصفي (عندئذ يحدث نفسه كأنني
غير موجود) يتكلم دون انقطاع عن ايد مقطوعة . ويعا انه
يتململ كثيراً عند ذاك ويدير عينين مخيفتين ، فاني احتاط بأن
ابعد عنه كل سلاح . اما عدا ذلك من الوقت فهو غلام
طيب ، ذو عشرة لطيفة - وهذا ما أستحسن بعد شهور من

العزلة - انه يحل محل في العناية بتجاري . لا يتحدث ابداً عن حياته الماضية ، لذلك لم اتوصل بعد الى اكتشاف من يكون . هو يهتم على الخصوص بالحشرات والنبات ، وبعض احاديثه يجعلني استشف انه متعلم جيداً . ويبدو انه راض معي ولا يتحدث عن الرحيل ! عزمت على ابقاءه هنا ما شاء ان يبقى . من المؤكد اني كنت اتمنى مساعدأً فجاء في وقته .

« وهناك زنجي شنبع كان يرافقه . وقد صعد الكازامانس معه ، واستطاعت ان تحدث قليلاً مع هذا الزنجي ، فتكلم عن امرأة كانت ترافقه وغرقت في النهر ذات يوم بعد انقلاب مركبهم . لن ادهش اذا كان رفيقي قد عمل على تسبب الغرق . ففي هذه البلاد اذا ارادوا التخلص من شخص » فهناك وسائل كثيرة يختارونها ، وما من احد يهتم به . اذا توصلت ذات يوم الى معرفة المزيد فساكتب اليك . - او اقوله لك حين تأتي الى عندي . نعم ، انك اعلم ... مسألة وظيفتك ... لا يهم ! ... سأنتظر . اقنع نفسك بأنك اذا اردت رؤيتي فما عليك الا ان تصمم على المجيء . اماانا فان رغبتي في العودة تقل شيئاً فشيئاً . اني أحيا هنا حياة تعجبني وتلاميحي كبدلة على قياسي تماماً . تجاري تزدهر . وطرق المدنية الزائف يبدو لي كغل لا استطيع احتماله ابداً .

« طيه حواله جديدة ، تتصرف بها كما يحلو لك . اما الحواله السابقة فكانت لراشيل . احتفظ بهذه لنفسك ... »

وقال أرمان :

- الباقى ليس شأننا .

واعاد اوليفيه الرسالة دون ان يقول شيئاً . لم يخطر بباله ان القاتل الذي تحدثت عنه الرسالة هو اخوه . فقد انقطعت اخبار فنسان منذ وقت طويل ، واهله يعتقدون انه في اميركا . وحقيقة القول ان اوليفيه لم يكن كثير الاهتمام به .

لم يعلم بوريس بهوت برونجا إلا إثر زيارة قامت بها مدام سوفرونيسكا للبنسيون بعد شهر . لقد ظل بوريس دون أخبار منذ رسالة صديقته المحزنة .رأى مدام سوفرونيسكا تدخل إلى صالون مدام فيدال حيث كان من عادته أن يمكث في فترة الراحة ولما كانت في ملابس الحداد فقد ادرك كل شيء حتى قبل أن تكلمه . كانا وحيدين في العرقفة . احذت سوفرونيسكا بوريس بين ذراعيها ، وامزجت دموعهما . لم تستطع إلا ان تردد : « ما صغيري المسكين ... يا صغيري المسكين ... » كان بوريس بحاجة للشمعة ، وكأنها سبت حزنها كأم أمام الحزن العظيم لهذا الولد

ووصلت مدام فيدال التي أبئث بالرباره . وابتعد بوريس وهو لا يزال يهتز من النحيب لينرك السيدتين شحديان . كان يربد إلا تحدثنا عن برونجا . فمدام فيدال لا نعرفها وكانت تتحدث عنها كأنها تحدث عن ولد عادي . والأسئلة نفسها التي وجهها بدت لبوريس عر لطفه في تفاصيلها . كان يربد إلا تحجب سوفرونيسكا على ذلك . وتألم لأنه رأها تنشر حزنها . أما

هو فقد طوى حزنه وخباء ككتز .

ما من شك في ان برونجا كانت تفكير فيه حين سالت قبل موتها :

- ماما ، اريد ان اعرف الكثير قولي ، ماذا يقصدون بالحب ؟ .

هذه الكلمات التي ثقبت الفلب ، كان بوريس يريد ان يكون الوحيد الذى يعرفها .

قدمت مدام فيدال الشاي . وكان هناك فنجان لبوريس شربه بسرعة بينما كانت فترة الراحة قد انتهت ؛ ثم استأنذن من مدام سوفرونوسكا التي عادت في صباح الغد الى بولونيا حيث تدعوها بعض الاعمال .

بدت له الدنيا كلها مقفرة . كانت امه بعيدة جداً عنه ، غائبة تماماً ؛ وجده شيخ عجوز ؛ حتى برناجر لم يكن هناك حيث كان يشعر بالاطمئنان الى جانبه ... ان نفساً رقيقة كنفسه تحتاج الى واحد يحمل اليه نبله وطهراته كتفدمة . لم يكن كثير الكباراء ليعجب بنفسه . وقد أحب برونجا كثيراً ولم يعد يستطيع الامل في إيجاد سبب الحب الذي فقده معها . والملائكة الذين تمنى رؤيتهم كيف يؤمن بهم من الآن فصاعداً بدونها ؟ ان سوءه قد فرغت الان .

دخل بوريس الى الدرس كمن يغطس في الجحيم . كان في

وسعه ان يجعل من غونتران دو باسافان صديقاً ؛ ان هذا غلام طيب والاثنان في سن واحدة ، ولكن ليس هناك شيء يلهي غونتران عن عمله . وفيليب أدامنتي ليس خبيثاً ولا يطلب شيئاً أفضل من الارتباط ببوريس ؛ ولكنه ترك زمامه في يد جيريدانيزول الى درجة انه لا يحقر على الشعور بأية عاطفة شخصية واحدة ؛ انه يقرب الخطى بينما جيريدانيزول يسارع ؛ وجيريدانيزول لا يستطيع ان يتحمل بوريس . فصوته الموسيقي « وكياسته ، وهيئته التي تشبه هيئة الفتاة » وكل ما فيه ، يثير ، ويغضب ؛ حتى ليقال انه يشعر عند رؤيته بالكراهية الغريزية التي تحمل الأقواء على الانقضاض على الضعفاء في القطيع . قد يكون سمع تعاليم ابن عمه ، ولعل بغضه نظري الى حد ما لانه يتخذ في عينيه مظهر التفور الشديد . انه يجد أسباباً لتهنئة نفسه على البغض . وقد ادرك جيداً مقدار احساس بوريس بهذا الاحتقار الذي يوجهه اليه . كان يتلهى به ويتظاهر بالتآمر مع جورج وفيقي لسبب وحيد هو ان يرى نظرات بوريس مشحونة بنوع من الاستفهام القلق . وقال جورج :

- اوه ! كم هو غريب . ايمجب ان تقول له ؟ ..

- لا لزوم لذلك ، فلن يفهم شيئاً .

« لن يفهم شيئاً ». « لن يحقر ». « لن يعلم » كانت هذه الصيغ تختلف في وجهه دون انقطاع وكان يتأنم كثيراً لكونه مبعداً عنهم . وبالفعل لم يفهم جيداً تلك الكنية المتينة التي

الصقوها به «ليس عنده شيء» أو يشمئز اذا فهمها . ما الذي يمكن ان يعطيه ليثبت انه ليس بالأحق الذي يظنونه ! ..

قال جيريدانيزول لستروفيلو :

— لا استطيع احتمال بوريس . لماذا طلبت مني ان اتركه وشأنه ؟ انه لا بطلب اكثـر من ذلك ، ان اتركه وشأنه . انه دائمـاً يتطلع الى ناحيتي ... وقد اضحكـنا ذلك النـهار لأنـه كان يعتقد ان «امرأـة على الـوبر» تعـني «امرأـة مـلتـجـحة» . وفـد غـضـب جـورـجـ منه . وـحينـ ادرـكـ بـورـيسـ انهـ أـخـطـأـ ظـلتـتـ انهـ سـيـكـيـ .

وـالـخفـ جـيرـيدـانـيزـولـ عـلـىـ اـنـ عـمـهـ بـالـأسـلـةـ ؛ـ وـانـهـىـ هـذـاـ بـأنـ اـعـطاـهـ «ـتـيمـةـ»ـ بـورـيسـ وـعـلـمـهـ طـرـيقـةـ اـسـتـخـداـمـهــ .

بعد أيام قليلـةـ وـجـدـ بـورـيسـ عـلـىـ طـبـقـتـهـ عـنـدـمـاـ دـخـلـ الـدـرـسـ تـلـكـ الـوـرـقـةـ الـيـ لاـ يـكـادـ يـذـكـرـهـ .ـ كـانـ قـدـ أـبـعـدـهـ عـنـ ذـاكـرـتـهـ مـعـ كـلـ مـاـ يـنـتـجـ عـنـ هـذـاـ «ـالـسـحـرـ»ـ فـيـ طـفـولـتـهـ الـأـوـلـىـ ،ـ اوـ الـتـيـ يـخـجلـ الـيـوـمـ مـنـهـ .ـ لـمـ يـعـرـفـهـ فـيـ بـادـيـهـ الـأـمـرـ لـأـنـ جـيرـيدـانـيزـولـ اـعـتـنـىـ بـوـضـعـ صـيـغـةـ الرـفـيـةـ فـيـ اـطـارـ :

«ـغـازـ...ـ تـلـفـونـ...ـ مـةـ أـلـفـ روـبـلـ ...ـ»

ضمـنـ حـاشـيـةـ حـرـاءـ وـسـوـدـاءـ مـزـينـةـ بـصـورـ فـاحـشـةـ لـتـسـبـاطـينـ صـغـيرـةـ ،ـ وـلـعـمـريـ إـنـهـ رـسـمـتـ بـشـيءـ مـنـ الـاتـقـانـ .ـ وـكـلـ هـذـاـ اـعـطـيـ الـوـرـقـةـ مـطـهـراـ غـرـبيـاـ «ـجـهـنـمـيـاـ»ـ كـمـاـ كـانـ يـفـكـرـ جـيرـيدـانـيزـولـ ،ـ مـظـهـراـ يـظـنـ أـنـ قـادـرـ عـلـىـ التـأـثـيرـ فـيـ بـورـيسـ .ـ

قد لا تكون كل القصة اكثـر من لعـبة . ولـكن اللـعبة
 نـجـحت اكـثر مـا كان يـؤـمل . واحـدر وجـه بـوريـس كـثيرـاً وـلم يـقل
 شيئاً . تـطلع يـمـياً وـسـمـالـاً فـلم يـر جـيرـيدـانـيزـول الـذـي كان مـخـبـئـاً
 وـراء الـباب يـراـقبـه . لم يـسـتـطـع بـوريـس الـارتـيـاب بـه وـلـا ان يـفـهم
 كـيف وـجـدت التـميـمة هـنـا ؟ لـقد بـدا اـنـها وـقـعت مـن السـماء ، او
 بـالـاحـرى ، اـنـبـثـقـت مـن الجـحـيم . ما مـن شـكـ في ان بـوريـس كان
 في سـن تـجـعلـه يـهـزـ كـفـيه اـمام هـذـه الشـيـطـنـات الطـالـبـية » وـلـكـنـها
 حـرـكـت مـاضـياً مـضـطـرـياً . اـخـذ بـوريـس النـعـيمـة وـوـضـعـها في
 درـاعـته . وـلـازـمـته ذـكـرـى مـارـسـات السـحـر طـول النـهـار . كـافـحـ
 حتى السـماء ضـد هـذـا التـحـريـض الغـامـض . وـلـا مـيـكـن هـنـاكـ ما
 يـجـعـلـه يـسـتـمـرـ في كـفـاحـه فـيـا ان دـحـلـ غـرـفـه حتى تـلاـشـى .

خيـلـ اليـه انه هـلـكـ انه هـبـطـ من السـماء البعـيدة ؟ وـلـكـنه
 شـعـرـ بالـسـرـورـ فيـ الـمـلـاـكـ ، وـجـعـلـ من هـذـا الـمـلـاـكـ لـذـته

وـمع ذـلـكـ اـحـتـفـطـ فيـ اـعـماـقـ اـسـسـلـامـه ، رـغـمـ تـقـائـه ،
 بـمـذـخـراتـ منـ الـخـنوـ، وـالـأـلـمـ العـنـيفـ لـلـاستـخـفـافـ الـذـي تـظـاهـرـ به
 رـفـاقـهـ حـيـالـه . انه يـخـاطـرـ بـأـيـ شـيـءـ خـطـرـ وـمـسـنـحـيلـ ليـحـصـلـ عـلـى
 قـلـيلـ مـنـ الـاعـتـبارـ .

وـسـنـحـتـ الفـرـصـةـ بـعـدـ قـلـيلـ .

بعد ما اـضـطـرـ حـيرـيدـانـيزـولـ وجـورـجـ وـفـيـفيـ الىـ الـاقـلاـعـ عنـ
 تـجـارـةـ الـعـملـ الزـائـفـهـ لمـ يـظـلـوا طـويـلاً عـاطـلـيـنـ عـنـ الـعـملـ .

والألعاب القليلة المضحكة التي انصرفوا بها في الأيام الأولى لم تكن سوى تمهيداً ولم تثبت مخبأة جيريدانيزول أن جهزتهم بشيء أكثر قيمة.

ان «اخوية الرجال الأقوباء» لم يكن لوجودها من سبب في البداية سوى لذلة عدم قبول بورييس فيها. ولكن ظهر جيريدانيزول في ما بعد أن قبوله فيها سيكون الذ، لأنه سيكون أكثر ملعنة. إنها ستكون الوسيلة لتجعله يقوم بتعهدات يمكن بواسطتها جره إلى أي عمل شيطاني. واستولت عليه هذه الفكرة منذ ذلك الوقت. وكما يحصل غالباً في كل مشروع فإن جيريدانيزول كان يفكر في المشروع نفسه أقل من تفكيره في الوسائل اللازمة لإنجاجه. وهذا يبدو تافهاً ولكنه يستطيع أن يوضح الكثير من الجرائم. ومع هذا فإن جيريدانيزول كان ضارياً، ولكنه يشعر بالحاجة لاخفاء هذه الضراوة، عن عيني فيفي على الأقل. وفيفي لم يكن شريراً فقد ظل مقتنعاً حتى اللحظة الأخيرة أن الأمر لا يتعدى اللعب.

كل اخوية يجب أن يكون لها شعار، وقد اقترح جيريدانيزول، الذي كان له مأرب من ذلك، عبارة «الرجل القوي لا يتعلق بالحياة»؛ وقد اختير هذا الشعار ونسب إلى شيشرون. وكعلامة مميزة، اقترح جورج وشياً في الدراع اليمني؛ ولكن فيفي الذي يخشى الألم أكد أن أفضل صانعي الوشم هم أولئك الموجودون في المراقف. واعتراض جيريدانيزول بأن الوشم يترك أثراً لا يمحى، ويمكن أن يضايقهم. وبعد،

فإن العالمة الميزة ليست ضروريه . واقتصر المشتركون في الجمعية أن يلفظوا تعهدًا إحتفالياً .

عندما كان الأمر يتعلق بتجارة العملة الزائفة كان هناك مسألة رهن ، فأبرز جورج رسائل والده . لكنهم انقطعوا عن التفكير في هذه الرسائل . ومن حسن الحظ أن هؤلاء الأولاد لا يثبتون كثيراً على أمر . والخلاصة ، لم يبيتوا شيئاً في موضوع «شروط القبول» ولا «الصفات المطلوبة» . وما الفائدة من ذلك ما دام الثلاثة يعرفون أنهم ، هم ، مقبولون وان بوريس هو الغريب . ومقابل ذلك قرروا ان «من يتراجع يعتبر خائناً ويطرد من الأخوية إلى الأبد» . وجيريدانيزول الذي صمم على ادخال بوريس فيها ألم كثيراً على هذه النقطة .

ويجب الاعتراف بأن اللعبة دون بوريس تظل بلا لون . ولخداع الولد كان جورج موهوباً أكثر من جيريدانيزول ؛ فقد كان هذا يخوّن ابنته حذره ؛ أما فيفي فلم يكن كثيـر المـكر وآثر ألا يخاطر يشرفه .

وهنا ، في هذه الحكاية الفظيعة ، فإن ما بدا لي أكثر شناعة هي مهزلة الصدقة التي رضي جورج بنمثيلها فقد تصع الكلف ببوريس وابدى محنة فجائية كأنه لم ينظر اليه قبل الآن . وبلغ بي الأمر حد الطن انه ربما تكون هو نفسه قد أخذ تمثيله . وان العواطف التي تظاهر بها قريبة من ان تكون

صادقة ، حتى اذا لم تكون صادقة من اللحظة التي استجاب لها بوريس . لقد انحني عليه بظاهر الحنو ؛ وحدثه بما علمه اياه جيريدانيزول ... ومنذ الكلمات الأولى ، فإن بوريس الذي كان يلهث وراء شيء من الاعتبار والمحبة ، وفع في الفخ .

عندئذ اعد جيريدانيزول خطته التي كشفها لفيفي وجورج . كان الأمر يتعلق باختلاف «برهان» يخضع له من تقع عليه القرعة من افراد الجمعية . وقد افهموا فيفي ليعشوه على الامتنان ، ان الأمور ستربت بنوع ان القرعة لن تقع إلا على بوريس «والهدف من «الدهان» هو ان يتتأكدوا من شجاعته . أما ما هو المدف فإن جيريدانيزول لم يظهر . كان يتخفف من ان يبدي فيفي بعض المقاومة .

بالفعل صرخ عندما بدأ جيريدانيزول في ما بعد يشير الى ان مسدس الأب لا يبروز يمكن استعماله هنا :

- لا لا لا أوفق !

وأجاب جورج الذي كان قد وافق :

- كم انت احق ! ما دامت القضية لعباً .

وأضاف جيري :

- ثم ، انت تعلم ، اذا كان ما يسليك ان تكون أبله فما عليك إلا ان تقول . ولستنا بحاجة اليك .
كان جيريدانيزول يعرف ان حجة بهذه تؤثر دائمًا على

فيفي ، وبما انه كان قد اعد ورقة التعهد الذي على كل فرد من افراد الأخوية ان يكتب اسمه عليها :
- فقط . يجب ان تقولوا حالاً . لأنكم بعد ان توقعوا يكون الوقت قد فات .

وقال فيفي :

- هيا ، لا تزعل . اعطي الورقة .
ووتعها .

وقال جورج وهو يضع ذراعيه بحشو حول عنق بوريس :
- انا ، يا صغيري ، لا أمانع . ولكن جيريدانيزول لا يريدك .

- لماذا ؟

- لأنه لا يثق بك . ويقول انك ستهرب .

- ماذا يعرف عن ذلك ؟

- يعرف انك ستهرب منذ الاختبار الأول .
- سترى .

- اصحیح انك تحرّق على سحب القرعة ؟
- بالتأكيد .

- ولكن اتعرف بماذا يُلزمك هذا ؟

بوريس لم يكن يعرف ، ولكنه يريد ان يعرف . عندئذ اوضح له الآخر . «الرجل القوي لا يتعلّق بالحياة» . المهم

أثبات ذلك .

شعر بوريس بانقلاب كبير في رأسه ، لكنه تصلب وانخفى
اضطرابه .

- خذ . انظير .

وناوله جورج الورقة التي قرأ عليها بوريس الأسماء الثلاثة .
وقال بخوف :
- هل

- هل ماذا ؟

قاطعة جورج بعنف حتى ان بوريس لم يستطع ان يستمر .
ان ما أراد ان يسأل عنه ، يفهمه جورج جيداً : كان يريد ان
يسأل اذا كان الآخرون قد تعهدوا أيضاً ، واذا كان يستطيع ان
يشق بأنهم لن يهربوا . وقال :

- كلا ، لا شيء .

ولكن منذ هذه اللحظة بدأ يرتاب بالآخرين . بدأ يرتاب
اذا كان الآخرون يتحفظون ولا يلعبون لعباً صادقاً . وفكرا على
الأثر : لا يهم . وماذا يهم اذا هربوا ؟ سأريحهم اني اثبت جناناً
منهم . ثم تطلع رأساً في عيني جورج :
- قل بجيри ان من الممكن الاعتماد على .

- أوه ! هذا لم يكن ضرورياً : يكفيهم كلامه . وقال
بساطة :
- إذا شئت .

وفوق تواقيع «الرجال الاقوياء» الثلاثة ، وعلى الورقة الملعونة ، كتب اسمه بحروف كبيرة دقيقة اوجورج ، وقد انتصر ، حمل الورقة الى الاثنين الآخرين . واتفقوا على ان بوريis تصرف بجسارة . وتشاور الثلاثة . - طبعاً لن تخشو المسدس . وبالنتيجة لن يكون فيه رصاص .

الخوف الذي احتفظ به فيفي ناتج عن سماعه ان التأثير الشديد يكفي أحياناً لإحداث الموت . وأكد ان والده روى حالة تمثيل جريمة

ولكن جورج آخرسه قائلاً :
- والدك من الجنوب .

كلا » جيريدانيزول لن يخشوا المسدس ، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك . فالرصاص الذي وضعه لا بيروز فيه ذات يوم ، لم ينزعه لا بيروز منه . هذا ما تأكد منه جيريدانيزول ، ولكنه احترس من قوله للآخرين .

وضعت الأسماء في قبعة ، أربع ورقات صغيرة متشابهة ومطوية بشكل واحد . أما جيريدانيزول الذي كان عليه أن «يسحب» فقد كتب اسم بوريis مرتين ، على ورقة خامسة احتفظ بها في يده ؛ وقد خرج اسم بوريis كان ذلك حدث صدفة . وشعر بوريis بالشك في الغش ؛ ولكنه صمت . وما فائدة الاعتراض ؟

علم انه هالك » ولم يقم بأية حركة للدفاع عن نفسه .

وحتى لو وقعت القرعة على واحد من الآخرين لقدم نفسه بدلاً عنه . كان يأسه بالغاً .

- يا صديقي المسكين ، حظك عاطل .

ظن جورج ان من واجبه ان يقول ذلك . ورنت نبرة صوته بشكل زائف حتى ان بوريس نظر اليه بحزن . وقال :
- وقع المقدر .

وبعد ذلك عزموا على اعادة العملية . ولكن بما التهم يتعرضون للخطر اذا فوجئوا فقد اتفقوا على عدم استعمال المسدس فوراً ولن يخرجوه من علبة الا في اللحظة الأخيرة ، وحين يلعبون « عن جد » . يجب الا يوقظ الانتباه شيء .

اذا اكتفوا هذا النهار بالاتفاق على الساعية والمكان الذي عينوه برسم دائرة بالطبيشورة على ارض الغرفة . كان ذلك في غرفة الدرس ، في تلك الزاوية الى يمين المنبر ، عند باب مغلق كان يفتح في الماضي تحت قبة المدخل . اما الساعة فستكون ساعة الدرس . يجب ان يجري ذلك تحت اعين جميع التلامذة .

وراجع الثلاثة ما عليهم ان يفعلوه ، وذلك في الغرفة المارغة ولكن ليس لهذه المراجعة اهمية . يمكن التأكد ببساطة من ان هناك اثنى عشر خطوة من المكان الذي شعله بوريس الى المكان المعين بالطبيشورة .

وقال جورج :

- اذا لم تكن خائفاً فلن تزيد اية خطوة .

- لن اشعر بالخوف .

هكذا قال بوريس الذي اهانه هذا الشك المستمر . ان صلابة هذا الصغير بدأت تؤثر على الثلاثة الآخرين . وقد اعتبر فيفي ان من اللازم التوقف هنا ، ولكن جيريدانيزول بدا انه مصمم على السير بالمرحلة الى النهاية . وقال بابتسامة غريبة من زاوية شفته فقط :

- حسناً ! ... الى الغد .

- لو عانقناه ! ..

صرخ فيفي في ذروة حاسته . كان يفكر في عناق الفرسان الشجاعان . وفجأة ضم بوريس بين ذراعيه . وبذل بوريس جهداً لامساك دموعه بينما قبله فيفي على خديه قبلة ولد . اما جورج وجيري فلم يفعلَا كفيفي . ان موقف الاخير لم يهد بجورج كثير اللياقة اما جيري فلم يكن يعبأ باي شيء من هذا ! ..

١٨

مساء اليوم التالي جمع الجرس تلامذة البنسيون .

وعلى مقعد واحد جلس بوريس ، وجيريدانيزول ،
وجورج ، وفيليب .

سحب جيريدانيزول ساعته ووضعها بينه وبين بوريس .
الساعة تشير الى الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين . الدرس
يبدأ في الخامسة ويستمر حتى السادسة . وقد جرى الاتفاق ان
يتنهى بوريس في السادسة الا خمس دقائق » قبل تفرق
التلامذة . وهذا افضل ؛ لأن من الممكن الهرب بسرعة على
الاثر . وقال جيريدانيزول لبوريس بصوت مرتفع » ودون ان
ينظر اليه ، معتبراً ان ذلك يكسب اقواله صفة اكثـر شؤماً :

- يا عزيزي ، لم يبق لك الا ربع ساعة .

تذكر بوريس رواية كان قد قرأها في السابق ، حيث
اللصوص على اهبة قتل امرأة ، وقد طلبوا منها ان تصلي
ليقنعواها بأنها تستعد للموت . وكغريب على حدود بلاد سيخرج

منها ، أعد بوريس اوراچه » ويبحث عن صلوات في قلبه ورأسه فلم يجد شيئاً . لكنه متعب ، مكبد الذهن ، فلم يتم كثيراً . بذل جهده ليفكر فلم يستطع التفكير في شيء . كان المسدس ثقيلاً في جيئه ، ولم يكن في حاجة الى مد يده ليشعر به .

- لم يبق أكثر من عشر دقائق .

كان جورج الى يسار جيريدانيزول يتبع المشهد بطرف عينه ، لكنه تظاهر بعدم النظر . كان يشتعل بحمى . ما من مرة كاندرس هادئاً مثله هذه المرة . ومع هذا فإن فيفي لم يكن مطمئناً ؛ كان جيريدانيزول يخيفه ؛ لم يكن واثقاً تماماً من أن هذه اللعبة لن تنتهي نهاية سيئة ؛ وقلبه المتflex كان يؤلمه ، وكان يصدر آهة ضخمة بين لحظة و أخرى . وفي النهاية لم يعد يستطيع المقاومة . مرق نصف ورقة من دفتر التاريخ الموجود أمامه لأنه كان يبيء امتحاناً ولكن السطور تشوشت امام عينيه ، كذلك الحوادث والتاريخ في رأسه . فكتب في اسفل الورقة ، وبسرعة : «أنت واثق عمل الأقل من ان المسدس غير محسوس؟» ، ثم اعطى الورقة لجورج الذي اوصلها الى جيري . ولكن هذا ، بعدما قرأها ، هز كتفيه دون ان ينظر الى فيفي ، ثم صنع من الورقة كرة صغيرة ، وبضربة من طرف سبابته ارسلها تتدحرج في المكان المعين بالطبيورة . وبعد هذا ابتسם ، مسروراً من اجادته التصويب . وهذه الابتسامة التي كانت في باديء الامر تلقائية ، استمرت حتى نهاية المشهد ، حتى ليقال انها طبعت على قسماته .

- خمس دقائق أيضاً.

قيل هذا بصوت شبه مرتفع ، حتى سمعه فيليب نفسه . وقد استولى عليه قلق لا يحتمل . ومع ان الدرس كان على وشك الانتهاء فقد تظاهر بحاجة ماسة للخروج ، او لعله اصيب بغضن فرط يده ، وفرغ باصبعه كما هي عادة التلامذة عندما يطلبون اذنا من المعلم . ثم ، دون ان يتطرق جواب لابيروز ، اندفع خارج المهد . ولكي يصل الى الباب كان عليه ان يمر امام منبر المعلم . كان كأنه يركض ولكنه كان يترنح .

وقف بوريس بدورة بعدم خرج فيليب . ورفع باسافان الصغير عينيه وكان يستغل مثابراً وراءه . وقد قص في ما بعد على سيرافين ان بوريس « كان شاحباً بشكل مخيف » ولكن هذا ما يقال دائياً في حالات كهذه . وبالنتيجة كف عن التطلع ، واستغرق في عمله . وقد لام نفسه كثيراً بعد ذلك . لو استطاع ان يفهم ما جرى لنفعه بالتأكيد . هكذا قال في ما بعد وهو يبكي . ولكنه لم يكن يرتاب في شيء .

إذاً ، تقدم بوريس حتى المكان المعين . سار بخطى متهملة كأنه مسير بالآلة ، ونظره مستقر ، كمن يسير في نومه . كانت يده اليمنى قد امسكت المسدس ولكنه ابقاء غبى في جيب دراعته ولم يخرجها الا في اللحظة الأخيرة .

كان المكان المشؤوم ، كما قلت ، امام الباب المغلق الواقع

الى مين المبر ، كأنه ملحاً ، بحيث ان المعلم لا يستطيع رؤيته من على مثبره الا اذا انحني .

وانحنى لايروز ، وفي بادئ الأمر لم يدرك ما فعله حفيده ، مع ان الاحتفالية الغريبة لحركاته كان من المفترض ان تقلقه . وبصوته الاكثر قوة ، والذي حاول ان يجعله ذا سلطة ، قال .

ـ يا سيد بوريس ، ارجوك ان تعود حالاً الى ...

ولكنه تعرف فجأة الى المسدس ؛ كان بوريس قد رفعه الى صدغه . وفهم لايروز ، وشعر حالاً بالصقيق كأن الدم تجمد في عروقه . اراد ان ينهض ويركض الى بوريس ، ويمسكه ، ويصرخ ... خرج من شفتيه نوغ من الحشرجة البهاء ، فظل جاماً ، مسلولاً ، يهتز باضطراب عظيم .

وانطلقت الرصاصات . لم يسقط بوريس حالاً . فقد تماسك الجسد لحظة كأنه معلق في الزاوية . ثم سقط الرأس على الكتف ، وجره معه ، وانهار كله .

اثناء التحقيق الذي قام به البوليس في وقت لاحق ، دهش الجميع من عدم وجود المسدس بجانب بوريس ، اريد ان اقول قرب المكان الذي سقط فيه ، لأن الجهة الصغيرة نقلت على الاثر الى سرير . واثناء المراجعة التي تلا الحادث ، وبينما ظل جيريدانيروف في مكانه ، قفز جورج عن مقعده ، ونجح

باختطاف المسدس دون ان يلاحظه احد ؛ أبعده اولاً الى الوراء بضربة من رجله بينما كان الآخرون منحني على بورييس ، ثم استولى عليه وأخفاه تحت سترته ، ثم اوصله خفية الى جيريدانيزول . كان انتباه الجميع منصرفاً الى نقطة ، وما من احد لاحظ جيريدانيزول الذي اسرع دون ان يراه احد الى غرفة لا بيروز ووضع المسدس في المكان الذي أخذه منه . وفي ما بعد ، وعلى اثر التفتيش ، حينما وجد البوليس المسدس في علبه ، كان يمكنه ان يشك في ان احداً قد اخرج المسدس من علبه ، وان بورييس استعمله ، لو ان جيريدانيزول فكر في انتزاع الخرطوشة الفارغة . ما من شك في انه أصياع صوابه قليلاً . انه ضعف عابر لام نفسه عليه ، مع انه ، ويا للأسف ! لم يندم على جريمه . ومع ذلك فان هذا الضعف هو الذي أنقذه لأنه حين عاد واحتلّت بالآخرين ، وعند روشه جثة بورييس التي نقلت ، أصابه ارتعاش ظاهر ، نوع من أزمة عصبية رأت فيها مدام فيدال وراشيل علامات تأثير شديد . يفضل المرء ان يفترض اي شيء كان ما عدا كون شاب خاليًا من الشعور الانساني . وحين احتاج جيريدانيزول لبراءته ، صدقوه . اما ورقة فيفي الصغيرة التي اوصلها جورج اليه ، والتي ارسلها تنزه بطرف سبابته ، فقد وجدت تحت مقعد . هذه الورقة المدعوكه خدمته . طبعاً ما زال مذنباً ، كذلك فيفي وجورج ، لانصرافهم الى لعبة ظالمه؟ ولكنه أكد انه ما كان يمكن ان يقوم

بها لو اعتقد ان المسدس مخشو . اما جورج فهو وحده الذي ظل مقتنعاً بمسؤوليته الكاملة .

جورج لم يكن من الفساد بحيث ان اعجابه بجيري دانيزول يقصد . بل تحول هذا الاعجاب الى رعب . وحين عاد هذا المساء الى اهله ارتقى بين ذراعي والدته ؛ وقد شكرت بولين الله الذي أعاد اليها ولدتها بواسطة هذه المأساة الرهيبة .

يوميات ادوار

« دون ان انوي ايضاح شيء بالضبط ، فاني لا اريد تقديم اي حادث دون تعليل كاف . ولهذا لم انتفع بانتخار بوريس في قضتي « مزييفو النقود » ؛ تذبذبت كثيراً في السابق لأفهمه . اني لا احب « الحوادث المتعددة » لأن فيها شيئاً ما هو حازم ، وثبتت ، وعنيف ، وواقعي بشكل مهين ... اني ارضى بان الواقع يسند تفكيري كبرهان ولكنه لا يسبقه . ويزعجي ان أفاجأاً ... فانتخار بوريس بدا لي كأنه عمل مخالف للأدب لانني لم اكن انتظره منه .

« هناك شيء من الجبن يدخل في كل انتخار ، وذلك بالرغم مما يعتقد لا بروز الذي يعتبر دون شك ان حفيده كان اشجع منه . لو استطاع هذا الولد ان يستشف البلية العظيمة التي سببها حركته الفظيعة لعائلة فيدال لما كان له عذر . فقد

اضطر أزييس الى اقفال البنسيون - موقتاً كما قال . ولكن راشيل تخاف الخراب . وهناك اربع عائلات سحببت اولادها . اما بولين فلم استطع ان اصرفها عن اعادة جورج الى حانبها . وهذا الصغير الذي بدا متاثراً جداً لموت رفيقه اظهر انه مصمم على اصلاح نفسه . يا له من تأثير حقيقه هذا الموت ! حتى ان اوليفيه نفسه بدا متاثراً . وأرمان ، القلق رغم هيئته الوجهة ، فقد خشي المزية التي يمكن ان تقضي على اهله ، وتبرع بان ينحصص للبنسيون الوقت الذي يسمع له باسافان به ، لأن لابيروز العجوز اصبح غير صالح لما يطلب منه .

« كنت اخشى رؤيته . وقد استقبلني في غرفته الصغيرة ، في الطبقة الثانية من البنسيون . اخذ بذراعي ، ويهيئه غامضة ، شبه مبسمة ادهشتني كثيراً لاني لم اكن انتظر منه سوى الدموع » قال :

« - الضجة ، كما تعلم ... تلك الضجة التي حدثتك عنها ذلك اليوم .

« - وبعد ؟ ..

« - لقد انقطعت . انتهت . لم اعد اسمعها . وقد انتبهت جيداً .

« وقلت له كمن يستعد للعبه ولد :

« - يبدو لي الان انك تأسف لعدم سمعها .

« - اوه ! لا ، لا ... ان في ذلك راحة ! .. انا بحاجة
مساية للصمت ... أتعرف لماذا فكرت ؟ ... هو انت لا
نستطيع ان نعرف طوال الحياة ما قيمة الصمت . ان دمنا نفسه
يحدث ضجة مستمرة . انت لا تميز هذه الضجة لأننا معهادون
ايها منذ طفولتنا ... ولكنني اعتقد ان هناك اشياء لا نتوصل في
الحياة الى سماعها » تألف انقام ... لأن تلك الضجة تخفيها .
نعم ، اعتقاد انت لن نستطيع سماعها حقيقة الا بعد الموت .

« - قلت لي انت لا تؤمن ...

« - بخلود النفس ؟ .. أقلت هذا ؟ .. نعم ، يجب ان
تكون على حق . ولكنني لا اعتقاد العكس ايضاً . افهمني .

« ولما لم أجرب استمر هازأ رأسه ، وينبرة حكيمه :

« - هل لاحظت ان الله يصمت دائمًا في هذه الدنيا ؟ ..
ليس الا الشيطان يتكلم . او على الاقل ، او على الاقل ...
مهما كان انتباها قويًا فانت لن نتوصل الا الى سماع صوت
الشيطان ... ليس لنا اذن ان نسمع صوت الله . كلام
الله ! .. ألم تسأله احياناً ما يمكن ان يكون هذا ؟ اوه ! لن
احدثك عنها يجري في اللغة البشرية ... اتذكر اول الانجيل :
« في البدء كان الكلمة ؟ ». فكرت غالباً في ان كلام الله هو
الحقيقة بكاملها . ولكن الشيطان استولى عليها . ان جلسته
تغطي صوت الله الان . اوه ! قل لي ، ألا تعتقد ان الكلمة
الاخيرة ستبقى لله ؟ .. و اذا كان الزمان لا وجود له بعد

الموت ، او اذا كنا ندخل حالاً في الأبدية ، أتعتقد اننا سنسمع
صوت الله حينذاك ؟ ..

« بدأ يهزه نوع من الهياج ، كأنه سيسقط من على ،
واستولت عليه فجأة سورة بكاء » وصرخ باضطراب :

« - كلا ! كلا ! ليس الله والشيطان الا واحداً . انها
يتفاهمان . ونحن نحاول جهودنا للاعتقاد ان كل ما هو شر في
الارض مصدره الشيطان ؛ ذلك باتنا ، بغير ذلك ، لن نجد في
أنفسنا القوة لنسامع الله . انه يلهو بنا ، كهرة مع فارة
تعذيبها ... ويطلب منها بعد ذلك ان تعرف بالفضل . نتعرف
بماذا ؟ .. بماذا ؟ ..

« ثم انحني نحوى :

« - أتعرف اقطع شيء عمله ؟ . هو انه ضحى ولده
ليخلصنا . ولده ! ولده ! القسوة ... هذه اولى صفات الله .

« وارتدى على سريره ، ودار الى ناحية الجدار ، وبعد
لحظات هزته ارتعاشات تشنجية ، ثم تركته اذ خيل الي انه
نام

« لم يقل لي كلمة عن بوريس ، ولكنني فكرت انه علي ان
أرى في هذا اليأس الصوفي تعبيراً غير مباشر عن ألمه ، هذا الالم
الغريب الى حد لا يمكن معه ان يتمالء الماء تماماً مباشراً .

« علمت من اوليفيه ان برنار عاد الى والده . الحقيقة ان هذا افضل ما كان يمكن ان يفعله . فحين علم من كالوب الصغير الذي التقاه بطريق الصدفة ان صحة القاضي العجوز سبّة لم يعد يصفي الا لنداء قلبه سانتقي مساء غد لأن بروفيتانديو دعاني لتناول الطعام مع مولينيه ، وبولين ، والولدين . بي فضول كبير للتعرف الى كالوب » .

فهْرِس

٦	القسم الأول - باريس
٢١	القسم الثاني - ساس - فيه
٢٩٧	القسم الثالث - باريس

Gide

Les

faux-monnayeurs

Traduction arabe de : Bahige CHAABAN
Revue par : Henri ZOGHAIB

MARIANNE / QUEIDAT

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

André Gide
Les faux-monnayeurs

Bibliotheca Arabica



0351302

مالیان

رواية الأدب والفنون من نهر إلى نهر